الكتاب: جامع السعادات
المؤلف: محمد مهدي النراقي
الجزء: ٣
الوفاة: ١٢٠٩
المجموعة: من مصادر العقائد عند الشيعة الإمامية
تحقيق: تحقيق وتعليق : السيد محمد كلانتر / تقديم : الشيخ محمد رضا المظفر
الطبعة:
سنة الطبع:
المطبعة: مطبعة النعمان - النجف الأشرف
الناشر: دار النعمان للطباعة والنشر
ردمك:
ملاحظات:

جامع السعادات
للشيخ الجليل أحد أعلام المجتهدين المولى
محمد مهدي النراقي
المتوفى ١٢٠٩ ه
الجزء الثالث
حقفه وعلق عليه
العلامة السيد محمد كلانتر عميد جامعة النجف الدينية
قدم له
الشيخ محمد رضا المظفر عميد كلية الفقه
الطبعة الرابعة

بسم الله الرحمن الرحيم
بقية المقام الرابع
ومنها (١)
الغرور
معنى الغرور - ذمة - طوائف المغرورين من الكفار والعصاة والفساق من المؤمنين - المغترون - أهل العلم وفرقهم - المغترون من الوعاظ كثيرون - المغرورون من أهل العبادة فرق كثيرة - المغترون من المتصوفة أكثر - المغترون من الأغنياء أكثر من سائر الطوائف - ضد الغرور والفطانة والعلم والزهد.
وهو سكون النفس إلى ما يوافق الهوى، ويميل إليه الطبع عن شبهة وخدعة من الشيطان. فمن اعتقد أنه على خير إما في العاجل أو في الآجل عن شبهة فاسدة، فهو مغرور. ولما كان أكثر الناس ظانين بأنفسهم خيرا، ومعتقدين بصحة ما هم عليه من الأعمال والأفعال وخيريته، مع أنهم مخطئون فيه فهم مغرورون، مثلا من يأخذ المال الحرام وينفقها في مصارف الخير، كبناء المساجد والمدارس والقناطر والرباطات وغيرها، يظن أن هذا خير له وسعادة، مع أنه محض الغرور، حيث خدعه الشيطان وأراه ما هو شر له خيرا، وكذا الواعظ الذي غرضه الجاه والقبول من موعظته، يظن أنه في طاعة الله، مع إنه في المعصية بغرور الشيطان وخدعته.
ثم لا ريب في أن سكون النفس إلى ما يوافق الهوى، ويميل الطبع إليه عن شبهة ومخيلة، مركب من أمرين (أحدهما) اعتقاد النفس بأن هذا خير له مع كونه خلاف الواقع، (وثانيهما) حبا وطلبها باطنا لمقتضيات الشهوة أو الغضب. فإن الواعظ إذا قصد بوعظه طلب الجاه والمنزلة معتقدا أنه يجلب به الثواب، تكون له رغبة إلى الجاه واعتقاد بكونه خيرا له، إذ الغني إذا أمسك ماله ولم ينفقه في مصارفه اللازمة، وواظب على العبادة معتقدا أن مواظبته على العبادة تكفي لنجاته وإن كان له حب

----

(١) أي من الرذائل المتعلقة باثنتين من القوى الثلاث أو يجمعها: وهي القوة العاقلة والغضبية والشهوية، وهذه الرذيلة (الواحدة والعشرون) منها

للمال واعتقاد بأنه على الخير ثم الاعتقاد المذكور راجع إلى نوع معين من الجهل المركب، وهو الجهل الذي يكون المعتقد فيه شيئا يوافق الهوى، فيكون من رذائل القوة العاقلة، والحب والطلب للجاه والمال من رذائل قوتي الغضب والشهوة. فالغرور يكون من رذائل القوى الثلاث، أو من رذائل العاقلة مع أحدهما.

فصل

ذم الغرور

الغرور والغفلة منبع كل هلكة وأم كل شقاوة، ولذا ورد فيه الذم الشديد في الآيات والأخبار، قال الله - سبحانه -:

(فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور) (٢). وقال - عز وجل (ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأماني حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغرور) (٣).

وقال رسول الله (ص): (حبذا نوم الأكياس وفطرهم، كيف يغبنون سهر الحمقى واجتهادهم، ولمثقال ذرة من صاحب تقوى ويقين أفضل من ملء الأرض من المغترين). وقال الصادق (ع): (المغرور في الدنيا مسكين، وفي الآخرة مغبون، لأنه باع الأفضل بالأدنى، ولا تعجب من نفسك، فربما اغتررت بمالك وصحة جسدك أن لعلك تبقى. وربما اغتررت بطول عمرك وأولادك وأصحابك لعلك تنجو بهم. وربما اغتررت بجمالك ومنيتك وإصابتك مأمولك وهواك، فظننت أنك صادق ومصيب. وربما اغتررت بما ترى من الندم على تقصيرك في العبادة، ولعل الله يعلم من قلبك بخلاف ذلك. وربما أقمت نفسك على العبادة متكلفا والله يريد الإخلاص. وربما افتخرت بعلمك ونسبك. وأنت غافل عن مضمرات ما في غيب الله تعالى. وربما توهمت أنك تدعو الله وأنت تدعو سواه. وربما حسبت أنك ناصح للخلق وأنت تريدهم لنفسك أن يميلوا إليك وربما

---

(٢) لقمان، الآية: ٣٣ فاطر، الآية: ٥

(٣) الحديد، الآية: ١٤

ذممت نفسك وأنت تمدحها على الحقيقة " (٤)

فصل

طوائف المغرورين

إعلم أن فرق المغترين كثيرة، وجهات غرورهم ودرجاته مختلفة، وما من طائفة في العالم مشتركين في وصف مجتمعين على أمر، إلا ويوجد فيهم فرق من المغترين. إلا أن بعض الطوائف كلهم مغترون، كالكفار والعصاة والفساق، وبعضهم يوجد فيهم المغرور وغير المغرور، وإن كان معظم كل طائفة أرباب الغرور. ونحن نشير إلى مجاري الغرور، وإلى غرور كل طائفة، ليتمكن طالب السعادة من الاحتراز عنه، إذ من عرف مداخل الآفات والفساد ومجاريهما يمكنه أن يأخذ منها حذره ويبني على الجزم والبصيرة أمره. فنقول:

الطائفة الأولى

الكفار

وهم مغرورون بأسرهم، وهم ما بين من غرته الحياة الدنيا، وبين من غره الشيطان بالله، وأما الذين غرتهم الحياة الدنيا، فباعث غرورهم قياسان نظمهما الشيطان في قلوبهم (أولهما) أن الدنيا نقد والآخرة نسيئة، والنقد خير من النسيئة (وثانيهما) أن لذات الدنيا يقينية ولذات الآخرة مشكوكة فيها،. اليقيني خير من المشكوك، فلا يترك به. وهذه أقيسة فاسدة، تشبه قياس إبليس، حيث قال:
(أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين) (٥)
وعلاج هذا الغرور - بعد تحصيل اليقين بوجود الواجب تعالى وبحقية النبي (ص)، وهو في غاية السهولة لوضوح الطرق والأدلة - إما أن يتبع مقتضى إيمانه ويصدق الله تعالى في قوله:
(ما عندكم ينفذ وما عند الله باق) (٦). وفي قوله تعالى (والآخرة خير

----

(٤) صححناه على مصباح الشريعة: الباب ٣٦.
(٥) الأعراف الآية: ١١، ص الآية ٧٦
(٦) النحل الآية: ٩٦

وأبقى (٧). وقوله (وما عند الله خير وأبقى) (٨). وقوله: (وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور) (٩). وقوله تعالى: (فلا تغرنكم الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور) (١٠.

وإما أن يعرف بالبرهان فساد القياسين، حتى يزول عن نفسه ما تأديا إليه من الغرور. وطريق معرفة الفساد في (القياس الأول): أن يتأمل في أن كون الدنيا نقدا والآخرة نسيئة صحيح، إلا أن كون كل نقد خير من النسيئة غير صحيح، بل هو محل التلبيس، إذ المسلم خيرية النقد على النسيئة إن كان مثلها من المقدار والمنفعة والمقصود والبقاء، وأما إن كان أقل منها في ذلك وأدون، فالنسيئة خير، ألا ترى أن هذا المغرور إذا حذره الطبيب من لذائذ الأطعمة يتركها في الحال خوفا من ألم المرض في الاستقبال ويبذل درهما في الحال ليأخذ درهمين نسيئة، ويتعب في الأسفار ويركب في الحال لأجل الراحة والربح نسيئة. وقس عليه جميع أعمال الناس وصنائعهم في الدنيا: من الزراعة والتجارة والمعاملات، فإنهم يبذلون فيها المال نقدا ليصلوا إلى أكثر منه نسيئة، فإن كان عشرة في ثاني الحال خيرا من واحد في الحال، فانسب لذة الدنيا من حيث الشدة والمدة والعدة إلى لذة الآخرة من هذه الحيثيات، فإن من عرف حقيقة الدنيا والآخرة، يعلم أنه ليس للدنيا قدر محسوس بالنسبة إلى الآخرة، على أن لذة الدنيا مكدرة مشوبة بأنواع المنغصات، ولذة الآخرة صافية غير ممتزجة بشئ من المكدرات

وأما طريق معرفة فساد (القياس الثاني) بأصلية: هو أن يعرف أن كون لذة الآخرة مشكوكا فيها خطأ، وأن كل يقتني خير من المشكوك غلط: (أما الأول) فلأن الآخرة يقينية قطعية عند أهل البصيرة. وليقينهم مدركان: - أحدهما - ما يدركه عموم الخلق، وهو اتفاق عظماء الناس

---

(٧) الأعلى، الآية: ١٧
(٨) القصص الآية: ٦٠ الشورى الآية: ٣٦
(٩) آل عمران، الآية: ١٨٥. الحديد الآية ٢٠
(١٠) لقمان، الآية: ٣٣، فاطر الآية: ٥

من الأنبياء والأولياء والحكماء والعلماء، فإن ذلك يورث اليقين والطمأنينة بعد التأمل، كما أن المريض الذي لا يعرف دواء علته إذا أتفق جميع أرباب الصناعة على أن دواءه كذا، فإنه تطمئن نفسه إلى تصديقهم ولا يطالبهم بتصحيح ذلك بالبراهين، بل يثق بقولهم ويعمل به، وإن كذبهم صبي أو معتوه أو سوادي. ولا ريب في أن المنكرين للآخرة المغترين بالحياة الدنيا من الكفار والبطالين بالنظر إلى المخبرين عن أحوال الآخرة المشاهدين لها من الأنبياء والأولياء أدون حالا وأقل رتبة من صبي أو معتوه أو سوادي فالنظر إلى أطباء بلد أو مملكة. - وثانيهما - ما لا يدركه إلا الأنبياء والأولياء، وهو الوحي والإلهام، فالوحي للأنبياء والإلهام والكشف للأولياء فإنه قد كشفت لهم حقائق الأشياء كما هي عليها، وشاهدوها بالبصيرة الباطنة كما تشاهد أنت المحسوسات بالبصر الظاهر، فيخبرون عن مشاهدة لا عن سماع وتقليد، ولا تظنن أن معرفة النبي (ص) لأمر الآخرة ولأمور الدين مجرد تقليد لجبرئيل بالسماع منه، كما أن معرفتك لها تقليد للنبي، هيهات! فإن الأنبياء يشاهدون حقائق الملك والملكوت، وينظرون إليها بعين البصيرة واليقين، وإن أكد ذلك بإلقاء الملك والسماع منه.

وأما المغرورون بالله، وهم الذين يقدرون في أنفسهم ويقولون بألسنتهم: أن كان لله معاد فنحن فيه أوفر حظا وأسعد حالا من غيرنا كما أخبر الله - سبحانه - عن قول الرجلين المتحاورين، إذ قال:

(وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيرا منها منقلبا) (١١)

وباعث ذلك: ما ألقى الشيطان في روعهم من نظرهم مرة إلى نعم الله عليهم في الدنيا فيقيسون عليها نعمة الآخرة وينظرون إلى تأخير الله العذاب عنهم فيقيسون عليه عذاب الآخرة، كما قال الله - تعالى -:

(ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول حسبهم يصلونها فبئس المصير) (١٢).

ومرة ينظرون إلى المؤمنين وهم فقراء محتاجون، فيقولون: لو أحبهم الله لأحسن إليهم في الدنيا ولو لم يحبنا لما أحسن إلينا فيها، فلما لم يحسن

----

(١١) الكهف، الآية: ٣٧.

(١٢) المجادلة الآية: ٨

إليهم في الدنيا وأحسن إلينا فيها فيكون محبا لنا ولا يكون محبا لهم، فيكون الأمر في الآخرة كذلك، كما قال الشاعر:
كما أحسن الله فيما مضى * كذلك يحسن فيما بقي
ولا ريب في أن كل ذلك خيالات فاسدة وقياسات باطلة، فإن من ظن أن النعم الدنيوية دليل الحب والاكرام فقد أغتر بالله، إذ ظن أنه كريم عند الله، بدليل لا يدل على الكرامة بل يدل عند أولي البصائر على الهوان والخذلان، لأن نعيم الدنيا ولذاتها مهلكات ومبعدات من الله، وأن الله يحمي أحباءه الدنيا كما يحمي الوالد الشفيق ولده المريض لذائذ الأطعمة، ومثل معاملة الله - سبحانه - مع المؤمن الخالص والكافر والفاسق، حيث يزوي الدنيا عن الأول ويصيب نعمها ولذاتها على الثاني، مثل من كان له عبدان صغيران يحب أحدهما ويبغض الآخر، فيمنع الأول من اللعب ويلزمه المكتب ويحبسه فيه ليعلمه الأدب ويمنعه من لذائذ الأطعمة والفواكه التي تضره ويسقيه الأدوية البشعة التي تنفعه، ويهمل الثاني ليعيش كيف يريد ويلعب ويأكل كلما يشتهي، فلو ظن هذا العبد المهمل أنه محبوب كريم عند سيده لتمكنه من شهواته ولذاته، وأن الآخر مبغوض عنده لمنعه عن مشتهياته، كان مغرورا أحمق، فقد كان الخائفون من ذوي البصائر إذا أقبلت عليهم الدنيا حزنوا وقالوا: ذنب عجلت العقوبة، وإذا أقبل عليهم الفقر قالوا: مرحبا بشعار الصالحين! وأما المغرورون فعلى خلاف ذلك، لظنهم أن إقبال الدنيا عليهم كرامة من الله وأن إدبارها عنهم هوان لهم، كما أخبر الله - تعالى - عنه بقوله:
(فأما الإنسان إذ ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربي أكرمن، وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانن) (١٣).
وعلاج هذا الغرور: أن يعرف أن أقبال الدنيا دليل الهوان والخذلان دون الكرامة والاحسان، والتجرد منها سبب الكرامة والقرب إلى الله - سبحانه - والطريق إلى هذه المعرفة: إما ملاحظة أحوال الأنبياء والأولياء

---

(١٣) الفجر الآية: ١٥ - ١٦

وغيرهما من طوائف العرفاء وفرق الأتقياء، أو التدبر في الآيات والأخبار.
قال الله - سبحانه -:
(أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون) (١٤). وقال الله - سبحانه - (سنستدرجهم من حيث لا يعلمون) (١٥) وقال تعالى: (فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شئ حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغية فإذا هم مبلسون) (١٦). وقال - تعالى -: (إنما نملي لهم ليزدادوا إثما) (٧).. إلى غير ذلك من الآيات والأخبار.
ومنشأ هذا الغرور: الجهل بالله وبصفاته، فإن من عرفه لا يأمن مكره ولا يغتر به بأمثال هذه الخيالات الفاسدة، وينظر إلى قارون وفرعون وغيرهما من الملوك والجبابرة، كيف أحسن الله إليهم ابتداء ثم دمرهم تدميرا، وقد حذر الله عباده عن مكره واستدراجه فقال:
(فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون) (١٨) وقال: (ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين) (١٩).
الطائفة الثانية
العصاة والفساق من المؤمنين
وسبب غرورهم وغفلتهم: أما بعض بواعث غرور الكافرين - كما تقدم - أو ظنهم أن الله - تعالى - كريم ورحمته واسعة ونعمته شاملة، وأين معاصي العباد في جنب بحار رحمته، ويقولون: إنا موحدون ومؤمنون، فكيف يعذبنا مع التوحيد والإيمان، ويقررون ظنهم بما ورد في فضيلة الرجاء - كما تقدم -. وربما أغتر بعضهم بصلاح آبائهم وعلو رتبتهم، كاغترار بعض العلويين بنسبهم مع مخالفتهم سيرة آبائهم الطاهرين في الخوف

---

(١٤) المؤمنون، الآية: ٥٦ - ٥٧
(١٥) الأعراف، الآية: ١٨١، القلم الآية: ٤٤
(١٦) الأنعام، الآية: ٤٤
(١٧) آل عمران، الآية: ١٨٧
(١٨) الأعراف، الآية: ٩٩
(١٩) آل عمران، الآية: ٥٤

والورع. علاج هذا الغرور: أن يعرف الفرق بين الرجاء الممدوح والتمني المذموم، ويعلم أن غروره ليس رجاء ممدوحا، بل هو تمن مذموم، كما قال رسول الله (ص): (الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله). فإن الرجاء لا ينفك عن العمل، إذ من رجا شيئا طلبه ومن خاف شيئا هرب منه، وكما أن الذي يرجو في الدنيا ولدا وهو لم ينكح، أو نكح ولم يجامع، أو جامع ولم ينزل، فهو مغرور أحمق، كذلك من رجا رحمة الله وهو لم يؤمن، أو آمن ولم يترك المعاصي، أو تركها ولم يعمل صالحا، فهو مغرور جاهل كيف وقد قال الله - سبحانه -:

(إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله) (٢٠)

يعني أن الرجاء يليق بهم دون غيرهم وذلك، لأن ثواب الآخرة أجر وجزاء على الأعمال، كما قال - تعالى -:

(جزاء بما كانوا يعملون) (٢١). وقال: (وإنما توفون أجوركم يوم القيامة) (٢٢). وقال: (وأن ليس للانسان إلا ما سعى، وإن سعيه سوف يرى) (٢٣) وقال: (كل نفس بما كسبت رهينة) (٢٤).

أفترى أن من استؤجر على صلاح أوان وشرط له أجرة عليها، وكان الشارط كريما يفي بوعده وشرطه، بل كان بحيث يزيد على ما وعده وشرطه، فجاء الأجير وكسر الأواني وأفسدها جميعا، ثم جلس ينتظر الأجر زعما منه أن المستأجر كريم، أفيراه العقلاء في انتظاره راجيا أو مغرورا متمنيا؟

وبالجملة: سبب هذا الغرور الجهل بين الرجاء والعزة، فليعالجه بما ذكر هنا وفيما سبق.

ثم إن المغرور بعلو رتبة آبائه، ظانا أن الله تعالى يحب آباءه، ومن

----

(٢٠) البقرة، الآية: ٢١٨

(٢١) السجدة الآية: ١٧، الأحقاف الآية: ١٤. الواقعة، الآية ٢٤

(٢٢) آل عمران، الآية: ١٨٥.

(٢٣) النجم الآية: ٣٩ - ٤٠

(٢٤) المدثر الآية: ٣٨.

أحب إنسانا أحب أولاده، أشد حمقا من المغرور بالله، لأن الله – سبحانه – يحب المطيع ويبغض العاصي من غير ملاحظة لآبائهما، فكما أنه لا يبغض الأب المطيع ببغضه للولد العاصي فكذلك لا يحب الولد العاصي بحبه للأب المطيع، وليس يمكن أن يسري من الأب إلى الابن شئ من الحب والبغض والمعصية والتقوى، إذ لا تزر وازرة أخرى، فمن زعم أنه ينجو بتقوى أبيه، كان كمن زعم أنه يشبع بأكل أبيه، أو يصير عالما بتعلم أبيه، أو يصل إلى الكعبة بمشي أبيه، فهيهات هيهات! إن التقوى فرض عين على كل أحد، فلا يجزى والد عن ولده شيئا، وعند الجزاء يفر المرء من أخيه، وأمه وأبيه، وصاحبته وبنيه، ولا ينفع أحد أحدا إلا على سبيل الشفاعة، بعد تحقيق شرائطها.

ثم العصاة المغرورن، أما ليست لهم طاعات، فتمنيهم المغفرة غاية الجهل – كما مر –، أو لهم طاعات ولكن معاصيهم أكثر، وهم عالمون بأكثرية المعاصي، ومع ذلك يتوقعون المغفرة وترجح حسناتهم على سيئاتهم، وهو أيضا غاية الجهل، إذ مثله مثل من وضع عشرة دراهم على كفة ميزان وفي الكفة الأخرى ألفا أو الفين، وتوقع أن تميل الكفة الثقيلة بالخفيفة، ومن الذين معاصيهم أكثر من يظن أن طاعاته أكثر من معاصيه، لأنه لا يحاسب نفسه ولا يتفقد معاصيه، وإذا عمل طاعة حفظها واعتد بها، كالذي يحج طول عمره حجة ويبني مسجدا، ثم لا يكون شئ من عباداته على النحو المطلوب، ولا يجتنب من أخذ أموال المسلمين، فينسى ذلك كله ويكون حجه وما بناه من المسجد في ذكره، ويقول: كيف يعذبني الله وقد حججت وبنيت مسجدا وكالذي يسبح الله كل يوم مئة مرة ثم يغتاب المسلمين ويمزق أعراضهم ويتكلم بما لا يرضاه الله طول نهاره من غير حصر وعدد، ويكون نظره إلى عدد سبحته مع غفلته عن هذيانه طول نهاره الذي لو كتبه لكان مثل تسبيحه مائة مرة، وقد كتبه الكرام الكاتبون، فهو يتأمل دائما في فضيلة التسبيحات، ولا يلتفت إلى ما ورد في عقوبة الكذابين والمغتابين والنمامين والفاحشين، ولو كان كتبة أعماله يطلبون منه أجرة الزايد من هذيانه على تسبيحاته، لكان عند ذلك يسعى في كف لسانه

عن آفاته وموازنتها بتسبيحاته، حتى لا يكون لها زيادة عليها ليؤخذ منه أجرة نسخ الزائد. فيا عجبا لمن يحاسب نفسه ويحتاط خوفا أن يفوته مقدار قيراط ولا يحتاط خوفا من فوت العليين ومجاورة رب العالمين!

الطائفة الثالثة

أهل العلم

والمغترون منهم فرق:

(فمنهم) من اقتصر من العلم على علم الكلام والمجادلة ومعرفة آداب المناظرة، ليتفاخر في أندية الرجال ويتفوق على الأقران والأمثال، من غير أن يكون له في العقائد قدم راسخ أو مذهب واحد، فليختار تارة ذاك وتارة هذا، وتكون عقيدته كخيط مرسل في الهواء تفيئه الريح مرة هكذا ومرة هكذا، ومع ذلك يظن بغروره أنه أعرف الناس وأعلمهم بالله وبصفاته.

و (منهم) من اقتصر من العلم على علم النحو واللغة، أو الشعر أو المنطق، واغتر به وأفنى عمره فيها، وزعم أن علم الشريعة والحكمة موقوف عليها، ولم يعلم أن ما ليس مطلوبا لذاته ويكون وسيلة إلى ما هو مقصود لذاته يجب أن يقتصر عليه بقدر الضرورة، والتعمق فيه إلى درجات لا تتناهى فضول مستغنى عنها، وموجب للحرمان عما هو مقصود لذاته.

و (منهم) من اقتصر على فن المعاملات من الفقه، المتضمن لكيفية الحكم والقضاء بين الناس، واشتغل بإجراء الأحكام، وأعرض عن علم العقائد والأخلاق، بل عن فن العبادات من الفقه، وأهمل تفقد قلبه ليتخلى عن رذائل الأخلاق ويتحلى بفضائل الملكات وتفقد جوارحه وحفظها عن المعاصي وإلزامها الطاعات.

و (منهم) من حصل فن العبادات أيضا، بل أحكم العلوم الشرعية بأسرها وتعمق فيها واشتغل، ولكن ترك العلم الإلهي وعلم الأخلاق، ولم يحفظ الباطن والظاهر عن المعاصي، ولم يعمرها بالطاعات.

و (منهم) من أحكم جميع العلوم من العقلية والشرعية، وتعمق فيها واشتغل بها، إلا أنه أهمل العمل رأسا، أو واضب على الطاعات الظاهرة

وأهمل صفات القلب، وربما تفقد صفات القلب وأخلاق النفس أيضا، وجاهد نفسه في التبري عنها، وقلع من قلبه منابتها الجلية القوية، ولكن بقيت في زوايا قلبه خفايا من مكائد الشيطان، وخبايا وتلبيسات النفس ما دق وغمض مدركه فلا يتفطن بها.

وجميع هؤلاء غافلون مغرورون، إذا كان اعتقادهم أنهم على خير وسعادة، وأن كان بينهم تفاوت من حيث الضعف والشدة، إذ سعادة النفس وخلاصها من العذاب لا تحصل إلا بمعرفة الله - تعالى - ومعرفة صفاته وأفعاله وأحواله النشأة الآخرة، والعمل برذائل الأخلاق وشرائفها، ثم تهذيب الباطن بفضائل الأخلاق وعمارة الظاهر بصوالح الطاعات والأعمال، فكل من يعلم بعض العلوم وترك ما هو المهم من العلم - أعني معرفة سلوك الطريق وقطع عقبات النفس التي هي الصفات المذمومة المانعة عن الوصول إلى الله - وظن أنه على خير كان مغرورا، إذا مات ملوثا بتلك الصفات كان محجوبا عن الله، فمن ترك العلم المهم واشتغل بغيره، فهو كمن له مرض خاص مهلك فاحتاج إلى تعلم الدواء واستعماله، فأشتغل بتعلم مرض آخر يضاد مرضه في المعالجة، كما أن من أحكم العلوم بأسرها وترك العمل، مثل المريض الذي تعلم دواء مرضه وكتبه، وهو يقرأه ويعلمه المرضى ولا يستعمله قط لنفسه، فإنه لا ريب في أن مجرد تعلم الدواء لا يشفيه، بل لو كتب منه ألف نسخة وعلمه ألف مريض حتى شفي جميعهم وكرره كل ليلة ألف مرة لم ينفعه ذلك من مرضه شيئا، حتى يشتري هذا الدواء ويشربه كما تعلم في وقته، ومع شربه واستعماله يكون على خطر من شفائه، فكيف إذا لم يشربه أصلا، فلو ظن أن مجرد تعلم الدواء يكفيه ويشفيه فهو مغرور، فكذلك من أحكم علم الطاعات ولم يعملها، وأحكم علم المعاصي ولم يجتنبها، وأحكم علم الأخلاق ولم يزل نفسه عن رذائلها ولم يتصف بفضائلها، فهو في غاية الغرور، إذ قال الله تعالى:

(قد أفلح من زكاها) (٢٥)

----

(٢٥) الشمس الآية: ٩

ولم يقل: قد أفلح من علم طريق تزكيتها.
ثم من هذه الطائفة فرقة متصفة برذائل الأخلاق والغرور، أدى بهم إلى حيث ظنوا أنهم منفكون عنها، وأنهم أرفع عند الله من أن يبتليهم بها، وإنما يبتلي بها العوام دون من بلغ مبلغهم في العلم. ثم إذا ظهرت عليه مخايل الكبر والرئاسة وطلب العلو والشرف قال: ما هذا تكبرا، إنما هو طلب إعزاز الدين، وإظهار شرف العلم، وإرغام أنف المخالفين. ومهما ظهرت منه آثار الحسد، وأطلق لسانه بالغيبة في أقرانه ومن رد عليه شيئا من كلامه، لم يظن بنفسه أن ذلك حسد، بل يقول: أن هذا غضب للحق ورد على المبطل في عداوته وظلمه، مع أنه لو طعن في غيره من أهل العلم، ورد عليه قوله، ومنع من منصبه، لم يكن غضبه مثل غضبه الآن، بل ربما يفرح به، ولو كان غضبه للحق لا للحسد على أقرانه وخبث باطنه، لاستوى غضبه في الحالين. وإذا خطر له خاطر الرياء قال: غرضي من إظهار العلم والعمل اقتداء الخلق بي، ليهتدوا إلى دين الله ويتخلصوا من عقاب الله.
ولا يتأمل المغرور أنه ليس يفرح باقتداء الناس بغيره كما يفرح باقتدائهم به، ولو كان غرضه صلاح الخلق لفرح بصلاحهم على يد من كان، وربما يتذكر هذا ومع ذلك لا يخليه الشيطان، بل يقول: إنما ذلك لأنهم إذا اهتدوا بي كان الأجر والثواب لي، ففرحي إنما هو بثواب الله لا بقبول الخلق، هذا ما يظن بنفسه، والله مطلع على سريرته، إذ ربما كان باطنه في الخباثة بحيث لو علم قطعا بأن ثوابه في الخمول وإخفاء العلم والعمل أكثر من ثوابه في الإظهار، لاحتال مع ذلك في إظهار رئاسة، من تدريس أو وعظ أو إمامة أو غير ذلك. وإذا كان بحيث يدخل على السلاطين والأمراء الظلمة ويثني عليهم ويتواضع لهم، وخطر له أن مدحهم والتواضع لهم حرام، قال له الشيطان: أن ذلك عند الطمع في مالهم، وغرضك من الدخول عليهم دفع الضرر عن المسلمين دون الطمع، والله يعلم من باطنه أنه لو ظهر لبعض أقرانه قبول عند ذلك السلطان، وكان بحيث يقبل شفاعته في كل أحد، وهو لا يزال يستشفع ويدفع الضرر عن المسلمين، يثقل ذلك عليه، بحيث لو قدر أن يقبح حاله عند السلطان لفعل. وربما انتهى الغرور في بعضهم

إلى أن يأخذ من أموالهم المحرمة، وإذ خطر له أنها حرام، قال له الشيطان: هذا مال مجهول المالك يجب أن يتصدق به أمام المسلمين وأنت إمامهم وعالمهم، وبك قوام دين الله، فيحل لك أن تأخذ منها قدر حاجتك وتصرف الباقي على مصالح المسلمين، فيغتر بهذا التلبيس، ولا يزال يأخذها من غير أن يبذل شيئا منها في مصرف غيره. وربما انتهى الغرور في بعضهم إلى حيث أنه إذا حضرت مائدتهم وأكل طعامهم وقيل له: إن هذا لا يليق بمثلك. قال: الأكل جائز بل واجب، إذ هذا مال لا يعلم مالكه، فيجب التصدق له على الفقراء، ويجب على مثلي بقدر القوة والاستطاعة أن يجتهد في استخلاصه من يد الظالم وإيصاله إلى أهله - أعني الفقراء - وأكلي منها نوع قدرة على استخلاصه، فآكل منه وأتصدق بقيمته على الفقراء، والله يعلم من باطنه أنه لا يتصدق بقيمته ولا يعتقد بحقيقة ما يقول، وإنما هو تلبيس ألقاه الشيطان في روعه، لئلا يضعف اعتقاد العامة في حقه، وربما كان بحيث لا يبالي من أخذ مالهم وأكل طعامهم خفية، ولو علم أنه يطلع عليه واحد من صويلح العامة المعتقدين به، امتنع منه غاية الامتناع. وربما كان بعضهم في الباطن مائلا إلى الدخول على السلاطين والأمراء وتاركا له في الظاهر، وكان الباعث في ذلك طلب المنزلة في قلوب العامة، ومع ذلك يظن أن الاجتناب عنهم عين ورعه وتقواه. وربما كان بعضهم إمام قوم يظن أنه على خير وباعث لترويج الدين وإعلاء الكلمة ومقيم بشعار الإسلام، ومع ذلك لو أم غيره ممن هو أعلم وأورع منه في مسجده، أو يتخلف بعض من يقتدي به عن الاقتداء به، قامت عليه القيامة، وربما لم يكن باعثه على الحركة إلى المسجد للإمامة مجرد التقرب والامتثال لأمر الله، بل كان الباعث محض حب الجاه والرياسة واعتقاد العامة، أو مركبا منه ومن نية الثواب. وربما أتخذ بعضهم الإمامة شغلا ووسيلة لأمر المعاش، ومع ذلك يظن أنه مشتغل بأمر الخير، والظاهر في أمثال زماننا ندور الإمام الذي كان قصده من الإمامة مجرد التقرب إلى الله، من دون وجود شئ من حب طلب المنزلة في القلوب، أو تحصيل المال، أو دفع بعض الشرور عن نفسه في زوايا قلبه، ولو وجد مثله فهو القدوة الذي يجب أن تشد

الرحال من المواضع البعيدة إليه ليقتدي به، ومثله كلما وجد في نفسه قصد التقرب والثواب في الذهاب إلى المسجد للإمامة ذهب ولو لم يجد ذلك من نفسه تخلف، وصلى منفردا، وهو الذي يستوي عنده اقتداء الناس به وعدمه، ويستوي عنده كثرة المقتدين وقلتهم، بل يكون حاله عند صلاته وهو إمام لجم غفير كحاله عند صلاته منفردا، من دون أن يجد في نفسه تفاوتا في الحالين.

وبالجملة: أصناف غرور أهل العلم - (لا) سيما في هذه الأعصار - كثيرة، والتأمل يعلم أن الغرور أو التلبيس أو غيرهما من ذمائم الأفعال انتهى في بعضهم إلى أن وجودهم مضر بالإسلام والمسلمين وموتهم أنفع للإيمان والمؤمنين، لأنهم دجالو الدين وقوامو مذهب الشياطين، ومثلهم كما قال عيسى ابن مريم (ع): (العالم السوء كصخرة وقعت في فم الوادي فلا هي تشرب الماء ولا هي تترك الماء يتخلص إلى الزرع).

الطائفة الرابعة

الوعاظ

والمغترون منهم كثيرون:

(فمنهم) من يتكلم في وعظه في أخلاق، النفس وصفات القلب، من الخوف، والرجاء، والتوكل، والرضاء، والصبر، والشكر، ونظائرها، ويظن أنه إذ ا تكلم بهذه الصفات ودعا الخلق إليها صار موصوفا بها، وهو منفك عنها في الواقع، إلا عن قدر يسير لا ينفك عنه عوام المسلمين، ويزعم أن غرضه إصلاح الخلق دون أمر آخر، ومع ذلك لو أقبل الخلق على أحد من أقرانه وصلحوا على يديه، وكان أقوى منه في الإرشاد والاصلاح لمات غما وحسدا، ولو أثنى أحد المترددين عليه على بعض أقرانه، لصار أبغض خلق الله إليه.

و (منهم) من أشتغل بالشطح والطامات، وتلفيق كلمات خارجة عن قانون الشرع والعقل، وربما كلف نفسه بالفصاحة والبلاغة، وتصنع التشبيهات والمقدمات، وشغف بطيارات النكت وتسجيع الألفاظ وتلفيقها، طلبا للأعوان والأنصار، وشوقا إلى تكثر البكاء والرقة والتواجد والرغبات

في مجلسه، والتذاذا بتحريك الرؤوس على كلامه والبكاء عليه، وفرحا بكثرة الأصحاب والمستفيدين والمعتقدين به، وسرورا بالتخصيص بهذه الخاصة من بين سائر الأقران، وربما لم يبال بالكذب في نقل الأخبار والآثار، ظنا منه أنه أوقع في النفوس وأشد تأثيرا في رقة العوام وتواجدهم. ولا ريب في أن هؤلاء شر الناس، بل شياطين الإنس، ظلوا وأظلوا عن سواء السبيل، إذ الأولون أن لم يصلحوا أنفسهم، فقد أصلحوا غيرهم وصححوا كلامهم ووعظهم، وأما هؤلاء فإنهم يصدون عن سبيل الله، ويجرون الخلق إلى الغرور بالله، لأن سعيهم في ذكر ما يسر به العامة، ليصلوا به منهم إلى أغراضهم الفاسدة، فلا يزالون يذكرون ما يقوي الرجاء، ويزيدهم جرأة على المعاصي ورغبة في الدنيا، (لا) سيما إذا كان هذا الواعظ أيضا ممن يرغب في الدنيا، ويسر بوصول المال إليه، ويتزين في الثياب الفاخرة والمراكب الفارهة، وغيرهما من زينة الدنيا. فمثله ممن يضل ويكون إفساده أكثر من إصلاحه، ومع ذلك يظن أنه مروج الشرع والدين ومرشد الضالين، فهو أشد المغرورين والغافلين.

و (منهم) من هذب أخلاقه، وراقب قلبه، وصفاه عن جميع الكدورات، وصغرت الدنيا في عينه، وانقطع طمعه عن الخلق فلم يلتفت إليهم، ودعته الرحمة والشفقة على عباد الله إلى نصحهم واستخلاصهم عن أمراض المعاصي بالوعظ، فلما أستقل به وجد الشيطان مجال الفتنة، فدعاه إلى الرئاسة دعاء خفيا - أخفى من دبيب النملة - لا يشعر به، ولم يزل ذلك في قلبه يربو وينمو حتى دعاه إلى التصنع والتزين للخلق: بتحسين الألفاظ والنغمات والحركات، والتصنع في الزي والهيئة والشمائل، وأقبل الناس إليه يعظمونه ويوقرونه توقيرا يزيد على توقير الملوك، إذ رأوه شافيا لأمراضهم بمحض الرحمة والشفقة من غير طمع، فآثروه بأبدانهم وأموالهم، وصاروا له كالخدم والعبيد، فعند ذلك انتشر طبعه وارتاحت نفسه، وذاق لذة يا لها من لذة، وأصاب من الدنيا شهوة يستحقر معها كل شهوة، فوقع في أعظم لذات الدنيا بعد قطعه بأنه تاركا للدنيا، فقد غره الشيطان على ما لا يشعر به. وعلامة ثوران حب الرئاسة في باطنه: أنه لو ظهر من أقرانه

من مالت القلوب إلى قبوله، وزاد أثر كلامه في القبول على كلامه، شق ذلك عليه، إذ لولا أن النفس قد استبشرت واستلذت بالرئاسة لكان يغتنم ذلك.

وعلى هذا فينبغي ألا يشتغل أحد بالنصح والوعظ إلا إذا وجد من نفسه أنه ليس له قصد سوى هدايتهم إلى الله - تعالى -، وكان يسره غاية السرور ظهور من يعينه على إرشادهم أو اهتدائهم من عند أنفسهم، وانقطع طمعه بالكلية عن ثنائهم وأموالهم، واستوى عنده حمدهم وذمهم، ولم يبالي بذمهم إذا كان الله يمدحه، ولم يفرح بمدحهم إذا لم يقترن به مدح الله، ونظر إليهم كما ينظر إلى من هو أعلم منه وأورع، حيث لا ينكر عليه ويراه خيرا من نفسه، لدلالة الظاهر على ذلك وجهله بالخاتمة وإلى البهائم من حيث انقطاع طمعه عن طلب المنزلة في قلوبهم، فإنه لا يبالي كيف يراه البهائم، فلا يتزين لها، إذ راعي الماشية إنما غرضه رعايتها ودفع الذئب عنها، دون نظر الماشية إليه بعين المدح والثناء.

ثم لو ترقى الواعظ، وعلم بهذه المكيدة من الشيطان، واشتغل بنفسه وترك النصح، أو نصح مع رعاية شرط الصدق والاخلاص، لخيف عليه الاعجاب بنفسه في فراره عن الغرور، فيكون إعجابه بنفسه في الفرار عن الغرور غاية الغرور، وهو المهلك الأعظم من كل ذنب، ولذلك قال الشيطان: (يا ابن آدم! إذا ظننت أنك بعملك تخلصت مني فبجهلك قد وقعت في حبائلي). ثم لو دفع عن نفسه العجب، وعلم أن ذلك من الله تعالى لا منه، وأن مثله لا يقوى على دفع الشيطان عنه إلا بتوفيق الله، وأنه ضعيف عاجز لا يقدر على شئ أصلا، فضلا عن دفع الشيطان، لخيف عليه الغرور بفضل الله والثقة بكرمه والأمن من مكره، حتى يظن أنه يبقى على هذه الوتيرة في المستقبل. ولا ريب أن الآمن من مكر الله خاسر مغرور، فسبيل النجاة بعد تهذيب النفس وخلوص القصد والانقطاع عن الدنيا ولذاتها، أن يرى ذلك كله من فضل الله، وكان خائفا على نفسه من سلب حاله في كل لحظة، وغير آمن من مكر الله، وغير غافل عن خطر الخاتمة. وهذا خطر لا محيص عنه وخوف لا نجاة منه، إلا بمجاوزة الصراط والدخول في الجنة، ولذلك

لما ظهر الشيطان لبعض الأولياء في وقت النزع - وكان قد بقي له نفس - قال: (أفلت مني يا فلان!؟)، فقال: (لا! بعد).

الطائفة الخامسة

أهل العبادة والعمل

والمغرورون منهم فرق كثيرة:

(فمنهم) من غلبت عليه الوسوسة في إزالة النجاسة وفي الوضوء، فيبالغ فيه ولا يرتضي الماء المحكوم بالطهارة في فتوى الشرع، ويقدر الاحتمالات البعيدة الموجبة للنجاسة، وإذا آل الأمر إلى الأكل وأخذ المال قدر الاحتمالات الموجبة للحل، بل ربما أكل الحرام المحض وقدر له محملا بعيدا لحله ولو انقلب هذا الاحتمال من الماء إلى الطعام لكان أشبه بسيرة أكابر الأولياء. ثم من هؤلاء من يخرج إلى الإسراف في صبه الماء وربما بالغ عند الوضوء في التخليل وضرب إحدى يديه على وجهه أو يده الأخرى ولا يدري هذا المغرور أن هذا العمل أن كان مع اليقين بحصول ما يلزم شرعا فهو تضييع للعمر الذي هو أعز الأشياء فيما له مندوحة عنه، وإن كان بدونه بل يحتاط في التخليل ليحصل الجزم بوصول الماء إلى البشرة، فما باله يتيقن بوصول الماء إلى البشرة في الغسل بدون هذه المبالغة والاحتياط مع أن حصول القطع بإيصال الماء إلى البشرة في الغسل ألزم وأوجب. ثم ربما لم يكن له مبالغة واحتياط في الصلاة وسائر العبادات، وانحصر احتياطه ومبالغته بالوضوء، زاعما أن هذا يكفي لنجاته، فهو مغرور في غاية الغرور.

و (منهم) من أغتر بالصلاة فغلبت عليه الوسوسة في نيتها فلا يدعه الشيطان حتى يعقد نية صحيحة، بل يشوش عليه حتى تفوته الجماعة أو فضيلة الوقت، وقد يوسوس في التكبير حتى يغير صيغتها لشدة الاحتياط فيه، يفعل ذلك في أول صلاته ثم يغفل في جميع صلاته، ولا يحضر قلبه، ويغتر بذلك، ويظن أنه إذا أتعب نفسه في تصحيح النية فهو على خير. وربما غلبت على بعضهم الوسوسة في دقائق القراءة، وإخراج حروف الفاتحة وسائر الأذكار عن مخارجها، فلا يزال يحتاط في التشديدات وتصحيح المخارج

والتمييز بين مخارج الحروف المتقاربة من غير اهتمام فيما عدا ذلك، من حضور القلب والتفكير في معاني الأذكار، ضنا منه أنه إذا صحت القراءة فالصلاة مقبولة، وهذا أقبح أنواع الغرور.

و (منهم) من أغتر بالصوم، وربما صام الأيام الشريفة، بل صام الدهر، ولم يحفظ لسانه عن الغيبة، ولا بطنه عن الحرام عند الافطار، ثم يظن بنفسه الخير، وذلك في غاية الغرور.

(ومنهم) من اغتر بالحج، فيخرج إلى الحج من غير خروج عن المظالم وقضاء الديون وطلب الزاد الحلال، ويضيع في الطريق الصلاة، ويعجز عن طهارة الثوب والبدن، ثم يحضر البيت بقلب ملوث برذائل الأخلاق وذمائم الصفات، ومع ذلك يظن أنه على خير. فهو في غاية الغرور.

و (منهم) من أغتر بقراءة القرآن، فيهذ هذا، وربما يختم في اليوم والليلة مرة، فيجري به لسانه، وقلبه مرددا في أودية الأماني، وربما أسرع في القراءة غاية السرعة، ويظن أن سرعة اللسان من الكمالات، ويتفاخر به على الأمثال والأقران.

(ومنهم) من أغتر ببعض النوافل، كصلاة الليل، أو مجرد غسل الجمعة أو أمثال ذلك، من غير اعتداد بالفرائض، زاعما أن المواظبة على مجرد هذه النافلة ينجيه في الآخرة، فهو أيضا من المغرورين.

(ومنهم) من تزهد وقنع بالدون من المطعم والملبس والمسكن، ظانا أنه أدرك رتبة الزهاد، ومع ذلك راغب في الرئاسة باشتهاره بالزهد، فهو ترك أهون المهلكين بأعظمها، إذ حب الجاه أشد فسادا من حب المال. ولو ترك الجاه وأخذ المال لكان أقرب إلى السلامة، فهو مغرور إذ ظن أنه من الزهاد، ولم يعرف أن منتهى لذات الدنيا الرئاسة، وهو يحبها، فكيف يكون زاهدا؟

الطائفة السادسة

المتصوفة

والمغترون فيهم أكثر من أن يحصى:

(فمنهم) أرباب البوقات، وهم القلندرية الذين لا يعرفون معنى

التصوف ولا شيئا من مراسم الدين، وصرفوا أوقاتهم في التكدي والسؤال من الناس، ويظنون أنهم تاركون للدنيا مقبلون على الآخرة، مع أنهم لو ظفروا بشئ من أمور الدنيا لأخذوه بجميع جوارحهم، فهؤلاء أرذل الناس بوجوه كثيرة لا تخفى.

(ومنهم) من أغتر بالزي، والمنطق وليس الصوف، وإطراق الرأس وإدخاله في الجيب. وخفض الصوت، وتنفس الصعداء، وتحريك البدن في الطول والعرض، والسقوط إلى الأرض، (لا) سيما إذا سمعوا كلاما في الوحدة والعشق، مع عدم اطلاعهم على حقيقة شئ منها. وربما تجاوز بعضهم من ذلك إلى الرقص والتصفيق، وإبداء الشهيق والنهيق، واختراع الأذكار، والتغني بالأشعار... وغير ذلك من الحركات القبيحة والهيئات الشنيعة، ويظن أن العبد بهذه الحركات والأفعال يصل إلى الدرجات العالية، ولم يعلم المغرور أنها تقرب العبد إلى سخط الله وعذابه.

(ومنهم) من وقع في الإباحة، وطوى بساط الشرع والأحكام ، وترك الفصل بين الحلال والحرام، يتكالب على الحرام والشبهات، ولا يحترز عن أموال الظلمة والسلاطين. وربما قال: المال مال الله والخلق عيال الله، فهم فيه سواء. وربما قال: أن الله مستغن عن عملي، فأي حاجة إلى أن أتعب نفسي فيه؟ وربما قال: لا وزن لأعمال الجوارح، وإنما النظر إلى، القلوب، وقلوبنا والهة إلى حب الله واصلة إلى معرفة الله. وربما خاضوا في الشهوات الدنيوية، وقالوا: إنها لا تصدنا عن طريق الله. لقوة نفوسنا وقوة أقدامنا فيها، وإنما يحتاج العوام إلى تهذيب النفس بالأعمال. البدنية، ونحن مستغنون عنه. فهؤلاء يرفعون درجتهم عن درجة الأنبياء عليهم السلام إذ كانوا يصرحون بأن ارتكاب الأمور المباحة فضلا عن الخطايا والمعاصي يصدهم عن طريق الله، حتى يبكون سنين متوالية على ترك الراجح وفعل المرجوح، فهم أشد الناس غرورا، وأعظم الخلق حماقة وجهلا.

(ومنهم) من يدعي غاية المعرفة واليقين والوصول إلى درجات المقربين، ومشاهدة المعبود، ومجاورة المقام المحمود، والملازمة في عين الشهود، وتلقف من الطامات كلمات يرددها، ويظن أنه يتكلم عن الوحي

ويخبر عن السماء، وينظر إلى العباد والفقهاء والمحدثين وسائر أصناف العلماء بعين الحقارة والازدراء، يقول في العباد: إنهم أجراء مبعوثون، وفي العلماء: إنهم بالحديث عن الله لمحجوبون، ويدعي لنفسه من الكرامات ما لا يدعيه نبي ولا ولي، ويدعي كونه واصلا إلى الحق فارغا عن أعباء التكليف، لا علما أحكم ولا عملا هذب، لم يعرف من المعارف إلا أسماء يتفوه بها عند الأغنياء للوصول إلى بعض حطامهم الخبيثة، فهو عند الله من الفخار المنافقين، وعند أرباب القلوب من الحمقى الجاهلين مع ظنه أنه من المقربين، فهو أشد الغافلين المغرورين.

و (منهم) ملامية يرتكبون قبائح الأعمال وشنائع الأفعال الموجبة للعبد عن طريق المروة، ظنا منهم أن هذا موجب لكسر النفس وإزالة ذمائم الأخلاق، ولم يعلموا أن هذه الأفعال من الذمائم، وقد نهى صاحب الشرع عنه.

ومنهم (من أشتغل بالرياضة والمجاهدة، فقطع بعض المنازل، ووصل إلى بعض المقامات على قدر سعيه ومجاهدته، إلا أنه لم يتم سلوكه وانقطع عن سائر المقامات إما لاعتراض مفسد في أثناء السلوك، أو لوقوعه في الأثناء ظنا منه أنه وصل إلى الله ولم يصل بعد، فإن لله سبعين حجابا من نور، ولا يصل السالك إلى حجاب من تلك الحجب في الطريق إلا ويظن أنه قد وصل، وإليه الإشارة في حكاية الخليل، حيث رأى أولا كوكبا، فقال: (هذا ربي)، ثم انتقل إلى القمر، ثم عنه إلى الشمس، فإنه ليس المراد بالكوكب والقمر والشمس هذه الأجسام المضيئة، فإن شأن مثل الخليل أعظم من أن يظن كونها آلهة، بل هذا ينافي شأنه ورتبته، فالمراد بها الأنوار التي هي من حجب الله، ويراها السالك في الطريق، ولا يتصور الوصول إلى الله إلا بالوصول إلى هذه الحجب، وهي حجب من النور بعضها أعظم من بعض، فاستعير لفظ الكوكب لصغره لأقل مراتبها، والقمر لأوسطها، والشمس لأعظم مراتبها، والخليل (ع) لم يزل عند سيره في الملكوت يصل إلى نور بعد نور، ويتخيل إليه في أول ما يلقاه أنه قد وصل، ثم انكشف له أن وراءه أمر، فيترقى إليه حتى وصل إلى

الحجاب الأقرب، فقال: هذا أكبر، فلما ظهر أنه مع عظمته غير خالي عن الهوى في حضيض النقص والانحطاط عن ذروة الكمال، قال:
(لا أحب الآفلين. إني وجهت وجهي...) (٢٦).
فسالك هذا الطريق قد يغتر في الوقوف على بعض هذه الحجب، وربما يغتر بالحجاب الأول، وأول الحجاب بين الله وبين العبد هو قلبه، فإنه أيضا أمر رباني ونور من أنوار الله، تتجلى فيه حقيقة الحق كله، حتى يتسع لجملة العالم ويحيط به وتتجلى فيه صورة الكل، وعند ذلك يشرق نوره إشراقا عظيما، إذ يظهر فيه الوجود كله على ما هو عليه، وهو في أول الأمر كان محجوبا، فإذا تجلى نوره وانكشف فيه جماله بعد إشراق نور الله – تعالى – ربما التفت صاحب القلب إلى القلب، فيرى من جماله الفائق ما يدهشه، فربما يسبق لسانه في الدهشة، فيقول: أنا الحق! فإن لم يتضح له ما وراء ذلك، اغتر به ووقف عليه وهلك، وكان قد اغتر بكوكب صغير من أنوار الحضرة الإلهية، ولم يصل بعد إلى القمر، فضلا عن الشمس، فهو مغرور. وهذا محل الالتباس، إذ المتجلي يلتبس بالمتجلى فيه، كما يلتبس لون ما يتراءى في المرآة فيظن أنه لون المرآة، وكما يلتبس ما في الزجاج بالزجاج فيظن أنه لون الزجاج، كما قيل:

رق الزجاج ورقت الخمر
فتشابها وتشاكل الأمر
فكأنما خمر ولا قد
وكأنما قدح ولا خمر

وبهذه العين نظر النصارى إلى المسيح، فرأوا إشراق نور الله قد تلألأ فيه، فغلطوا فيه، كمن يرى كوكبا في مرآة أو في ماء، فيظن أن الكوكب في المرآة أو في الماء، فيمد اليد إليه، فهو مغرور. وأنواع الغرور في طريق السلوك إلى الله كثيرة لا تخفى على أرباب البصيرة.
ثم أكثر المتلبسين بلباس العارفين – مع كذبهم فيما يدعونه، ونقصانهم في طريق السلوك، وجهلهم بحقيقية الأمر، وعدم قطعهم جل المقامات – يتشبهون بالصادقين من العرفاء في زيهم وهيأتهم وآدابهم ومراسمهم وألفاظهم، ظانين أنهم بهذا التشبه يصلون إلى مراتبهم، فهيهات هيهات! إن الوصول إلى درجة

---

(٢٦) الأنعام، الآية: ٧٦ و ٧٩

كل أحد إنما تحصل بالاتصاف بأوصافه الباطنة والتخلق بأخلاقه النفسية دون التشبه به في حالاته الظاهرة، وقد شبههم بعض الأكابر بامرأة عجوز سمعت أن الشجعان من المقاتلين تثبت أسمائهم في الديوان ويقطع لكل واحد منهم قطر من أقطار المملكة فتاقت نفسها إلى أن تكون مثلهم، فلبست درعا، ووضعت على رأسها مغفرا، وتعلمت من رجز الأبطال أبياتا وتعلمت كيفية جولانهم في الميدان، وتلقفت جميع شمائلهم في الزي والمنطق والحركات والسكنات، وتوجهت إلى المعسكر ليثبت اسمها في ديوان الشجعان، فلما وصلت إليه، أنفذت إلى ديوان العرض، وأمرت بأن تجرد عن المغفر والدرع وينظر إلى حقيقتها وتمتحن بالمبارزة مع بعض الشجعان ليعرف قدر شجاعتها فلما جردت فإذا هي عجوز ذات منة ضعيفة لا تقدر على شئ فقيل لها: أجئت للاستهزاء بالملك وأهل حضرته؟ خذوها وألقوها قدام الفيل، فداسها ونحتها فهكذا يكون حال المدعين للتصوف والعرفان في القيامة، إذا كشف عنهم الغطاء وصفاته.

وعرضوا إلى القاضي الحق الذي لا ينظر إلى الزي واللباس بل إلى سر القلب

الطائفة السابعة

الأغنياء وأرباب الأموال

والمغترون فيهم أكثر من المغترين من سائر الطوائف:

(فمنهم) من يحرص على بناء المساجد والمدارس والرباطات والقناطر وسائر ما يظهر للناس بالأموال المحرمة، وربما غصب أرض المساجد والمدارس وربما صير لها موقوفات أخذها من غير حلها، ولا باعث له على ذلك سوى الرياء والشهوة ولذا يسعى في كتابة اسمه على أحجارها ليتخلد ذكره ويبقى بعد الموت أثره، ويظن المسكين أنه قد استحق المغفرة بذلك، وإنه مخلص فيه، ولم يدر أنه تعرض لسخط الله في كسب هذه الأموال وفي إنفاقها، وكان الواجب عليه الامتناع عن أخذها من أهله، وإذا عصى الله وأخذها، كان الواجب عليه التوبة وردها إلى أهلها، فإن لم يبقى من أخذها منهم ولا ورثته، كان الواجب أن يتصدق بها على المساكين مع إنه ربما كان في بلده أو في جواره

مسكين يكون في غاية الفقر والمسكنة ولا يعطيه درهما.
و (منهم) من ينفق الأموال في الصدقات، إلا أنه يطلب الفقراء الذين عادتهم الشكر والإفشاء للمعروف، ويكره التصدق في السر، بل يطلب المحافل الجامعة ويتصدق فيها، وربما يكره التصدق على فقراء بلده ويرغب أن يعطي أهل البلاد الأخر مع أكثرية استحقاق فقراء بلده، طلبا لاشتهاره بالبذل والعطاء في البلاد الخارجة البعيدة، وربما يصرف كثيرا منه إلى رجل معروف في البلاد وإن لم يكن مستحقا، ليشتهر ذلك في البلاد، ولا يعطي قليلا منه إلى فقير له غاية الاستحقاق إذا كان، خامل الذكر، يفعل هذا ويظن أنه يجلب بذلك الأجر والثواب، ولم يدر المغرور أن هذا القصد أحبط عمله وأضاع ثوابه.
ومنهم) من يجمع مالا من غير حله، ولا يبالي بأخذ المال من أي طريق كان، ثم يمسكه غاية الامساك، إلا أنه لا يبالي بصرف بعضه في طريق الحج، إما لنفسه فقط، أو لأولاده وأزواجه أيضا، إما للاشتهار، أو لما وصل إليه: إن تارك الحج يبتلى بالفقر
و (منهم) من غلب عليه البخل، فلا تسمح نفسه بإنفاق شئ من ماله، فيشتغل بالعبادة البدنية من الصوم والصلاة، ظنا منه أن ذلك يكفي لنجاته، ولم يدر أن البخل صفة مهلكة لا بد من إزالتها، وعلاجه: بذل المال دون العبادات البدنية. ومثله مثل من دخلت في ثوبه حية، وقد أشرف على الهلاك، وهو مشغول بطبخ السكنجبين لسكن الصفراء، وغافل بأن الحية تقتله الآن ومن قتلته الحية فأي حاجة له إلى السكنجبين؟
وصل
ضد الغرور الفطانة والعلم والزهد
قد عرفت أن الغرور مركب من الجهل وحب مقتضيات الشهوة والغضب فضده الفطانة والعلم والزهد فمن كان فطنا كيسا عارفا بربه ونفسه وبالآخرة والدنيا وعالما بكيفية سلوك الطريق إلى الله وبما يقربه إليه وبما يبعده عنه، وعالما بآفات الطريق وعقباته وغوائله، لاجتنب عن الغرور ولم يغره الشيطان في شئ من الأمور، إذ من عرف نفسه بالذل والعبودية وبكونه غريبا في هذا العالم أجنبيا من هذه الشهوات البهيمية، عرف كون هذه الشهوات مضرة له

وإن الموافق له طبعا هو معرفة الله والنظر إلى وجهه، فلا يسكن نفسه إلى شهوات الدنيا ومن عرف الدنيا والآخرة ولذاتهما وعدم النسبة بينهما ثار في قلبه حب الله والرغبة إلى دار الآخرة والانزجار عن الدنيا ولذاتها، وإذا غلبت هذه الإرادة على قلبه صحت نيته في الأمور كلها، فإن أكل - مثلا أو اشتغل بقضاء الحاجة كان قصده منه الاستعانة على سلوك طريق الآخرة، واندفع عنه كل غرور منشأه تجاذب الأعراض والنزوع إلى الدنيا وإلى الجاه والمال، وما دامت الدنيا أحب إليه من الآخرة وهوى نفسه أحب إليه من رضاء الله، لم يمكنه الخلاص من الغرور. فالأصل في علاج الغرور: أن يفرغ القلب من حب الدنيا، ويغلب عليه حب الله، حتى تتقوى به الإرادة وتصح به النية ويندفع عنه الغرور. قال الصادق (ع): (واعلم أنك لن تخرج من ظلمات الغرور والتمني إلا بصدق الإنابة إلى الله، والإخبات له، ومعرفة عيوب أحوالك من حيث لا يوافق العقل والعلم، ولا يحتمله الدين والشريعة. وسنن القدوة وأئمة الهدى، وإن كنت راضيا بما أنت فيه فما أحد أشقى بعملك منك وأضيع عمرا، فأورثت حسرة يوم القيامة). (٢٧)

ومنها:

طول الأمل

معنى طول الأمل ومرجعه - علاجه - ضد قصر الأمل - اختلاف الناس في طول الأمل - ذكر الموت مقصر للأمل - التعجب ممن ينسى الموت - الموت أعظم الدواهي - مراتب الناس في ذكر الموت.

وهو أن يقدر ويعتقد بقاءه إلى مدة متمادية، مع رغبته في جميع توابع البقاء: من المال والأهل والدار وغير ذلك، وهو من رذائل قوتي العاقلة والشهوة إذ الاعتقاد المذكور راجع إلى الجهل المتعلق بالعاقلة، وحبه لجميع توابع البقاء وميله إليه من شعب حب الدنيا. وجهله راجع إلى تعويله:
أما على شبابه، فيستبعد قرب الموت مع الشباب، ولا يتفكر المسكين في أن مشايخ بلده لو عدوا لكانوا أقل من عشر عشير أهل البلد، وإنما قلوا لأن الموت في الشباب أكثر، وإلى أن يموت شيخ يموت ألف صبي وشاب،

---

(٢٧) صححناه على مصباح الشريعة - الباب ٣٦.

أو على صحته وقوته، ويستبعد مجئ الموت فجأة، ولا يتأمل في أن ذلك غير بعيد
ولو سلم بعده فالمرض فجأة غير بعيد، إذ كل مرض إنما يقع فجأة، وإذا مرض لم يكن الموت بعيدا. ولو تفكر هذا الغافل، وعلم أن الموت ليس له وقت مخصوص، من شباب وشيب وكهولة، ومن شتاء وخريف وصيف وربيع، وليل ونهار، وحضر وسفر، لكان دائما مستشعرا غير غافل عنه، وعظم اشتغاله بالاستعداد له، لكن الجهل بهذه الأمور وحب الدنيا بعثاه على الغفلة وطول الأمل، فهو أبدا يظن أن الموت بين يديه، ولا يقدر نزوله ووقوعه فيه، ويشيع الجنائز ولا يقدر أن تشيع جنازته، لأن هذا قد تكرر عليه، وألفه بتكرر مشاهدة موت غيره. وأما موت نفسه، فلم يألفه ولا يتصور أن يألفه، لأنه لم يقع، وإذا وقع لا يقع دفعة أخرى بعده، فهو الأول وهو الآخر!
وأما حبه لتوابع البقاء: من المال والدار والمراكب والضياع والعقار، فراجع إلى الأنس بها والالتذاذ بها في مدة مديدة، فيثقل على قلبه مفارقتها، فيمنع قلبه عن التفكر في الموت الذي هو سبب مفارقتها، إذ كل من كره شيئا يدفعه عن نفسه. والانسان لما كان مشغوفا بالأماني الباطلة، وبالدنيا وشهواتها ولذاتها وعلائقها، فتتمنى نفسه أبدا ما يوافق مراده، ومراده البقاء في الدنيا فلا يزال يتوهمه ويقرره في نفسه، ويقدر توابع البقاء من أسباب الدنيا، فيصير قلبه عاكفا على هذا الفكر موقوفا عليه، فيلهو عن ذكر الموت ولا يقدر قربه، فإن خطر له في بعض الأحيان أمر الموت والحاجة إلى الاستعداد له، سوف ووعد نفسه إلى أن يكبر فيتوب. وإذا كبر أخر التوبة إلى أن يصير شيخا وإذا صار شيخا يؤخرها إلى أن يفرغ من عمارة هذه الضيعة أو يرجع من سفر كذا أو يفرغ من تدبير هذا الولد وجهازه وتدبير مسكن له، ولا يزال يسوف ويؤخر إلى أن يخطفه الموت في وقت لا يحتسبه، فتعظم عند ذلك بليته وتطول حسرته، وقد ورد أن أكثر أهل النار صياحهم من سوف، يقولون وا حزناه من سوف! والمسوف المسكين لا يدري إن الذي يدعوه إلى التسويف اليوم هو معه غدا، وإنما يزداد بطول المدة قوة ورسوخا، إذ الخائض في الدنيا

لا يتصور له الفراغ منها قط، إذ ما قضى من أخذ لبانته، وإنما فرغ منها من أطرحها.

فصل

علاج طول الأمل

لما عرفت أن طول الأمل منشأه الجهل وحب الدنيا، فينبغي أن يدفع الجهل بالفكر الصافي من شوائب العمى، وبسماع الوعظ من النفوس الطاهرة، فإن من تفكر يعلم أن الموت أقرب إليه من كل شئ، وإنه لا بد أن تحمل جنازته ويدفن في قبره، ولعل اللبن الذي يغطي به لحده قد ضرب وفرغ منه، ولعل أكفانه قد خرجت من عند القصار وهو لا يدري به، وأما حب الدنيا فينبغي أن يدفع من القلب بالتأمل في حقارة الدنيا ونفاسة الآخرة، وما ورد في الأخبار من الذم والعقاب في حب الدنيا والرغبة إليها، ومن المدح والثواب على تركها والزهد عنها، وقد تقدم ما يكفي لهذا البيان وينبغي - أيضا - أن يتذكر ما ورد في مدح ضد طول الأمل - أعني قصر الأمل كما يأتي - وما ورد في ذنب طول الأمل، كقوله (ص): (إن أشد ما أخاف عليكم خصلتان: أتباع الهوى، وطول الأمل. فأما اتباع الهوى فإنه يصد عن الحق، وأما طول الأمل فإنه الحب للدنيا - ثم قال -: إن الله يعطي الدنيا من يحب ويبغض وإذا أحب عبدا أعطاه الإيمان، ألا إن للدين أبناء وللدنيا أبناء، فكونوا من أبناء الدين ولا تكونوا من أبناء الدنيا، ألا إن الدنيا قد ارتحلت مولية، ألا إن الآخرة قد أتت مقبلة، ألا وإنكم في يوم عمل ليس فيه حساب، ألا وإنكم يوشك أن تكونوا في يوم حساب ليس فيه عمل) (٢٨). وقوله صلى الله عليه وآله: (نجا أول هذه الأمة باليقين والزهد، ويهلك آخر هذه الأمة بالبخل والأمل). وقول أمير المؤمنين عليه السلام: (ما أطال عبد الأمل إلا أساء الأمل).

---

(٢٨) صححنا الحديث على إحياء العلوم: ٤ / ٣٨٤، وهو يرويه عن علي عليه السلام عن النبي (ص) ولكن في كنز العمال: ٢ / ١٦٩، يرويه: إنه من كلام علي (ع) نفسه، مع اختلاف يسير عن عبارة الأحياء وعبارة الكنز أبلغ وأرصن، وفيه كلمة (الآخرة) بدل (الدين)، ونفس الكلام مع اختلاف يسير (أيضا وهو أبلغ وأعلى من العبارتين) مروي في نهج البلاغة: رقم ٤١ من باب الخطب، فراجع

وصل

قصر الأمل

ضد طول الأمل قصره، وهو من شعار المؤمنين ودثار الموقنين، ولذ ا ورد في الأمر به والنهي عن ضده ما ورد، قال رسول الله (ص): (إذا أصبحت فلا تحدث نفسك بالمساء، وإذا أمسيت فلا تحدث نفسك بالصباح، وخذ من دنياك لآخرتك، ومن حياتك لموتك، ومن صحتك لسقمك، فإنك لا تدري ما اسمك غدا). وقال (ص) بعدما ما سمع أن أسامة اشترى وليدة بمائة دينار إلى شهر: (إن أسامة لطويل الأمل، والذي نفسي بيده! ما طرقت عيناي إلا ظننت أن شفري لا يلتقيان حتى يقبض الله روحي، ولا رفعت طرفي فظننت أني واضعه حتى أقبض، ولا لقمت لقمة إلا ظننت أني لا أسيغها حتى أغص بها من الموت)، ثم قال: (يا بني آدم! إن كنتم تعقلون فعدوا أنفسكم من الموتى، والذي نفسي بيده! أن ما توعدون الآن وما أنتم بمعجزين) وروي: (أنه (ص) قد اطلع ذات عشية إلى الناس، فقال: أيها الناس! أما تستحيون من الله تعالى؟ قالوا: وما ذاك يا رسول الله! قال: تجمعون ما لا تأكلون، وتأملون ما لا تدركون، وتبنون ما لا تسكنون). (وقال) ص): أكلكم يحب أن يدخل الجنة؟ قالوا: نعم يا رسول الله! قال: قصروا من الأمل، واجعلوا آجالكم بين أبصاركم، واستحيوا من الله حق الحياة). وكان (ص) يقول في دعائه: (اللهم إني أعوذ بك من دنيا تمنع خير الآخرة، وأعوذ بك من حياة تمنع خير الممات، وأعوذ بك من أمل يمنع خير العمل). وكان (ص) يتيمم مع القدرة على الماء قبل مضي ساعة ويقول لعلي لا أبلغه. وقال عيسى (ع): (لا تهتموا برزق غد، فإن لم يكن غدا من آجالكم فستأتي أرزاقكم مع آجالكم، وإن لم يكن غدا من آجالكم فلا تهتموا لأرزاق غيركم).

فصل

اختلاف الناس في طول الأمل

الناس في طول الأمل وقصره مختلفون: (فمنهم) من يأمل البقاء ويشتهيه أبدا، كما قال الله – سبحانه –:

(يود أحدهم لو يعمر ألف سنة) (٢٩)
وهو الذي انغمر في الدنيا وخاض في لذاتها، وليس له من الآخرة نصيب. (ومنهم) من يأمل البقاء إلى أقصى مدة العمر الذي يتصور لأهل عصره، وهو الذي يحب الدنيا حبا شديدا، ويشتغل بجمع ما يمكنه في هذه المدة، وربما يجتهد بجمع الأزيد منه. (ومنهم) من يأمل أقل من ذلك إلى أن ينتهي إلى من لا يأمل أزيد من سنة، فلا يشتغل بتدبير ما وراءها، ولا يقدر لنفسه وجوده في عام قابل، فإن بلغه حمد الله على ذلك، ومثله يستعد في الصيف للشتاء وفي الشتاء للصيف، وإذا جمع ما يكفيه السنة أشتغل بالعبادة. (ومنهم) من يأمل أقل من السنة إلى أن ينتهي إلى من لا يأمل أزيد من يوم وليلة، فلا يستعد إلا لنهاره دون غده. (ومنهم) من يكون الموت نصب عينيه، كأنه واقع به وهو ينتظره، ومثله يصلي دائما صلاة المودعين. وروي: (أن النبي (ص) سئل بعض الصحابة عن حقيقة إيمانه، قال: ما خطوت خطوة إلا ظننت أني لا أتبعها أخرى). وكان بعضهم إذا يصلي يلتفت يمينا وشمالا، ولما قيل له: ما هذا الالتفات؟ قال: (انتظر ملك الموت من أي جهة يأتيني).
ثم أكثر الخلق – (لا) سيما في أمثال زماننا – قد غلبهم طول الأمل، بحيث يأمل أقل من أقصى مدة السن، وقل فيهم من قصر أمله، والعجب أنه كلما يزداد السن يزداد طول الأمل وفي عصرنا أكثر المشايخ والمعمرين حرصهم وطول أملهم أكثر من الشبان، ومن هنا قال رسول الله (ص): (يشيب ابن آدم وتشب فيه خصلتان: الحرص، وطول الأمل). وقال صلى الله عليه وآله: حب الشيخ شاب في طلب الدنيا، وإن التفت ترقوتاه من الكبر، إلا الذين اتقوا، وقليل ما هم).
ثم يعرف طول الأمل وقصره بالأعمال: فمن اعتنى بجمع أسبابها لا يحتاج إليها في سنة فهو طويل الأمل، وكذلك من انتشرت أموره، بأن يكون له مع الناس معاملات ومحاسبات إلى مدة معينة، كالسنة وأزيد منها، وكان

---

(٢٩) البقرة، الآية ٩٦

عليه ديون من الناس كذلك، ومع ذلك لم يكن مضطربا ولا خائفا فهو طويل الأمل. فعلامة قصر الأمل: أن يجمع أمره بحيث لا يكون عليه من الناس شئ، ولا يسعى بطلب قوت الزائد على أربعين يوما، ويصرف أوقاته في الطاعة والعبادة، ويرى نفسه كمسافر يجتهد في تحصيل الزاد

فصل

ذكر الموت مقصر للأمل

ذكر الموت يقصر الأمل ويدفع طوله، ويوجب التجافي عن دار الغرور والاستعداد لدار الخلود في فضيلته والترغيب فيه أخبار كثيرة، قال رسول الله صلى الله عليه وآله -: (أكثروا ذكر هادم اللذات)، قيل، وما هو يا رسول الله!؟ قال: (الموت، فما ذكره عبد على الحقيقة في منعه إلا ضاقت عليه الدنيا، ولا في شدة إلا اتسعت عليه). وقال رسول (ص) -: (تحفة المؤمن الموت). وقال (ص) الموت كفارة لكل مسلم). وقيل له (ص): هل يحشر مع الشهداء أحد؟ قال: (نعم من يذكر الموت في اليوم والليلة عشرين مرة). وقال (ص): (أكثروا من ذكر الموت، فإنه يمحص الذنوب، ويزهد في الدنيا). وقال (ص): (كفى بالموت واعظا). وقال (ص): (الموت الموت، ألا ولا بد من الموت، جاء الموت بما فيه، جاءا بالروح والراحة والكرة المباركة إلى الجنة عالية لأهل دار الخلود الذين كان لها سعيهم وفيها رغبتهم) وقال (ص) (إذا استحقت ولاية الله والسعادة، جاء الأجل بين العينين وذهب الأمل وراء الظهر، وإذا استحقت ولاية الشيطان والشقاوة، جاء الأمل بين العينين وذهب الأجل وراء الظهر) وذكر عنده (ص) رجل فأحسن الثناء عليه فقال (ص) (كيف ذكر صاحبكم للموت؟) قالوا: ما كنا نكاد نسمعه يذكر الموت قال: (فإن صاحبكم ليس هنالك). وسئل: أي المؤمنين أكيس وأكرم؟ فقال: (أكثرهم ذكرا للموت، وأشدهم استعدادا له، أولئك هم الأكياس ذهبوا بشرف الدنيا وكرامة الآخرة). وقال الباقر (ع): (أكثروا ذكر الموت فإنه لم يكثر ذكره إنسان إلا زهد في الدنيا). وقال الصادق (ع): (إذا أنت حملت جنازة فكن كأنك أنت المحمول وكأنك سألت ربك الرجوع إلى

الدنيا ففعل، فانظر ماذا تستأنف) ثم قال (ع) (عجبا لقوم حبس أولهم عن آخرهم، ثم نودي فيهم بالرحيل وهم يلعبون). وقال (ع) لأبي بصير بعد ما شكى إليه الوسواس -: (أذكر يا أبا محمد تقطع أوصالك في قبرك ورجوع أحبائك عنك إذا دفنوك في حفرتك وخروج، بنات الماء من منخريك وأكل الدود لحمك، فإن ذلك يسلي عليك ما أنت فيه)، وقال أبو بصير: فوالله! ما ذكرته إلا سلى عني ما أنا فيه من هم الدنيا وقال (ع): (من كان كفنه معه في بيته لم يكتب من الغافلين، وكان مأجورا كلما نظر إليه) (٣٠).

وقال (ع): (ذكر الموت يميت الشهوات في النفس، ويقلع منابت الغفلة، ويقوي القلب بمواعد الله، ويرق الطبع، ويكسر أعلام الهوى، ويطفئ نار الحرص، ويحقر الدنيا، وهو معنى ما قال النبي (ص): (فكر ساعة خير من عبادة سنة)، وذلك عندما يحل أطناب خيام الدنيا ويشهدها في الآخرة، ولا ينكر نزول الرحمة عند ذكر الموت بهذه الصفة، ومن لا يعتبر بالموت، وقلة حيلته، وكثرة عجزه، وطول مقامه في القبر، وتحيره في القيامة: فلا خير فيه. وقال النبي (ص): (أكثر ذكر هادم الذات..) ثم ذكر تمام الحديث كما مر.. ثم قال (ع): والموت أول منزل من منازل الآخرة وآخر منزل من الدنيا، فطوبى لم أكرم عند النزول بأولها، وطوبى لمن أحسن مشايعته في آخرها، والموت أقرب الأشياء من بني آدم، وهو بعده أبعد، فما أجرأ الإنسان على نفسه، وما أضعفه من خلق، وفي الموت نجاة المخلصين وهلاك المجرمين، ولذلك اشتاق من اشتاق إلى الموت وكره من كره، قال النبي (ص) (من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه) (٣١) فصل العجب ممن ينسى الموت

عجبا لقوم نسوا الموت وغفلوا عنه وهو أظهر اليقينيات والقطعيات في العالم وأسرع الأشياء إلى بني آدم، وقال الله - سبحانه تعالى -

---

(٣٠) صححنا أكثر الأحاديث على الوسائل - ج ١: الباب ٢٣ من أبواب الاستحضار في كتاب الطهارة -، وعلى إحياء العلوم: ٤ / ٢٨٣.

(٣١) صححنا الحديث على مصباح الشريعة: الباب ٨٤

(أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة) (٣٢). وقال - (كل نفس ذائقة الموت وأنما يتوفون أجورهم يوم القيامة فيمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور) (٣٣).

وقال الصادق (ع): (ما خلق الله يقينا لا شك فيه أشبه بشك لا يقين فيه من الموت). وقال أمير المؤمنين (ع) (ما أنزل الموت حق منزلته من عد غدا من أجله) وقال (ع): (لو رأى العبد أجله وسرعته إليه، لأبغض العمل من الدنيا). وقال الصادق (ع) (ما من أهل بيت شعر ولا وبر إلا وملك الموت يتصفحه كل يوم خمسة مرات). وقد تقدمت أخبار أخر في هذا المعنى. فصل

الموت أعظم الدواهي

إعلم أن الموت داهية من الدواهي العظمى، ومن كل داهية أشد وأدهى وهو من الأخطار العظيمة والأهوال الجسيمة، فمن علم أن الموت مصرعه والتراب مضجعه والقبر مقره وبطن الأرض مستقره، والدود أنيسه والعقارب والحيات جليسه، فجدير أن تطول حسرته وتدوم عبرته، وتنحصر فيه فكرته وتعظم بليته، وتشتد لأجله رزيته، ويرى نفسه في أصحاب القبور ويعدها من الأموات، إذ كلما هو آت قريب والبعيد ما ليس بآت وحقيقة ألا يكون ذكره وفكره وغمه وهمه وقوله وفعله وسعيه وجده إلا فيه وله، قال رسول الله - صلى الله عليه وآله -: (لو أن البهائم يعلمون ما تعلمون ما أكلتم منه سمينا). وقال (ص) لقوم يتحدثون ويضحكون: (أذكروا الموت أما والذي نفسي بيده! لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا).

ومر (ص) بمجلس قد استعلاه الضحك، فقال: (شوبوا مجلسكم بذكر مكدر اللذات). قالوا: وما مكدر اللذات؟ قال: (الموت).

ثم غفلة الناس عن الموت لقلة فكرهم فيه وذكرهم له، ومن يذكره ليس يذكره بقلب فارغ، بل بقلب مشغول بشهوات الدنيا وعلائقها، فلا

---

(٣٢) النساء، الآية: ٧٧.

(٣٣) آل عمران، الآية: ١٨٥

ينفع ذكره في قلبه، فالطريق فيه: أن يفرغ القلب عن كل شئ إلا عن ذكر الموت الذي بين يديه، كالذي يريد أن يسافر إلى بلد بعيد ما بينهما مفازة مخطرة، أو بحر عظيم لا بد أن يركبه، فإنه لا يتفكر إلا فيه، ومن تفكر في الموت بهذا الطريق وتكرر منه، لا ترى ذكره في قلبه، وعند ذلك يقل فرحه وسروره بالدنيا وتنزجر نفسه عنها، وينكسر قلبه، ويستعد لأجله. وأوقع طريق فيه أن يكثر ذكر أقرانه الذين مضوا قبله، ونقلوا من أنس العشرة إلى وحشة الوحدة، ومن ضياء المهود إلى ظلمة اللحود ومن ملاعبة الجواري والغلمان إلى مصاحبة الهوام والديدان، ويتذكر مصرعهم تحت التراب، ويتذكر صورهم في مناصبهم وأحوالهم، ثم يتفكر كيف محي التراب الآن حسن صورتهم، وكيف تبددت أجزاؤهم في قبورهم، وكيف أملوا نسائهم وأيتموا أولادهم وضيعوا أموالهم وخلت منهم مساكنهم ومجالسهم وانقطعت آثارهم وأوحشت ديارهم، فمهما تذكر رجلا وفصل في قلبه حاله وكيفية صيانة وتوهم صورته، وتذكر نشاطه، وأمله في العيش والبقاء، ونسيانه للموت، وانخداعه بمؤثثات الأسباب، وركونه إلى القوة والشباب، وميله إلى الضحك واللهو، وغفلته عما بين يديه من الموت الذريع والهلاك السريع، وأنه كيف كان يتردد والآن قد تهدمت رجلاه ومفاصله، وكيف كان ينطق وقد أكل الدود لسانه، وكيف كان يضحك وقد أكل التراب أسنانه، وكيف دبر لنفسه الأمور وجمع من حطام الدنيا ما لا ينفق احتياجه إليه على مر الأعوام والشهور وذكر الأزمنة والدهور. ثم يتأمل أن مثلهم، وغفلته كغفلتهم وسيصير حاله في القبر كحالهم، فملازمة هذه الأفكار وأمثالها، مع دخول المقابر وتشييع الجنائز ومشاهدة المرضى، تجدد ذكر الموت في قلبه، حتى يغلب عليه بحيث يصير الموت نصب عينيه وذلك ربما يستعد له ويتجافى عن دار الغرور، وأما الذكر بظاهر القلب وعذبة اللسان فقيل الجدوى في النية والايقاظ

ومهما طاب قلبه بشئ من أسباب الدنيا، فينبغي أن يتذكر في الحال أنه لا بد من مفارقته كما نقل: أن بعض الأكابر نظر يوما إلى داره فأعجبه حسنها فبكى وقال: والله لولا الموت لكنت مسرورا بها.

فصل مراتب الناس في ذكر الموت
الناس بين منهمك في الدنيا خائض في لذاتها وشهواتها. وبين تائب مبتدئ، وعارف منتهي.
(فالأول): لا يذكر الموت، وأن ذكره فيذكر ليذمه لصده عما يحبه في الدنيا، وهو الذي يفر منه، وقال الله - تعالى - فيه (قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم)... (٣٤)
وهذا يزيده ذكر الموت بعدا من الله، إلا إذا استفاد منه التجافي عن الدنيا، ويتنغص عليه نعيمه، ويتكدر صفو لذته، وحين إذ ينفعه، لأن كل ما يكدر على الإنسان اللذات فهو من أسباب نجاته.
(والثاني): يكثر ذكر الموت لينبعث من قلبه الخوف والخشية، ففي بتمام التوبة، وربما يكرهه خيفة من أن يختطفه قبل الاستعداد وتهيئة لزاد وتمام التوبة، وهو معذور في كراهة الموت، ولا يدخل تحت قوله (ص): (من كره لقاء الله كره الله لقاءه)، لأن هذا ليس يكره الموت ولقاء الله وإنما يخاف فوت لقاء الله لقصوره وتقصيره، وهو الذي يتأخر عن لقاء الحبيب مشتغلا بالاستعداد للقاءه على وجه يرضاه، فلا يعد كارها للقاءه.
وعلامة هذا: أن يكون دائم الاستعداد للموت لا شغل له سواه، وإن لم يكن مستعدا له عاملا بما ينفعه في الآخرة التحق بالأول.
(وأما الثالث): فإنه يذكر الموت دائما، لأنه موعد للقاء حبيبه، والمحب لا ينسى قط موعد لقاء الحبيب، وهذا في الغالب الأمر يستبطئ مجئ الموت ويحب مجيئه، ليتخلص من دار العاصين وينتقل إلى جوار رب العالمين كما روي: (أن حذيفة لما حضرته الوفاة قال: حبيب جاء على فاقة لا أفلح من رده، اللهم إن كنت تعلم أن الفقر أحب إلي من الغنى، والسقم أحب إلي من الصحة، والموت أحب إلي من الحياة، فسهل علي الموت حتى ألقاك).
وأعلى رتبة منه: من يفوض أمره إلى الله، ولا يختار لنفسه شيئا: من الموت

---

(٣٤) الجمعة، الآية: ٨

أو الحياة، والفقر والغنى، والمرض والصحة، بل يكون أحب الأشياء إليه أحبها إلى مولاه، وهذا قد انتهى بفرط الحب والولاء إلى درجة التسليم والرضا، وهو الغاية والانتهاء.

تتميم

المبادرة إلى الحسنات

من علامات قصر الأمل وذكر الموت: المبادرة إلى الحسنات واشتياق الخيرات، ولذا ورد فيه الترغيب والحذر عن آفة التأخير، قال رسول الله – صلى الله عليه وآله –: (اغتنم خمسا قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك). وقال (ص): (من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة) (٣٥). وكان (ص) إذا أحس من أصحابه غفلة وغرة، نادى فيهم بصوت عال: (أتتكم المنية، إما بشقاوة أو سعادة). وروي: أنه ما من صباح ولا مساء إلا ومناد ينادي: أيها الناس! الرحيل الرحيل!. وقال بعض الأكابر: التؤدة في كل شئ خير، إلا في أعمال الآخرة.

ومنها:

العصيان

ولا ريب في كونه من رذائل قوتي الغضب والشهوة معا، لأن بعض أنواعه من رذائل إحداهما من جانب الإفراط أو التفريط، أو من باب رداءتها وبعض آخر من أنواعه من رذائل الأخرى. وضده (التقوى والورع)، وبالمعنى الأعم: أعني الاجتناب عن مطلب المعصية خوفا من سخط الله، وقد تقدم ما ورد في فضيلتهما، فتذكر.

ومنها:

الوقاحة

وهو عدم مبالاة النفس، وعدم انفعالها من ارتكاب المحرمات الشرعية والعقلية أو العرفية، وكونه من رداءة قوتي الغضب والشهوة ظاهر.

----

(٣٥) صححنا الحديث على إحياء العلوم: ٤ / ٣٩٠. وفي نسخ الكتاب (أولج ومن أولج).

وضدها (الحياء)، وهو انحصار النفس وانفعالها من ارتكاب المحرمات الشرعية والعقلية والعادية حذرا من الذنب واللوم، وهو أعم من التقوى، إذ التقوى اجتناب المعاصي الشرعية، والحياء يعم ذلك واجتناب ما يقبحه العقل والعرف أيضا، فهو من شرائف الصفات النفسية، ولذا ورد في فضله ما ورد، قال الصادق (ع): (الحياء من الإيمان، والإيمان في الجنة).
وقال (ع): (الحياء والعفاف والعي - أعنى عي اللسان لا عي القلب - من الإيمان). وقال (ع): (الحياء والإيمان مقرونان في قرن، فإذا ذهب أحدهما تبعه صاحبه). وقال (ع): (لا إيمان لمن لا حياء له).
ثم حقيقة الحياء - كما عرفت - هو الانفعال عن ارتكاب ما يذم شرعا أو عقلا أو عرفا، فالانفعال عن غير ذلك حمق، فإن الانفعال عن تحقيق أحكام الدين أو الخمود عما ينبغي شرعا وعقلا لا يعد حياء بل حمقا، ولذا قال رسول الله (ص): (الحياء حياءان: حياء عقل وحياء حمق، فحياء العقل هو العلم وحياء الحمق هو الجهل) (٣٦).
الإصرار على المعصية
ومنها:
رجوع رذيلة الإصرار إلى أي القوى وذمها - ضد الإصرار التوبة وتعريفها - هل يشترط في التوبة القدرة على الذنب السابق؟ - وجوب التوبة - تحقيق في وجوبها - عموم وجوبها - لا بد من العمل بعدها فضيلتها - قبولها - طريقة التوبة من المعاصي - تكفير الصغائر ومعنى الكبائر - الصغائر قد تكون كبائر - شروط كمال التوبة - هل يصح التبعيض فيها؟ - أقسام التأبين - ٠ مراتب التوبة - عدم الثقة بالاستقامة لا يمنع من التوبة - علاج الإصرار على الذنوب - الإنابة - المحاسبة والمراقبة - المعنى الظاهر لهما حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا - مقامات مرابطة الفعل للنفس.

---

(٣٦) صححنا الأحاديث هنا على أصول الكافي (باب الأحياء).

وهو إما ناشئ من رداءة إحدى القوتين وخروجها عن إطاعة العاقلة أو عن رداءتها معا، فيكون من رذائل القوتين، وكل ما يدل على ذم مطلق المعصية أو على ذم خصوص أفرادها المعينة يدل على ذم الإصرار على المعصية بطريق أولى وأوكد. والأخبار الواردة في ذم خصوص أفراد المعاصي ربما يظفر بجملة منها في هذا الكتاب عند ذكر كل معصية، وما الأخبار الواردة في ذم مطلق الذنب والمعصية فكثيرة جدا، كقول النبي (ص):
(ما من يوم طلع فجره ولا ليلة غاب شفقها إلا وملكان يناديان بأربعة أصوات، يقول أحدهما: يا ليت هذا الخلق لم يخلقوا، ويقول الآخر: يا ليتهم إذ خلقوا علموا لماذا خلقوا فيقول الآخر: فيا ليتهم إذ لم يعلموا لماذا خلقوا عملوا بما علموا، فيقول الآخر: ويا ليتهم إذ لم يعملوا بما علموا تابوا مما عملوا. واعلموا أن العبد ليحبس على ذنب من ذنوبه مائة عام، وإنه لينظر إلى أزواجه في الجنة يتنعمن). وقال أمير المؤمنين (ع): (لا تبدين عن واضحة وقد عمتك الأعمال الفاضحة، ولا تأمن البيات وقد عملت السيئات).
وقال الباقر (ع): (إن الله قضى قضاء حتما ألا ينعم على العبد بنعمة فيسلبها إياه حتى يحدث العبد ذنبا يستحق بذلك النقمة) وقال (ع): (ما من شئ أفسد للقلب من خطيئة، إن القلب ليواقع الخطيئة، فما يزال به حتى يغلب عليه، فيصير أعلاه أسفله). وقال (ع): (إن العبد ليذنب الذنب فيزوى عنه الرزق). وقال الصادق (ع): (يقول الله – تعالى –: إن أدنى ما أصنع بالعبد إذا آثر شهوته على طاعتي أن أحرمه لذيذ مناجاتي).
وقال (ع): (من هم بسيئة فلا يعملها، فإنه ربما عمل العبد السيئة فيراه الرب – تعالى – فيقول: وعزتي وجلالي! لا أغفر لك بعد ذلك أبدا).
وقال (ع): (أما إنه ليس من عرق يضرب، ولا نكبة ولا صداع ولا مرض، إلا بذنب، وذلك قول الله – عز وجل – في كتابه:
(وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفوا عن كثير) (٣٧).
قال (ع): وما يعفوا الله أكثر مما يؤاخذ به). وقال (ع): (أن الرجل يذنب الذنب فيحرم صلاة الليل، وإن العمل السئ أسرع في صاحبه

----

(٣٧) الشورى، الآية: ٣٠

من السكين في اللحم) وقال الكاظم (ع): (حق على الله ألا يعصى في دار إلا أضحاها للشمس حتى يطهرها) ٣٨.
والأخبار في هذا المعنى أكثر من أن تحصى، ولا يتوهم أحد أنه يمكن ألا يصل إليه أثر الذنب ووباله، فإن هذا محال. فإنه لم يتجاوز عن الأنبياء في تركهم الأولى. يتجاوز عن غيرهم في كبائر المعاصي.
نعم، كانت سعادتهم في أن عوجلوا بالعقوبة ولم يؤخروا إلى الآخرة، والأشقياء يمهلون ليزدادوا إثما، ويعذبوا في الآخرة عذابا أكبر وأشد، أما سمعت أن أباك آدم قد أخرج من الجنة بتركه الأولى؟ حتى روي: (أنه لما أكل الشجرة تطايرت الحلل عن جسده وبدت عورته، وجاء جبرئيل (ع) وأخذ التاج من رأسه وخلا الإكليل عن جنبيه، ونودي من فوق العرش إهبطا من جواري، فإنه لا يجاورني من عصاني فالتفت آدم إلى حواء باكيا، وقال: هذا أول شؤم المعصية، أخرجنا من جوار الحبيب). وروي: (أنه – تعالى – قال: يا آدم! أي جار كنت لك؟ قال: نعم الجار يا رب! قال يا آدم! أخرج من جواري وضع عن رأسك كرامتي، فإنه لا يجاورني من عصاني). وقد روي: (أن آدم بكى على ذنبه مائتي سنة، حتى قبل الله توبته وتجاوز عما ارتكبه من ترك الأولى). فإن كانت مؤاخذته في نهي تنزيهه مع حبيبه وصفيه هكذا، فكيف معاملته مع الغير في ذنوب لا تحصى.

وصل

التوبة وتعريفها

ضد الإصرار (التوبة)، وهي الرجوع من الذنب القولي والفعلي والفكري، وبعبارة أخرى: هي تنزيه القلب عن الذنب والرجوع من البعد إلى القرب، وبعبارة أخرى: ترك المعاصي في الحال والعزم على تركها في الاستقبال وتدارك ما سبق من التقصير. وكما أن الإصرار على العصيان من رذائل قوتي الغضب والشهوة، فالرجوع عنه وتركه من فضائلهما، بمعنى

---

(٣٨) صححنا الأحاديث هنا على أصول الكافي (باب الذنوب)

أن العزم على ترك كل معصية يكون من عمل كليهما أو إحداهما، ومن فعل النفس بإعانتهما وانقيادهما للعاقلة، وأن كان الباعث على الرجوع وتهيج النفس والقوتين على مباشرة الرجوع والترك هو معرفة عظم ضرر الذنوب، وكونها حجابا بين العبد وبين المحبوب، ويمكن أن يقال: إن التوبة هو الرجوع عن الذنب، وهو من ثمرات الخوف والحب، فإن مقتضى الحب أن يمتثل مراد المحبوب ولا يعصى في شئ مما يريده ويطلب من الحب، فتكون من فضائل القوتين أيضا. ويمكن أن يقال: أن التوبة عبارة عن مجموع العلم بضرر الذنوب، وكونها حجابا بينه وبين الله والندم الحاصل منه، والقصد المتعلق بالترك حالا واستقبالا، والتلافي للماضي والندم، والقصد بالترك والتلافي من فعل القوتين أو فعل النفس بواسطة القوتين وانقيادهما للعاقلة، والعلم المذكور من العاقلة، فتكون التوبة من فضائل القوى الثلاث.

وتوضيح حقيقة التوبة: أنه إذا علم العبد علما يقينيا أن ما صدر عنه من الذنوب حائلة بينه وبين محابه، ثار من هذا العلم تألم القلب بسبب فوات المحبوب، وصار متأسفا على ما صدر عنه من الذنوب، سواء كانت أفعالا أو تروكا للطاعات، ويسمى تألمه - بسبب فعله أو تركه المفوت لمحبوبه - ندما. وإذا غلب هذا الندم على القلب، انبعثت منه حالة أخرى تسمى إرادة وقصدا إلى فعل له تعلق بالحال بترك الذنب الذي كان ملابسا له، وبالاستقبال بعزمه على ترك الذنب المفوت لمحبوبه إلى آخر عمره، وبالماضي بتلافيه ما فات بالجبر والقضاء. فالعلم - أعني اليقين بكون الذنوب سموما مهلكة - هو الأول، وهو مطلع البواقي، إذ مهما أشرق نور هذا اليقين على القلب أثمر نار الندم على الذنب، فيتألم به القلب، حيث ينظر بإشراق نور الإيمان واليقين أنه صار محجوبا عن محبوبه، كمن يشرق عليه نور الشمس وقد كان في ظلمة، فيسطع النور عليه بانقشاع سحاب أو انحسار حجاب، فيرى محبوبه قد أشرف على الهلاك، فتشتعل نيران الحب في قلبه وتنبعث بتلك النيران إرادته للانتهاض للتدارك. فالعلم، والندم، والقصد المتعلق بالترك في الحال والاستقبال والتلافي للماضي: ثلاثة معاني مرتبة في

الحصول، يطلق أسم (التوبة) على مجموعها. وربما أطلقت التوبة على مجرد الندم، وجعل العلم كالسابق والمقدمة، والترك كالثمرة والتابع للمتأخر، وإلى هذا الاعتبار يشير قوله (ص): (الندم توبة)، إذ لا يخلو الندم عن علم أوجبه وأثمره، أو عن عزم يتبعه ويتلوه، فيكون الندم محفوفا بطرفيه، أعني ثمرته ومثمره ٠ وبهذا الاعتبار قيل في حدها: إنها ذوبان الحشا لما سبق من الخطأ، أو نار في القلب تلتهب وصدع في الكبد لا ينشعب، وربما أطلقت على مجرد ترك الذنوب حالا والعزم على تركها استقبالا، وبهذا الاعتبار قيل في حدها: إنها خلع لباس الجفاء ونشر بساط الوفاء، وإنها تبديل الحركات المذمومة بالحركات المحمودة، أو إنها ترك اختيار الذنب حالا وتوطين القلب وتجريد العزم على عدم العود إليه استقبالا. وعلى هذا لا يكون الندم داخلا في حقيقة التوبة وقد صرح بعض الأعاظم بخروجه عنها، محتجا بأن الندم – وهو تألم القلب وحزنه على الذنب – غير مقدور، ولذا ترى تقع الندامة على أمور في قلبه وهو يريد ألا يكون ذلك فلا يكون الندم مقدورا، وأنما المقدور تحصيل أسبابه، أعني الإيمان والعلم بفوات المحبوب وتحقيقها في قلبه. وعلى هذا فلا يكون الندم من التوبة، إذ التوبة مقدورة للعبد ومأمور بها فاللازم فيها التندم دون الندم. وغير خفي بأن الندم كغيره من صفات النفس، فإن أمكن إزالة الصفات النفسية وكسبها فالندم كذلك، وإلا لزم بطلان علم الأخلاق بالكلية وأيضا إذا أمكن تحصيل سبب الندامة – أعني العلم بفوات المحبوب – لزم ترتب المسبب – أعني الندامة عليه – فما معنى عدم كونه مقدورا، فالندامة في الإزالة والتحصيل لا يكون أصعب من كثير من الأخلاق النفسية وبعضهم يعد ما عدا التندم من شرائط التوبة، قال (وأما الندم المحبوب – لزم ترتب المسبب – أعني الندامة عليه – فما معنى عدم كونه التوبة حقيقة، وإنما المقدور تحصيل أسبابه من العلم والإيمان وتحقيقهما في قلبه) إنتهى. وفيه ما لا يخفى بعلاوة ما سبق، قال الصادق (ع): (التوبة حبل الله ومدد عنايته، ولا بد للعبد من مداومة التوبة على كل حال وكل فرقة من العباد لهم توبة، فتوبة الأنبياء من اضطراب السر وتوبة

الأولياء من تلوين الخطرات، وتوبة الأصفياء من التنفيس، وتوبة الخاص من الاشتغال بغير الله، وتوبة العام من الذنوب، ولكل واحد منهم معرفة وعلم في أصل توبته ومنتهى أمره، وذلك يطول شرحه هنا.

وأما توبة العام فإن يغسل باطنه من الذنوب بماء الحسرة، والاعتراف بجنايته دائما، واعتقاد الندم على ما مضى، والخوف على ما بقي من عمره ولا يستصغر ذنوبه فيحمله ذلك إلى الكسل، ويديم البكاء والأسف على ما فاته من طاعة الله، ويحبس نفسه عن الشهوات، ويستغيث إلى الله تعالى ليحفظه على وفاء توبته ويعصمه عن العود إلى ما سلف، ويروض نفسه في ميدان الجهاد والعبادة، ويقضي عن الفوائت من الفرائض، ويرد المظالم، ويعتزل قرناء السوء، ويسهر ليله ويظمأ نهاره، ويتفكر دائما في عاقبته، ويستعين بالله سائلا منه الاستقامة في سرائه وضرائه، ويثبت عند المحن والبلاء كي لا يسقط عن درجة التوابين، فإن في ذلك طهارة من ذنوبه، وزيادة في عمله، ورفعة في درجاته. قال الله – عز وجل –:

(فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين) (٣٩ – ٤٠).

تتمة

هل يشترط في التوبة القدرة على الذنب السابق؟

التوبة إنما تكون عن ذنب سبق مثله، (أما) () ٤١) ترك ذنب لم يسبق مثله حالا والعزم على تركه استقبالا لا يسمى توبة، بل يسمى تقوى، ويسمى صاحبه متقيا لا تائبا، ولذا يصح القول بأن النبي (ص) كان متقيا عن الكفر، ولا يصح القول بأنه كان تائبا عنه. ثم المراد بالمثل السابق أعم من أن يكون مثلا في الصورة أو المنزلة، فالشيخ الهرم الذي سبق منه الزنا وقطع الطريق، ولم يقدر الساعة على فعلهما إذا أراد التوبة عنهما، ينبغي أن يتوب عما يماثلهما منزلة ودرجة، كالقذف والسرقة وأمثالهما، إذ لا معنى للتوبة عما يماثلهما صورة – أعني نفس الزنا وقطع الطريق

---

(٣٩) العنكبوت الآية: ٣

(٤٠) صححنا هذه الرواية على (مصباح الشريعة: الباب ٨٠).

(٤١) وفي النسخ (أو) بدل (أما)، والصحيح ما ثبتناه.

مع عدم قدرته عليهما، ولو لم تكن التوبة عما يماثل الشئ في المنزلة والدرجة توبة عن هذا الشئ، لزم أن يكون باب التوبة مسدودا بالنسبة إلى مثل الشيخ الهرم وكل من صدر منه معصية والآن لا يقدر عليها، وهو باطل، لانفتاح باب التوبة إلى الموت، ولما ذكر، قال بعض المشايخ في حد التوبة: (إنها ترك اختيار ذنب سبق مثله منه منزلة لا صورة تعظيما لله وحذرا من سخطه). فقوله: (سبق مثله) احتراز عن ترك ذنب لم يسبق مثله، فإنه لا يسمى توبة بل تقوى، وقوله: (منزلة لا صورة) لإدخال التوبة عما سبق ولا يقدر الآن على فعله، وعلى هذا فتوبة العنين عن النظر واللمس وأمثال ذلك يكون توبة عن الزنا الذي قارفه قبل طريان العنة، والظاهر أن بناء ذلك على دلالة توبته عما يقدر عليه الآن، على أنه لو كان قادرا على الزنا لتركه أيضا، لإشعاره بأن توبته صدرت عن معرفة ويقين بضرر الزنا الذي قارفه قبل طريان العنة، فلو كان قادرا عليه لتركه أيضا.

قال أبو حامد الغزالي: (إن قلت: هل تصح توبة العنين من الزنا الذي قارفه قبل طريان العنة؟ قلت: لا: لأن التوبة عبارة عن ندم يبعث العزم على الترك فيما يقدر على فعله وما لا يقدر على فعله، فقد انعدم بنفسه لا بتركه إياه)، ثم قال: (ولكني أقول: لو طرأ عليه بعد العنة كشف ومعرفة تحقق به ضرر الزنا الذي قارفه، وثار منه احتراق وتحسر وندم بحيث لو كانت شهوة الوقاع باقية لكانت حرقة الندم تقمع تلك الشهوة وتغلبها، فإني أرجو أن يكون ذلك مكفرا لذنبه وماحيا عنه سيئته، إذ لا خلاف في أنه لو تاب قبل طريان العنة ومات عقيب التوبة كان من التائبين، وإن لم تطرأ عليه حالة تهيج فيها الشهوة وتتيسر أسباب قضاء الشهوة، ولكنه تائب باعتبار أن ندمه بلغ مبلغا أوجب صرف قصده عن الزنا لو ظهر قصده، فإذن لا يستحيل أن تبلغ قوة الندم في حق العنين هذا المبلغ إلا أنه لا يعرفه من نفسه، فإن كل من لا يشتهي شيئا يقدر نفسه قادرا على تركه بأدنى خوف،

والله مطلع على ضميره وعلى مقدار ندمه، فعساه يقبله منه، بل الظاهر أنه يقبله والحقيقة في هذا كله ترجع إلى أن ظلمة

المعصية تنمحي عن القلب بشيئين: - أحدهما - حرقة الندم، و - الآخر - شدة المجاهدة بالترك بالمستقبل، وقد امتنعت المجاهدة بزوال الشهوة، ولكن ليس محالا أن يقوى الندم بحيث يقوى على محوها دون المجاهدة، ولولا هذا لقلنا: أن التوبة لا تقبل ما لم يعش التائب بعد التوبة مدة يجاهد نفسه في عين تلك الشهوة مرات كثيرة، وذلك مما يدل ظاهر الشرع على اشتراطه.

فصل

وجوب التوبة

التوبة عن الذنوب بأسرها واجبة: الإجماع، والنقل، والعقل،:

أما الإجماع - فلا ريب في انعقاده. وأما النقل - فكقوله تعالى:

(وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون) (٤٢). وقوله تعالى

(يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم) (٤٣)

ومعنى النصوح: الخالص لله خاليا عن شوائب الأغراض، من مال أو جاه أو خوف من سلطان أو عدم أسباب، والأمر للوجوب، فتكون التوبة واجبة بمقتضى الآيتين.

وأما العقل - فهو أن من علم معنى الوجوب ومعنى التوبة فلا يشك في ثبوته لها. (بيان ذلك): أن معنى الواجب وحقيقته هو ما يتوقف عليه الوصول إلى سعادة الأبد والنجاة من هلاك السرمد، ولولا تعلق السعادة والشقاوة بفعل الشئ وتركه لم يكن معنى لوجوبه، فالواجب ما هو وسيلة وذريعة إلى سعادة الأبد. ولا ريب في أنه لا سعادة في دار البقاء إلا في لقاء الله والأنس به، فكل من كان محجوبا عن اللقاء والوصال محروما عن مشاهدة الجلال والجمال، فهو شقي لا محال، محترق بنار الفراق ونار جهنم. ثم لا مبعد عن لقاء الله إلا اتباع الشهوات النفسية والغضب والأنس بهذا العالم الفاني، والإكباب على حب ما لا بد من مفارقته قطعا، ويعبر عن

----

(٤٢) التحريم، الآية: ٨.

(٤٣) النور، الآية: ٣١

ذلك بالذنوب. ولا مقرب من لقاء الله إلا قطع علاقة القلب من زخرف هذا العالم، والاقبال بالكلية على الله، طلبا للأنس به بدوام الذكر، والمحبة له بدوام الفكر في عظمته وجلاله وجماله على قدر طاقته، ولا ريب في أن الانصراف عن طريق البعد الذي هو الشقاوة واجب للوصول إلى القرب الذي هو السعادة، ولا يتم ذلك إلا بالتوبة التي عبارة عن العلم والندم والعزم، ولا يتم الواجب إلا به، فهو واجب، فالتوبة واجبة قطعا.

تذنيب

تحقيق في وجوب التوبة

كيف لا تكون التوبة عن المعاصي واجبة، مع أن العلم بضرر المعاصي وكونها مهلكة من أجزاء الإيمان ووجوب الإيمان ومما لا ريب فيه، والعالم بهذا العلم إذا لم يعمل به فكما لا يعلمه أو ينكره فلا يكون له هذا الجزء من الإيمان، لأن كل علم يراد ليكون باعثا على العمل، فلا يقع التفصي عن عهدته ما لم يصير باعثا، فالعلم بضرر الذنوب إنما، أريد ليكون باعثا على تركها فمن لم يتركها فهو فاقد لهذا الجزء من الإيمان، وهو المراد بقول النبي (ص): (لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن)، وما أراد به نفي الإيمان بالله ووحدانيته وصفاته وكتبه ورسله، فإن ذلك لا ينافي الزنا والمعاصي، وإنما أراد به نفي الإيمان بالله لكون الزنا مبعدا عن الله وموجبا لسخطه، وليس الإيمان بابا واحدا، بل هو - كما ورد - نيف وسبعون بابا، أعلاها الشهادتان وأدناها إماطة الأذى عن الطريق،، ومثاله قول القائل : ليس الإنسان موجودا واحدا، بل هو نيف وسبعون موجودا، أعلاها الروح والقلب وأدناها إماطة الأذى عن البشرة، بأن يكون مقصوص الشارب مقلوم الأظافر نقي البشرة عن الخبث، حتى يتميز عن البهائم المرسلة المتلوثة بأرواثها، المستكرهة الصور بطول مخالبها وأظافرها، فالإيمان كالانسان، وفقد الشهادتين كفقد الروح الذي يوجب البطلان بالكلية، والذي ليس له إلا شهادة التوحيد والرسالة ويترك سائر أجزائه من الأعمال، فهو كإنسان مقطوع الأطراف مفقوء العينين، فاقد لجميع أعضائه الظاهرة والباطنة،

إلا أصل الروح. وكما أن من هذا حاله قريب من الموت ومزايلة الروح الضعيفة المنفردة التي تخلفت عنها الأعضاء التي تمدها وتقويها، فكذلك من ليس له أصل الإيمان وهو مقصر في الأعمال، قريب من أن تنقلع
شجرة أيمانه إذا صدمتها الرياح العاصفة المحركة للإيمان في مقدمة قدوم ملك الموت ووروده، فكل إيمان لم يثبت في النفس أصله ولم تنتشر في الأعمال فروعه، لم يثبت على عواصف الأهوال عند ظهور ناصية ملك الموت وخيف عليه سوء الخاتمة، فالمحجوب عن الإيمان الذي هو شعب وفروع سيحجب في الخاتمة عن الإيمان الذي هو أصل، كما أن الشخص الفاقد لجميع الأطراف التي هي فروع لسياق إلى الموت المعدم للروح التي هي أصل، فلا بقاء للأصل دون الفرع، ولا وجود للفرع دون الأصل، ولا
فرق بين الأصل والفرع إلا في شئ واحد، وهو أن وجود الفرع وبقاءه جميعا يستدعي وجود الأصل، وأما وجود الأصل فلا يستدعي وجود الفرع ولكن بقاءه يستدعي وجود الفرع، فبقاء الأصل بالفرع ووجود الفرع بالأصل، كمساواة العاصي والمطيع في اسم المؤمن كمساواة شجرة القرع وشجرة الصنوبر في اسم الشجرة، وإنما يظهر الفرق إذا عصفت الرياح القوية، فعند ذلك تنقطع أصول شجرة القرع وتتناثر أوراقها، وتبقى
شجرة الصنوبر ثابته على أصلها وفرعها. ومثل العاصي الذي لا يخاف الخلود في النار لأجل معصيته اتكالا على إيمانه بالتوحيد والرسالة، كمثل الصحيح الذي يأكل الأغذية المضرة والسمومات ولا يخاف الموت اتكالا على صحته، فكما يؤدي صحة هذا الصحيح بتناوله السمومات والأغذية إلى المرض والمرض إلى الموت، فكذلك تؤدي ذنوب العاصي إلى سوء الخاتمة إلى الخلود في إلى الموت، فكذلك تؤدي ذنوب العاصي إلى سوء الخاتمة إلى الخلود في النار، فالمعاصي للإيمان كالسمومات والمأكولات المضرة للأبدان فكما أن مضرة السمومات لا تزال تجتمع في الباطن حتى تغير مزاج الأخلاط وهو لا يشعر بها إلى أن يفسد المزاج فيمرض دفعة ثم يموت دفعة، فكل آثار المعاصي لا تزال تتراكم في النفس حتى يفسد مزاجها فيسلب عنها أصل الإيمان، فالخائف من الموت في هذه النشأة القصيرة إذا وجب عليه ترك السموم وما يضره من المأكولات، فالخائف من هلاك الأبد أولى بأن يجب ترك

الذنوب، ومن تناول السم وندم إذا وجب عليه أن يتقيأ ويرجع عن تناوله بإخراجه عن المعدة، فتناول سموم الإيمان وهي الذنوب أولى بأن يجب عليه الرجوع عنها بالتدارك الممكن ما دام مهلة التدارك.

فالبدار البدار معاشر إخواني إلى التوبة! قبل أن تعمل سموم الذنوب بروح إيمانكم عملا لا ينفع بعده الاحتماء، ويخرج الأمر فيه عن أيدي أطباء القلوب، فلا ينفع حين إذ وعظ الواعظين ونصح الناصحين، وتحق عليكم كلمة العذاب. وتدخلون تحت عموم قوله – تعالى –:

(وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون) (٤٤) وقوله تعالى (ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة) (٤٥)... وغير ذلك من الآيات.

ثم مقتضى الأدلة المذكورة: كون التوبة على الفور، فيجب على كل مسلم أن يتوب عن ذنوبه فورا، ولا يجوز له التأخير. قال لقمان لابنه: (يا بني! لا تؤخر التوبة، فإن الموت يأتي بغتة). ومن ترك المبادرة إلى التوبة بالتسويف كان بين خطرين عظيمين: – أحدهما – أن تتراكم الظلمة على قلبه من المعاصي حتى يصير دينا وطبعا فلا يقبل المحو – والثاني – أن يعالجه المرض أو الموت فلا يجد مهلة للاشتغال بالمحو. ولذلك ورد: أن أكثر صياح أهل النار من التسويف، فما هلك من هلك إلا بالتسويف.

فصل

عموم وجوب التوبة

وجوب التوبة يعم الأشخاص والأحوال، فلا ينبغي أن ينفك عنه أحد في حالة، قال الله تعالى –:

(وتوبوا إلى الله جميعا) (٤٦).

وهو يعم الكل في الكل. ومما يدل على وجوبها على الكل: إن كل فرد من أفراد الناس إذا بلغ سن التمييز والتكليف قام القتال والنزاع في مملكة

----

(٤٤) يس، الآية: ٩

(٤٥) البقرة، الآية: ٧

(٤٦) النور، الآية: ٣١

بدنه، بين الشهوات جنود الشياطين، وبين العقول أحزاب الملائكة: إذ لا تكمن غريزة العقل في أحد إلا بعد كمال غريزة الشهوة والغضب وسائر الصفات المذمومة، وإذا قام القتال بينهما لا بد بحكم العقل والشرع أن يغلب جنود الله على جنود الشيطان بقمعها بكسر الشهوات، ورد النفس على سبيل القهر والغلبة على الصفات المحمودة والعبادات، ولا معنى لوجوب التوبة إلا هذا. مما يدل على وجوبها على الدوام وفي كل حال هو أن كل عبد لا يخلو عن معصية بجوارحه، فإن خلا في بعض الأحوال عن معصية الجوارح فلا يخلو عن رذائل النفس والهم بالذنوب بالقلب فإن خلا عن ذلك أيضا فلا يخلو عن وسوسة الشيطان بإيراد الخواطر المتفرقة المذهلة عن ذكر الله، فإن خلا عنه فلا يخلو عن غفلة وقصور في العلم بالله وصفاته وآثاره، وكل ذلك نقص يجب الرجوع عنه وهو معنى التوبة.

ولعدم خلو أحد من الخلق من نوع هذا النقص وأصله في حالة، وإن تفاوتوا في المقادير، يلزم وجوب التوبة على كل عبد في كل حالة، ولو خلا عن التوبة عن جميع الذنوب في لحظة واختطفه الموت، لزم خروج روحه بلا توبة، ولعدم انفكاكه قبل موته ولو بلحظة عن فرد من المعاصي المذكورة فالتوبة واجبة على كل عبد سالك في كل نفس من أنفاسه، قال بعض العرفاء (٤٧): (لو لم يبك العاقل فيما بقي من عمره إلا على فوت ما مضى من عمره في غير طاعة الله، لكان حقيقا أن يخزيه (٤٨) ذلك إلى الممات، فكيف من يستقبل ما بقي من عمره بمثل ما مضى من جهله). ومن عرف قدر العمر وفائدته وما يكتسب به من سعادة الأبد يعلم أن ما يصنع منه في المعصية وغير التوبة أي حسرة وندامة يترتب عليه، فإن العاقل إذا ملك جوهرة نفيسة، فإن ضاعت منه بغير فائدة بكى عليها لا محال، وإن ضاعت منه وصار ضياعها سبب هلاكه كان بكاؤه منه أشد، وكل نفس من العمر جوهرة نفيسة لا عوض لها لا يصلها لعبد إلى سعادة الأبد وإنقاذها إياه من شقاوة السرمد، وأي جوهر أنفس من هذا، فمن ضيعها في غفلة خسر خسرانا مبينا، ومن صرفها في

----

(٤٧) هو أبو سليمان الدرائي فيما نقل عنه في إحياء العلوم: ٤ / ١٠.

(٤٨) في نسخ جامع السعادات (يجزيه).

معصية فقد هلك هلاكا أبديا. وقد قيل: إن الله – تعالى – عبده سرين؟؟؟
يسرهما إليه على سبيل الإلهام: – أحدهما – إذا خرج من بطن أمه يقول له عبدي! قد أخرجتك إلى الدنيا طاهرا لطيفا واستودعتك عمرك وائتمنتك عليه فانظر كيف تحفظ الأمانة، وانظر كيف تلقاني. – والثاني – عند خروج روحه يقول: عبدي ماذا صنعت في أمانتي عندك، هل حفظتها حتى تلقاني على العهد فألقاك على الوفاء؟ أو أضعتها فألقاك بالمطالبة والعقاب؟. وإليه الإشارة بقوله – تعالى:
(أوفوا بعهدي أوف بعهدكم) (٤٩) وبقوله تعالى: (والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون) (٥٠)
وقد روي: أن ملك الموت إذا ظهر للعبد عند موته أعلمه أنه قد بقي
من عمرك ساعة لا تستأخر عنها طرفة عين، فيبدو للعبد من الحزن والحسرة والأسف ما لو كانت له الدنيا بحذافيرها لأعطاها بدل أن يضم إلى تلك الساعة ساعة أخرى ليتدارك فيها تفريطه، ولا يجد إليها سبيلا. وقد روي – أيضا –
أنه إذا كشف الغطاء للعبد قال لملك الموت: أخرني يوما اعتذر فيه إلى ربي وأتوب، وأتزود صالحا لنفسي، فيقول: فنيت الأيام فلا يوم، فيقول:
أخرني ساعة، فيقول: فنيت الساعات فلا ساعة، فيغلق عليه باب التوبة، فيغرغر بروحه، وتتردد أنفاسه في شراسيفه، ويجرع غصة اليأس عن التدارك وحسرة الندامة على تضييع العمر فيضطرب أصل إيمانه في صدمات تلك الأهوال، فإذا زهقت نفسه، فإن سبقت له من الله الحسنى خرجت روحه على التوحيد، وذلك حسن الخاتمة، وإن سبق له القضاء بالشقوة – والعياذ بالله – خرجت روحه على الشك والاضطراب، وذلك سوء الخاتمة.

تذنيب

التوبة عن بعض المعاصي المذكورة – أعني المحرمات وترك الواجبات – واجب بفتوى الشرع، بمعنى أن التارك لهذه التوبة والمرتكب لهذه المعاصي يكون معذبا بالنار، وهذا الوجوب يشترك فيه كافة الخلق، وتكليف الجميع

----

(٤٩) البقرة، الآية: ٤٠
(٥٠) المؤمنون الآية ٨، المعارج الآية: ٣٢

به لا يوجب فسادا في النظام الكلي. أما التوبة عن بعض آخر منها كالخواطر والهمم الطارية على القلب والقصور عن معرفة كنه جلال الله وعظمته وأمثال ذلك، فليس واجبا بهذا المعنى، لمنافاته انتظام العالم. إذ لو كلف الخلق كلهم أن يتقوا الله حق تقاوته، لتركوا المعايش ورفضوا الدنيا بالكلية، وذلك يؤدي إلى بطلان التقوى رأسا، لأنه إن فسدت المعايش لم يتفرغ أحد للتقوى.
فالتوبة عن كل ما هو المرجوح ليست واجبة بهذا الاعتبار، بل هي واجبة بمعنى آخر، وهو ما لا بد منه للوصول به إلى غاية القرب إلى الله، وإلى المقام المحمود والدرجات العالية، فمن رضى بأصل النجاة وقنع به لم تكن هذه التوبة واجبة عليه، ومن طلب الوصول إلى ما ذكر وجبت عليه هذه التوبة وجوبا شرطيا، بمعنى توقف مطلوبه عليه، كما جرت عليه طوائف الأنبياء والأولياء وأكابر العرفاء والعلماء، ولأجله رفضوا لذات الدنيا بالكلية. وعلى هذا فما ورد من استغفار الأنبياء والأوصياء وتوبتهم إنما هو من ترك دوام الذكر وغفلتهم عن مقام الشهود والاستغراق لأجل اشتغالهم بالمباحات لا عن ذنوب كذنوبنا، لتعاليهم وتقديسهم عن ذلك.
قال الصادق (ع): (إن رسول الله كان يتوب إلى الله ويستغفره في كل يوم وليلة مئة مرة من غير ذنب. إن الله تعالى يخص أولياءه بالمصائب، وليأجرهم عليها من غير ذنب كذنوبنا، فإن ذنب كل أحد إنما هو بحسب قدره ومنزلته عند الله). وبمضمونه أخبار أخر.

فصل

لا بد من العمل بعد التوبة

لا يكفي في تدارك الشهوات والتوبة عن الذنوب مجرد تركها في المستقبل بل لا بد من محو آثارها التي انطبعت في جوهر النفس بنور الطاعات، إذ كل شهوة ومعصية صدرت من الإنسان ارتفعت منها ظلمة إلى قلبه، كما ترتفع من نفس الإنسان ظلمة إلى وجه المرآة الصقيلة، فإن تراكمت ظلمة الشهوات والمعاصي صارت رينا، كما يصير بخار النفس في وجه المرآة عند تراكمه خبثا، كما قال - تعالى -:
(كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون) (١)

---

(١) المطففين، الآية: ١٤

فإذا تراكم الرين صار طبعا فيطبع على قلبه، كما إن الخبث في وجه المرآة إذا تراكم وطال زمانه غاص في جرم الحديد وأفسده، وصار بحيث لا يقبل التصقيل بعده فالتائب من الذنوب لا بد له من محو تلك الآثار التي انطبعت منها في نفسه، ولا يكفي مجرد تركها في المستقبل، كما لا يكفي في تصقيل المرآة وظهور الصور فيها قطع الأنفاس والبخارات المسودة لوجهها في المستقبل، ما لم يشتغل بمحو ما انطبع فيها من الآثار، وكما ترتفع إلى النفس ظلمة من المعاصي والشهوات فتظلمها، فكذلك يرتفع نور من الطاعات وترك الشهوات فينورها، ولهذا النور تنمحي ظلمة المعاصي والشهوات، وإليه الإشارة بقوله (ص) (اتبعوا السيئة الحسنة تمحها). فأذن لا يستغني العبد في حال من أحواله من محو آثار السيئات عن قلبه بمباشرة حسنات تضاد آثارها آثار تلك السيئات، في معنى أن تكون الحسنة التي ترتكب لمحو السيئة مناسبة لتلك السيئة، لقوله (ص) (اتق الله حيث كنت) ولأن المرض يعالج بضده فكل ظلمة ارتفعت إلى القلب، فلا يمحوها إلا نور يرتفع إليه من حسنة تضادها، إذ الضد إنما يرتفع بالضد، فيكفر سماع الملاهي بسماع القرآن وبحضور مجالس الذكر، ويكفر القعود في المسجد جنبا بالعبادة فيه، ويكفر مس المصحف محدثا بإكرامه وتقبله وكثرة قراءته، ويكفر شرب الخمر بالتصدق لكل شراب حلال هو أحب إليه.. إلى غير ذلك وليس ذلك - أي إيقاع المناسبة - شرطا في المحو، فقد روي: (أن رجلا قال لرسول الله صلى الله عليه وآله: إني عالجت امرأة فأصبت منها كل شئ إلا المسيس، فاقض علیه بحكم الله فقال: أما صليت معنا؟ قال: بلا! فقال: إن الحسنات يذهبن السيئات).

وينبغي أن تكون التوبة عن قرب عهد بالخطيئة، بأن يتندم عليها ويمحو آثارها قبل أن يتراكم الرين على القلب فلا يقبل المحو، قال الله تعالى -: (إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب) (٢) أي عن قرب عهد بعمل السوء. وقال: (وليس التوبة للذين يعملون السيئات

----

(٢) النساء، الآية: ١٦

حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن) (٣)
قال الصادق (ع): (ذلك إذا عاين أمر الآخرة) وقد ورد مثله عن رسول الله (ص) أيضا.

فصل

فضيلة التوبة

إعلم أن التوبة أول مقامات الدين، ورأس مال السالكين، ومفتاح استقامة السائلين، ومطلع التقرب إلى رب العالمين، ومدحها عظيم، وفضلها جسيم، قال الله - تعالى -:
(إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين) (٤).
وقال رسول الله (ص): (التائب حبيب الله، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له). وقال الباقر (ع): (إن الله تعالى أشد فرحا بتوبة عبده من رجل أضل راحلته وزاده في ليلة ظلماء فوجدها، فالله أشد فرحا بتوبة عبده من ذلك الرجل براحلته حين وجدها). وقال (ع): (التائب من الذنب كمن لا ذنب له، والمقيم على الذنب وهو مستغفر منه كالمستهزئ). وقال الصادق (ع): (إن الله يحب من عباده المفتن التواب): يعني كثير الذنب كثير التوبة. وقال (ع): (إذا تاب العبد توبة نصوحا، أحبه الله فستر عليه)، فقلت: وكيف يستر عليه؟ قال: (ينسي ملكيه ما كأنه يكتبان عليه، ويوحي إلى جوارحه وإلى بقاع الأرض أن اكتمي عليه ذنوبه، فيلقى الله - عز وجل - حين يلقاه وليس شئ يشهد عليه بشئ من الذنوب). وقال الصادق (ع): (إن الله - عز وجل - أعطى التائبين ثلاث خصال لو أعطى خصلة منها جميع أهل السماوات والأرض لنجوا بها: قوله - عز وجل -:
(إن الله يحب التوابين...) إلى آخره (٥) وقوله: (الذين يحملون

----

(٣) النساء، الآية: ١٧

(٤) البقرة، الآية: ٢٢٢

(٥) البقرة، الآية: ٢٢٢

العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شئ رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا - إلى قوله - وذلك هو الفوز العظيم) (٦) وقوله: (والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاما، يضاعف، له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا، إلا من تاب وآمن - إلى قوله - وكان الله غفورا رحيما) (٧).

وقال أبو الحسن - عليهما السلام -: (أحب العباد إلى الله المنيبون التوابون).

فصل

قبول التوبة

التوبة المستجمعة لشرائطها مقبولة الإجماع، ويدل عليه قوله تعالى: (هو الذي يقبل التوبة عن عباده) (٨) وقوله - تعالى -: (غافر الذنب وقابل التوب) (٩). وقوله - تعالى -: (ومن يعمل سوء أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما) (١٠).

وقول النبي (ص): (إن الله تعالى يبسط يده بالتوبة لمسئ الليل إلى النهار ولمسئ النهار إلى الليل حتى تطلع الشمس من مغربها)، وبسط اليد كناية عن طلب التوبة، وطالب التوبة يقبله البتة. وقوله (ص): (إن الحسنات يذهبن السيئات، كما يذهب الماء الوسخ). وقوله (ص): ((لو عملتم الخطايا حتى تبلغ السماء ثم ندمتم، لتاب الله عليكم). وقوله (ص): (إن العبد ليذنب الذنب فيدخل في الجنة)، قيل: كيف ذلك يا رسول الله!؟ قال (يكون نصب عينيه تائبا منه فارا حتى يدخل الجنة). وقوله (ص): (كفارة الذنب الندامة). وقوله صلى الله عليه وآله: (من تاب قبل موته بسنة قبل الله توبته. ثم قال:

---

(٦) المؤمن، الآية: ٧ - ٩.

(٧) الفرقان، الآية: ٦٨ - ٧٠

(٨) الشورى، الآية: ٢٥

(٩) المؤمن الآية: ٣

(١٠) النساء، الآية: ١٠٩.

إن السنة لكثير، من تاب قبل موته بشهر قبل الله توبته،. ثم قال: إن الشهر لكثير، من تاب قبل موته بجمعة قبل الله توبته. ثم قال: إن الجمعة لكثير، من تاب قبل موته بيوم قبل الله توبته. ثم قال: إن يوما لكثير، من تاب قبل أن يعاين ملك الموت قبل الله توبته). وقال الباقر (ع) لمحمد بن مسلم: (ذنوب المؤمن إذا تاب منها مغفورة له، فليعمل المؤمن لما يستأنف بعد التوبة والمغفرة، أما والله إنها ليست إلا لأهل الإيمان)، فقال له: فإن عاد بعد التوبة والاستغفار من الذنوب، وعاد في التوبة؟ قال: (يا محمد بن مسلم! أترى العبد المؤمن يندم على ذنبه ويستغفر منه ويتوب ثم لا يقبل الله توبته؟)، قال: فإنه فعل ذلك مرارا، يذنب ثم يتوب ويستغفر، فقال: (كلما عاد المؤمن بالاستغفار والتوبة عاد الله عليه بالمغفرة، وإن الله غفور رحيم يقبل التوبة ويعفو عن السيئات، فإياك أن تقنط المؤمن من رحمة الله). وقوله (ع): (إذا بلغت النفس هذه - وأهوى بيده إلى حلقه - لم تكن للعالم توبة، وكانت للجاهل توبة). وقوله (ع): (إن آدم (ص) قال: (يا رب! سلطت علي الشيطان وأجريته مني مجرى الدم، فاجعل لي شيئا، فقال: يا آدم! جعلت لك: إن من هم من ذريتك بسيئة لم تكتب عليه، فإذا عملها كتبت عليه سيئة، ومن هم منهم بحسنة، فإذا لم يعملها كتبت له حسنة، فإن هو عملها كتبت له عشرا، قال: يا رب! زدني، قال: جعلت لك: إن من عمل منهم سيئة ثم استغفر غفرت له، قال: يا رب! زدني، قال: جعلت التوبة، وبسطت لهم التوبة حتى تبلغ النفس هذه، قال يا رب حسبي). وقول الصادق (ع): (إن الرجل ليذنب الذنب فيدخله الله به الجنة)، قيل: يدخله الله بالذنب الجنة؟ قال: (نعم! إنه ليذنب فلا يزال منه خائفا ماقتا لنفسه، فيرحمه الله فيدخله الجنة). وقوله عليه السلام: (العبد المؤمن إذا ذنب ذنبا أجله الله سبع ساعات، فإن استغفر الله لم يكتب عليه شئ، وإن مضت الساعات ولم يستغفر كتبت، عليه سيئة وإن المؤمن ليذكر ذنبه بعد عشرين سنة حتى يستغفر ربه فيغفر له، وإن الكافر لينسى من ساعته)). وقوله (ع): (ما من مؤمن يقارف

في يومه وليلته أربعين كبيرة فيقول وهو نادم: استغر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم بديع السماوات والأرض ذا الجلال والاكرام وأسأله أن يصلي على محمد وآل محمد وأن يتوب علي إلا غفرها الله له، ولا خير فيمن يقارف في يومه أكثر من أربعين كبيرة) (١١). وروي: (أن الله تعالى لما لعن إبليس سأله النظرة، فأنظره إلى يوم القيامة، فقال: وعزتك لأخرجت من قلب ابن آدم ما دام فيه الروح، فقال الله تعالى: بعزتي لأحجبت عنه التوبة ما دام فيه الروح). وورد في الإسرائيليات: (أن شابا عبد الله عشرين سنة، ثم عصاه عشرين سنة، ثم نظر في المرآة، فرأى الشيب في لحيته، فساءه ذلك، فقال: إلهي أطعتك عشرين سنة ثم عصيتك عشرين سنة، فإن رجعت إليك أتقبلني؟ فسمع قائلا يقول: أجبتنا فأجبناك، فتركتنا فتركناك وعصيتنا فأمهلناك فإن رجعت إلينا قبلناك) والأخبار والآثار في هذا المعنى أكثر من أن تحصى، وفي بعض الأخبار المتقدمة دلالة عليه أيضا

ثم الناظر بنور البصيرة لا يحتاج في هذا المعنى إلى بيان، إذ يعلم أن التوبة توجب سلامة القلب، وكل قلب سليم مقبول عند الله ومتنعم في الآخرة في جوار الله، ويعلم أن القلب خلق في الأصل سليما صافيا، إذ كل مولود يولد على الفطرة، وإنما مرض واسود بأمراض الذنوب وظلماتها ودواء التوبة يزيل هذه الأمراض، ونور الحسنات يمحو هذه الظلمات، ولا طاقة لظلام المعاصي مع نور الحسنات، كما لا طاقة لظلام الليل مع نور النهار، ولكدورة الوسخ مع بيان الصابون والماء الحار. نعم إذا تراكمت الذنوب بحيث صارت رينا وطبعا، وأفسدت القلب بحيث لا يقبل الصفاء والنورانية بعد ذلك، فمثل هذا القلب لا تفيده التوبة، بمعنى أنه لا يرجع ولا يتوب، وإن قال باللسان تبت، إذ أوساخ الذنوب غاصت في تجاويفه وتراكمت فيه بحيث لا يقبل التطهير، ولو بولغ فيه أدى إلى انخراق القلب

---

(١١) صححنا الأحاديث الواردة في هذا الباب على أصول الكافي: باب الاعتراف بالذنوب، وباب من يهم بالحسنة أو السيئة، وباب التوبة، وباب الاستغفار من الذنوب، وباب فيما أعطى الله – عز وجل – آدم وقت التوبة.

وهلاكه، لصيرورة الأوساخ جزءا من جوهره، كما أن الثواب الذي غاص الوسخ في تجاويفه وخلله وتراكم فيه، لو بولغ في تطهيره بالماء والصابون أدى ذلك إلى انخراقه. وهذا حال أكثر الخلق المقبلين على الدنيا المعرضين عن الله، فإنهم لا يرجعون ولا يتوبون، لصيرورة ذمائم الأخلاق ورذائلها ملكات راسخة في نفوسهم وغاصت أوساخها في تجاويف قلوبهم، بحيث لا يتنبهون ولا يتيقظون حتى يقصدوا التوبة، ولو قصدوها فإنما هو بمجرد اللسان، والقلب غافل خال عن الإيمان، بل تتعذر عليه التوبة لبطلان حقيقتها. فصل

طرق التوبة عن المعاصي

إعلم أن ما عنه التوبة هي الذنوب التي علمت تفاصيلها في هذا الكتاب، وهي - كما ذكرناها - لا تخلو عن الصفات والأفعال الشيطانية المتعلقة بالوهم، والصفات والأفعال السبعية المتعلقة بالقوة السبعية، والصفات والأفعال البهيمية المتعلقة بالقوة البهيمية. ومن حيث تعلق التوبة بها وكيفية الخروج عنها ينقسم إلى أقسام ثلاثة:

أحدها - ترك الطاعات الواجبة: من الصلاة، والصوم، والزكاة، والخمس، والكفارة وغيرها. وطريق التوبة عنها: أن يجتهد في قضائها بقدر الإمكان.

وثانيها - المحرمات التي بين العبد وبين الله، أعني المنهيات التي هي حقوق الله: كشرب الخمر، وضرب المزامير، والكذب، والزنا بغير ذات بعل. وطريق التوبة عنها: أن يندم عليها، ويوطن قلبه على ترك العود إلى مثلها أبدا.

وثالثها - الذنوب التي بينه وبين العباد، وهي المعبر عنها بحقوق الناس، والأمر فيها أصعب وأشكل، وهي إما في المال، أو في النفس، أو في العرض أو في الحرمة، أو في الدين:

فما كان في (المال): يجب عليه أن يرده إلى صاحبه إن أمكنه، فإن عجز عن ذلك لعدم أو فقر، وجب أن يستحل منه، وإن لم يحل أو

عجز عن الايصال لغيبة الرجل غيبة منقطعة أو موته وعدم بقاء وارث له، فليتصدق عنه إن أمكنه، وإلا فعليه بالتضرع والابتهال إلى الله أن يرضيه عنه يوم القيامة، وعليه بتكثير حسناته وتكثير الاستغفار له، ليكون يوم القيامة عوضا عن حقه، إذ كل من له حق على غيره لا بد أن يأخذ يوم القيامة عوضا عن حقه، إما بعض طاعاته أو بتحمل هذا الغير بعض سيئاته.

وما كان في (النفس): فإن كانت جناية جرت عليه خطأ وجب أن يعطي الدية، وإن كان عمدا وجب عليه أن يمكن المجني عليه أو أولياءه مع هلاكه من القصاص حتى يقتص منه، أو يجعل في حل، وإن عجز عن ذلك فعليه بكثرة إعتاق الرقاب، لأن ذلك نوع إحياء وإيجاد لا يقدر لانسان على أكثر منه، فيقابل به الإعدام والإماتة، وعليه الرجوع أيضا إلى الله بالتضرع والابتهال أن يرضيه عنه يوم القيامة.

وما كان في (العرض): بأن شتمه، أو قذفه، أو بهته، أو اغتابه، فحقه أن يكذب نفسه عند من قال ذلك لديه، ويستحل من صاحبه مع الإمكان، أن لم يخف تهديده وزيادة غيضه وهيجان فتنته من إظهاره، فإن خاف ذلك، فليكثر الاستغفار له، ويبتهل إلى الله أن يرضيه عنه يوم القيامة.

وما كان في (الحرمة): بأن خان مسلما في أهله وولده أو نحوهما، فلا وجه للاستحلال إذ إظهار ذلك يورث الغيض والفتنة لأن من له شوب الرجولية لا يمكن أن يحل من خان في حرمته ووطئ زوجته، كيف ولو أحله ورضي بذلك كان فيه عرق من الدياثة، فاللازم لمثله أن يكثر التضرع والابتهال إلى الله المتعال، ويواضب على الطاعات والخيرات الكثيرة لمن خانه في مقابلة خيانته، وإن كان حيا فليفرحه بالاحسان والإنعام وبذل الأموال، ويكرمه بالخدمة وقضاء الحوائج ويسعى في مهماته وأغراضه، ويتلطف به، ويظهر من حبه والشفقة عليه ما يستميل به قلبه، فإذا طاب قلبه بكثرة تودده وتلطفه، فربما سمحت نفسه في القيامة بالحلال، فإن أبى أن يكون إنعامه وتلطفه من جملة حسناته التي يمكن أن يجبر بها في القيامة خيانته، فإن كل ظلم وإيذاء وحق من حقوق العباد إذا لم يحصل صاحبه يوم القيامة

يقتص من الظالم في يوم القيامة بالحكم العدل القهري بأخذ العوض، سواء رضا الظالم أم لا، وسواء امتنع صاحب الحق عن القبول والابراء أم لا، كما أنه يحكم في الدنيا على من أتلف مال غيره بإعطاء المثل، ويقهر على ذلك، ويحكم على هذا الغير بقبوله، ويجبر عليه إن امتنع عن الابراء، وعن القبول، فكذلك يحكم أحكم الحاكمين وأعدل العادلين في محكمة القيامة، فيقتص من كل ظالم مؤذي بأخذ حسناتهم ووضعها في موازين أرباب المظالم، فإن لم تف بها حسناته حمل من سيئات أرباب المظالم، فيهلك المسكين بسيئات غيره. وبذلك يعلم: أنه لا خلاص لأحد في القيامة إلا برجحان ميزان الحسنات على ميزان السيئات: ومع الرجحان – ولو بقدر مثقال – تحصل النجاة، فيجب على كل معتقد في يوم الحساب أن يسعى في تكثير الحسنات وتقليل السيئات، حتى لا ترجح سيئاته يوم القيامة على حسناته ولو بمثقال فيكون من الهالكين وعلى كل حال لا يغفل عن التضرع والابتهال في الليل والنهار إلى الله سبحانه، لعله بعميم لطفه لا يفضحه يوم تبلى السرائر، ويرضي خصمه بخفي ألطافه.

وما كان في (الدين): بأن نسب مسلما إلى الكفر أو الضلالة أو البدعة، فليكذب نفسه بين يديه من قال ذلك عنده، ويستحل من صاحبه مع الإمكان، وبدونه فليستغفر له ويكثر الابتهال إلى الله ليرضيه عنه يوم القيامة.

ومجمل ما يلزم في التوبة عن حقوق الناس: إرضاء الخصوم مع الإمكان، وبدونه التصدق وتكثير الحسنات والاستغفار، والرجوع إلى الله بالتضرع والابتهال، وليرضيهم عنه يوم القيامة، ويكون ذلك بمشية الله، فلعله إذا علم الصدق من قلب عبده. ووجد ذله وانكساره، ترحم عليه وأرضى خصماءه من خزانة فضله، فلا ينبغي لأحد أن ييأس من روح الله.

فصل

تكفير الصغائر ومعنى الكبائر

إعلم أن صاحب الشرع قسم الذنوب إلى كبيرة وصغيرة، وحكم بأن اجتناب الكبائر يكفر الصغائر، وأن الصلوات الخمس لا تكفر الكبائر وتكفر

ج: ٣

الصغائر، قال الله - تعالى -:
(أن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم) (١٢). وقال:
(الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم) (١٣).
وقال رسول الله (ص): (الصلوات الخمس والجمعة تكفر ما بينهن إن اجتنبت الكبائر) واجتناب الكبيرة إنما يكفر الصغيرة إذا اجتنبها مع القدرة والإرادة، كمن يتمكن من امرأة ومن مواقعتها، فيكف نفسه عن الوقاع ويقتصر على نظر ولمس، فإن مجاهدته نفسه في الكف عن الوقاع أشد تأثيرا في تنوير قلبه من إقدامه على النظر في إظلامه، فهذا معنى تكفيره فإن كان امتناعه لعجز أو خوف أو نحو ذلك، فلا يصلح للتكفير، فكذلك من يشتهي الخمر بطبعه ولو أبيح له لما شربه، فاجتنابه لا يكفر عن الصغائر التي هي من مقدماته كسماع الملاهي والأوتار ومثله.
ثم الكبيرة من حيث اللفظ مبهم ليس له موضوعا خاص في اللغة ولا في الشرع والعرف، لأن الكبير والصغير من المصافات، وما من ذنب إلا وهو كبير بالإضافة إلى ما دونه، وصغير بالإضافة إلى ما فوقه. وقد اختلف العلماء في تعيين الكبائر اختلافا لا يكاد يرجى زواله واختلفت الروايات فيها أيضا.
والأظهر بالنظر إلى الروايات وإلى الجمع بينها كون الكبيرة عبارة عما توعد بالنار على فعله أو ما ورد في نص الكتاب النهي عنه، ويعني بوصفه بالكبيرة: إن العقوبة بالنار عظيمة، أو إن تخصيصه بالذكر في القرآن يدل على عظمه. ويمكن أن يقال: إن الشرع لم يعينها، وأبهمها ليكون العباد على وجل منها، فيجتنبون جميع الذنوب، كما أبهم ليلة القدر ليعظم جد الناس في طلبها، ويواضبوا في ليال على العبادات،، وكما أبهم الاسم الأعظم ليواضبوا على جميع أسماء الله. والحاصل: أن كل ما يتعلق به حكم في الدنيا أجاز أن يتطرق إليه الإبهام، والكبيرة على الخصوص لا حكم لها في الدنيا من حيث أنها كبيرة، فإن موجبات الحدود معلومة بأساميها،

----

(١٢) النساء، الآية: ٣٠
(١٣) النجم، الآية: ٣٢

وإنما حكم الكبيرة أن اجتنابها يكفر الصغائر وأن الصلوات الخمس لا تكفرها، وهذا أمر يتعلق بالآخرة، والابهام أليق به، حتى يكون الناس على وجل وحذر، فلا يتجرؤن على الصغائر اعتمادا على الصلوات الخمس واجتناب الكبائر.

فصل

الصغائر قد تكون كبائر

إعلم أن الصغيرة قد تكبر بأسباب:

أحدها - الإصرار والمواظبة، ولذلك قال الصادق (ع): (لا صغيرة مع الإصرار، ولا كبيرة مع الاستغفار). والسر فيه: أن الصغيرة لقلة تأثيرها لا تؤثر في القلب بإظلامه مرة أو مرتين، ولكن إذا تكررت وتراكمت آثارها الضعيفة صارت قوية وأثرت على التدريج في القلب، وذلك كما أن قطرات من الماء تقع على الحجر على توال فتؤثر فيه، وذلك القدر من الماء لو صب عليه دفعة لم يؤثر، ولذلك قال رسول الله (ص): (خير الأعمال أدومها، وأن قل). وإذا كان النافع هو الطاعة الدائمة وأن قلت، فكذلك الضار هو السيئة الدائمة وأن قلت. ثم معرفة الإصرار موكول إلى العرف، قال الباقر (ع) في قوله تعالى:

(ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون) (١٤):

(الإصرار: أن يذنب الذنب، فلا يستغفر ولا يحدث نفسه بتوبة، فذلك الإصرار).

وثانيها - استصغار الذنب، فإن العبد كلما استعظمه من نفسه صغر عند الله، وكلما استصغره كبر عند الله، لأن استعظامه يصدر عن نفور القلب عنه وكراهته له، وذلك النفور يمنع من شدة تأثره به، واستصغاره يصدر عن الألف به، وذلك يوجب شدة الأثر في القلب، والقلب هو المطلوب تنوره بالطاعات والمحذور تسويده بالسيئات، ولذلك لا يؤخذ بما يجري عليه في الغفلة، لعدم تأثره به، ولذلك ورد في الخبر: (إن المؤمن

----

(١٤) آل عمران، الآية: ١٣٥.

يرى ذنبه كالجبل فوقه يخاف أن يقع عليه، والمنافق يرى ذنبه كذباب مر على أنفه فأطاره). وقال رسول الله (ص) (اتقوا المحقرات من الذنوب، فإنها لا تغفر)، قيل: وما المحقرات؟ قال: (الرجل يذنب الذنب، فيقول طوبى لي لو لم يكن غير ذلك). وروي: (أنه (ص) نزل بأرض قرعاء، فقال لأصحابه: أئتونا بالحطب، فقالوا: يا رسول الله! نحن بأرض قرعاء ما بها من حطب، قال: فليأت كل إنسان بما قدر عليه فجاؤوا به حتى رموا بين يديه بعضه على بعض، فقال (ص): هكذا تجمع الذنوب إياكم والمحقرات من الذنوب فإن لكل شئ طالبا، ألا وإن طالبها يكتب ما قدموا وآثارهم وكل شئ أحصيناه في إمام مبين). وقال أمير المؤمنين عليه السلام (لا تصغر ما ينفع يوم القيامة ولا تصغر ما يضر يوم القيامة، فكونوا فيما أخبركم الله كمن عاين) وقال الباقر (ع): (اتقوا المحقرات من الذنوب فإن لها طالبا، يقول أحدكم: أذنب واستغفر الله. إن الله - تعالى - يقول:

(ونكتب ما قدموا وآثارهم وكل شئ أحصيناه في إمام مبين) (١٥).

وقال عز وجل -: (إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السماوات أو في الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير) (١٦).

وقال الصادق (ع): إن الله يحب العبد أن يطلب إليه في الجرم العظيم، ويبغض العبد أن يستخف بالجرم اليسير). وقال الكاظم (ع): (لا تستكثروا كثير الخير ولا تستقلوا قليل الذنوب، فإن قليل الذنوب يجتمع حتى يكون كثيرا، وخافوا الله في السر حتى تعطوا من أنفسكم النصف) (١٧). والسر في عظم الذنب في قلب المؤمن: كونه عالما بجلال الله وكبريائه، فإذا نظر إلى عظم من عصى به رأى الصغير كبيرا، وقد أوحى الله إلى بعض أنبيائه: (لا تنظر إلى قلة الهدية وانظر إلى عظم مهديها،

---

(١٥) يس، الآية: ١٢

(١٦) لقمان، الآية: ١٦

(١٧) صححنا الأحاديث كلها على أصول الكافي (باب التوبة وباب تفسير الذنوب).

ولا تنظر إلى صغر الخطيئة وانظر إلى كبرياء من واجهته بها) ولذلك قال بعض الصحابة للتابعين:، (إنكم تعملون أعمالا هي أدق في أعينكم من الشعر، وكنا نعدها على رسول الله من الموبقات) إذ كانت معرفة الصحابة بجلال الله أتم، فكانت الصغائر عندهم بالإضافة إلى جلال الله كبائر.

وثالثها – أن يأتي بالصغائر ولا يبالي بفعلها، اغترارا بستر الله عليه، وحلمه عنه، وإمهاله إياه، ولا يعلم أنه إنما يمهل مقتا ليزداد بالإمهال إثما، فتزهق أنفسهم وهم كافرون، فمن ظن أن تمكنه من المعاصي عناية من الله به، فهو جاهل بمكامن الغرور، وآمن من مكر الله الذي لا يأمن منه إلا الكافرون.

ورابعها – السرور بالصغيرة واعتداد التمكن من ذلك نعمة والغفلة عن كونها نقمة وسبب الشقاوة فكلما غلبت حلاوة الصغيرة عند العبد كبرت وعظم قلبه في تسويد قلبه، فمن مزق عرض مسلم وفضحه وخجله، أو غبنه في ماله في المعاملة، ثم فرح به، ويقول: أما رأيتني كيف مزقت عرضه؟ وكيف فضحته؟ وكيف روجت عليه الزيف؟ كانت معصيته أشد مما إذا لم يفرح بذلك وتأسف عليه، إذ الذنوب مهلكات، وإذا ابتلى بها العبد فينبغي أن يتأسف من حيث أن العدو – أعني الشيطان – ظفر به وغلب عليه، لا أن يفرح بغلبة العدو عليه، فالمرض الذي يفرح بانكسار إنائه الذي فيه دواؤه لتخلصه من ألم شربه، لا يرجى شفاءه.

وخامسها – أن يذنب ويظهر ذنبه بأن يذكره بعد إتيانه، أو يأتي به في مشهد غيره، فإن ذلك خيانة منه على الله الذي أسدله عليه، وتحريك الرغبة والشر فيمن أسمعه ذنبه أو أشهده فعله، فهما خيانتان انضمتا إلى خيانته فتغلظت به، فإن انضاف إلى ذلك الترغيب للغير فيه والحمل عليه وتهيئة الأسباب له صارت خيانته رابعة، وتفاحش الأمر. وهذا لأن من صفات الله أنه يظهر الجميل ويستر القبيح ولا يهتك الستر، فالإظهار كفران لهذه النعمة، قال رسول الله (ص): (المستتر بالحسنة تعدل سبعين حسنة، والمذيع بالسيئة مخذول، والمستتر بها مغفور له). وقال الصادق (ع): (من جاءنا يلتمس الفقه والقرآن وتفسيره فدعوه ومن جاءنا يبدي عورة قد سترها الله فنحوه)

وسادسها – أن يكون الآتي بالصغيرة عالما يقتدي به الناس، فإذا فعله

بحضرة الناس أو بحيث اطلعوا عليه، كبر ذنبه، وذلك كلبسه الذهب والإبريسم وأخذه مال الشبهة، وإطلاقه اللسان في أعراض الناس، ونحو ذلك. فهذه ذنوب يقتدي العالم فيها ويتبع عليها، فيموت ويبقى شره مستطيرا في العالم، فطوبى لمن إذا مات ماتت معه ذنوبه، وفي الخبر: (من سن سنة سيئة فعليه وزرها من عمل بها لا ينقص من أوزارهم شئ) قال الله تعالى (ونكتب ما قدموا وآثارهم) (١٨).

والآثار: ما يلحق الأعمال بعد انقضاء العمل. فعلى العالم وظيفتان: إحداهما ترك الذنب، والأخرى - إخفاءه، وكما تتضاعف أوزار العالم على السيئات إذا اتبع فيها، فكذلك يتضاعف ثوابه على الحسنات إذا اتبع.

فصل

شروط كمال التوبة

يشترط في تمام التوبة وكمالها بعد تدارك كل معصية بما مر: من طول الندم، وقضاء العبادات، والخروج عن مظالم العباد، وطول البكاء والحزن والحسرة، وإسكاب الدموع، وتقليل الأكل، وارتياض النفس، ليذوب عن بدنه كل لحم نبت من الأغذية المحرمة والمشتبهة، قال أمير المؤمنين (ع) لمن قال بحضرته: أستغفر الله: (ثكلتك أمك! أتدري ما الاستغفار؟ إن الاستغفار درجة العليين، وهو اسم واقع على ستة معاني: أولها: الندم على ما مضى، والثاني: العزم على ترك العود عليه أبدا، والثالث: أن تؤدي إلى المخلوقين حقوقهم حتى تلقى الله أملس ليس عليك تبعة، والرابع: أن تعمد إلى كل فريضة عليك ضيعتها تؤدي حقها، والخامس: أن تعمد إلى اللحم الذي نبت على السحت فتذيبه بالأحزان حتى يلصق الجلد بالعظم وينشأ منها لحم جديد، والسادس: أن تذيق الجسم ألم الطاعة كما أذقته حلاوة المعصية، فعند ذلك نقول: استغفر الله)،

فصل

هل يصح التبعيض في التوبة

إعلم أن التوبة عن بعض الذنوب دون بعض ممكن ويصح، بشرط ألا

----

(٢٨) يس، الآية: ١٢.

تكون الذنوب التي يتوب عنها مخالفة بالنوع للذنوب التي لا يتوب عنها، كأن يتوب عن الكبائر دون الصغائر، أو عن القتل والظلم ومظالم العباد دون بعض حقوق الله، أو عن شرب الخمر دون الزنا أو بالعكس، أو عن شرب الخمر دون أكل أموال الناس بالباطل خيانة وتلبيسا أو غصبا أو قهرا أو عن بعض الصغائر دون بعض الكبائر، كالذي يتوب عن الغيبة مع إصراره على شرب الخمر. والدليل على إمكان ذلك وصحته: أن العبد إذا علم أن الكبائر أعظم إثما عند الله وأجلب لسخط الله ومقته والصغائر أقرب إلى تطرق العفو إليها، فلا يبعد أن يتوب عن الأعظم دون الأصغر، وكذا إذا تصور أن بعض الكبائر أشد وأغلظ عند الله من بعض، فلا يبعد أن يتوب عن الأغلظ دون الأخف، وقد تكون ضراوة أحد بنوع معصية شديدة، فلا يقدر على الصبر عنها، وتكون ضراوته بنوع آخر منها أقل، فيمكنه الترك بسهولة، فيتوبوا عنه دون الأول، وأن كان الأول أغلظ وأشد إثما، كالذي شهوته بالخمر أشد من شهوته بالغيبة، فيترك الغيبة ويتوب عنها دون الخمر، فالتوبة عن بعض المعاصي دون بعض مع اختلافها نوعا بأي نحو كان ممكن وصحيح، ومعها يندفع عنه إثم ما تاب عنه، ويكتب عليه إثم ما لم يتب عنه، بل ربما كان أكثر ما وقع من التوبة من هذا القبيل إذ كثر التائبون في الأعصار الخالية والقرون الماضية، ولم يكن أحد منهم معصوما، فيكون كل منهم جازما بأنه يصدر عنه معصيته البتة. ويدل على الصحة قوله (ع): (التائب من الذنب كمن لا ذنب له)، حيث لم يقل: التائب من الذنوب. نعم التوبة عن بعض الذنوب دون بعض مع تماثلهما غير صحيح وغير معقول، لاستوائهما في حق الشهوة وحق التعرض لسخط الله، فلا معنى للتوبة عن أخذ الخبز الحرام، أو عن أخذ الدرهم الحرام دون الدينار الحرام، أو عن ترك صلاة الظهر دون العصر، إذ لو كان ذلك صحيحا لصح أن يتوب عن أخذ هذا الخبز دون ذلك الخبز، أو عن أن أخذ هذا الدرهم دون ذلك الدرهم... وهكذا. والحاصل: أن التوبة عن بعض الذنوب دون بعض مع تفاوتها في العقاب واقتضاء الشهوة صحيح، ومع تماثلهما فيهما غير معقول. ومن العلماء من قال: إن التوبة عن البعض

دون البعض لا تصح مطلقا، واستدل على ذلك بأن التوبة عبارة عن الندم وإنما يندم على السرقة - مثلا - لكونها معصية لا لكونها سرقة، ولا يعقل أن يندم عليها دون الزنا أن كان توجعه لأجل المعصية، إذ العلة شاملة لهما، لأن من يتوجع على قتل ولده بالسيف يتوجع على قتله بالسكين، لأن التوجع إنما هو بفوات المحبوب، سواء كان بالسيف أو بالسكين، وكذلك توجع التائب إنما هو لفوات المحبوب بالمعصية. سواء عصى بالسرقة أو بالزنى، وجوابه قد ظهر مما ذكرناه.

فصل

أقسام التائبين

التائبون بين من سكنت نفسه عن الشروع إلى الذنوب فلا يحوم حومها وبين من بقي في نفسه الشروع إليها والرغبة فيها وهو يجاهدها ويمنعها. والأول بين من سكون النزوع وبطلانه فيه لأجل قوة اليقين وصدق المجاهدة، ومن سكونه وانقطاعه بفتور في نفس الشهوة فقط: والأول من الأول أفضل من الثاني، والثاني منه أدون من الثاني، والوجه ظاهر. وأيضا التائبون بين من نسي الذنب من دون اشتغال بالتفكر فيه، وبين من جعله نصب عينيه ولا يزال يتفكر فيه ويحترق ندما عليه. ولا ريب في أن التذكر والاحتراق بالنظر إلى المبتدي ومن يخاف عليه العود أفضل، لأنه يصده عنه، والنسيان بالنظر إلى المنتهى السالك والواصل إلى مرتبة الحب والأنس الواثق من نفسه أنه لا يعود أفضل، لأنه شغل مانع عن سلوك الطريق، وحاجب من الحضور بلا فائدة ولا ينافيه بكاء الأنبياء وتناجيهم من الذنوب، لأنهم قد ينزلون في أقوالهم وأفعالهم إلى الدرجات اللائقة بالأمة، فإنهم بعثوا لإرشادهم فعليهم التلبس بما تنتفع الأمة بمشاهدته، وأن كان نازلا عن ذروة مقامهم. ولذا قال رسول الله (ص): (أما إني لا أنسى، ولكن أنسى لأشرع) (١٩). ولا تعجب من هذا، فإن الأمم في كنف شفقة الأنبياء كالصبيان في كنف شفقة الآباء، وكالمواشي في كنف الرعاة، والأب إذا أراد

----

(١٩) الحديث نبوي مروي في إحياء العلوم: ٤ / ٣٨.

أن يستنطق ولده الصغير ينزل إلى درجة نطق الصبي، والراعي لشاة أو طائر يصوت به رغاء أو صفيرا شبيها بالبهيمة والطائر تلطفا في تعليمه.

فصل

مراتب التوبة

إعلم أن التائب أما يتوب عن المعاصي كلها ويستقيم على التوبة إلى آخر عمره، فيتدارك ما فرط، ولا يعود إلى ذنوبه، ولا يصدر عنه معصية إلا الزلات التي لا يخلو عنها غير المعصومين، وهذه التوبة النصوح، والنفس التي صاحبها هي النفس المطمئنة التي ترجع إلى ربها راضية مرضية، أو يتوب عن كبائر المعاصي والفواحش ويستقيم على أمهات الطاعات، إلا أنه ليس ينفك عن ذنوب تصدر عنه في مجاري أحواله غفلة وسهوة وهفوة، لا عن محض العمد وتجريد القصد، وإذا أقدم على ذنب لام نفسه وندم وتأسف، وجدد عزمه على ألا يعود إلى مثله، ويتشمر للاحتراز عن أسبابه التي تؤدي إليه، والنفس التي هذه مرتبتها هي النفس اللوامة التي خيرها يغلب على شرها، فولها حسن الوعد من الله تعالى بقوله:

(الذين يجتنبون كبائر الإثم من الفواحش إلا اللمم إن ربك واسع المغفرة) (٢٠) وإلى مثلها الإشارة بقوله (ص): (خياركم كل مفتن تواب). وفي خبر آخر: (المؤمن كالسنبلة، يفيئ أحيانا ويميل أحيانا). وفي خبر آخر: (لا بد للمؤمن من ذنب يأتيه الفينة بعد الفينة) (٢١): أي الحين بعد الحين. وكل ذلك شاهد صدق على أن هذا القدر من الذنوب لا ينقض التوبة ولا يلحق صاحبه بدرجة المصرين، ومن يؤيس مثل هذا عن النجاة ووصوله إلى درجة التائبين فهو ناقص، ومثله مثل الطبيب الذي يؤيس الصحيح من دوام الصحة بما يتناوله من الفواكه مرة أو مرتين، ومثل الفقيه الذي يؤيس المتفقه عن نيل درجة الفقهاء بفتوره عن التكرار في أوقات نادرة. ولا ريب في نقصانه، فالعالم حق العالم هو الذي لا يؤيس الخلق

---

(٢٠) النجم الآية: ٣٢

(٢١) صححنا النبويات الثلاث على إحياء العلوم: ٤ / ٣٩

من درجات السعادات بما يتفق لهم من الفترات ومفارقة السيئات المقتطفات، إذ أمثال الفترات ما يصدر عن السهو والغفلات لا يفسد النفس ولا يبطلها بحيث لا يقبل الإصلاح، أو يتوب ويستمر على الاستقامة مدة ثم تغلبه الشهوة في بعض الذنوب، فيقدم عليه عمدا وقصدا، لعجزه عن قهر الشهوة وقمعها، إلا أنه مع ذلك مواظب على الطاعات، وتارك لأكثر الذنوب مع القدرة والشهوة، وأنما قهره بعض الشهوات بحيث يغفل عند هيجانها ويرتكب مقتضاها من دون مجاهدة وندامة، وعند قضاء هذه الشهوة والفراغ عنها يتندم، ويقول سأتوب عنها، لكنه يسول نفسه ويسوف توبته يوما بعد يوم، والنفس التي هذه درجتها هي التي تسمى النفس المسؤولة المسؤول صاحبها، وإليها الإشارة بقوله تعالى:

(وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا) (٢٢).

فنجاتها من حيث مواظبته على الطاعات وكراهته لما يتعاطاه مرجو، فعسى الله أن يتوب عليها، ولكن يخاف عليها من حيث تسويفها وتأخيرها، فربما اختطفها الموت قبل التوبة، ويقع أمرها في المشيئة، فيدخل في زمرة السعداء، أو يسلك في سلك الأشقياء، أو يتوب ويجري مدة على الاستقامة ثم يعود إلى الذنوب عمدا وقصدا، من غير أن يحدث نفسه بالتوبة، ومن غير أن يتأسف ويتندم، بل ينهمك انهماك الغافل في الذنوب واتباع الشهوات وهذا معدود من المصرين، ونفسه محسوبة من النفوس الأمارة بالسوء الفرارة من الخير، ومثله أن مات على التوحيد وختم له بالحسنى وغلبت طاعاته على سيئاته كان من أهل الجنة، وأن ختم له بالسوء كان من أهل النار، وأن مات على التوحيد ولكن ترجحت سيئاته على حسناته فأمره إلى الله، ولعله يعذب في النار مدة بقدر زيادة سيئاته على حسناته، ثم يخلص منها بعميم لطفه.

فصل

عدم الثقة بالاستقامة لا يمنع من التوبة

إعلم أن من تاب ولا يثق من نفسه الاستقامة على التوبة فلا ينبغي

----

(٢٢) التوبة الآية: ١٠٣

أن يمنعه ذلك عن التوبة علما منه أنه لا فائدة فيه، فإن ذلك من غرور الشيطان، ومن أين له هذا العلم، فلعله يموت تائبا قبل أن يعود إلى الذنب.

وأما الخوف من العود، فليتداركه بتجريد القصد وصدق العزم، فإن وفى به فقد نال مطلبه، وإلا فقد غفرت ذنوبه السابقة كلها وتخلص منها، وليس عليه إلا هذا الذنب الذي أحدثه الآن. وهذا من الفوائد العظيمة والأرباح الجسيمة، فلا يمنعك خوف العود من التوبة فإنك من التوبة أبدا بين إحدى الحسنيين: - أحداهما - العظمى: وهي غفران الذنوب السابقة وعدم العود إلى ذنبه في الاستقبال. - وثانيتهما - وهي الصغرى: غفران الذنوب الماضية، وأن لم يمنع العود إلى الذنب في المستقبل. ثم إذا عاد إلى الذنب ينبغي أن يتوب عنه دفعة، ويتبعه بحسنة لتمحوها، فيكون ممن خلط عملا صالحا وآخر سيئا. والحسنات المكفرة للذنوب أما متعلقة بالقلب: وهي الندم، والتضرع إلى الله، والتذلل له، وإضمار الخير للمسلمين، والعزم على الطاعات، أو باللسان: وهي الاعتراف بالظلم والإساءة، وكثرة الاستغفار، أو بالجوارح: وهي أنواع الطاعات والصدقات. وينبغي ملاحظة المناسبة بين السيئة التي صدرت عنه والحسنة التي يتبعها لتمحوها. وفي الخبر: أن الذنب إذا أتبع بثمانية أعمال كان العفو مرجوا: أربعة من أعمال القلوب، وهي: التوبة أو العزم على التوبة، وحب الاقلاع عن الذنب، وتخوف العقاب عليه، ورجاء المغفرة. وأربعة من أعمال الجوارح، وهي: أن تصلي عقب الذنب ركعتين، ثم تستغفر الله تعالى بعدهما سبعين مرة وتقول سبحان الله العظيم وبحمده مائة مرة، ثم تتصدق بصدقة، ثم تصوم يوما. وفي بعض الأخبار: تسبغ الوضوء وتدخل المسجد وتصلي ركعتين، وفي بعضها: تصلي أربع ركعات. ولا تظن أن الاستغفار باللسان بدون حل عقدة الإصرار لا فائدة فيه أصلا، بل هو توبة الكذابين، لما ورد من أن المستغفر من الذنب وهو مصر عليه كالمستهزئ بآيات الله لأن الاستغفار الذي هو توبة الكذابين ولا فائدة فيه أصلا هو الاستغفار بمجرد اللسان وبحكم العادة وعلى سبيل الغفلة، أي ما يكون مجرد حركة

اللسان من دون مدخلية للقلب، كما إذا سمع شيئا مخوفا، فيقول على الغفلة: أستغفر الله، أو نعوذ بالله، من غير شركة للقلب فيه وتأثره منه، وأما إذا انضاف إليه تضرع القلب وابتهاله في سؤال المغفرة عن صدق إرادة وخلوص رغبة وميل قلبي إلى انقلاعه عن هذا الذنب فهي حسنة في نفسها، وإن علم أن نفسه الأمارة ستعود إلى هذا الذنب فتصلح هذه الحسنة لأن يدفع بها السيئة، فالاستغفار بالقلب وأن خلا عن حل عقدة الإصرار لا يخلو عن الفائدة، وليس وجوده كعدمه. وقد عرف أرباب القلوب بنور البصيرة معرفة قطعية يقينية لا يعتريها ريب وشبهة صدق قوله تعالى:

(فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره) (٢٣).

ولذا جزموا وقطعوا بأنه لا تخلو ذرة من الخير عن أثر كما لا تخلو شعيرة تطرح في الميزان عن أثر، ولو كانت كل شعيرة خالية عن أثر لكان لا يرجح الميزان باجتماع الشعيرات، فميزان الحسنات يترجح بذرات الخيرات إلى أن يثقل فتسل كفة السيئات، فإياك وأن تستصغر ذرات الطاعات فلا تأتيها، وتستحقر ذرات المعاصي فلا تتقيها، كالمرأة الخرفاء تكسل عن الغزل تعللا بأنها لا تقدر في كل ساعة إلا على خيط واحد، وأي غنى يحصل منه، وما وقع ذلك في الثياب، ولا تدري أن ثياب الدنيا اجتمعت خيطا خيطا، وأن أجسام العالم مع اتساع أقطاره اجتمعت ذرة ذرة، وربما ترتب على عمل قليل ثواب جزيل، فلا ينبغي تحقير شئ من الطاعات. قال الصادق عليه السلام: (أن الله تعالى خبأ ثلاثا في ثلاث: رضاه في طاعته، فلا تحقروا منها شيئا فلعل رضاه فيه. وغضبه في معاصيه، فلا تحقروا شيئا فلعل غضبه فيه. وخبأ ولايته في عبادته، فلا تحقروا منهم أحدا فلعله ولي الله). فإذا الاستغفار بالقلب حسنة لا يضيع أصلا، بل ربما قيل: الاستغفار بمجرد اللسان أيضا حسنة، إذ حركة اللسان بها غفلة خير من السكوت عنه فيظهر فضله بالنظر إلى السكوت عنه، وأن كان نقصا بالإضافة إلى عمل القلب، فينبغي ألا تترك حركة اللسان بالاستغفار، ويجتهد في أضافة حركة

---

(٢٣) الزلزال، الآية: ٧ - ٨

القلب إليها، ويتضرع إلى الله أن يشرك القلب مع اللسان في اعتياد الخير.

فصل

علاج الإصرار على الذنوب

إعلم أن الطريق إلى تحصيل التوبة، والعلاج لحل عقدة الإصرار على الذنوب: أن يتذكر ما ورد في فصلها - كما مر - وتذكر قبيح الذنوب وشدة العقوبة عليها، وما ورد في الكتاب والسنة من ذنب المذنبين والعاصين، ويتأمل في حكايات الأنبياء وأكابر العباد، وما جرى عليهم من المصائب الدنيوية، بسبب تركهم الأولى وارتكابهم بعض صغائر المعاصي، وأن يعلم أن كل ما يصيب العبد في الدنيا من العقوبة والمصائب فهو بسبب معصيته كما دل عليه الأخبار الكثيرة ويتذكر ما ورد من العقوبات على أحاد الذنوب: كالخمر، والزنا، والسرقة، والقتل، والكبر، والحسد، والكذب، والغيبة وأخذ المال الحرام... وغير ذلك من آحاد المعاصي مما لا يمكن حصره، ثم يتذكر ضعف نفسه وعجزها عن احتمال عذاب الآخرة وعقوبة الدنيا، ويتذكر خساسة الدنيا وشرف الآخرة، وقرب الموت ولذة المناجاة مع ترك الذنوب، ولا يغتر بعدم الأخذ الحالي، إذ لعله كان من الإملاء والاستدراج. فمن تأمل في جميع ذلك وعلم ذلك على سبيل التحقيق انبعثت نفسه للتوبة البتة، إذ لو لم ينزعج إلى التوبة بعد ذلك، فهو أما معتوه أحمق أو غير معتقد بالمعاد، وينبغي أن يجتهد في قلع أسباب الإصرار من قلبه: أعني الغرور، وحب الدنيا، وحب الجاه، وطول الأمل... وغير ذلك.

فصل

الإنابة

إعلم أن الإنابة هو الرجوع عن كل شئ مما سوى الله، والاقبال على الله تعالى بالسر والقبول والفعل، حتى يكون دائما في فكره وذكره وطاعته، فهو غاية درجات التوبة وأقصى مراتبها، إذ التوبة هو الرجوع عن الذنب إلى الله، والإنابة هو الرجوع عن المباحات أيضا إليه سبحانه، فهو من المقامات العالية والمنازل السامية. قال الله سبحانه:

(وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له) (٢٤). وقال - سبحانه -: (وما يتذكر إلا من ينيب) (٢٥) وقال: (وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد، هذا ما توعدون لكل أواب حفيظ، من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب، أدخلوها بسلام ذلك يوم الخلود، لهم ما يشاؤن فيها ولدينا مزيد) (٢٦).

وإنابة العبد تتم بثلاثة أمور:

الأول - أن يتوجه إليه بشراشر باطنه حتى يستغرق قلبه في فكره.

الثاني - ألا يكون خاليا عن ذكره وذكر نعمته ومواهبه وذكر أهل حبه وتقربه.

الثالث - أن يواظب على طاعاته وعباداته مع خلوص النية.

المحاسبة والمراقبة

(تذنيب) - إعلم أن المحاسبة والمراقبة قريبة من التوبة في ضديتها من وجه الإصرار على الذنوب. ومثلها في كونها من ثمرات الخوف والحب وتعلقهما بقوتي الشهوة والغضب وكونهما من فضائلها، فنحن نشير هنا إلى ما يتعلق بهما من بيان حقيقتهما وفضيلتهما والأعمال التي يتوقف تماميتها عليهما في فصول.

فصل

المعنى الظاهر للمحاسبة والمراقبة

(المحاسبة): أن يعين في كل يوم وليلة وقتا يحاسب فيه نفسه بموازنة طاعاته ومعاصيه، ليعاتب نفسه، ويقهرها لو وجدها في هذا اليوم والليلة مقصرة في طاعة واجبة، أو مرتكبة المعصية، ويشكر الله سبحانه لو أتت بجميع الواجبات ولم يصدر منه معصية، ويزيد الشكر لو صدر منها شئ من الخيرات والطاعات المندوبة.

(والمراقبة): أن يلاحظ ظاهره وباطنه دائما، حتى لا يقدم على شئ

---

(٢٤) الزمر، الآية: ٥٤

(٢٥) المؤمن، الآية: ١٣

(٢٦) ق، الآية: ٣١ - ٣٥.

من المعاصي، ولا يترك شيئا من الواجبات ليتوجه عليه اللوم والندامة وقت المحاسبة. هذا هو المعنى الظاهر للمحاسبة والمراقبة، ويأتي اعتبار أمور وأعمال أخر فيه عرفا.

فصل

حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا

إعلم أن الكتاب والسنة وإجماع الأمة دالة على ثبوت المحاسبة يوم القيامة، وحصول التدقيق والمناقشة في الحساب، والمطالبة بمثاقيل الذر من الأعمال والخطرات واللحظات، قال الله سبحانه:

(ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شئ وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين) (٢٧) وقال: (يوم يبعثهم الله جميعا فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه والله على كل شئ شهيد) (٢٨).

وقال: (ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا) (٢٩). وقال: (يوم إذ يصدر الناس أشتاتا ليروا أعمالهم، فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره) (٣٠).

وقال: (يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا) (٣١). وقال: (ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون) (٣٢). وقال: (فوربك لنسئلنهم أجمعين عما كانوا يعملون) (٣٣).

وقال رسول الله (ص): (ما منكم من أحد إلا ويسأله رب العالمين، ليس بينه وبينه حجاب ولا ترجمان). وورد بطرق متعددة: أن كل أحد في يوم القيامة لا يرفع قدما عن قدم حتى يسأل عن عمرة فيما أفناه، وعن

---

(٢٧) الأنبياء، الآية: ٤٧.

(٢٨) المجادلة، الآية: ٦

(٢٩) الكهف، الآية: ٥٠

(٣٠) الزلزال، الآية: ٦ - ٨

(٣١) آل عمران، الآية: ٣٠

(٣٢) البقرة، الآية: ٢٨١. آل عمران، الآية: ١٦١.

(٣٣) الحجر، الآية: ٩٢.

جسده فيما أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه. والآيات والأخبار الواردة في محاسبة الأعمال والسؤال عن القليل والكثير والنقير والقطمير أكثر من أن تحصى، وبإزائها أخبار دالة عن الأمر بالمحاسبة والمراقبة في الدنيا والترغيب عليها، وعلى كونها سببا للنجاة والخلاص عن حساب الآخرة. وخطره ومناقشته. فمن حاسب نفسه قبل أن يحاسب، وطالبها في الأنفاس والحركات، وحاسبها في الخطرات واللحظات، ووزن بميزان الشرع أعماله وأقواله: خف في القيامة حسابه وحضر عند السؤال جوابه، وحسن منقلبه ومآبه. ومن لم يحاسب نفسه: دامت حسراته، وطالت في عرصات القيامة وقفاته، وقادته إلى الخزي سيئاته قال الله سبحانه:
(ولتنظر نفس ما قدمت لغد) (٣٤).
والمراد بهذا النظر: المحاسبة على الأعمال وقال رسول الله (ص):
(حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوها قبل أن توزنوا). قال
الصادق (ع): (إذا أراد أحدكم ألا يسأل ربه شيئا إلا أعطاه فلييأس من الناس كلهم، ولا يكون له رجاء إلا من عند الله - تعالى - فإذا علم الله - تعالى - ذلك من قلبه لم يسأله شيئا إلا أعطاه فحاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا عليها فإن للقيامة خمسين موقفا. وكل موقف ألف سنة ثم تلا:
(في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة) (٣٥)
وتفريع المحاسبة على الأمر باليأس عن الناس والرجاء من الله، يدل على أن الإنسان أنما يرجو الناس من دون الله في عامة أمره وهو غافل عن ذلك، وإن عامة المحاسبات إنما ترجع إلى ذلك، وذكر الوقوف في مواقف يوم القيامة على الأمر بمحاسبة النفس يدل على أن الوقفات هناك إنما تكون للمحاسبات، فمن حاسب نفسه في الدنيا يوما فيوما لم يحتج إلى تلك الوقفات في ذلك اليوم، وقال (ع): (لو لم يكن للحساب مهول إلا حياء العرض على الله - تعالى - وفضيحة هتك الستر على المخفيات، لحق للمرء ألا يهبط من رؤوس الجبال، ولا يأوي إلى عمران، ولا يأكل، ولا يشرب، ولا ينام إلا

---

(٣٤) الحشر، الآية: ١٨.
(٣٥) المعارج، الآية: ٤.

عن اضطرار متصل بالتلف: ومثل ذلك يفعل من يرى القيامة بأهوالها شدائدها قائمة في كل نفس، ويعاين بالقلب الوقوف بين يدي الجبار، حينئذ يأخذ نفسه بالمحاسبة، كأنه إلى عرصاتها مدعو وفي غمراتها مسؤول، قال الله - تعالى -:
(وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين) (٣٦). (٣٧).
وقال الكاظم (ع): (ليس منا من لم يحاسب نفسه في كل يوم، فإن عمل حسنة استزاد الله - تعالى - وإن عمل سيئة استغفر الله منها وتاب إليه). وفي بعض الأخبار: ينبغي أن يكون للعاقل أربع ساعات: ساعة يحاسب فيها نفسه..

فصل

مقامات مرابطة العقل للنفس

إعلم أن العقل بمنزلة تاجر في طريق الآخرة، ورأس ماله العمر، وقد استعان في تجارته هذه بالنفس، فهي بمنزلة شريكه أو غلامه الذي يتجر في ماله، وربح هذه التجارة تحصيل الأخلاق الفاضلة والأعمال الصالحة الموصولة إلى نعيم الأبد وسعادة السرمد، وخسرانها المعاصي والسيئات المؤدية إلى العذاب المقيم في دركات الجحيم، أو نقول: رأس مال العبد في دينه الفرائض وربحه النوافل والفضائل، وخسرانه المعاصي، وموسم هذه التجارة مدة العمر، وكما أن التاجر يشارط شريكه أولا، ويراقبه ثانيا، ويحاسبه ثالثا وإن قصر في التجارة - بالخيانة والخسران وتضييع رأس المال - يعاتبه ويعاقبه ويأخذ منه الغرامة، كذلك العقل يحتاج في مشاركة النفس إلى أن يرتكب هذه الأعمال، ومجموع هذه الأعمال يسمى ب (المحاسبة والمراقبة) تسمية الكل باسم بعض أجزائه، وقد يسمى (مرابطة) أيضا.
فأول الأعمال في المرابطة (المشارطة): وهي أن يشارط النفس ويأخذ منها العهد والميثاق في كل يوم وليلة مرة ألا يرتكب المعاصي، ولا

----

(٣٦) الأنبياء الآية: ٤٧.
(٣٧) صححنا الحديث على مصباح الشريعة: باب ٨٥، ص ١٨٦.

يصدر منها شئ يوجب سخط الله، ولا يقصر في شئ من الطاعات الواجبة، ولا يترك ما تيسر له من الخيرات والنوافل. والأولى أن يكون ذلك بعد الفراغ عن فريضة الصبح وتعقيباتها، فيخاطب النفس ويقول لها: يا نفس مالي بضاعة سوى العمر، ومهما فنى رأس المال، ووقع اليأس عن التجارة وطلب الربح، وهذا اليوم الجديد، وقد أمهلني الله فيه بعظيم لطفه ولو توفاني لكنت أتمنى أن يرجعني إلى الدنيا يوما واحدا لأعمل صالحا فاحسبي أنك توفيت ثم رددت، فإياك أن تضيعي هذا اليوم، فإن كل نفس من أنفاس العمر جوهرة نفسية لا عوض لها، يمكن أن يشتري بها كنزا من الكنوز لا يتناهى نعيمها أبدا الآباد. ويتذكر ما ورد في بعض الأخبار: من أن كل عبد خلقة له بإزاء كل يوم وليلة من عمره أربع وعشرون خزانة مصفوفة. فإذا مات تفتح له هذه الخزائن، ويشاهد كل واحد منها ويدخلها، فإذا فتحت له خزانة خلقت بإزاء الساعة التي أطاع الله فيها، يراها مملوءة نورا من حسناته التي عملها في تلك الساعة، فيناله من الفرح والاستبشار بمشاهدة تلك الأنوار التي هي وسائل عند الملك الجبار ما لو وزع على أهل النار لأدهشهم ذلك الفرح عن الاحساس بألم النار، وإذا فتحت له خزانة خلقت بإزاء الساعة التي عصى الله فيها، يراها سوداء مظلمة يفوح نتنها ويتغشأ ظلامها، فيناله من الهول والفزع ما لو قسم على أهل الجنة لينقص عليهم نعيمها، فإذا فتحت له خزانة بإزاء الساعة التي نام فيها أو غفل أو اشتغل بشئ من مباحات الدنيا لم يشاهد فيها ما يسره ولا ما يسوؤه، وهكذا يعرض عليه عدد ساعات عمره الخزائن، وعند ذلك يتحسر العبد على إهماله وتقصيره، ويناله من الغبن ما لا يمكن وصفه، وبعد هذا التذكر يخاطب نفسه ويقول: اجتهدي اليوم في أن تعمري خزائنك، ولا تدعيها فارغة عن كنوزك التي هي أسباب ملكك ولا تركني إلى الكسل والبطالة فيفوتك من درجات العليين ما يدركه غيرك فتدركك الحسرة والغبن يوم القيامة إن دخلت الجنة، إذ ألم الغبن والحسرة وانحطاط الدرجة مع وجود ما فوقها من الدرجات الغير المتناهية التي نال إليها أبناء نوعك مما لا يطاق، ثم يستأنف لها وصية في أعضائه السبعة: أعني العين، والأذن، واللسان، والفرج، والبطن، واليد، والرجل، ويسلمها

إليها، لأنها رعايا خادمة لها في التجارة ولا يتم أعمالها هذه التجارة إلا بها، فيوصيها بحفظ هذه الأعضاء عن المعاصي التي تصدر عنها، وبأعمال كل منها فيما خلق لأجله، ثم يوصيها بالاشتغال بوظائف الطاعات التي تتكرر عليه في اليوم والليلة، وبالنوافل والخيرات التي تقدر عليها، وهذه شروط يفتقر إليها كل يوم، لكن إذا اعتادت النفس بتكرار المشارطة والمراقبة بالعمل بها والوفاء بحقها استغنى عن المشارطة فيها، وإن اعتادت بالعمل في بعضها لم تكن حاجة إلى المشارطة فيه، وبقيت الحاجة إليها في الباقي، وكل من يشتغل بشئ من أعمال الدنيا: من ولاية أو تجارة أو تدريس، أو أمثال ذلك: لا يخلو كل يوم منه من مهم جديد، وواقعة حادثة لها حكم جديد، ولله عليه فيها حق، فعليه أن يجدد الاشتراط على نفسه بالاستقامة عليها والانقياد للحق في مجاريها، وينبغي أن يوصلها بالتدبر في عاقبة كل أمر يرتكبه في هذا اليوم والليلة.

وهذه الوصية عمدت الوصايا ورأسها، وقد روي: (أن رجلا أتى النبي صلى الله عليه وآله وقال: يا رسول الله أوصني، فقال له: فهل أنت مستوص إن أنا أوصيتك؟ - حتى قال له ذلك ثلاثا، وفي كلها يقول الرجل نعم يا رسول الله! فقال له رسول الله (ص): إذا هممت بأمر فتدبر عاقبته، فإن يك راشدا فامضه وإن يك غيا فانته). ويظهر من هذا الخبر: إن التأمل في عاقبة كل أمر أعظم ما يحصل به النجاة، فينبغي أن يؤكد العهد والميثاق في ذلك على النفس ويحذرها عن الإهمال، ويعضها كما يوعظ العبد المتمرد الآبق، فإن النفس بالطبع متمردة عن الطاعات، مستعصية عن العبودية ولكن الوعظ والتأديب يؤثر فيها (وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين) فهذا وما يجري مجراه هو المشارطة، وهو أول مقامات المرابطة.

وثانيها (المراقبة): وهو أن يراقب نفسه عند الخوض في الأعمال، فيلاحظها بالعين الكالئة، فإنها إن تركت طغت وفسدت، ثم يراقب في كل حركة وسكون، بأن يعلم أن الله تعالى مطلع على الضمائر، عالم بالسرائر، رقيب على أعمال العباد، قائم على كل نفس بما كسبت، وأن سر القلب في حقه مكشوف، كما أن ظاهر البشرة للخلق مكشوف، بل أشد من ذلك، قال الله سبحانه:

(إن الله كان عليكم رقيبا) (٣٦). وقال: (ألم يعلم بأن الله يرى) (٣٧).
وقال رسول الله (ص): (الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تراه فإنه يراك). وفي الحديث القدسي: ((إنما يسكن جنات عدن، الذين إذا هموا بالمعاصي ذكروا عظمتي فراقبوني، والذين انحنت أصلابهم من خشيتي، وعزتي وجلالي! إني لأهم بعذاب أهل الأرض، فإذا نظرت إلى أهل الجوع والعطش من مخافتي صرفت عنهم العذاب).
وحكي: (أن زليخا لما خلت بيوسف، فقامت وغطت وجه صنمها، فقال يوسف: مالك؟ أتستحيين من مراقبة جماد ولا أستحيي من مراقبة الملك الجبار؟!). وهذه المعرفة - أعني معرفة اطلاع الله على العباد وأعمالهم وسرائرهم وكونه رقيبا عليهم - إذا صارت يقينا - أي خلت عن الشك - ثم استولت على القلب سخرت القلب وقهرته على مراعاة جانب الرقيب وصرفت الهمة إليه، والموقنون بهذه المعرفة مراقبتهم على درجتين: إحداهما مراقبة المقربين، وهي مراقبة التعظيم والاجلال، وهي أن يصير القلب مستغرقا بملاحظة الجلال، ومنكسرا تحت الهيبة، فلا يبقى فيه متسع للالتفات إلى الغير، وهذا هو الذي صار همه هما واحدا، وكفاه سائر الهموم،
وأخراهما مراقبة الورعين من أصحاب اليمين، وهم قوم غلب عليهم يقين اطلاع الله على ظهورهم وبواطنهم، ولكن لا تدهشهم ملاحظة الجلال والجمال بل بقيت قلوبهم على حد الاعتدال متسعة للالتفات إلى الأحوال والأعمال والمراقبة فيها، وغلب عليهم الحياء من الله، فلا يقدمون ولا يجمعون إلا بعد التثبت، ويمتنعون عن كل ما يفتضحون به في القيامة، فإنهم يرون الله مطلعا عليهم، فلا يحتاجون إلى انتظار القيامة. ثم ينبغي للعبد ألا يغفل عن مراقبة نفسه والتضييق عليها في لحظة من حركاتها وسكناتها وخطراتها وأفعالها.
وحالاته لا تخلو عن ثلاثة، لأنه إما أن تكون في طاعة، أو معصية، أو مباح. فمراقبته في الطاعة، بالقربة، والاخلاص، والحضور، والاكمال

---

(٣٦) النساء، الآية: ١
(٣٧) العلق الآية: ١٤.

وحراستها عن الآفات، ومراعاة الأدب. ومراقبته في المعصية: بالتوبة، والندم، والاقلاع، والحياء، والاشتغال بالتكفير. ومراقبته في المباح: بمراعاة الأدب، بأن يأكل بعد التسمية، وغسل اليدين، وسائر الآداب المقررة في الشرع للأكل، ويقعد مستقبل القبلة، وينام بعد الوضوء على اليد اليمنى مستقبل القبلة، وبالصبر عند ابتلائه ببلية ومصيبة، وبالشكر عند كل نعمة، ويتذكر عند شهود المنعم وحضوره، ويكف النفس عن الغضب وسوء الخلق عند حدوث أمر تميل النفس عنده إلى الغضب والتضجر والتكلم بما لا يحسن من الأقوال، فإن لكل واحد من أفعاله وأقواله حدودا لا بد من مراعاتها بدوام المراقبة، ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه. وينبغي ألا يخلو عند اشتغاله بالمباحات عن عمل هو الأفضل، كالذكر والفكر وتخليص النية، فإن الطعام الذي يتناوله من عجائب صنع الله، فلو تفكر فيه وتدبر في فوائده وحكمه وما فيه من غرائب قدرة الله لكان ذلك أفضل من كثير من أعمال الجوارح، والناس عن الأكل على أقسام: (قسم) ينظرون فيه بعين التبصر والاعتبار، فينظرون في عجائب صنعته وكيفية ارتباط قوام الحيوانات به، وكيفية تقدير الله لأسبابها وخلق الشهوة الباعثة عليها وخلق الآلات المسخرة للشهوة وأمثال ذلك، وهؤلاء هم أولو الألباب. (وقسم)، ينظرون فيه بعين المقت والكراهة، ويلاحظون وجه الاضطرار إليها ويتمنون الاستغناء عنه، وعدم كونهم مقهورين مسخرين بشهوته، وهؤلاء هم الزهاد. (وقسم) يرون فيه خالقه، ويشاهدون في الصنع الصانع ويترقون منه إلى صفات الخالق، من حيث أن كل معلول أثر العلة، ورشحة من رشحات ذاته وصفاته، فمشاهدته تذكر العلة بل التأمل يرشدك إلى أن دلالة كل ذرة ترى من ذرات العالم على ربك وخالقك وإيجابها لحضوره عندك وظهوره لديك وتوجهه إليك وقربه منك أشد وأقوى من دلالة مشاهدتك بدن زيد وصورته وحركاته وسكناته على وجوده وحضوره عندك، وسر ذلك ظاهر واضح. وهؤلاء المشاهدون الصانع في كل مصنوع، والخالق في كل مخلوق، هم العرفاء المحبون، إذ المحب إذا رأى صنعة حبيبه وتصنيفه وآثاره وما ينتسب إليه اشتغل قلبه

بالمحبوب، وكل ما يتردد العبد فيه وينظر إليه من الموجودات هو صنع الله تعالى، فله في النظر منها إلى الصانع مجال إن فتحت له أبواب الملكوت.
(وقسم) ينظرون فيه بعين الحرص والشهوة، وليس نظرهم إلى الطعام إلا من حيث يوافق شهوتهم وتلتذ به ذائقتهم، ولذلك يذمونه لو لم يوافق هواهم، وهؤلاء أكثر أهل الدنيا.
وثالثها – أي ثالث مقامات المرابطة وأعمالها – هو (المحاسبة) بعد العمل، فإن العبد كما يختار وقتا في أول كل يوم ليشارط في النفس على سبيل التوصية بالحق، ينبغي له أن يختار وقتا آخر كل يوم ليطالب النفس فيه بما أوصى به، ويحاسبها على جميع حركاتها وسكناتها، كما يفعل التجار في آخر كل سنة مع الشركاء. وهذا أمر لازم على كل سالك لطريق الآخرة معتقد للحساب في يوم القيامة، وقد ورد في الأخبار: أن العاقل ينبغي أن يكون له أربع ساعات: ساعة يناجي فيها ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يتفكر في صنع الله، وساعة يخلو فيها للمطعم والمشرب. ولذلك كان الصدر الأول من الخائفين ومن تقدمنا من سلفنا الصالحين في غاية السعي والاهتمام في محاسبة النفس بحيث كانت عندهم من الطاعات الواجبة: وكانوا أشد محاسبة لنفوسهم من سلطان غاشم: ومن شريك شحيح، ويعتقدون أن العبد لا يكون من أهل التقوى والورع حتى يحاسب نفسه أتم من محاسبة شريكه وأن من لا يحاسب نفسه إما معتوه أحمق أو لا يعتقد بحساب يوم القيامة، إذ العاقل المعتقد به مع أهواله وشدائده وما يوجبه من الخجلة والحياء والافتضاح، إذا علم أن محاسبة النفس في الدنيا تسقطه أو توجب خفته، كيف يجوز له أن يتركها؟
ثم كيفية المحاسبة بعد العمل: أن يطالب نفسه أولا بالفرائض التي هي بمنزلة رأس ماله، فإن أدتها على وجهها شكر الله عليه ورغبها في مثلها، وإن فوتتها من أصلها طالبها بالقضاء، وإن أدتها ناقصة كلفها بالجبران بالنوافل، وإن ارتكب معصية أشتغل بعتابها وتعذيبها ومعاقبتها، واستوفى منها ما يتدارك به ما فرط به، كما يصنع التاجر بشريكه. وكما أنه يفتش في حساب الدنيا عن الحبة والقيراط والنقير والقطمير، فيحفظ مداخل الزيادة

والنقصان حتى لا يغبن في شئ منها، كذلك ينبغي أن يفتش عن أفعال النفس ويضيق عليها وليتق غائلتها وحيلتها، فإنها خداعة مكارة ملبسة، فليطالبها أولا بتصحيح الجواب عن جميع ما تكلم به طول نهاره، وليتكفل بنفسه من الحساب قبل أن يتولاه غيره في صعيد القيامة، ثم بتصحيح الجواب عن جميع أفعاله وأحواله: من نظره، وقيامه، وقعوده، ونومه، وأكله، وشربه، حتى عن سكوته لم سكت، وعن سكونه لما سكن، وعن خواطره، وأفكاره، وصفاته النفسية، وأخلاقه القلبية، فإن خرجت عن عهدة الجواب عن الجميع، بحيث أدت الحق في الجميع، ولم تترك شيئا مما يجب عليها، ولم ترتكب شيئا من المعاصي: حصل لها الفراغ من حساب هذا اليوم، ولم يكن شيئا باقيا عليها، وإن أدت الحق في البعض دون البعض، كان قدر ما أدت الحق فيه محسوبا لها، ويبقى غيره باقيا عليها فيثبته عليها، وليكتب على صحيفة قلبه كما يكتب الباقي على شريكه على قلبه وعلى جريدته، ثم النفس غريم يمكن أن تستوفى منها الديون، أما بعضها فبالغرامة والضمان، وبعضها برد عينه، وبعضها بالعقوبة لها على ذلك، ولا يمكن شيئا من ذلك إلا بعد تحقق الحساب وتمييز الباقي من الحق الواجب عليه، فإذا حصل ذلك أشتغل بعده بالمطالبة والاستيفاء.

ورابعها - وهو آخر مقامات المرابطة - (معاتبة النفس) ومعاقبتها على تقصيرها، والمجاهدة بتكليفها الطاعات الشاقة، وإلزامها الرياضات الشديدة، فإنه إذا حاسب نفسه، فوجدها خائنة في الأعمال، مرتكبة للمعاصي، مقصرة في حقوق الله، متوانية بحكم الكسل والبطالة في شئ من الفضائل، فلا ينبغي أن يهملها، إذ لو أهملها سهل عليه مقارفة المعاصي، وأنس بها بحيث عثر بعد ذلك فطامها عنها. فينبغي للعاقل أن يعاتبها أولا، ويقول: أف لك يا نفس! هلكتيني وعن قريب تعذبين في النار مع الشياطين والأشرار، فيا أيتها النفس الأمارة الخبيثة! أما تستحين وعن عيبك لا تنتهين؟! فما أعظم جهلك وحماقتك! أما تعرفين أن بين يديك الجنة والنار وأنت صائرة إلى إحداهما عن قريب؟ فما لك تضحكين وتفرحين وباللهو والعصيان تشتغلين؟ أما علمت أن الموت يأتي بغتة من غير إخبار، وهو

أقرب إليك عن كل قريب؟ فما لك لا تستعدين له؟ أما تخافين من جبار السماوات والأرض، ولا تستحيين منه؟ تعصين بحضرته وأنت عالمة بأنه مطلع عليك؟! ويحك يا نفس! جرأتك على معصية الله إن كانت لاعتقادك أنه لا يراك فما أعظم كفرك، وإن كانت مع علمك باطلاعه عليك فما أشد وقاحتك وأقل حياؤك، وما أعجب نفاقك، وكثرة دعاويك الباطلة! فإنك تدعين الإيمان بلسانك، وأثر النفاق ظاهر عليك! فتنبهي عن رقدتك وخذي حذرك! لو أن يهوديا أخبرك في ألذ أطعمتك بأنه يضرك لصبرت وتركتيه! ولو أخبرك طفل بعقرب في ثوبك نزعتيه! فقول الله وقول أنبيائه المؤيدين بالمعجزات وقول الأولياء والحكماء والعلماء أقل تأثيرا عندك من قول يهودي أو طفل؟!... فلا يزال يكرر عليها أمثال هذه المواعظ والتوبيخات والمعاتبات، ثم يعاقبها ويلزمها ما يشق عليها من وظائف العبادات والتصدق بما يحبه، جبرا لما فات منها وتداركا لما فرط فيها، فإذا أكل لقمة مشتبهة ينبغي أن يعاقب البطن بالجوع، وإذا نظر إلى غير محرم يعاقب العين بمنع النظر، وإذا اغتاب مسلما يعاقب اللسان بالصمت والذكر مدة كثيرة، وكذلك يعاقب كل عضو من أعضائه إذا صدرت منه معصية بمنعه من شهواته، وإذا استخف بصلاة ألزم نفسه بصلاة كثيرة بشرائطها وآدابها، وإذا استهان بفقير أعطاه صفو ماله، وهكذا الحال في سائر المعاصي والتقصيرات.

وطريق العلاج في إلزام النفس - بعد تقصيرها في العمل على هذه العقوبات وربطها على تلك الطاعات الشاقة والرياضات - أمران:

الأول - تذكر ما ورد في الأخبار من فضيلة رياضة النفس ومخالفتها، والاجتهاد في الطاعة والعبادة ووظائف الخيرات، قال الصادق (ع): (طوبى لعبد جاهد في الله نفسه وهواه! ومن هزم جند هواه ظفر برضاء الله، ومن جاوز عقله نفسه الأمارة بالسوء بالجهد والاستكانة والخضوع على بساط خدمة الله تعالى فقد فاز فوزا عظيما، ولا حجاب أظلم وأوحش بين العبد وبين الله تعالى من النفس والهوى، وليس لقتلهما وقطعهما سلاح وآلة مثل الافتقار إلى الله، والخشوع، والجوع والظماء بالنهار، والسهر

بالليل، فإن مات صاحبه مات شهيدا، وإن عاش واستقام أداه عاقبته إلى الرضوان الأكبر، قال الله عز وجل:
(والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين) (٣٨).
وإذا رأيت مجتهدا أبلغ منك في الاجتهاد، فوبخ نفسك ولمها وعيرها، تحثيثا على الازدياد عليه، واجعل لها زماما من الأمر، وعنانا من النهي، وسقها كالرابض للفارة الذي لا يذهب عليه خطوه من خطواته إلا وقد صح أولها وآخرها، وكان رسول الله (ص) يصلي حتى تورمت قدماه، ويقول: (أفلا أكون عبدا شكورا)، أراد أن يعتبر به أمته. فلا تغفلوا عن الاجتهاد والتعبد والرياضة بحال. ألا وإنك لو وجدت حلاوة عبادة الله، ورأيت بركاتها واستضأت بنورها، لم تصبر عنها ساعة واحدة ولو قطعت أربا أربا، فما أعرض عنها من أعرض إلا بحرمان فوائد السلف من العصمة والتوفيق) (٣٩). قيل لربيع بن خيثم: ما لك لا تنام بالليل؟ قال: (لأني أخاف البيات). والأخبار الواردة في فضل السعي والاجتهاد ومخالفة النفس والهوى أكثر من أن تحصى.
الثاني - مصاحبة أهل السعي، والاجتهاد في العبادة، ومجالسة المجاهدين المرتاضين الذين لا ينفكون ساعة من مشاق الطاعات والعبادات وإلزام نفوسهم على ضروب النكال والعقوبات، فملاحظة أحوالهم ومشاهدة أعمالهم أقوى باعث للاقتداء بآثارهم وأفعالهم، حتى قال بعضهم: (إذا اعترتني فترة في العبادات، نظرت إلى بعض العباد واجتهاده في العبادة فكنت بعد ذلك أعمل أسبوعا)، إلا أن ذلك غير مرجو في أمثال زماننا، إذ لم يبق في عباد الله من يجتهد في العباد ة اجتهاد الأولين، وليس فينا من تقرب عبادته عبادة أدنى رجل من سلفنا الصالحين. فينبغي أن يعدل من المشاهدة إلى سماع أحوالهم، ومطالعة حكاياتهم وأخبارهم، ومن لاحظ حكاياتهم وسمع أحوالهم وأطلع على كيفية اجتهادهم في طاعة الله، يعلم أنهم

---

(٣٨) العنكبوت، الآية ٦٩.
(٣٩) الحديث بطوله مروي عن (مصباح الشريعة): باب ٨١ ص ١٨٤، مع اختلاف يسير هنا، فصححناه عليه كما كان هناك.

عباد الله وأحباؤه وأنهم ملوك الجنة، قال بعض أصحاب أمير المؤمنين عليه الصلاة والسلام: (صلينا خلفه الفجر، فلما سلم انتقل إلى يمينه وعليه كآبة، فمكث حتى طلعت الشمس، ثم قلب يديه وقال: والله لقد رأيت أصحاب محمد (ص) وما أرى اليوم شيئا شبههم، وكانوا يصبحون شعثا غبرا صفرا، فقد باتوا لله سجدا وقياما، يتلون كتاب الله عز وجل، ويراوحون بين أقدامهم وجباههم، وكانوا إذا ذكروا الله مادوا كما يميد الشجر في يوم الريح، وهملت أعينهم حتى تبل ثيابهم، وكأن القوم باتوا غافلين). وكان أويس القرني يقول في بعض الليالي: (هذه ليلة الركوع) فيحيي الليل كله في ركعة، ويقول في بعضها: (هذه ليلة السجود) فيحيي كله في سجدة. وقال ربيع بن خثيم: (أتيت أويسا فوجدته جالسا قد صلى الفجر، فجلست موضعا، وقلت: لا أشغله عن التسبيح. فمكث مكانه حتى صلى الظهر ولم يقم حتى صلى العصر، ثم جلس موضعه حتى صلى المغرب، ثم ثبت حتى صلى العشاء، ثم ثبت مكانه حتى صلى الصبح، ثم جلس فغلبته عيناه، فقال: اللهم إني أعوذ بك من عين نوامة وبطن لا تشبع). وروي: (أن رجلا من العباد كلم امرأة ووضع يده على فخذاها، ثم ندم فوضع يده في النار حتى نشت (٤٠) عقوبة لها. وبعضهم نظر إلى امرأة فجعل على نفسه ألا يشرب الماء البارد طول حياته، فكان يشرب الماء الحار لينغص على نفسه العيش. ومر بعضهم بغرفة فقال: متى بنيت هذه الغرفة؟ ثم أقبل على نفسه وقال: تسألين عما لا يعنيك؟! لأعاقبنك بصوم سنة، فصامها) وروي: (أن أبا طلحة الأنصاري شغل قلبه في الصلاة طين في الحائطة، فتصدق بالحائطة جبرا لما فاته من الحضور في الصلاة). وكان بعضهم اعتلت إحدى قدميه فيصلي على قدم واحدة حتى يصلي الصبح بوضوء العشاء. وكان بعضهم يقول: (ما أخاف من الموت إلا من حيث يحول بيني وبين صلاة الليل). وحكى رجل: (أنه

---

(٤٠) النشيش: صوت غليان الماء.

نزل بعض أهل الله عندنا بالمحصب (٤١) وكان له أهل وبنات، وفي كل ليل يقوم ويصلي إلى السحر، فإذا كان السحر ينادي بأعلى صوته: أيها الركب المعرسون! (٤٢) أكل هذا الليل تنامون فكيف ترحلون؟ فيسمع صوته كل من كان بالمحصب، فيتواثبون بين باك وداع، وقارئ ومتوضئ وإذا طلع الفجر نادى بأعلى صوته عند الصباح يحمد القوم السري).

وهكذا كان عمل عمال الله وسلوك سالكي طريق الآخرة، وحكاياتهم غير محصورة خارجة عن الاحصاء، أشرنا إلى أنموذج منها ليعلم الطالبون كيفية سيرة الرجال في مرابطة النفس ومراقبتها، ويعلمون أن عباد الله ليسوا أمثالنا، بل هم قوم آخرون. قال بعض الحكماء: (أن لله عبادا أنعم عليهم فعرفوه وشرح صدورهم فأطاعوه، وتوكلوا عليه فسلموا الخلق والأمر إليه، فصارت قلوبهم معادن لصفاء اليقين، وبيوتا للحكمة، وتوابيت للعظمة وخزائن للقدرة، فهم بين الخلائق مقبلون ومدبرون، وقلوبهم تجول في الملكوت، وتلوز (٤٣) بحجب العيوب، ثم ترجع ومعها طوائف من طوائف الفوائد ما لا يمكن لواصف أن يصفها، فهم في باطن أمورهم كالديباج حسنا، وفي الظاهر مناديل مبذولون لمن أرادهم تواضعا، وطريقهم لا يبلغ إليها بالتكلف وإنما هو فضل الله يؤتيه من يشاء). فعليك يا حبيبي بمطالعة أحوالهم وحكاياتهم، لينبعث نشاطك وتزيد رغبتك، وإياك أن تنظر إلى أهل عصرك ولعمري! قل في أمثال زماننا من يذكر الله رؤيته، ويعينك في طريق الدين صحبته، فإن تطع أكثر من في بلدي وعصرك يضلوك عن سبيل الله.

ومنها:

الغفلة

وهي فتور النفس عن الالتفات والتوجه إلى ما فيه غرضها ومطلبها، إما عاجلا أو آجلا. وضدها: النية، وترادفها: الإرادة والقصد، وهي انبعاث

---

(٤١) المحصب - بالمهملتين وضم الميم وتشديد الصاد -: موضع بمكة على طريق منى، ويسمى (بطحاء).

(٤٢) التعريس نزول المسافر آخر الليل للنوم والاستراحة، من أقوالهم: عرس القوم.

(٤٣) في القاموس: اللوز - بالزاي: الملاذ والملجأ.

النفس وميلها وتوجهها إلى ما فيه غرضها ومطلبها حالا أو مآلا والموافق لغرض النفس إن كان خيرا لها وسعادة في الدنيا أو الدين، فالغفلة عنه وعدم انبعاث النفس إلى تحصيله رذيلة، والنقصان والنية له والقصد إليه فضيلة وكمال، وإن كان شرا وشقاوة، فالغفلة عنه وكف النفس منه فضيلة، والنية له وإرادته رذيلة. ثم باعث النفس إلى النية أو الغفلة والكف، أن كان من القوة الشهوية كانت النية أو الغفلة متعلقة بها فضيلة أو رذيلة، وإن كان من قوة الغضب كانت النية أو الغفلة متعلقة بهذه القوة كذلك. فالنية والعزم على التزويج متعلقة بالقوة الشهوية، وعلى دفع كافر يؤذي المسلمين متعلقة بقوة الغضب والنية في العبادات مع انضمام التقرب إليها تسمى إخلاصا.
ثم المتبادر من الموافق للغرض والمطلوب لما كان ما هو كذلك عند العقلاء وأرباب البصيرة، فيكون المراد منه ما هو مرغوب ومطلوب في نفس الأمر وما تحصيله خير وسعادة، وبهذا الاعتبار تكون الغفلة بإطلاقها مذمومة والنية ممدوحة، فلو ذمت الغفلة بإطلاقها ومدحت النية كذلك، كان بهذا الاعتبار والآيات والأخبار الواردة في ذم الغفلة خارجة بهذا الاعتبار، كما وصف الله الغافلين وقال:
(إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا) (٤٤). وقال: (أولئك هم الغافلون) ٤٥.
(تنبيه): الغفلة بالمعنى المذكور أعم من أن يكون فتور النفس وخمودها عن الانبعاث إلى ما يراه موافقا للغرض مع الجهل بالمواقف والملائم، أو مع العلم به ومع النسيان عنه، أو مع التذكر له، وربما خص في عرف أهل النظر بصورة الذهول وعدم التذكر. ثم الكسالة والبطالة قريب من الغفلة بالمعنى العام، وربما فرق بينهما ببعض الاعتبارات.

تتميم

الغفلة موجبة للحرمان

الغفلة والكسالة عما ينبغي تحصيله من أمور الدنيا والدين توجب الحرمان

---

(٤٤) الفرقان الآية: ٤٤.
(٤٥) الأعراف، الآية: ١٧٨.

عن سعادة الدارين، وتؤدي إلى شقاوة النشأتين، إذ الإهمال في رعاية أمر المعيشة ومصالحها يؤدي إلى هلاكة الشخص وانقطاع النوع، والغفلة عن اكتساب المعارف والأخلاق الفاضلة وعن أداء الفرائض والنوافل تنجر إلى إبطال غاية الايجاد - أعني بلوغ كل شخص إلى كماله المستعد له - وهو مع كونه - صريح المضادة والمنازعة لخالق العباد يوجب الهلاكة والشقاوة أبد الآباد.

وصل

ضد الغفلة النية - تأثير النية على الأعمال - النية روح الأعمال والجزاء بحسبها - عبادة الأحرار والاجراء والعبيد - نية المؤمن من العمل - النية غير اختيارية - الطريق في تخليص النية.

* * *

قد عرفت أن ضد الغفلة النية، وهي انبعاث النفس وتوجهها إلى ما يراه موافقا لغرضها، وقد عرفت أيضا أن النية والإرادة والقصد عبارات متواردة على معنى واحد، وهي واسعة بين العلم والعمل، إذ ما لم يعلم أمر لم يقصد وما لم يقصد لم يفعل، فالعلم مقدم على النية وشرطها، والعمل ثمرتها وفرعها إذ كل فعل وعمل يصدر عن فاعل مختار فإنه لا يتم إلا بعلم وشوق وإرادة وقدرة، إذ كل إنسان خلق بحيث يوافقه بعض الأمور ويلائم غرضه ويخالفه بعض الأمور، فاحتاج إلى جلب الموافق ودفع المخالف المنافي، وهو موقوف على إدراك الملائم النافع والمنافي الضار، إذ ما لم يعرف الشئ لم يعقل طلبه أو الهرب عنه، وهو العلم، وعلى الميل والرغبة والشهوة الباعثة عليه، وهو الشوق إذ من أدرك الغذاء أو النار لا يكفيه ذلك للتناول والهرب، ما لم يكن شوق إلى التناول والهرب، وعلى القصد والشروع والتوجه إليه، وهو النية، إذ كم شاهد للطعام راغب فيه شائق إليه لا يريده لكونه مؤذيا أو حراما أو لعذر آخر، وعلى القدرة المحركة للأعضاء إليه - أي إلى جلب الملائم أو دفع المضار - وبها يتم الفعل فهي الجزء الأخير للعلة التامة التي بها يتم فعل الفاعل المختار فالأعضاء لا تتحرك إلى جانب الفعل ولا توجده إلا بالقدرة والقدرة تنتظر النية، والنية تنتظر الداعية الباعثة - أعني الشوق - والشوق ينتظر العلم أو الظن بكون ما يفعل موافقا له، فإن كان الشوق صادرا عن القوة

البهيمية، بأن يكون الفعل مما تقتضيه هذه القوة: كأكل، وشرب، وجماع وكسب مال، وأمثال ذلك من الالتذاذات الشهوية، كانت النية والقصد أيضا متعلقة بهذه القوة معدودة من فضائلها أو رذائلها، وإن كان مما تقتضيه القوة السبعية: من دفع مؤذ، أو طلب الاستعلاء، أو تفوق، وأمثال ذلك كانت النية أيضا متعلقة بهذه القوة معدودة من فضائلها أو رذائلها. وقد ظهر بما ذكر: إن المحرك الأول هو الغرض المطلوب – أعني المقصود المنوي بعد تعلق العلم به – وهو الباعث الأول وينبعث منه الشوق وهو الباعث الثاني ويتولد منه القصد والنية وهو الباعث الثالث المحرك للقدرة الباعث لانتهاضها على تحريك الأعضاء إلى جانب العمل.

فصل

تأثير النية على الأعمال

العمل غرضه الباعث، أي باعثه الأول، إما واحد: كالقيام للإكرام، أو للهرب من السبع المتهجم عليه، أو متعدد مع استقلال كل واحد بالباعثية متساويا أو متفاوتا: كالتصدق للفقر والقرابة بالنظر إلى من ينتهض فيه كل واحد بانفراده سببا للاعطاء، أو بدون استقلال واحد لو انفرد، بل المستقل المجموع، كالمثال المذكور بالنظر إلى من يعطي ماله قريبه الفقير ويمتنع عند الانفراد، أي لا يعطيه قريبه الغني، ولا الأجنبي الفقير، أو مع استقلال بعض دون بعض: بأن يكون للثاني تأثير بالإعانة والتسهيل دون البعث والتحصيل، ثم يتعدد الجزاء بتعدد البواعث، إن خيرا فخير: كالدخول في المسجد لزيارة الله، ولانتظار الصلاة، والاعتكاف والانزواء والتجرد للذكر. وترك الذنوب، وملاقاة الأتقياء وإخوانه المؤمنين واستماع المواعظ وأحكام الدين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإن شر فشر: كالقعود فيه للتحدث بالباطل، وملاحظة النساء، والمناظرة للمباهاة والمراءاة، وربما كان بعض البواعث خيرا وبعضها شرا: كالتصدق للثواب والرياء، ودخول المسجد لبعض البواعث الأول، وبعض البواعث الثانية، والعمل الذي باعثه من هذا القسم قد ظهر حكمه في باب الإخلاص. ثم باعث

العمل المباح إن كان خيرا بجعله عبادة، كالتطيب يوم الجمعة لإقامة السنة، وتعظيم المسجد واليوم، ودفع الأذى بالنتن، والأكل لقوة العبادات، والجماع للولد وتطييب خاطر الزوجة: والترفه بنومة أو دعابة مباحة لرد نشاط الصلاة، وإن كان شرا بجعله معصية، كالتطيب للتفاخر بإظهار الثروة والتزين للزنا، ولا يؤثر في الحرام، فلا يباح شرب الخمر لموافقة الأقران، والإخوان، فالمعاصي لا تتغير موضوعاتها بالنية، بخلاف الطاعات والمباحات فإنها بالنية الصحيحة تصير أقرب القربات، وبالمفاسدة تصير أعظم المهلكات فما أعظم خسران من يغفل عن النية، ويتعاطى الأعمال تعاطي البائن المهملة على قصد حظوظ النفس أو على السهو والغفلة، وقد كانت غاية سعي السلف أن يكون لهم في كل شئ نية صحيحة، حتى في أكلهم وشربهم ونومهم ودخولهم الخلاء.

ولا ريب في إمكان تصحيح النية في كل مباح، بحيث يترتب عليه الثواب، بل يمكن تصحيح النية في كل نقصان مالي وعرضي، فإن من تلف له مال، فإن قال: هو في سبيل الله، كان له أجرا، وإن سرقه أحد أو غصبه يمكن أن ينوي كونه من ذخائر الآخرة، وإذا بلغه اغتياب غيره له فيمكن أن يطيب خاطره بأنه سيحمل عليه سيئاته وينقل إلى ديوان حسناته فإياك أن تستحقر شيئا من نياتك وخطرات قلبك، ولا تقدم على عمل إلا بالنية صحيحة، فإن لم تحضرك النية توقف، إذ النية لا تدخل تحت الاختيار، وقد قيل: (إن من دعا أخاه إلى طعام بدون رغبة باطنة في اجتنابه، فإن أجابه فعليه وزران: النفاق، وتعريضه أخاه لما يكرهه لو علمه، وإن لم يجبه ولم يأكل فعليه وزر واحد هو النفاق!). فلا بد للعبد من خالص النية في كل حركة وسكون، لأنه إذا لم يكن كذلك غافلا، والغافلون قد وصفهم الله – تعالى – فقال:

(إن هم إلا كالانعام بل هم أضل سبيلا) (٤٦).

وصاحب خالص النية صاحب القلب السليم، قال الصادق (ع):

---

(٤٦) الفرقان، الآية: ٤٤.

((صاحب النية الصادقة صاحب القلب السليم، لأنه سلامة القلب من هواجس المحذورات بتخليص النية لله في الأمور كلها، قال الله – عز وجل –:
(يوم لا ينفع مال ولا بنون، إلا من أتى الله بقلب سليم) (٤٧).
ثم النية تبدو من القلب على قدر صفاء المعرفة وتختلف على حسب اختلاف الأوقات في معنى قوته وضعفه، وصاحب النية الخالصة نفسه وهواه مقهورتان تحت سلطان تعظيم الله – تعالى – والحياء منه، وهو من طبعه وشهوته ومنيته نفسه، في تعب، والناس منه في راحة) ((٤٨).

فصل

النية روح الأعمال، والجزاء بحسبها

النية روح الأعمال وحقيقتها، والجزاء يكون حقيقة عليها، فإن كانت خالصة لوجه الله – تعالى – كانت ممدوحة، وكان جزاؤها خيرا وثواب، وأن كانت مشوبة بالأغراض الدنيوية كانت مذمومة، وكان جزاؤها شرا وعقابا، قال الله – سبحانه –:
(ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه) (٤٩).
والمراد بالإرادة: النية، لترادفهما – كما تقدم –. وأوحى الله إلى داود: (يا داود! لا تطاول على المريدين، لو علم أهل محبتي منزلة المريدين عندي لكانوا لهم أرضا يمشون عليها، يا داود! لئن تخرج مريدا من كربة هو فيها تستعده، كتبتك عندي حميدا، ومن كتبته حميدا لا يكون عليه وحشة ولا فاقة إلى المخلوقين). وقال رسول الله (ص): (أنما الأعمال بالنيات، ولكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى الدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه)، وأنما قال ذلك حين قيل له: أن بعض المهاجرين

----

(٤٧) الشعراء الآية: ٨٨ / ٨٩.
(٤٨) هذا بعض الحديث المذكور في مصباح الشريعة / الباب الرابع ص ١٣٥ –، وفي البحار – الجزء الثاني من المجلد الخامس عشر، باب النية وشرائطها ومراتبها، ص ٧٧، ط أمين الضرب –. لكن المذكور في البحار فيه اختلاف يسير عما في المصباح، / فصححناه على البحار، لكون المذكور في البحار أصح مما في المصباح.
(٤٩) الأنعام، الآية: ٥٢.

إلى الجهاد ليست نيته من تلك الهجرة إلا أخذ الغنائم من الأموال والسبايا أو نيل الصيت عند الاستيلاء، فبين (ص): أن كل أحد ينال في عمله ما يبغيه، ويصل إلى ما ينويه، كائنا ما كان، دنيويا كان أو أخرويا وهذا الخبر مما يعده المحدثون من المتواترات وهو أول ما يعلمونه أولادهم، وكانوا يقولون: إنه نصف العلم. وقال (ص): (إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم، وأنما ينظر إلى القلوب لأنها مظنة النية). وقال (ص): (إن العبد ليعمل أعمالا حسنة فتصعد بها الملائكة في صحف مختتمة، فتلقى بين يدي الله – تعالى –، فيقول: ألقوا هذه الصحيفة، فإنه لم يرد بما فيها وجهي، ثم ينادي الملائكة: اكتبوا له كذا وكذا، فيقولون: يا ربنا! إنه لم يعمل شيئا من ذلك، فيقول الله – تعالى –: إنه نواه) وقال (ص): (الناس أربعة: رجل آتاه الله – عز وجل – علما ومالا فهو يعمل بعلمه في ماله، فيقول رجل: لو آتاني الله – تعالى – مثل ما آتاه لعملت كما يعمل، فهما في الآجر سواء، ورجل آتاه الله مالا ولم يؤته علما، فهو يتخبط بجهله في ماله فيقول الرجل: لو آتاني الله مثل ما آتاه لعملت كما يعمل، فهما في الوزر سواء، ألا ترى كيف شاركه بالنية في محاسن عمله ومساويه؟!) ولما خرج (ص) إلى غزوة تبوك، قال: (إن بالمدينة أقواما، ما قطعنا واديا، ولا وطأنا موطئا يغيظ الكفار، ولا أنفقنا نفقة، ولا أصابتنا مخمصة، إلا شاركونا في ذلك وهم في المدينة)، قالوا وكيف ذلك يا رسول الله وليسوا معنا؟! فقال (حسبهم العذر، فشاركونا بحسن النية). وفي الخبر: (أن رجلا من المسلمين قتل في سبيل الله بأيدي الكفار، وكان يدعي بين المسلمين قتيل الحمار، لأنه قاتل رجلا من الكافرين نية أن يأخذ حمارة وسلبه، فقتل على ذلك فأضيف إلى نيته. وهاجر رجل إلى الجهاد مع أصحاب النبي (ص)، وكانت نيته من المهاجرة أن يأخذ امرأة كانت في عساكر الكفار ويتزوجها – وتسمى أم قيس – فأشتهر هذا الرجل عند أصحاب النبي بمهاجر أم قيس). وفي أخبار كثيرة: (من هم بحسنة ولم يعملها كتب له حسنة) كما تقدم، وقد ورد: أنه إذا التقى المسلمان

بسيفهما، فالقاتل في النار، وكذا المقتول، لأنه أراد قتل صاحبه. وقال
- صلى الله عليه وآله -: (إذا التقى الصفان نزلت الملائكة تكتب الخلق
على مراتبهم: فلا يقاتل للدنيا، لأن يقاتل حمية، فلا يقاتل عصبية
ألا فلا تقولوا قتل فلان في سبيل الله إلا لمن قاتل لتكون كلمة الله هي العليا)
وقال (ص): (من تزوج امرأة على صداق وهو لا ينوي أداءه فهو زان،
ومن استدان دينا وهو لا ينوي قضاءه فهو سارق، ومن تطيب لله تعالى
جاء يوم القيامة وريحه أطيب من المسك، ومن تطيب لغير الله جاء يوم القيامة
وريحه أنتن من الجيفة (٥٠)، وكل ذلك مجازات على حساب النية. وقال
الصادق (ع): (إن العبد المؤمن الفقير ليقول: يا رب! أرزقني حتى أفعل
كذا وكذا من البر ووجوه الخير، فإذا علم الله - عز وجل - ذلك منه بصدق
النية كتب له من الأجر مثلما يكتب له لو عمله، إن الله واسع كريم)).
وسئل (ع) عن حد العبادة التي إذا فعلها فاعلها كان مؤديا، فقال: (حسن النية
بالطاعة). وقال (ع): (وإنما خلد أهل النار في النار لأن نياتهم كانت في
الدنيا أن لو خلدوا فيها أن يعصوا الله - تعالى - أبدا، وأنما خلد أهل
الجنة في الجنة لأن نياتهم كانت في الدنيا أن لو بقوا فيها أن يطيعوا الله أبدا،
فبالنيات خلد هؤلاء وهؤلاء، ثم تلا قوله - تعالى -:
(قل كل يعمل على شاكلته) (١).
قال: على نيته) (٢) وأمثال هذه الأخبار أكثر من أن تحصى، وأي
شبهة في أن عماد الأعمال النيات، والعمل مفتقر إلى النية ليصير خيرا، والنية في
نفسها خير وإن تعذر العمل، وعون الله - تعالى - للعبد على قدر النية
فمن تمت نيته تم عون الله له، وإن نقصت نقص بقدره، فرب عمل صغير تعظمه،
النية، ورب عمل كبير تصغره النية وكذلك كان السلف يتعلمون النية للعمل
كما يتعلمون العمل، ونقل: (أن بعض المرتدين يطوف على العلماء ويقول:
من يدلني على عمل لا أزال فيه عاملا لله - تعالى -، فإني لا أحب أن

----

(٥٠) صححنا النبويات كلها على إحياء العلوم: ٤ / ٣١٠، ٣١١، ٣١٧،
باب فضيلة النية.
(١) الإسراء الآية: ٨٤.
(٢) صححنا الأخبار كلها على أصول الكافي - الجزء الثاني، باب النية -.

تأتي علي ساعة من ليل أو نهار ألا وأنا عامل من عمال الله – تعالى –. فقال له بعض العلماء: أنت قد وجدت حاجتك، فاعمل الخير ما استطعت، فإذا فترت أو تركته فهم بعمله، إذ من هم بعمل الخير كمن يعمل به). ثم السر في مجازاة الأعمال على حسب النية، وكون النية حقيقة العمل وعمادا وروحا له: إن العمل من حيث هو عمل لا فائدة فيه، وإنما فائدته للأثر الذي يصل منه إلى النفس من النورانية والصفاء ولا يزال يتكرر وصول هذا الأثر من الأعمال إليها حتى تحصل لها غاية الضياء والصفاء، فيحصل لها التجرد التام وينخرط في سلك الملائكة، ولا ريب في أن وصول هذا الأثر من الأعمال إنما هو مع صحة النية وخلوصها، وكونها لله – سبحانه – من دون شوب الأغراض، بل التأمل يعطي أن هذا الأثر إنما هو حقيقة من محض النية، وإن كانت حادثة لأجل العمل.

فصل

عبادة الأحرار والاجراء والعبيد

قد ظهر مما ذكر: أنه لا يحسب من عبادة الله ولا يعد من طاعة الله بحيث يترتب عليه الأجر في الآخرة إلا ما يراد التقرب إلى الله والدار الآخرة أي يراد به وجه الله من حيث هو، من دون غرض آخر من الأغراض الدنيوية، أو يراد به التوصل إلى ثوابه، أو الخلاص من عقابه، فمن أراد بعبادته محض وجه الله وأخلصها له لكونه أهلا للعبادة، ولمحبته له لما عرفه بجلاله وجماله وعظمته ولطف فعاله، فأحبه واشتاق إليه، ولا يريد سواه ولا يتبهج بغير حبه وأنسه والاستغراق في لجة شهوده، فيفرح بعبادته وتوجيه قلبه إليه بطاعته: فجزاءه أن يحبه الله ويجتبيه، ويقربه إلى نفسه وبدنه قربا معنويا ودنوا روحانيا، كما قال في حق بعض من هذا صفته: (وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب) (٣).

وإلى هذه المرتبة أشار أمير المؤمنين (ع) بقوله: (إلهي ما عبدتك خوفا من نارك ولا طمعا في جنتك، ولكن وجدتك أهلا للعبادة فعبدتك).

----

(٣) ص، الآية: ٢٥، ٤٠.

وأما من غرضه نيل الثواب والخلاص من العقاب، نظرا إلى أنه لم يعرف من الله سوى كونه إلها صانعا للعالم قادرا قاهرا عالما، وإن له جنة ينعم بها المطيعين، ونارا يعذب بها العاصين، فعبده ليفوز بجنته أو يتخلص من ناره: فجزاءه بمقتضى نيته أن يدخل جنته، وينجيه من ناره، لأن جزاء الأعمال حسب النيات، كما أخبر الله - تعالى - عنه في غير موضع من كتابه، فإن لكل امرء ما نوى، ولا تصغي إلى قول من ذهب إلى بطلان العبادة إذا قصد بفعلها الثواب أو الخلاص من العقاب زعما منه أن هذا القصد منافي للخلاص الذي هو أراد وجه الله وحده، أن من قصد ذلك أنما قصد جلب النفع إلى نفسه، ودفع الضرر عنها، لا وجه الله - سبحانه -، فإن هذا قول من لا معرفة له بحقائق التكاليف ومراتب الناس فيها، بل ولا معرفة له بمعنى النية وحقيقتها، فإن حقيقة النية عبارة من انبعاث النفس وميلها وتوجهها إلى ما فيه غرضها ومطلبها، إما عاجلا أو آجلا، لا مجرد قول الناوي عند العبادة: أفعل كذا قربة إلى الله، ومجرد تصور هذا القول بخاطره وملاحظته بقلبه وأن لم يكن لنفسه انبعاث إلى التقرب، هيهات هيهات! أنما هذا تحريك لسان وحديث نفس، وما ذلك إلا كقول الشبعان: أشتهي هذا الطعام، قاصدا حصول الاشتهاء، وهذا الانبعاث إذا لم يكن حاصلا للنفس لا يمكنها اختراعه واكتسابه لمجرد القول والتصور، وأكثر الناس تتعذر منهم العباد ابتغاء لوجه الله وتقربا إليه، لأنهم لا يعرفون من الله - تعالى - إلا المرجو والمخوف، فغاية مرتبتهم أن يتذكروا النار ويحذروا أنفسهم عقابا، ويتذكروا الجنة ويرغبوا أنفسهم ثوابها، وخصوصا من كان ملتفتا إلى الدنيا، فإنه قل ما تنبعث له داعية إلى فعل الخيرات لينال بها ثواب الآخرة، فضلا عن عبادته على نية أجلال الله - تعالى - لاستحقاقة الطاعة والعبودية، فإنه قل من يفهمها فضلا عمن يتعاطاها، فلو كلف بها لكان تكليفا بما لا يطاق، وليس معنى الإخلاص في العبادة إلا عدم كونها مشبوهة بشوائب الدنيا والحضور العاجلة للنفس، كمدح الناس، ونيل المال، والخلاص من النفقة لعتق العبد ونحو ذلك، وظاهر أنه لا تنافيه إرادة الجنة والخلاص من النار بما وعد في الآخرة، وإن

كان من جنس المألوف في الدنيا، ولو كان مثل هذه النيات مفسدة للعبادات لكان الترغيب والترهيب والوعد والوعيد عبثا، إذ كل ما وعد به الجنة وأوعد عليه النار مما رغب ووعد به ورهب وأوعد عليه، وما ورد في الترغيب والترهيب والوعد والوعيد من الآيات والأخبار أكثر من أن يحصى قال الله – سبحانه –:

(ويدعوننا رغبا ورهبا) (٤).

ثم كيف يمكن للعبد الضعيف الذليل المهين الذي لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا ولا موتا ولا حياة ولا شيئا مما ينفعه ويؤذيه، أن يستغني عن جلب النفع لنفسه أو دفع الضرر عنها من مولاه. ومن تأمل يجد أن القائل ببطلان العبادة بإحدى النيتين ترجع النية الصحيحة في عبادته إلى إحداهما وهو لا يشعر به.

ومما يدل صريحا على ما ذكرناه قول الصادق (ع): (العباد ثلاثة: قوم عبدوا الله – عز وجل – خوفا، فتلك عبادة العبيد. وقوم عبدوا الله – تبارك وتعالى – طلب الثواب، فتلك عبادة الأجراء. وقوم عبدوا الله – عز وجل – حبا له فتلك عبادة الأحرار، وهي أفضل العبادة) (٥).

وهذا يدل على أن العبادة على الوجهين الأولين لا تخلو من فضل أيضا، فضلا عن أن تكون صحيحة. نعم لا ريب في أن العبادة على الوجه الأخير لا نسبة لمنزلتها ودرجتها إلى درجة العبادة على الوجهين الأولين، فإن من تنعم بلقاء الله والنظر إلى وجهه الكريم، يسخر ممن يلتفت إلى وجه الحور العين كما يسخر المتنعم بالنظر إلى وجه الحور العين بالملتفت إلى الصور المصنوعة من الطين، وكما يسخر المتنعم بالنظر إلى وجه النساء الجميلة بالخنفساء التي تعرض عن النظر إلى وجوههن وتلتفت إلى صاحبتها وتألف بها، بل هذه أمثلة أوردناها من باب الاضطرار، إذ التفاوت بين جمال الحضرة الربوبية وجمال الحور العين أو النسوان الجميلة أعظم كثيرا من التفاوت بين جمال الحور العين والصور المصنوعة من الطين وبين جمال

----

(٤) الأنبياء، الآية: ٩٠.

(٥) صححنا الرواية على أصول الكافي: الجزء الثاني، باب العبادة

النسوان الجميلة والخنفساء، كيف والتفاوت في الثاني متناه وفي الأول غير متناه، وأي نسبة للمتناهي إلى غير المتناهي؟

فصل

نية المؤمن خير من العمل

لما عرفت أن النية روح العمل وحقيقته، وتوقف نفع العمل عليها دون العكس، وكون الغرض الأصلي من العمل تأثير القلب بالميل إلى الله تعالى وتوقفه على النية، فهي خير من العمل، بمعنى أن العمل إذا حلل إلى جزئية يكون جزؤه القلبي – أعني النية – خيرا من جزئه الجسماني – أعني ما يصدر من الجوارح –، والثواب المترتب عليه أكثر من الثواب المترتب عليه، ولذا قال الله – سبحانه:

(لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم) (٦).

فإن المقصود من إراقة دم القربان ميل القلب عن حب الدنيا، وبذلها إيثارا لوجه الله، دون مجرد الدم واللحم، وميل القلب إنما يحصل عند جزم النية والهم، وإن عاق عن العمل عائق، (فلن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم)، والتقوى صفة القلب، ولذا ترى أن المجامع امرأته على قصد أنها غيرها آثم، بخلاف المجامع غيرها على أنها امرأته، ولذا ورد: أن من هم بحسنة ولم يعملها كتبت له حسنة، لأن هم القلب هو ميله إلى الخير وانصرافه عن الهوى، وهو غاية الأعمال الحسنة، وإنما الإتمام بالعمل يزيدها تأكيدا. وبما ذكر ظهر معنى الحديث المشهور: (نية المؤمن خير من عمله، ونية الكافر شر من عمله). وكل عامل يعمل على نيته. وحاصله: إن كل طاعة تتضمن نية وعملا، وكل منهما من جملة الخيرات، وله أثر في المقصود، وتكون النية خيرا من العمل وأثرها أكثر من أثره. والغرض: أن للمؤمن اختيارا في النية وفي العمل، فهما عملان، والنية من الجملة خيرهما، أي النية التي هي جزء من طاعته خير من عمله الذي هو جزؤها الآخر.

----

(٦) الحج، الآية: ٣٧.

فإن قيل: ما ذكرت لا يفيد أزيد من أن العمل إذا كان مع النية يكون كل من العمل والنية خيرا وذا ثواب، وإذا كان بدونها لا يكون خيرا ولا يكون له ثواب، والمقصود كون النية خيرا من العمل في الصورة الأولى وكون ثوابها أعظم، ولم يظهر وجه الخيرية مما ذكرت.

قلت: ذلك وإن ظهر إجمالا، إلا أنه لا بد لتوضيحه لتظهر جلية الحال، فنقول:

الوجه في كون النية خيرا من العمل وراجحة عليه في الثواب: أنه لا ريب في أن المقصود من الطاعات شفاء النفس وسعادتها في الآخرة وتنعمها بلقاء الله – سبحانه –، والوصول إلى اللقاء موقوف على معرفة الله وحبه وأنسه، وهي موقوفة على دوام الفكر والذكر الموجبين لانقطاع النفس من شهوات الدنيا وتوجهها إلى الله – سبحانه –، فإذا حصل بمجرد المعرفة الحاصلة من الفكر ميل وتوجه إلى الله – تعالى – كان ضعيفا غير راسخ وإنما يترسخ ويتأكد بالمواظبة على أعمال الطاعات وترك المعاصي بالجوارح لأن بين النفس وبين الجوارح علاقة يتأثر لأجلها كل واحد منها عن الآخر، فيرى أن العضو إذا أصابته جراحة تتألم بها النفس، وإن النفس إذا تألمت بعلمها بموت عزيز أو بهجوم أمر مخوف تأثرت الأعضاء وارتعدت الفرائص، فالطاعات التي هي فعل الجوارح إنما شرعت للتوصل بها إلى صفة النفس – أعني التوجه والميل إلى الله سبحانه –، فالنفس هو الأصل المتبوع والأمير، والجوارح كالخدم والأتباع، وصفات القلب هي المقصود لذاتها، وأفعال الجوارح هي المطلوبة بالعرض، لكونها مؤكدة وموجبة لرسوخ النفس – أعني الميل والنية والتوجه – ولا ريب في أن ما هو المقصود بالذات خير مما هو مقصود بالعرض، وثوابه أعظم من ثوابه.

ومن المعاني الصحيحة للحديث: إن المؤمن بمقتضى إيمانه ينوي خيرات كثيرة لا يوفق لعملها، إما لعدم تمكنه من الوصول إلى أسبابها، أو لعدم مساعدة الوقت على عملها، أو لممانعة رذيلة نفسانية عنها بعد الوصل إلى أسبابها، كالذي ينوي إن آتاه الله مالا ينفقه في سبيله، ثم لما آتاه يمنعه البخل عن الإنفاق، فهذا نيته خير من عمله، وأيضا المؤمن ينوي دائما أن

تقع عباداته على أحسن الوجوه، لأن إيمانه يقتضي ذلك، ثم إذا اشتغل بها لا يتيسر له ذلك، ولا يأتي بها كما يريد، فما ينويه دائما خير مما يعمل به في كل عبادة. وإلى هذا أشار الباقر (ع) حيث قال: (نية المؤمن خير من عمله وذلك لأنه ينوي الخير ما لا يدركه، ونية الكافر شر من عمله، وذلك لأن الكافر ينوي الشر ويأمل من الشر ما لا يدركه). وقيل للصادق (ع): سمعتك تقول: نية المؤمن خير من عمله، فكيف تكون النية خير من العمل؟ قال عليه السلام: (لأن العمل إنما كان رياء للمخلوقين، والنية خالصة لرب العالمين، فيعطي – عز وجل – على النية ما لا يعطي على العمل)، ثم قال: (إن العبد لينوي من نهاره أن يصلي بالليل فتغلبه عينه فينام، فيثبت الله له صلاته ويكتب نفسه تسبيحا ويجعل نومه صدقة). وبعض الأخبار المتقدمة يعضد ذلك ويؤكده أيضا. وقيل: معنى الحديث: (إن النية بمجردها خير من العمل بمجرده بلا نية). وفيه: إن العمل بدون النية لا يتصف بالخيرية أصلا، فلا معنى للترجيح في الخيرية، وقيل: سبب الترجيح: (إن النية سر لا يطلع عليه إلا الله، والعمل ظاهر، وفعل السر أفضل) وهذا وإن كان في نفسه صحيحا، إلا أنه ليس مرادا من الحديث، لأنه لو نوى أحد أن يذكر الله – تعالى – بقلبه أو يتفكر في مصالح المؤمنين، كانت نيته بمقتضى عموم الحديث خيرا من العمل الذي هو الذكر والتفكر مع اشتراك النية والعمل في السرية، وبداهة كون الذكر والتفكر خيرا من نيتهما.

فصل

النية غير اختيارية

النية غير داخلة تحت الاختيار، وذلك لما عرفت من أنها انبعاث النفس وتوجهها وميلها إلى ملائم ظهر لها أن فيه غرضها إما عاجلا أو آجلا، وهذا الميل إذا لم يكن حاصلا للنفس لم يكن اختراعه واكتسابه بمجرد الإخطار بالبال والاجراء على اللسان، بل ذلك كقول الشبعان: نويت أن أشتهي الطعام وأميل إليه، أو قول الفارغ: نويت أن أعشق فلانا وأحبه، فلا طريق إلى اكتساب صرف القلب إلى الشئ وميله إليه وتوجهه نحوه، إلا باكتساب أسبابه،

وذلك مما قد يقدر عليه وقد لا يقدر عليه، وأنما قد تنبعث النفس إلى الفعل إجابة للغرض الباعث، الموافق للنفس الملائم لها، وما لم يعتقد الإنسان أن غرضه منوط بفعل من الأفعال فلا يتوجه قصده نحوها، وذلك مما لا يقدر على اعتقاده دائما، وإذا أعتقد فإنما يتوجه القلب إذا كان فارغا غير مصروف عنه بغرض شاغل أقوى منه، وذلك لا يمكن في كل وقت، والدواعي والصوارف لها أسباب كثيرة بها، تجتمع وتختلف ذلك بالأشخاص والأحوال والأعمال فإذا غلبت شهوة النكاح ولم يعتقد غرضا صحيحا في الولد لم يمكنه أن يتزوج على نية الولد، بل لا يمكن إلا على نية قضاء الشهوة، إذ النية إجابة الباعث، ولا باعث إلا الشهوة فكيف ينوي الولد، ولذا كان أهل السلوك من السلف كثيرا ما يمتنعون عن جملة من الطاعات إذا لم تحضرهم النية، وكانوا يقولون: ليس تحضرني نية، وذلك لعلمهم بأن النية روح الأعمال وقوامها، وإن العمل بغير نية صادقة رياء وتكلف وسبب مقت لا سبب قرب وروي: (أنه أتى الصادق (ع) مولى له، فسلم عليه وجلس، فلما انصرف (ع) انصرف معه الرجل، فلما انتهى إلى باب داره دخل وترك الرجل

فقال له ابنه إسماعيل

يا أبة! ألا كنت عرضت عليه الدخول؟ فقال: لم يكن من شأني إدخاله، قال: فهو لم يكن يدخل، قال: يا بني! إني أكره أن يكتبني الله عراضا).

تتميم

الطريق في تخليص النية

الطريق في تخليص النية في الطاعات تقوية أيمانه بالشرع، وتقوية أيمانه بعظم ثواب الطاعات مع خلوص النية، وإذا قوي إيمانه فربما انبعث من نفسه رغبة إلى فعل الطاعة مع خلوص النية مثلا من لم تكن له نية الولد في النكاح بل كانت نيته فيه مجرد قضاء الشهوة فينبغي له أن يقوي أيمانه بعظم ثواب من سعى في تكثير أمة محمد (ص)، ويدفع عن نفسه جميع المنفرات عن الولد، كثقل المؤونة وطول المتعب وغيره، وإذا فعل ذلك انبعث من نفسه رغبة إلى تحصيل الولد للثواب.

ومنها:
الكراهة
وهي نفرة الطبع عما لا يخلو عن إيلام وأتعاب، فإذا قويت سميت مقتا.
وضدها الحب، وهو ميل الطبع إلى الشئ الملذ، فإن تأكد ذلك الميل وقوي سمي عشقا.
إعلم أن عدم الرغبة والغفلة والكراهة والبعد أمور متناسبة مترتبة بعضها على بعض، وكذا أضدادها – أعني الشوق والنية والحب والأنس – أمور متناسبة يترتب بعضها على بعض، فنحن هنا نشير إجمالا إلى معانيها والفرق بينها، ثم نذكرها مفصلة على الترتيب.
فنقول: قد عرفت أن الغفلة والنية ضدان، وهما عبارتان عن عدم انبعاث النفس وانبعاثها إلى ما فيه غرضها الملائم إما عاجلا أو آجلا، وأما عدم الرغبة والشوق فهما أيضا ضدان ومبدآن للغفلة والنية.
بيان ذلك: إن معنى عدم الرغبة ظاهر، والشوق عبارة عن الرغبة إلى الشئ الذي لم يصل إليه وكان مفقودا عنه بوجه، فالشوق لا يخلو عن ألم المفارقة، ولو زالت المفارقة وحصل الوصال انتفى الشوق. ثم فرق الشوق عن النية ظاهر، فإن الشوق مجرد الرغبة إلى الشئ من دون اعتبار انبعاث النفس إلى طلبه في مفهومه، والنية هي الانبعاث المذكور، فالشوق مبدأ النية، والنية مترتبة عليه، وبذلك يظهر الفرق بين ضديهما أيضا – أعني عدم الرغبة والغفلة.
وأما (الكراهة والحب): فقد عرفت أنهما عبارتان عن نفرة الطبع عن المؤلم، وعن ميله إلى الملذ، سواء انبعثت النفس عن طلبه أم لا، وبهذا يفترق الحب عن النية، فإن النية هي انبعاث النفس، وهو مغاير لمجرد الميل بل الميل منشأ للانبعاث، وسواء حصل الوصول إلى الملذ أم لا، وبهذا يفترق عن الشوق فإن الشوق يعتبر في مفهومه عدم الوصول، فالشوق والنية والإرادة لا ينفكان عن الحب والحب يكون مقارنا لهما البتة، فإذا حصل الوصول إلى المطلوب زال الشوق والإرادة وبقي الحب بدونهما. وبما ذكر يظهر الفرق بين الكراهة وبين عدم الرغبة والغفلة.
وأما (الأنس): فهو عبارة عن استبشار النفس بما يلاحظ من المطلوب المحبوب بعد الوصول واستحكامه ورسوخه والبعد عبارة عن عدم

الوصول إلى المحبوب أو الوصول إلى ما لا يستبشر ولا يبتهج بملاحظته، لعدم الرغبة إليه أو للتنفر عنه، فالحب منشأ الأنس، والأنس يترتب عليه وهو غاية المحبة فلا يخلو أنس عن المحبة والمحبة قد تكون بدونه، ثم المطلوب المحبوب قد يكون مطلوبا للقوة العاقلة، كالعلم بحقائق الأشياء، وقد يكون مطلوبا للقوة الغضبية، كالاستيلاء والغلبة، وقد يكون مطلوبا للقوة الشهوية كالمال والأزواج، وعلى كل تقدير تكون الأمور - أعني عدم الرغبة والغفلة والكراهة والبعد - وأضدادها - أعني الشوق والإرادة والحب والأنس - متعلقة بتلك القوة، معدودة من رذائلها أو فضائلها. ثم المحبوب إن كان مما يستحسن حبه وطلبه شرعا وعقلا، كان ما يتعلق به من الشوق والإرادة والحب والأنس من الفضائل وأضدادها من الرذائل، إن كان مما يذم حبه وطلبه شرعا وعقلا كان بالعكس.

فصل

الشوق - أفضل مراتب الشوق الشوق إلى الله - تعلق الحب بجميع القوى - أقسام الحب بحسب مباديه - لا محبوب حقيقة إلا الله - الشهود التام هو نهاية درجات العشق - سريان الحب في الموجودات - رد المنكرين لحب الله - معرفة الله أقوى سائر اللذات - تحقيق رؤية الله في الآخرة ولذة لقائه - الطريق إلى الرؤية واللقاء - تفاوت المؤمنين في محبة الله - الواجب أظهر الموجودات - علائم محبة الله - معنى حب الله لعبده - الحب في الله والبغض في الله - الوفاء في الحب - الأنس - الأنس قد يثمر الإدلال.

قد تقدم تفصيل الكلام في النية والغفلة.

* * *

وأما الشوق، فنقول في بيانه: قد عرفت أن الشوق عبارة عن الميل والرغبة إلى الشئ عند غيبته، فإن الحاصل الحاضر لا يشتاق إليه، إذ الشوق طلب يسوق إلى نيل أمر، والموجود لا يطلب، فالشوق لا يتصور إلا إلى شئ أدرك من وجه ولم يدرك من وجه، فما لا يدرك أصلا لا يشتاق إليه، إذ لا يتصور أن يشتاق أحد إلى شخص لم يره ولم يسمع وصفه، وما أدرك بكماله لا يشتاق إليه أيضا، إذ المداوم لمشاهدة المحبوب والواصل إليه من

جميع الوجوه لا يتصور أن يكون له شوق، فالشوق يختص تعلقه بما أدرك من وجه دون وجه، وهذا إنما يكون بأحد وجهين:

(أحدهما) أن يتضح الشئ اتضاحا ما، ولم يستكمل الوضوح، فاحتاج إلى استكماله فيكون الشوق إلى ما بقي من المطلوب مما لم يحصل. مثال ذلك: إن من غاب عنه معشوقه، وبقي في قلبه خياله، يشتاق إلى استكمال خياله بالرؤية، ومن رأى معشوقه في ظلمة، بحيث لا تنكشف له حقيقة صورته، يشتاق إلى استكمال رؤيته بإشراق الضوء عليه، فلو رآه بتمام الرؤية انتفى الشوق، كما إنه لو انمحى عن قلبه ذكره وخياله ومعرفته حتى نسيه لم يعقل وجوده.

(وثانيهما) أن يدرك بعض كمالات المحبوب، ووصل إليه، وعلم إجمالا أن له كمالات أخر، ولم يدركها ولم يصل إليها، فيكون له شوق إلى إدراك تلك الكمالات. مثال ذلك: أن يرى وجه محبوبه، ولا يرى شعره ولا سائر أعضائه، فيشتاق إلى رؤية ذلك.

فصل

أفضل مراتب الشوق الشوق إلى الله

أفضل مراتب الشوق هو الشوق إلى الله - سبحانه - وإلى لقائه، وهي المضنة إلى الوصول إليه، وإلى حبه وأنسه والتقرب لديه، وهو رأس مال السالكين، ومفتاح أبواب السعادة للطالبين، والوجهان الموجبان للشوق متصوران في حق الله، بل هما ثابتان وملازمان لجميع العارفين، فلا يخلو عارف من الشوق إلى الله:

أما الوجه الأول، فلأن ما اتضح للعارفين مع الأمور الآلهية وأن بلغ غاية الوضوح، فكأنه من وراء ستر رقيق، فلا يكون متضحا غاية الاتضاح بل يكون مشوبا بشوائب التخيلات المكدرة للمعلومات والمانعة عن ظهورها اليقيني، (لا) سيما إذا انضاف إليها شواغل الدنيا، فكمال الوضوح في الأمور الآلهية إنما هو بالمشاهدة وإشراق التجلي، ولا يكون ذلك في هذا العالم، بل يكون في الآخرة، فهذا أحد الموجبين لشوق العارفين إلى الله

- سبحانه - وهو الشوق إلى استكمال الوضوح فيما اتضح اتضاحا ما.
وأما الثاني، فلأن الأمور الإلهية لا نهاية لها، وإنما ينكشف لكل عارف، بعضها، وتبقى أمور متناهية خفية عنه، والعارف إجمالا وجودها وكونها معلومة لله - تعالى - ويعلم أن ما غاب عن علمه من المعلومات أكثر مما حضر، فلا يزال متشوقا إلى أن يحصل له من المعلومات المتعلقة بعظمة الله وجلاله وصفاته وأفعاله بما لا يعرفها أصلا، لا مع الوضوح ولا مع الإبهام والاجمال. والشوق الأول ربما انتهى في الآخرة إذا حصل الشهود واللقاء المعنوي لأجل استخلاص النفس من موانع الطبيعة وقشوراتها وحصول التجرد التام لها، وأما الشوق الثاني فلا يمكن أن ينتهي في الدنيا ولا في الآخرة، إذ نهاية ذلك أن ينكشف للعبد في الآخرة من عظمة الله وكبريائه وجلاله وصفاته وأحكامه وأفعاله ما هو معلوم لله - تعالى - وهو محال، إذ معلومات الله المتعلقة بذاته وصفاته وأفعاله غير متناهية قوة وشدة وعدة، فتمتنع إحاطة الإنسان بها، فلا يزال العبد عالما بأنه قد بقي من جلال الله وعظمته ومن صفته وفعله ما لم يتضح له، فلا يسكن قط شوقه وما من عبد إلا ويرى فوق درجته درجات كثيرة لا نهاية لها فيشتاق إليها البتة، وإذا كان أصل الوصال واللذة حاصلا، فربما كان الشوق إلى المراتب التي فوق مرتبتها شوقا لذيذا لا يظهر فيه ألم، وربما كانت لطائف الكشف والبهجة ودرجاتهما متوالية إلى غير نهاية وتحصل للعبد هذه الدرجات في الآخرة على التدريج، فلا يزال العبد يتصاعد ويترقى إليها، ولا يزال النعيم واللذة تتزايد له أبد الآباد من غير انقطاع له، وتكون لذة ما يتجدد من لطائف النعيم شاغلا له عن الاحساس بالشوق إلى ما لم يحصل له ألمه، فإن أمكن في الآخرة حصول الكشف فيما لم يحصل فيه كشف في الدنيا، لكان حصول المعارف والابتهاجات والأنوار وتجددها في الآخرة ممكنا، وإن لم يكتسب أصلها في الدنيا فيتجدد ويتوارد على العبد في الآخرة على الدوام والاستمرار من دون أن ينتهي إلى حد. وربما كان قوله - تعالى -:
(نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا) (٧):
إشارة إلى هذا المعنى، ويكون المراد به إتمام النور في عين ما استنار

----

(٧) التحريم، الآية: ٨.

في الآخرة استنارة محتاجة إلى الظهور، ثم إلى زيادة الاستكمال والإشراق وأن أختص حصول نعم للآخرة وأنوارها وابتهاجاتها على النعم التي تزود من أصلها ولم يحصل للعبد ما لم يكتسب في الدنيا أصله من الأنوار والابتهاجات، فيكون ترقي العبد في الآخرة في ازدياد الابتهاج والإشراق فيما حصل له أصله، وعلى هذا، فربما انتهى إلى حد ووقف هناك ولا يتضاعف، وقوله تعالى: (نورهم يسعى... إلى آخر الآية) يحتمل لهذا المعنى أيضا، بأن يكون المراد طلب إتمام نور تزود من الدنيا أصله.

(قيل): وقوله تعالى:

(أنظرونا نقتبس من نوركم قيل أرجعوا وراءكم فالتمسوا نورا) (٨):

يدل على أن الأنوار لا بد أن يتزود أصلها في الدنيا، ثم يزداد في الآخرة إشراقا، فأما أن يتجدد نور لم يكتسب أصله في الدنيا فلا.

ثم لا يخفى أن تعيين الأصل والفرع الأنوار والابتهاجات ومراتب الآخرة عندنا مشكل، وليس لنا طريق إلى القطع بأن أي شئ أصل لأي نور وبهجة، وربما كان المضنون عندنا: إن أصل كل نور وسعادة وبهجة هو اليقين القطعي الإجمالي بأن الواجب سبحانه في غاية العظمة والجلال والقدرة والكمال، وأنه تام فوق التمام، وكل ما سواه من المهيات الموجودة صادرة عنه على أشرف أنحاء الصدور وأقواها وأدلها على العظمة، وأنه لا موجود ولا شئ إلا الواجب وصفاته وأفعاله، وإن ذاته الأقدس ذات لا يمكن أن يكون لذهن من الأذهان العالية، ولا لمدرك من المدارك المتعالية عقلا كان أو نفسا أو غيرهما، لو أمكن أن يكون مدركا، أن يدرك في لحاظ التعقل ذاتا يمكن أن تكون فوقه أو مثله، بل كلما تصور أجمالا فهو فوقه، وكذا صفاته الكمالية وأفعاله، وأن صفاته الكمالية: من عظمته، وجلاله، وقدرته، وجماله، وعلمه، وحكمته، وغير ذلك غير متناهية، وليس لها حد وغاية، وما تعلق به علمه من مخلوقاته لا نهاية له كثرة وقوة وكمالا، وأن له من المراتب الغير متناهية من العظمة والجلال ما لا يطيق أشرف الموجودات وأقواها لإدراك أولها، فمن عرف ذلك وتيقن به، وعلم

---

(٨) الحديد، الآية: ١٣.

إن هذا العالم وما فيه لا نسبة له إلى عالم الآخرة وما فيه، وأن ألطافه ومزاياه إلى عباده الذين عرفوا نسبتهم إليه، وتيقنوا بأن لا شرافة ولا كمال للنفوس والعقول فوق معرفة ربهم والتقرب إليهم والوصول إلى حبه وأنسبه، فقد وصل إلى أصل كل سعادة ونور وبهجة، لا سيما إذا دفع عن نفسه ذمائم الأخلاق واتصف بفضائله. وقد ظهر مما ذكر: أنه لا ريب في ثبوت الشوق للعباد إلى الله سبحانه. والعجب ممن أنكر حقيقة الشوق إلى الله سبحانه لإنكاره المحبة له كما يأتي، إذ لا يتصور الشوق إلا إلى المحبوب، وقد عرفت ثبوته من حيث النظر والاعتبار. ولا ريب في ثبوته أيضا من الآيات والأخبار: قال الله سبحانه:

(فمن كان يرجو لقاء ربه...) إلى آخر الآية (٩).

فإن الرجاء لا ينفك عن الشوق. وقال رسول الله (ص) في دعاءه:

(اللهم إني أسئلك الرضاء بعد القضاء، وبرد العيش بعد الموت. ولذة النظر إلى وجهك الكريم، وشوقا إلى لقائك). وفي بعض الكتب السماوية: (طال شوق الأبرار إلى لقائي، وأنا إلى لقائهم لأشد شوقا).

وفي أخبار داود (ع): (إني خلقت قلوب المشتاقين من نوري، ونعمتها بجلالي). وفيها أيضا: (أنه تعالى أوحى إلى داود: يا داود! إلى كم تذكر الجنة ولا تسألني الشوق إلي؟ قال: يا رب! من المشتاقون إليك؟ قال: أن المشتاقين إلي الذين صفيتهم من كل كدر، ونبهتهم بالحذر، وخرقت من قلوبهم إلي خرقا ينظرون إلي، وإني لأحمل قلوبهم بيدي فأضعها على سمائي، ثم أدعو بملائكتي، فإذا اجتمعوا سجدوني، فأقول: إني لم أجمعكم لتسجدوني، ولكن دعوتكم لأعرض عليكم قلوب المشتاقين إلي، وأباهي بهم إياكم، فإن قلوبهم لتضئ في سمائي لملائكتي كما تضئ الشمس لأهل الأرض، يا داود! إني خلقت قلوب المشتاقين من رضواني، ونعمتها بنور وجهي فاتخذتهم لنفسي محدثين، وجعلت أبدانهم موضع نظري إلى الأرض، وقطعت من قلوبهم طريقا ينظرون به إلي، يزدادون في كل يوم شوقا). وأوحى الله إليه أيضا: (يا داود! لو يعلم المدبرون عني كيف

---

(٩) الكهف، الآية: ١١١.

انتظاري لهم ورفقي بهم وشوقي إلى ترك معاصيهم، لماتوا شوقا إلي، وتقطعت أوصالهم عن محبتي). وفي بعض الأخبار القدسية: (إن لي عبادا يحبونني وأحبهم، ويشتاقون إلي وأشتاق إليهم، ويذكرونني وأذكرهم وأول ما أعطيتهم أن أقذف من نوري في قلوبهم، فيخبرون عني كما أخبر عنهم، ولو كانت السماوات والأرض وما فيهما في موازينهم لأستعد بها لهم، وأقبل بوجهي عليهم، لا يعلم أحد ما أريد أن أعطيه). وقال الصادق عليه السلام: (المشتاق لا يشتهي طعاما، ولا يلتذ شرابا، ولا يستطيب رقادا، ولا يأنس حميا، ولا يأوي دارا، ولا يسكن عمرانا، ولا يلبس ثيابا، ولا يقر قرار، ويعبد الله ليلا ونهارا راجيا بأن يصل إلى ما يشتاق إليه، ويناجيه بلسان الشوق معبرا عما في سريرته، كما أخبر الله تعالى عن موسى بن عمران في ميعاد ربه بقوله: (وعجلت إليك رب لترضى)، وفسر النبي (ص) عن حاله: (إنه ما أكل ولا شرب ولا نام، ولا اشتهى شيئا من ذلك في ذهابه ومجيئه أربعين يوما شوقا إلى ربه)، فإذا دخلت ميدان الشوق، فكبر على نفسك ومرادك من الدنيا، وودع جميع المألوفات، واصرفه عن سوى مشوقك، ولب بين حياتك وموتك: لبيك اللهم لبيك! أعظم الله أجرك، ومثل المشتاق مثل الغريق، ليس له همة إلا خلاصه، وقد نسي كل شئ دونه) (١٠). وما ورد في الأدعية المعصومية من طلب الشوق أكثر من أن يحصى، والظواهر الآتية المثبتة للمحبة والأنس تثبت الشوق أيضا.

وأما (الكراهة والبغض وضدهما أعني الحب) فنقول: قد عرفت أن الكراهة والبغض عبارة عن نفرة الطبع عن المؤلم المتعب، والحب الذي هو ضدهما عبارة عن ميل الطبع إلى الملائم الملذ.

وتوضيح ذلك: أنه لا يتصور حب إلا بعد معرفة وإدراك، وكذلك لا يتصف بالحب جماد ولا يحب الإنسان ما لا يعرفه ولم يدركه، فالحب من خاصية الحي الدراك، بعد حصول الإدراك بالفعل.

ثم لما كانت المدركات منقسمة إلى ما يوافق طبع المدرك ويلذه، وإلى

---

(١٠) صححنا الحديث على مصباح الشريعة: باب ٩٩، ص ١٩٣ - ١٩٤.

ما يخالفه ويؤلمه، وإلى ما لا يؤثر فيه بالذاذ وإيلام، فالقسم الأول يكون مرغوبا عند المدرك، ويسمى رغبة، وميله إليه حبا، والقسم الثاني يكون منفورا عنده، وتسمى نفرته عنه كراهة وبغضا، والثالث لا يوصف بميل وكراهة، فلا يوصف بكونه محبوبا، ولا مكروها. ثم اللذة لما كانت عبارة عن إدراك الملائم الملذ ونيله، فالحب الذي هو الميل والرغبة إليه لا يخلو عن لذة محققة أو خيالية، وعلى هذا فيمكن أن تعرف المحبة بأنها ابتهاج النفس بإدراك الملائم ونيله، هذا فإنك قد عرفت أن المدرك إن كان مما يستحسن حبه شرعا وعقلا، كان كراهته وبغضه من الرذائل وحبه من الفضائل وإن كان مما يذم حبه، كان بالعكس من ذلك. فصل

تعلق الحب بجميع القوى

والحب والكراهة لما كانا تابعين للادراك، فينقسمان بحسب انقسام القوة المدركة، التي هي الحواس الظاهرة، والحواس الباطنة، والقوة العاقلة. فمن الحب ما يتعلق بالحواس الظاهرة، بمعنى أن المحبوب مما هو مدرك وملذ عندها، كالصور الجميلة المرئية، والنغمات الموزونة، والروائح الطيبة، والمطاعم النفيسة، والملبوسات اللينة بالنظر إلى الخمس الظاهرة. ومنه ما يتعلق بالحواس الباطنة، بمعنى أن المحبوب مما هو مدرك وملذ عندها، كالصور الملائمة الخيالية، والمعاني الجزئية الملائمة بالنسبة إلى المتخيلة والواهمة. ومنه ما يتعلق بالعاقلة، بمعنى أن المحبوب مما هو مدرك وملذ عندها، كالمعاني الكلية، والذوات المجردة. ولا ريب في أن العقلي من الحب واللذات أقوى اللذات وأبلغها، إذ البصيرة الباطنة أقوى من البصيرة الظاهرة والعقل أقوى إدراكا وأشد غوصا ونفوذا في حقائق الأشياء وبواطنها من الحس، وجمال المعاني المدركة بالعقل أعظم من جمال الصورة الظاهرة الحسنة، فتكون لذة العقل وحبه بما يدركه من الأمور الشريفة الإلهية التي جلت عن إدراك الحواس أتم وأبلغ، ولذا جعل رسول الله (ص) الصلاة أبلغ المحبوبات عنده في الدنيا، حيث قال: (حبب إلي من دنياكم ثلاث:

ج: ٣

الطيب، والنساء، وجعلت قرة عيني في الصلاة)، فإن الالتذاذ بالصلاة لذة عقلية، كما أن الالتذاذ بالطيب لذة شمية، وبالنساء نظرية ولمسية.

فإن قيل: حقيقة الإنسان نفسه الناطقة، ولها ثلاث قوى، وهي: العاقلة، الشهوية، والغضبية، وقوى أخرى هي: الحواس الظاهرة والحواس الباطنة، وشأن العاقلة - كما ذكرت - إدراك المعاني الكلية، والحقائق المجردة، وشأن الحواس الظاهرة إدراك المبصرات والمسموعات والمشمومات والمذوقات والملموسات، وشأن الحواس الباطنة إدراك المعاني الجزئية، والصور المدركة بالحواس الظاهرة وضبطها، ومن جملة ما يدرك بالحواس ما يتعلق بقوتي الغضب والشهوة، من الغلبة والاستيلاء والوصول إلى المناكح والمطاعم وضدهما، فالمحب لهذه المدركات والملتذ بها ماذا من النفس وقواها المذكورة، وهل المحب والملتذ هو المدرك بعينه أو غيره؟

قلنا: المحب والملتذ أولا في كل من هذه المدركات هو المدرك، وثانيا وبالواسطة هو النفس، إذ كل أدراك يتعلق بإحدى القوى، ليصل بالآخرة إلى النفس، فيحدث فيها ما يقتضيه من اللذة والألم، إلا أن ما يدرك بالحواس مما يتعلق بقوتي الشهوة والغضب لا بد أن يصل إليهما أيضا، فيحصل لهما اللذة أو الألم، وبواسطتهما يصل إلى النفس، فالمدرك أولا للغلبة أو العجز هو الوهم، فيلتذ أو يتألم، ثم يصل منه أثر الإدراك والالتذاذ والألم إلى القوة الغضبية ويصل منها الأثر إلى النفس فيلتذ أو يتألم، والمدرك للطعم والريح واللين والنعومة هي الذائقة والشامة واللامسة فالالتذاذ والتألم لها أولا وبواسطتها للقوة الشهوية، وهذا إن كانت الشهوية قوة على حدة سوى الذائقة والشامة واللامسة وسائر الحواس الظاهرة، وإن كانت معنى جنسيا شاملا لجميعها فالأمر ظاهر. وبما ذكر ظهر وجه تعلق الحب بجميع القوى.

فصل

أقسام الحب بحسب مباديه

إعلم أن أسباب الحب ومباديها لما كانت متعددة مختلفة فينقسم الحب لأجلها على أقسام:

الأول - حب الإنسان وجود نفسه وبقاءه وكماله، وهو أشد أقسام الحب وأقواها، لأن المحبة أنما تكون بقدر الملاءمة والمعرفة، ولا شئ أشد ملائمة لأحد من نفسه، ولا هو بشئ أقوى معرفة منه بنفسه، ولهذا جعلت معرفة نفسه مفتاحا لمعرفة ربه (١١). وكيف لا يكون حب الشئ لذاته أقوى المراتب، مع أن الحب كلما صار أشد جعل الاتحاد بين المحب والمحبوب أوكد وأبلغ؟ وأي اتحاد أشد من الوحدة ورفع الإثنينية بالمرة، كما بين الشئ ونفسه، فالمحب والمحبوب واحد، وسبب الحب غريزة فيه الطباع بحكم سنة الله:

(ولن تجد لسنة الله تبديلا) (١٢).

ومعنى حبه لنفسه كونه محبا لدوام وجوده، ومكرها لعدمه وهلاكه فالبقاء ودوام الوجود محبوب، والعدم ممقوت، ولذا يبغض كل أحد الموت لا بمجرد ما يخافه بعده، أو لمجرد ما يلزمه من سكراته، بل لظنه أنه يوجب انعدام كله أو بعضه، ولذا لو اختطف من غير ألم وتعب، وأميت من غير ثواب وعقاب، كان كارها لذلك وكما أن دوام الوجود محبوب فكذلك كمال الوجود محبوب، لأن فاقد الكمال ناقص، والنقص عدم بالإضافة إلى القدر المفقود، فالوجود محبوب في أصل الذات وبقائه وفي صفات كماله، والعدم ممقوت فيها جميعا.

والتحقيق: أن المحبوب ليس إلا الوجود، والمبغوض ليس إلا العدم، وجميع الصفات الكمالية راجعة إلى الوجود، وجميع النقائص راجعة إلى العدم، إلا أن كل فرد من الموجود لما كان له نحو خاص من الوجود، وكانت تمامية نحو وجوده بوجود بعض الصفات الكمالية التي هي من مراتب الموجودات، فكان وجوده مركب من وجودات متعددة، فإذا فقد بعضها فكأنه فاقد لبعض أجزاء وجوده، وبذلك يظهر: أن الموجود كلما كان أقوى وكان نحو وجوده أتم، كان أجمع لمراتب الوجودات في القوة والشدة

----

(١١) كما قال أمير المؤمنين عليه الصلاة والسلام: (من عرف نفسه فقد عرف ربه).

(١٢) الأحزاب، الآية: ٦٢. الفتح، الآية: ٢٣.

والعدة وكانت صفاته الكمالية أقوى وأكثر، لكونها من مراتب الوجودات فالوجود الواجبي الذي هو التام فوق التمام والقائم بنفسه المقوم لغيره ينطوي في جميع الوجودات، ويكون محيطا بالكل، ثم محبة الأولاد من التحقيق يرجع إلى هذا القسم، لأن الرجل إنما يحب ولده ويتحمل المشاق لأجله، وأن لم يصل منه إليه نفع وحظ، لعلمه بأنه خليفته في الوجود بعد عدمه، فكأن بقاءه نوع بقاء له، فلفرط حبه لبقاء نفسه يحب بقاء من هو قائم مقامه وبمنزلة جزء منه، لما عجز من الطمع في بقاء نفسه، ولعدم كون بقائه هو بقاؤه بعينه يكون بقاء نفسه أحب إليه من بقاء ولده لو كان طبعه باقيا على اعتداله، وكذلك حبه لأقاربه وعشيرته يرجع إلى حبه لكمال نفسه، فإنه يرى نفسه كبيرا قويا لأجلهم، متجملا بسببهم، إذ العشيرة كالجناح المكمل للانسان (١٣).

والثاني - حبه لغيره لأجل أنه يلتذ من لذة حيوانية كحب كل من الرجل والمرأة للآخر لأجل الجماع، وحب الإنسان المأكولات والملبوسات، والسبب الجامع في هذا القسم هو اللذة، وهو سريع الحصول وسريع، الزوال، وأضعف المراتب، لخساسة سببه وسرعة زواله.

الثالث - حبه للغير لأجل نفعه وإحسانه، فإن الإنسان عبد الإحسان، وقد جبلت النفوس على حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها، ولذا قال رسول الله (ص): (اللهم لا تجعل لفاجر علي يدا فيحبه قلبي).

فالسبب الجامع في هذا القسم هو النفع والاحسان، وهذان القسمان عند التحقيق يرجعان إلى القسم الأول، لأن المحسن من أمد بالمال المعونة وسائر الأسباب الموصلة إلى دوام الوجود وكمال الوجود، وسبب اللذة باعث لحصول الحظوظ التي بها يتهيأ الوجود.

والفرق أن الأعضاء، والصحة، والعلم، والطعام، والشراب، والجماع: محبوبة لأن بها كمال وجوده وهي عين الكمال، وأما الطبيب

----

(١٣) كما قال أمير المؤمنين - عليه الصلاة والسلام - في جملة ما أوصى به ولده الإمام المجتبى - عليهما الصلاة السلام -: (وأكرم عشيرتك) فإنهم جناحك الذي تطير به، وأصلك الذي إليه تصير، ويدك التي بها تصول) نهج البلاغة: ٣ / ٦٣، مطبعة الاستقامة، القاهرة.

الذي هو سبب الصحة، والعالم الذي هو سبب العلم، ومعطي الطعام والشراب والمرأة التي هي آلة الوقاع: محبوبة لا لذواتها، بل من حيث أنها وسائل إلى ما هو محبوب لذاته، فإذن يرجع الفرق إلى تفاوت الرتبة، والكل يرجع إلى محبة الإنسان نفسه، فمن أحب المحسن لإحسانه فما أحب ذاته تحقيقا، بل أحب إحسانه، ولو زال إحسانه زال حبه مع بقاء ذاته، ولو نقص نقص الحب، ولو زاد زاد. وبالجملة: يتطرق إلى حبه الزيادة والنقصان بحسب زيادة الإحسان ونقصانه.

الرابع – أن يحب الشئ لذاته، لا لحظ يناله منه وراء ذاته، بل تكون ذاته عين حظه، وهذا هو الحب الحقيقي البالغ الذي يوثق به، وذلك كحب الجمال والحسن، فإن كل جمال محبوب عند مدركه، وذلك لعين الجمال، لأن إدراك الجمال عين اللذة، واللذة محبوبة لذاتها لا لغيرها. ولا تظن أن حب الصور الجميلة لا يتصور إلا لأجل قضاء الشهوة، فإن قضاء الشهوة لذة حيوانية، وقد يحب الإنسان الصور الجميلة لأجلها، وإدراك نفس الجمال لذة أخرى روحانية يكون محبوبا لذاتها، ولا ريب في أن حب الصور الجميلة بالجهة الأولى مذموم، وبالجهة الثانية ممدوح، والعشق الذي يقع لبعض الناس من استحسان الصور الجميلة يكون مذموما أن كان سببه اللذة الشهوية الحيوانية، ويكون ممدوحا أن كان سببه الابتهاج بمجرد أدراك الجمال، ولأجل التباس السبب في هذا العشق أختلف العقلاء في مدحه وذمه، وكيف ينكر حب الصور الجميلة لنفس جمالها من دون قصد حظ آخر، مع أن الخضرة والماء الجاري محبوبان لا لتؤكل الخضرة ويشرب الماء، أو ينال منهما حظ سوى نفس الرؤية، وقد كان رسول الله (ص) تعجبه الخضرة والماء الجاري والطباع الصافية السليمة قاضية باستلذاذ النظر إلى الأنوار والأزهار والأطيار المليحة الألوان الحسنة النفس المناسبة الشكل، حتى الإنسان لتتفرج عنه الغموم بمجرد النظر إليها من دون قصد حظ آخر منها. وبما ذكرناه ظهر ضعف ظن بعض ضعفاء العقول، حيث زعموا أنه لا يتصور أن يحب الإنسان غيره لذاته، ما لم يرجع منه حظ إلى المحب سوى إدراك ذاته، ولم يعلموا أن الحسن والجمال

ليس مقصورا على مدركات البصر، ولا على تناسب الخلقة، إذ يقال: هذا صوت حسن، وهذا طعم حسن، وهذا ريح طيب، وليس شئ من هذه الصفات مدركة بالبصر، وكذا ليس الحسن والجمال مقصورا على مدركات الحواس لوجودهما في غيرها، فإن أكثر خصال الخير يدرك بالعقل بنور البصيرة الباطنة، إذ يقال: هذا خلق حسن، وهذا علم حسن. وهذه سيرة حسنة، ولا يدرك شئ من هذه الصفاة بالحواس، بل يدرك بالبصيرة الباطنة، وكل هذه الخصال المدركة حسنها بالعقل محبوبة بالطبع، والموصوف بها أيضا محبوب عند من عرف صفاته.

ومما يدل على تحقق الجمال المدرك بالعقل وكونه محبوبا: أن الطباع السليمة مجبولة على حب الأنبياء والأئمة – عليهم السلام – مع أنهم لم يشاهدوهم، حتى أن الرجل قد تجاوز حبه لصاحبه مذهبه حد العشق، فيحمله ذلك على أن ينفق جميع أمواله في نصرة مذهبه والذب عنه، ويخاطر بروحه في قتال من يطعن في أمامه أو متبوعه، مع أنه لم يشاهد قط صورته ولم يسمع كلامه، فما حمله على الحب هو استحسانه بصفاتها الباطنة: من الورع، والتقوى، والتوكل، والرضا، وغزارة العلم، والإحاطة لمدارك الدين، وانتهاضه لإفاضة علم الشرع، ونشره هذه الخيرات في العالم، وجملتها ترجع إلى العلم والقدرة، إذ جميع الفضائل لا تخرج عن معرفة حقائق الأمور والقدرة على حمل نفسه عليها بقهر الشهوات، وهما – أعني العلم والقدرة – غير مدركين بالحواس، مع أنهما محبوبان بالطبع. ومن الشواهد على المطلوب: أن الناس لما وصفوا (حاتما) بالسخاء و (أنوشيروان) بالعدالة، أحبتهما القلوب حبا ضروريا، من دون نظرهم إلى صورهما المحسوسة، ومن غير حظ ينالونه منهما، بل كل من حكي عنه بعض خصال الخير وصفات الكمال غلب على القلوب حبه، مع عدم مشاهدته ويأس المحبين من انتشار خيره وإحسانه إليهم، ومن كانت بصيرته الباطنة أقوى من حواسه الظاهرة، ونور العقل أغلب عليه من آثار الحواس الحيوانية، كان حبه للمعاني الباطنة أكثر من حبه للمعاني الظاهرة، فشتان بين من يحب نقشا على الحائط لجمال صورته الظاهرة، وبين من يحب سيد الرسل (ص) لجمال صورته

الباطنة.
الخامس - محبته لمن بينه وبينه مناسبة خفية، أو مجانسة معنوية، فرب شخصين تتأكد المحبة بينهما من غير ملاحظة جمال، ولا طمع في جاه ومال، بل بمجرد تناسب الأرواح، كما قال النبي (ص): الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها أختلف).
السادس - محبته لمن حصل بينه وبينه الألف والاجتماع في بعض المواضع لا سيما إذا كان من المواضع الغريبة، كالسفن والأسفار البعيدة. والسبب فيه: كون أفراد الإنسان مجبولة على المؤانسة مع التلاقي والاجتماع، ولكون المؤانسة مركوزة في طبيعة الإنسان سمي إنسانا، فهو مشتق من الأنس دون النسيان - كما ظن -، والمؤانسة لا تنفك عن المحبة، وربما كان حصول المؤانسة والحب بين أهل البلد، أو بينهم وبين أهل القرى، وبين أهل البلاد المتباعدة والمواضع المختلفة، من جملة أسرار الأمر بالجمعة والجماعة، وصلاة العيدين، والحج الباعث لاجتماع عموم الخلائق في موقف واحد.
السابع - محبته لمن يشاركه في وصف ظاهر، كميل الصبي إلى الصبي لصباه، والشيخ إلى الشيخ لشيخوخته، والتاجر إلى التاجر لتجارته وهكذا.. فإن كل شخص مائل إلى من يشاركه في وصفه وصنعته وشغله وحرفته، والسبب الجامع فيه هو الاشتراك في الوصف والصنعة.
الثامن - حب كل سبب وعلة لمسببه ومعلوله وبالعكس، فإن المعلول لما كان مثالا من العلة، ومترشحا عنها ومنبجسا منها، ومناسبا لها لكونه من سنخها، فالعلة تحبه لأنه فرعها وبمنزلة بعض أجزائها التي كانت منطوية فيها، والمعلول يحبها لأنها أصله وبمنزلة كله الذي كان محتويا عليه، فكان كل منهما في حبه للآخر يحب نفسه.
ثم السبب أن كان علة حقيقة موجودة، تكون سببية أقوى في حصول المحبة والاتحاد مما إذا كان علة معدة. فأقوى أقسام المحبة ما يكون للواجب - سبحانه - بالنسبة إلى عباده، وبعد ذلك لا محبة أقوى من محبة العباد العارفين بالنسبة إليه - سبحانه فإن محبتهم له من حيث كونه موجودا مخرجا لهم من العدم الصرف إلى الوجود ومعطيا لهم ما احتاجوا إليه في النشأتين

ومن حيث أنه - تعالى - تام فوق التمام في الذات والصفات الكمالية، والنفس بذاتها مشتاقة إلى الكمال المطلق، وهذه المحبة فرع المحبة ولا تحصل بدونها، ولذا قال سيد الرسل (ص): (ما اتخذ الله وليا جاهلا قط).

وحب الأب لابنه وبالعكس نسبة هذا القسم، من حيث أن الأب سبب ظاهر لوجود الابن، وإن لم يكن سببا حقيقيا، بل علة معدة له، فيحبه لأنه يراه بمنزلة نفسه، ويظنه مثالا من ذاته، ونسخة نقلتها الطبيعة من صورته ويعد وجوده بعده بمنزلة البقاء الثاني لنفسه، فيظنه أنه جزؤه وفي الخلق والخلق مثله، وكذا كل ما يريد لنفسه من الكمالات يريد أفضله له ويفرح بترجيحه عليه، وتفضيله عليه عنده بمثابة أن يقال: إنه في الآن أفضل من السابق، ومما يؤكد محبته له: إنه يرجو منه إنجاح مقاصده ومطالبه في حياته ومماته، وليست محبة الابن للأب كمحبة الأب للابن، بل هو أضعف، لفقد بعض الأسباب الباعثة له، ولذا أمر الأولاد في الشريعة بحب الآباء دون العكس، وكذا المحبة التي بين المعلم والمتعلم من هذا القسم، لأن المعلم كالسبب القريب للحياة الروحاني للمتعلم وإفاضة الصورة الإنسانية عليه، كما إن الأب كالسبب لحياته الجسمانية ورتبته الصورية، فهو والد روحاني له، وبقدر شرافة الروح على الجسم يكون المعلم أشرف من الأب وعلى هذا ينبغي أن تكون محبة المعلم أدون من محبة الموجد الحقيقي وأكثر من محبة الأب، وقد ورد في الحديث: (إن آبائك ثلاثة: من ولدك، ومن علمك، ومن زوجك، وخير الآباء من علمك). وسئل عن ذي القرنين: أن أباك أحب إليك أم معلمك؟ قال: (معلمي أحب إلي، لأنه سبب لحياتي الباقية، وأبي سبب لحياتي الفانية). وقال أمير المؤمنين (ع): (من علمني حرفا فقد صيرني عبدا). وعلى هذا ينبغي أن يكون حب النبي (ص) وأوصياؤه الراشدين - عليهم السلام - أوكد من جميع أقسام الحب بعد محبة الله - سبحانه -، لأنه المعلم الحقيقي والمكمل الأول، ولذا قال (ص) (لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وأهله وولده).

التاسع - محبة المتشاركين في سبب واحد بعضهم لبعض، كمحبة

الأخوان والأقارب. وكلما كان السبب أقرب كانت المحبة أوكد، ولذا تكون محبة الأخوين أشد من محبة أبناء الأعمام مثلا، ومن عرف الله وانتساب الكل إليه، وبلغ مقام التوحيد، وعرف النسبة والربط الخاص الذي بين الله وبين مخلوقاته، يحب جميع الموجودات من حيث اشتراكه معها في الموجد الحقيقي. ثم قد يجتمع بعض أسباب المحبة أو أكثرها في شخص واحد، فيتضاعف الحب، كما لو كان لرجل ولد جميل الصورة، حسن الخلق، كامل العلم، حسن التدبير، محسن إلى والده وإلى الخلق كان حب والده له في غاية الشدة، لاجتماع أكثر أسباب الحب فيه، وربما أحب شخصا آخر لوجود بعض أسباب الحب فيه من دون عكس، لعدم تحقق سبب من أسباب الحب فيه، وقد تختلف فيهما أسباب الحب، فيحب كل منهما الآخر من جهة، وتكون قوة الحب بقدر قوة السبب، فكلما كان السبب أكثر وأقوى كان الحب أشد وأوكد.

فصل

لا محبوب حقيقة إلا الله

إعلم أنه لا مستحق للحب غير الله – سبحانه –، ولا محبوب بالحقيقة عند ذوي البصائر إلا هو، ولو كان غيره – تعالى – قابلا للحب وموضعا له فإنما هو من حيث نسبته إليه – تعالى –، فمن أحب غيره – تعالى – لا من حيث نسبته إليه، فذلك لجهله وقصوره في معرفة الله، وكيف يكون غيره – سبحانه – من حيث هو: لا من جهة انتسابه إليه، مستحقا للحب وهو في نفسه مع قطع النظر عنه – تعالى – وعن انتسابه إليه ليس إلا العدم، والعدم كيف يصلح للحب، فينبغي أن يكون حبه لعموم الخلق بعموم النسبة، أي من حيث أنها منه – تعالى –، وآثاره، ومعلولاته، وأضواؤه وأظلاله، ولخصوص بعض الخواص الذين لهم خصوصية نسبة إليه – تعالى –، كالحب، والأنس، والمعرفة، والإطاعة لخصوص النسبة أيضا.

ومما يوضح المطلوب: إن جميع أسباب الحب مجتمعة في حق الله – تعالى –، ولا توجد في غيره حقيقة، ووجودها في حق غيره وهم وتخيل

ومجاز محض لا حقيقة له.
أما السبب الأول - أعني محبة النفس: فمعلوم أن وجود كل أحد فرع لوجود ربه وظل له، ولا وجود له من ذاته، بل هو من حيث ذاته ليس محض وعدم صرف، فوجوده ودوام وجوده وكمال وجوده من الله وبالله وإلى الله، فهو الموجود المخترع له، وهو المبقي له، وهو المكمل لوجوده بإيجاد صفات الكمال فيه، فهو صرف العدم لولا فضل الله عليه بالإيجاد، وهالك بعد وجوده لولا فضله عليه بالإبقاء، وناقص بعد بقائه لولا فضله عليه بالتكميل، فليس في الوجود شئ له قوام بنفسه إلا القيوم المطلق الذي هو قائم بذاته ومقوم لغيره. وحينئذ، فمحبة كل شئ لنفسه ترجع إلى محبة ربه، وإن لم يشعر المحب به، وكيف يتصور أن يحب الإنسان نفسه ولا يحب ربه الذي به قوام نفسه؟ مع أن من أحب الظل أحب بالضرورة الأشجار التي بها قوام الظل، ومن أحب النور أحب لا محالة الشمس التي بها قوام النور، وكل ما في الوجود بالإضافة إلى قدرة الله - تعالى - كالظل بالإضافة إلى الشجرة والنور بالإضافة إلى الشمس، إذ الكل من آثار قدرته، ووجوده تابع لوجوده، كما أن وجود الظل تابع لوجود الشخص، ووجود النور تابع لوجود الشمس، بل هذا المثال إنما هو للتفهيم، وبالإضافة إلى أوهام العوامل، حيث يتوهمون أن الظل والنور تابعان للشاخص والشمس وفايضان عنهما، وعند التحقيق ليس الظل والنور أثرين للشخص والشمس وموجودين بهما، بل هما فايضان من الله - تعالى - موجودان به بعد حصول الشرائط، كما أن أصل الشخص والشمس وشكلهما وسائر صفاتهما منه - تعالى -.
وأما السبب الثاني، والثالث - أعني الالتذاذ والاحسان، سواء كان متعديا إلى المحب أم لا: فمعلوم أنه لا لذة ولا إحسان إلا من الله - تعالى - ولا محسن سوى الله، فإنه خالق الإحسان وذويه، وفاعل أسبابه ودواعيه وكل محسن فهو حسنة من حسنات قدرته وحسن فعاله، وقطرة من بحار كماله وأفضاله.
وأما الرابع - أعني الحسن والجمال والكمال: فلا ريب في أنه تعالى

هو الجميل بذاته والكامل بذاته، وهو الجمال الخالص، والكمال المطلق، وحقيقتهما منحصرة به - تعالى -، وما يوجد في غيره - تعالى - من الجمال والكلام لا يخلو من شوائب الخلل والنقصان، إذ النقص شامل لجميع الممكنات، وإنما تتفاوت في درجات النقص. وقد عرفت أن الجمال المعنوي أقوى من الجمال الصوري: ومن كان أهل البصيرة والكمال يكون حبه للجمال الباطن المعنوي أكثر وأقوى من حبه للجمال الصوري، وحقيقة الجمال المعنوي الذي هو وجوب الوجود، وكمال العلم والقدرة، والاستيلاء على الكل، واستناد الجميع إليه، منحصر بالله - تعالى -، فإذا كان الجمال المشوب بالنقص محبوبا، فكيف لا يكون الجمال الخالص البحت الذي لا يتصور جمال فوقه محبوبا، بل المحبوب حقيقة ليس إلا هو.

باده خاك آلودتان مجنون كند * صاف اگرباشد ندانم جون كند (١١)

على أن كل جميل بالجمال الظاهر الصوري أو بالجمال الباطن المعنوي رشحة من رشحات جماله، وكل كامل فكماله فرع كماله، فكل من أحب جميلا أحب خالقه، وما أحب أحدا غير الله - تعالى -، لكنه أحتجب عنه تحت وجوه الأحباب وأستار الأسباب، هذا مع أن عمدة جمال المخلوقين إنما هو علمهم بالله وبصفاته وأفعاله، وقدرتهم على إصلاح نفوسهم بإزالة الرذائل والخبائث الشهوية المانعة عن التقرب إلى الله - تعالى - وباتصافهم بمعالي الصفات وشرائفها المقربة إلى الله، وعلى إصلاح عباد الله بالارشاد والسياسة، ومعلوم أن هذه الأمور إضافات إلى الله - سبحانه -، فحبها يرجع إلى حبه - تعالى -.

وأما الخامس - أعني المناسبة الخفية والمجانسة المعنوية: فلا ريب في أن للنفس الناطقة الإنسانية مناسبة مجهولة خفية مع باريها وموجدها، إذ هي شعلة من شعلات جلاله، وبارقة من بوارق جماله، ولذا قال الله سبحانه: (قل الروح من أمر ربي) (١٥). وقال: (إني جاعل في الأرض

----

(١٤) إن خمركم الملوث بالغبار يجنني!!
فلست أدري ما هو مفعوله إن كان صافيا!!؟

(١٥) بني إسرائيل، الآية: ٨٥.

خليفة) (١٦).
إذ لم يستحق آدم خلافة الله إلا بتلك المناسبة، وبهذه المناسبة ينقطع العبد إلى ربه، ويعرفه عند ابتلائه بمصيبة وبلية، وهذه المناسبة لا تظهر ظهورا تاما إلا بالمواضبة على النوافل بعد أحكام الفرائض، كما قال الله - تعالى -: (لا يزال العبد يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ولسانه الذي ينطق به).
وهذا موضع تزل فيه الأقدام، حتى وقع قوم في التشبيه الظاهر، وآخرون في الحلول والاتحاد، وأهل الحق الذين انكشفت لهم استحالة التشبيه والاتحاد، وفساد طرفي التفريط والافراط، واتضحت لهم حقيقة السر، وعرفوا تلك المناسبة واستقاموا عليه: هم الأقلون. ثم من المناسبة الظاهرة التي بين العبد وبين ربه هو قرب العبد من الله في الصفاة الربوبية والأخلاق الإلهية كالعلم، والبر، والاحسان، واللطف، وإفاضة الخير والرحمة على الخلق، وإرشادهم إلى الحق... إلى غير ذلك من الصفات الإلهية، ولذا قيل: تخلقوا بأخلاق الله. ولا ريب في أن كل ذلك يقرب العبد إلى الله، ويصيره ناسبا له. وأما العلية والمعلولية فالأمر فيه ظاهر، وباقي الأسباب أسباب ضعيفة نادرة، اعتبارها في حق الله نقص.
وقد ظهر مما ذكر: أن أسباب الحب بجملتها متظاهرة في حق الله - تعالى - تحقيقا لا مجازا، أو في أعلى الدرجات لا أدناها، ثم كل من يحب أحدا من الخلق بسبب هذه الأسباب يتصور أن يحب غيره لمشاركته إياه في السبب. والشركة نقصان في الحب، لا يتصف أحد بوصف محبوب إلا ويوجد شريك له فيه، والله - سبحانه - هو الذي لا يشاركه غيره في أوصاف الكمال والجمال، لا وجودا ولا إمكانا فلا جرم لا يكون في حبه شركة، فلا يتطرق إليه نقصان، كما لا تتطرق الشركة والنقصان إلى أوصاف كماله، فهو المستحق لأصل المحبة وكمالها، ولا متعلق للمحبة إلا هو، إلا أنه لا يعرف ذلك إلا العارفون من أوليائه وأحبائه، كما قال

----

(١٦) البقرة، الآية: ٣٠.

سيد الشهداء (ع) في دعاء عرفة بقوله: (أنت الذي أزلت الأغيار عن قلوب أحبائك، حتى لم يحبوا سواك، ولم يلجأوا إلى غيرك))

• تكميل الشهود التام هو نهاية درجات العشق

قد صرح أساطين الحكمة: (أن الأشياء المختلفة لا يمكن أن يحصل بينها تشاكل وتآلف تام حتى بينها الاتحاد والمحبة ببعض، ويحصل بينها التآلف والحب والوحدة والاتحاد).

والتوضيح: إن الجواهر البسيطة لتشاكلها وتماثلها يحن بعضها إلى بعض فيحصل بينها التآلف التام، والتوحد الحقيقي في الذوات والحقائق بحيث يرتفع عنها التغاير والاختلاف، إذ التغاير من لوازم المادية. وأما الماديات فلا يمكن أن يحصل بينها هذا التآلف والتوحد، ولو حصل بينهما تآلف وشوق، فإنما هو بتلافي السطوح والنهايات دون الحقائق والذوات وليس يمكن أن يبلغ مثل هذه الملاقاة إلى درجة الاتحاد والاتصال فيحصل بينها الانفصال. فالجوهر البسيط المودع في الإنسان – أعني النفس الناطقة – إذا صفي عن الكدورات الطبيعية، وتظهر الأخباث الجسمانية، وتخلى عن حب الشهوات والعلائق الدنيوية، انجذب بحكم المناسبة إلى عالم القدس، وحدث فيه شوق تام إلى أشباهه من الجوهر المجردة، ويرتفع منها إلى ما هو فوق الكل ومنبع جميع الخيرات، فيستغرق في مشاهدة الجمال الحقيقي، ومطالعة جمال الخير المحض، وينمحي في أنوار تجلياته القاهرة، ويصل إلى مقام التوحيد الذي هو نهاية المقامات، فيفيض عليه من أنواره ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على خاطر، فيحصل له من البهجة واللذة ما يضمحل عنده كل بهجة ولذة والنفس التي بلغت هذا المقام لا يتفاوت حالها كثيرا في حالتي التعلق بالبدن والتجرد عنه، وما يحصل لغيرها من السعادة في الآخرة يحصل لها في هذه النشأة

امروز در آن كوش كه بينا باشي

حيران جمال آن دلارا باشى
شرمت بادا چو كودكان در شب عيد
تا چند در انتظار فردا باشي
؟ (١٧)
نعم، الشهود التام، والابتهاج الصافي عن الشوب، يتوقف على تجردها الكلي عن البدن، فإنها وإن لاحظت بنور البصيرة في هذه النشأة جمال الوحدة الصرفة، إلا أن ملاحظتها لا تخلو من شوائب الكدرة الناشئة من الطبيعة: فالصفاء التام يتوقف على التجرد الكلي، ولذا تشتاق أبدا إلى رفع هذا الحجاب: ويقول:
حجاب جهرة جان ميشود غبار تنم
خوشادمي كه از أين چهرة برده بر فكنم
چنين قفس سراي چومن خوش الحاني است
روم بروضة رضوان كه مرغ آن چمنم (١٨)
وهذه المحبة نهاية درجات العشق، وغاية الكمال المتصورة لنوع الإنسان، وذروة مقامات الواصلين، وغاية مراتب الكاملين، فما بعدها مقام إلا وهو ثمرة من ثمراتها كالأنس والرضا والتوحيد، ولا قبلها مقام إلا وهو مقدمة من مقدماتها، كالصبر والزهد وسائر المقامات. وهذا العشق هو الذي أفرط العرفاء وأرباب الذوق في مدحه، وبالغوا في الثناء عليه نثرا ونظما، وصرحوا بأنه غاية الاتحاد والكمال المطلق، ولا كمال إلا هو، ولا سعادة إلا به، كما قيل:
عشق است هرچه هست بكفيتم وكفته اند
عشقت بوصل دوست رساند بضرب دست (١٩)

----

(١٧) أسع سعيك اليوم لتكون على بصيرة.
ولتكون متلهفا لجمال ذلك الحبيب الفتان!
أما تستحي أنك على غرار الأطفال في ليلة العيد؟!!
إلى متى تنتظر اليوم الغد؟!!
(١٨) أن غبار الجيد يكون حجابا لروحي ونقابا!
فما أحلى اللحظة التي أطرح فيها عن وجهي هذا الستار!!
إن هكذا قفصا لا يليق لذي تغريد بهيج مثلي!!
سأذهب إلى روضة الرضوان)... فإني من طيور ذلك المرج والبستان!!
(١٩) كل ما يكون هو العشق كما قالوا وقلنا -...
فعشقك يوصلك إلى الحبيب بالجهد والشطارة!!

وقيل: جز محبت هرجه بردم سود در محشر نداشت
دين ودانش عرض كردم كس بچيزي برنداشت (٢٠)
فصل
سريان الحب في الموجودات
أكثر أقسام المحبة فطرية طبيعية، كمحبة المتناسبين والمتجانسين، والعلة والمعلول، ومحبة الجمال وغير ذلك، والإرادي الكسبي منها قليل، كمحبة المتعلم للمعلم، وربما أمكن إرجاعه أيضا إلى الطبيعي. وإذا كان الحب طبيعيا، فالاتحاد الذي من مقتضياته يكون أيضا طبيعيا، فيكون لذلك أفضل من العدالة التي تقتضي الاتحاد الصناعي. ثم مع وجود المحبة لا حاجة إلى العدالة، إذ هي فرع الكثرة المحوجة إلى الاتحاد القشري، فمع وجود الاتحاد الطبيعي لا يقع الاحتياج إليه، وقد صرح قدماء الحكمة بأن أقوام الموجودات خاليا عنها، كما أنه ليس شئ منها خاليا عن الوجود والوحدة وقد صرحوا بأنه كل الوحدة، فهو سار في جميع الكائنات: في الأفلاك والعناصر والمركبات، إذ الحب والشوق إلى التشبه بالفاعل رقص الأفلاك وأدار رحاها، (بسم الله مجراها ومرساها)، والحب هو سبب ميل العناصر إلى أجسادها وميل المركبات بعضها على بعض:
سر حب أزلي بر همه اشيا ساريست وزنه بر گل نزدي بلبل بيدل فرياد (٢١)
ثم لما كانت المحبة التي هي ظل الوحدة مقتضية للبقاء والكمال، وضدها موجبا للفساد والاحتلال، ولكل منهما مراتب ودرجات، فتختلف الموجودات بحسبها في درجات الكمال والنقصان والمتأخرون خصصوا الحب بذوي العقول، فلا يطلقون اسم الحب على ميل العناصر إلى مراكزها،

----

(٢٠) سوى الحب لم يفد في الحشر مما صحبته!!
عرضت الدين والعلم. فلم يعرها أحد اهتماما!!
(٢١) إن (سر الحب الأزلي) لسار في جميع الموجودات!
وإلا لم تغرد البلابل على الأزهار والأوراد!!

وميل المركبات بعضها إلى بعض، كميل الحديد إلى المغناطيس، ولا لسم الكراهة والبغض على المنافرة التي بينها، كمنافرة الحجر الباغض الحل من الحل، بل يسمونها بالميل والهرب، وكذا الموافقة والمعاداة اللتين بين العجم من الحيوانات، ولا يطلقون عليها اسم الحب والبغض، بل يسمونها بالألف والنفرة

فصل

رد المنكرين لحب الله

قد ظهر مما ذكر: ثبوت حقيقة المحبة ولوازمها من الشوق والأنس لله تعالى، وأنه المستحق للحب دون غيره، وبذلك ظهر فساد رغم من أنكر إمكان حصول محبة العبد لله – تعالى – وقال: (لا معنى لها إلا المواظبة على طاعة الله، وأما حقيقة المحبة فمحال إلا مع الجنس والمثل).

ولما أنكروا المحبة، أنكروا الأنس والشوق ولذة المناجاة وسائر لوازم الحب وتوابعه، ويدل على فساد هذا القول مضافا إلى ما ذكر إجماع الأمة على كون الحب لله ولرسوله فرضا، وما ورد في الآيات والأخبار والآثار من الأمر به والمدح عليه، وإنصاف الأنبياء والأولياء به، وحكايات المحبين، وقد بلغت من الكثرة والصراحة حدا لا يقبل الكذب والتأويل، فمن شواهد القرآن قوله تعالى:

(يحبهم ويحبونه) (٢٢). وقوله: (والذين آمنوا أشد حبا لله) (٢٣)

وقوله – تعالى –: (قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وأخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم... إلى قوله –: (أحب إليكم من الله ورسوله...) إلى آخر الآية (٢٤)

وأما الأخبار الواردة والآثار، فقد قال رسول الله (ص): (لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما). وقال (ص): الحب من شروط الإيمان). قال (ص) (أحبوا الله لما يغدوكم به من نعمة، وأحبوني لحب الله). وقد نظر (ص) إلى بعض أصحابه

---

(٢٢) المائدة، الآية: ٥٧.

(٢٣) البقرة، الآية: ١٦٥.

(٢٤) التوبة، الآية: ٢٥.

مقبلا وعليه إهاب كبش، فقال (ص): (انظروا إلى هذا الرجل الذي قد نور الله قلبه، لقد رأيته بين أبويه يغذوانه بأطيب الطعام والشراب، فدعاه حب الله ورسوله إلى ما ترون). وقال (ص) في دعائه: (اللهم ارزقني حبك وحب من يحبك وحب من يقربني إلى حبك، واجعل حبك أحب إلي من الماء البارد). وفي الخبر المشهور: (إن إبراهيم (ع) قال لملك الموت، إذ جاءه لقبض روحه: هل رأيت خليلا يميت خليله؟ فأوحى الله تعالى إليه: هل رأيت محبا يكره لقاء حبيبه؟ فقال: يا ملك الموت! الآن فاقبض) وأوحى الله إلى موسى (ع): (يا ابن عمران! كذب من زعم أنه يحبني فإذا جنه الليل نام عني، أليس كل محب يحب خلوة حبيبه، ها أنا ذا يا ابن عمران مطلع على أحبائي، إذا جنهم الليل حولت أبصارهم إلي من قلوبهم، ومثلت عقوبتي بين أعينهم، يخاطبوني عن المشاهدة، ويكلموني عن الحضور، يا ابن عمران! هب لي من قلبك الخشوع، ومن بدنك الخضوع، ومن عينك الدموع في ظلم الليل، فإنك تجدني قريبا). وروي: (أن عيسى (ع) مر بثلاثة نفر قد نحلت أبدانهم وتغيرت ألوانهم، فقال لهم: ما الذي بلغ بكم ما أرى؟ فقالوا: الخوف من النار، فقال: حق على الله أن يؤمن الخائف. ثم جاوزهم إلى ثلاثة أخرى، فإذا هم أشد نحولا وتغيرا، فقال لهم: ما الذي بلغ بكم ما أرى؟ فقالوا: الشوق إلى الجنة، فقال: حق على الله أن يعطيكم ما ترجون. ثم جاوزهم إلى ثلاثة أخرى، فإذا هم أشد نحولا وتغيرا، كأن على وجوههم المرايا من النور، فقال: ما الذي بلغ بكم ما أرى؟ قالوا: حب الله عز وجل، فقال: أنتم المقربون). وفي بعض الروايات: (إنه (ع) قال للطائفتين الأوليين: مخلوقا خفتم، ومخلوقا رجوتم. وقال للطائفة الثالثة: أنتم أولياء الله حقا، معكم أمرت أن أقيم). وقال رسول الله (ص): (إن شعيبا (ع) بكى من حب الله عز وجل حتى عمى، فرد الله عليه بصره، ثم بكى حتى عمى، فرد الله عليه بصره، فلما كانت الرابعة أوحى الله إليه: يا شعيب! إلى متى يكون هذا أبدا منك، إن يكن هذا خوفا من النار أجرتك، وإن يكن شوقا إلى الجنة فقد

أبحتك. فقال: إلهي وسيدي! أنت تعلم أني ما بكيت خوفا من نارك، ولا شوقا إلى جنتك، ولكن عقد حبك على قلبي، فلست أصبر أو أراك. فأوحى الله: أما إذا كان هذا هكذا سأخدمك كليمي موسى بن عمران).

وروي: (أنه جاء أعرابي إلى النبي (ص) فقال: يا رسول الله! متى الساعة؟ فقال (ص): (ما أعددت لها؟ قال: ما أعددت لها كثير صلاة ولا صيام، إلا أني أحب الله ورسوله، فقال له النبي: المرء مع من أحب).

وفي أخبار داود: (قل لعبادي المتوجهين إلى محبتي: ما ضركم إذا احتجبتم عن خلقي إذ رفعت الحجاب بيني وبينكم حتى تنظروا إلي بعيون قلوبكم، وما ضركم ما زويت عنكم من الدنيا إذ بسطت ديني لكم، وما ضركم مسخطة الخلق إذ التمستم رضاي). وفيها أيضا: (يا داود! إنك تزعم أنك تحبني، فإن كنت تحبني فأخرج حب الدنيا عن قلبك، فإن حبي وحبها لا يجتمعان في قلب). وقال أمير المؤمنين (ع) في دعاء كميل: (فهبني يا إلهي وسيدي ومولاي وربي صبرت على عذابك، فكيف اصبر على فراقك). وقال (ع): (إن لله - تعالى - شرابا لأوليائه، إذا شربوا سكروا، وإذا سكروا طربوا، وإذا طربوا طابوا وإذا طابوا ذابوا، وإذا ذابوا خلصوا، وإذا خلصوا طلبوا، وإذا طلبوا وجدوا، وإذا وجدوا وصلوا وإذا وصلوا اتصلوا وإذا اتصلوا لا فرق بينهم وبين حبيبهم) (٢٥) وقال سيد الشهداء في دعاء عرفة: (أنت الذي أزلت الأغيار عن قلوب أحبائك حتى لم يحبوا سواك ولم يلجأوا إلى غيرك). وقال (ع) يا من أذاق أحبائه حلاوة المؤانسة فقاموا بين يديه متملقين). وفي المناجاة الإنجيلية المنسوبة إلى سيد الساجدين (ع): (وعزتك لقد أحببتك محبة استقرت في قلبي حلاوتها، وتنست نفسي ببشارتها، ومحال في عدل اقتضيتك أن تسد أسباب رحمتك، ورحمتك عن معتقدي محبتك). وفي مناجاته الأخرى: (إلهي فاجعلنا من الذين توشحت أشجار الشوق إليك في حدائق صدورهم، وأخذت لوعة محبتك بجامع قلوبهم)... ثم قال: (وألحقنا بعبادك الذين هم

---

(٢٥) لم نعثر على مصدر لهذه الرواية في كتب أصحابنا الإمامية - رضوان الله عليهم -.

بالبدار إليك يسارعون، وبابك على الدوام يطرقون، وإياك في الليل والنهار يعبدون، وهم من هيبتك مشفقون، الذين صفيت لهم المشارب، وبلغتهم الرغائب، وأنجحت لهم المطالب، وقضيت لهم من وصلك المآرب، وملأت لهم ضمائرهم من حبك ورويتهم صافي شرابك، فبك إلى لذيذ مناجاتك وصلوا ومنك على أقصى مقاصدهم حصلوا)... ثم قال: (فقد انقطعت إليك همتي، وانصرفت نحوك رغبتي، فأنت لا غيرك مرادي، ولك لا سواك سهري وسهادي، ولقاؤك قرة عيني، ووصلك منى نفسي، وإليك شوقي وفي محبتك ولهي، وإلى هواك صبابتي، ورضاك بغيتي ورؤيتك حاجتي وجوارك طلبي، وقربك غاية مسألتي، وفي مناجاتك روحي وراحتي، وعندك دواء علتي، وشفاء غلتي، وبرد لوعتي، وكشف كربتي). ثم قال:
(ولا تقطعني عنك، ولا تباعدني منك، يا نعيمي وجنتي! ويا دنياي وآخرتي) وقال (ع) أيضا: إلهي! من ذا الذي ذاق حلاوة محبتك فرام منك بدنا، ومن ذا الذي أنس بقربك فابتغى عنك حولا، إلهي! فاجعلني ممن اصطفيته لقربك وولايتك، وأخلصته لودك ومحبتك، وشوقته إلى لقائك، ورضيته بقضائك، ومنحته بالنظر إلى وجهك، وحبوته برضاك، وأعذته من هجرك ثم قال: (وهميت قلبه لإرادتك، واجتبيته لمشاهدتك، وأخليت وجهه لك وفرغت فؤاده لحبك)... ثم قال: (اللهم أجعلنا ممن دأبهم الارتياح إليك والحنين، ودهرهم الزفرة والأنين، وجباههم ساجدة لعظمتك، وعيونهم ساهرة في خدمتك، ودموعهم سائلة من خشيتك وقلوبهم معلقة بمحبتك وأفئدتهم منخلعة من مهابتك، يا من أنوار قدسه لأبصار محبيه رائقة وسبحان نور وجهه لقلوب عارفيه شائقة! يا منى قلوب المشتاقين، ويا غاية آمال تجعلك أحب إلي ممن سواك). وقال (ع) أيضا: إلهي! ما ألذ خواطر النظر إلى وجهك، وقراري لا يقر دون دنوي منك، ولهفتي لا يردها إلا روحك المحبين! أسئلك حبك وحب من يحبك وحب كل عمل يوصل إلى قربك، وأن الإلهام بذكرك على القلوب، وما أحلى المسير إليك في مسالك الغيوب، وما أطيب طعم حبك، وما أعذب شرب قربك،). وقال (ع) أيضا: (وغلتي لا يبردها ألا وصلك، ولوعتي لا يطفيها ألا لقاؤك، وشوقي إليك لا يبله إلا (...)

وسقمي لا يشفيه ألا طبك، وغمي لا يزيله إلا قربك، وجرحي لا يبرؤه ألا صفحك، ورين قلبي لا يجلوه إلا عفوك، ووسواس صدري لا يزيحه إلا أمرك (٢٦). وقال الصادق (ع): (حب الله إذا أضاء على سر عبد أخلاه من كل شاغل وكل ذكر سوى الله، والمحب أخلص الناس سرا لله، وأصدقهم قولا، وأوفاهم عهدا، وأزكاهم عملا، وأصفاهم ذكرا، وأعبدهم نفسا، تتباهى الملائكة عند مناجاته، وتفتخر برؤيته، وبه يعمر الله بلاده، وبكرامته يكرم الله عباده، ويعطيهم إذا سألوه بحقه، ويدفع عنهم البلايا برحمته، ولو علم الخلق ما محله عند الله ومنزلته لديه ما تقربوا إلى الله إلا بتراب قدميه) وقال أمير المؤمنين (ع): (حب الله نار لا يمر على شئ إلا احترق، ونور الله لا يطلع على شئ إلا أضاء وسماء الله ما ظهر من تحته شئ إلا غطاه، وريح الله ما تهب في شئ إلا حركته، وماء الله يحيي به كل شئ، وأرض الله ينبت منها كل شئ، فإن أحب الله أعطاه كل شئ من الملك والملك) وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: (إذا أحب الله عبدا من أمتي قذف في قلوب أصفيائه وأرواح ملائكته وسكان عرشه محبته ليحبوه، فذلك المحب حقا طوبى له ثم طوبى له! وله عند الله شفاعة يوم القيامة) (٢٧) إلى هنا كلام الصادق. عليه السلام – وما ورد في الحب من الأخبار والأدعية المعصومية أكثر من أن يحصى، وحكايات العشاق والمحبين لم تبلغ من الكثرة والتواتر حدا يمكن إنكاره، وقد روي: (أن داود (ع) سئل ربه أن يريه بعض أهل محبته، فقال له: ائت جبل لبنان، فإن فيه أربعة عشر نفسا، فيهم شبان وكهول ومشايخ، وإذا أتيتهم فاقرأهم مني السلام، وقل لهم: يقول ربكم لا تسألوني حاجة، فإنكم أحبائي وأصفيائي وأوليائي، أفرح لفرحكم وأسارع إلى محبتكم. فأتاهم داود، فوجدهم عند عين من العيون يتفكرون في عظمة الله وملكوته، فلما نظروا إلى داود، نهضوا ليتفرقوا عنه فقال لهم داود أنا رسول الله إليكم، جئتكم لأبلغكم رسالة ربكم. فأقبلوا نحوه، وألقوا

---

(٢٦) صححنا فقرات المناجاة الإنجيلية والمناجاة الأخرى على (البحار): باب أدعية المناجاة: مج ١٩ / ١٠٧ – ١١٤، ط أمين الضرب.

(٢٧) صححنا الأحاديث الثلاثة على (مصباح الشريعة) – الباب السابع والتسعون، ص ١٩٣ –.

أسماعهم نحو قوله، وألقوا أبصارهم إلى الأرض، فقال داود: ربكم يقرؤكم السلام، ويقول لكم: ألا تسألوني حاجة، ألا تنادوني فأسمع صوتكم وكلامكم؟ فإنكم أحبائي وأصفيائي وأوليائي، أفرح لفرحكم وأسارع إلى محبتكم، وانظر إليكم في كل ساعة نظرة الوالدة الشفيقة الرفيقة. ولما قال داود ذلك جرت الدموع على خدودهم وسبح الله كل واحد منهم ومجده، وناجاه بكلمات تدل على احتراق قلوبهم من الحب والشوق).

فصل

معرفة الله أقوى سائر اللذات

قد عرفت أن الحب هو الميل إلى الشئ الملذ الملائم للمدرك والابتهاج بإدراك الملائم ونيله، واللذة هي نفس إدراك الملائم الملذ ونيله، وهذا الإدراك إن كان متعلقا بالقوة العاقلة – أي إن كان المدرك هو القوة العاقلة – عبر عنه بالعلم والمعرفة، وقد عرفت أنه أقوى وأشد وأشرف من الإدراكات الحسية التي هي الأبصار والاستماع والذوق والشم واللمس.

ثم هذا الإدراك – أعني العلم والمعرفة – يختلف أيضا في الشرافة والكمال بحسب شرافة المدرك، أي المعلوم، فكلما كان المدرك أجل وأشرف كان الإدراك – أي المعرفة – أجل وأعلى. ولا ريب في أن الواجب – سبحانه – أشرف الموجودات وأجلها، فالمعرفة به أعلى المعارف وأشرفها، ويثبت من ذلك: إن أجل اللذات وأعلاها هو معرفة الله – تعالى – والنظر إلى وجهه الكريم، ولا يتصور أن يؤثر عليها لذة أخرى إلا من حرم هذه اللذة. وبيان ذلك بوجه أوضح: أن اللذات تابعة للإدراكات، والانسان جامع لجملة من القوى والغرائز، ولكل قوة وغريزة لذة، ولذاتها عبارة عن نيلها مقتضى طبعها الذي خلقت له، فغريزة الغضب لما خلقت للتشفي والانتقام فلا جرم لذتها في الغلبة والانتقام، وغريزة الشهوة لما خلقت لتحصيل الغذاء الذي به القوام فلا جرم لذتها في نيل الغذاء وكذلك لذة السمع والبصر والشم في الاستماع والأبصار والاستشمام، وغريزة العقل المسماة بالبصيرة الباطنة خلقت لتعلم بها حقائق الأشياء كلها، فلذتها في العلم والمعرفة، والعلم لكونه منتهى الكمال وأخص صفات الربوبية، يكون أقوى اللذات والابتهاجات

ولذلك يرتاح الطبع إذا أثني عليه بالذكاء وغزارة العلم لأنه يستشعر عند سماع الثناء كمال ذاته وجمال علمه، فيعجب بنفسه ويلتذ به.

والتحقيق: إن الإدراك والنيل الذي هو الكمال ليس إلا العلم، وسائر الإدراكات - أعني نيل الغلبة والغذاء والاستماع والأبصار والاستشمام - لا تعد كمالات، ثم ليست لذة كل حلو واحدة، فإن لذة العلم بالحراثة والخياطة والحياكة ليست كلذة العلم بسياسة الملك وتدبير أمور الخلق، ولا لذة العلم بالنحو والشعر والتواريخ كلذة العلم بالله وصفاته وملائكته وملكوت السماوات والأرض، بل لذة العلم بقدر شرف العلم، وشرف العلم بقدر شرف المعلوم، فإن كان في المعلومات ما هو الأشرف الأجل والأعظم والأكمل فالعلم به ألذ العلوم وأشرفها وأكملها وأطيبها، وليت شعري هل في الوجود شئ أعلى وأجمل وأشرف وأكمل من خالق الأشياء كلها وقيومها، ومكملها ومربيها مبدئها ومعيدها، ومديرها ومرتبها، وهل يتصور أن يكون أحد في الملك والكمال والعظمة والجلال والقدرة والجمال والكبرياء والبهاء أعظم ممن ذاته في صفات الكمال ونعوت الجلال فوق التمام، وقدرته وعظمته وملكه وعلمه غير متناهية فإن كنت لا تشك في ذلك فينبغي ألا تشك في أن لذة المعرفة به أقوى من سائر اللذات لمن له البصيرة الباطنة وغريزة المعرفة فإن اللذات مختلفة بالنوع أولا، كمخالفة لذة الوقاع ولذة السماع ولذة المعرفة ولذة الرئاسة، وكل نوع مختلف بالضعف والقوة، كمخالفة لذة الشبق المغتلم (٢٨) من الجماع، ولذة الفاتر الشهوة منه، وكمخالفة لذة النظر إلى الوجه الجميل ولذة النظر إلى الوجه الأجمل ومخالفة لذة العلم باللغات ولذة العلم بالسماويات، وإنما يعرف أقوى اللذتين من أضعفهما، بأن يؤثر عليه، فإن المخير بين النظر إلى صورة جميلة وبين استنشاق روايح طيبة، إذا أختار الأول كان عنده ألذ من الثاني، والمخير بين الأكل واللعب بالشطرنج، إذا أختار الثاني كانت لذة الغلبة

---

(٢٨) الغلمة - وزان غرفة -: شدة الشهوة وغلم غلما: من باب تعب، إذا اشتد شبقه. المغتلم: المنقاد للشهوة.

في الشطرنج أقوى عنده من لذة الأكل، وهذا معيار في الكشف عن ترجيح اللذات.

وحين إذ نقول: لا ريب في أن المعاني واللذات الباطنة أغلب على ذوي الكمال من اللذات الظاهرة، فلو خير الرجل بين لذة أكل المطاعم الطيبة ولذة الرئاسة والاستيلاء، فإن كان عالي الهمة كامل العقل، أختار الرئاسة وترك الأكل، وصبر على الجوع أياما كثيرة فضلا عن مدة قليلة، نعم، إن كان خسيس الهمة ميت القلب، ناقص العقل والبصيرة، كالصبي والمعتوه ربما أختار لذة الأكل، وفعل مثله ليس حجة. ثم كما أن لذة الرئاسة والكرامة أغلب وأرجح من اللذات الحسية عند من جاوز نقصان الصبي والسفاهة، فكذلك لذة المعرفة بالله ومطالعة جمال الحضرة الربوبية ألذ عنده من لذة الرئاسة، بشرط أن يكون ممن ذاق اللذتين وأدركهما، فلو كان ممن لم يذق لذة المعرفة بالله لم يكن أهلا للترجيح ومحلا للكلام، لاختصاص لذة المعرفة بمن نال رتبتها وذاقها، ولا يمكن إثبات ذلك عند من ليس له قلب، كما لا تثبت لذة الإبصار عند الأعمى، ولذة الاستماع عند الأصم، ولذة الوقاع عند العنين، ولذة الرئاسة عند الصبي والمعتوه، وليت شعري من لا يفهم إلا حب المحسوسات كيف يؤمر بلذة النظر إلى وجه الله تعالى، وليس له شبه وشكل وصورة، فحقيقة الحال كما قيل: (من ذاق عرف)، فمن ذاق اللذتين يترك لذة الرئاسة قطعا، ويستحقر أهلها لكونها مشوبة بالكدورات ومقطوعة بالموت، ويختار لذة المعرفة بالله، ومطالعة صفاته وأفعاله، ونظام مملكته من أعلى عليين إلى أسفل السافلين، فإنها خالية عن الانقطاع والمكدرات، متسعة للمتواردين عليها، لا تضيق بكثرتهم دائما وعرضها من حيث التفهيم والتمثيل أعظم من السماوات والأرض، ومن حيث الواقع ونفس الأمر فلا نهاية لعرضها، فلا يزال العارف بمطالعتها ومشاهدتها في جنة غير متناهية الأطراف والأقطار، يرتع في رياضها، ويركع (٢٩) في حياضها، ويقطع من أثمارها، وهو آمن من انقطاعها، إذ ثمارها غير مقطوعة ولا ممنوعة بل هي أبدية سرمدية لا يقطعها الموت، إذ الموت لا يهدم

---

(٢٩) كرع – من باب نفع –: هو الشرب بفيه من موضعه.

النفس الناطقة التي هي محل المعرفة، وإنما يقطع شواغلها وعوائقها ويخليها من جنسها، فأذن جميع أقطار ملكوت السماوات والأرض، فالأقطار عالم الربوبية التي هي غير متناهية، ميدان للعارفين، يتبوؤن منها حيث يشاؤن، من غير حاجة إلى حركة أجسامهم، ومن غير أن يضيق بعضهم على بعض أصلا، إلا أنهم يتفاوتون في سعة ميادينهم بحسب تفاوتهم في اتساع الأنظار وسعة المعارف:

(ولكل درجات مما عملوا) (٣٠).

ولا يدخل في الحصر تفاوت درجاتهم، ومن عرف هذه اللذة انمحت همومه وشهواته، وصار قلبه مستغرقا بنعيمها، ولا يشغله عن الله خوف النار ولا رجاء الجنة، فكيف تشغله عنه لذات الدنيا وعلائقها، وكان في الدنيا والآخرة مشغولا بربه، فلو ألقي في النار لم يحس به لاستغراقه ، ولو عرض عليه نعيم الجنة لم يلتفت إليه لكمال نعيمه وبلوغه الغاية التي ليس فوقها غاية، ولعل سيد الرسل ص) عبر عن هذه اللذة - أي لذة مطالعة جمال الربوبية - حيث قال حاكيا عن الله سبحانه: (أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر).

وهذه اللذة هي المراد من قوله تعالى:

(فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين) (٣١).

وربما تعجل بعض هذه اللذات لمن انتهى صفاء قلبه إلى الغاية، ومع ذلك لا يخلو عن توسط بعض الحجب المانعة عن الوصل إلى كنهها، ما لم يحصل التجرد الكلي وخلع البدن العنصري، ولذلك قال بعضهم: أني أقول: (يا رب يا الله! فأجد ذلك أثقل على قلبي من الجبال، لأن النداء يكون من وراء حجاب، وهل رأيت جليسا ينادي جليسه). ثم من عرف الله وعرف حقيقة هذه اللذة، عرف أن اللذات المقرونة في الشهوات المختلفة منطوية تحت هذه اللذة، كما قيل: كانت لقلبي أهواء مفرقة

فاستجمعت مذ رأتك العين أهوائي

---

(٣٠) الأنعام الآية: ١٣٢. الأحقاف، الآية: ١٩.

(٣١) السجدة، الآية: ١٧.

فصار يحسدني من كنت أحسده * وصرت مولى الورى مذ صرت مولائي
تركت للناس دنياهم ودينهم * شغلا بذكرك يا ديني ودنيائي

فصل

تحقق رؤية الله في الآخرة ولذة لقائه

إعلم أن معرفة الله إذا حصلت في الدنيا لم تكن خالية عن كدرة ما كما أشير إليه، إلا أنه إذا اكتسب أصلها في الدنيا فيزيدها في الآخرة انكشافا وجلاء بقدر صفاء القلوب وزكائها وتجردها عن العلائق الدنيوية، إلى أن يصير أجلى وأظهر من المشاهدة بمراتب، فالاختلاف بين ما يحصل في الدنيا من المعرفة وما يحصل في الآخرة من مشاهدة ولقاء إنما هو بزيادة الانكشاف وجلاء.

مثال ذلك: إن من رأى إنسانا، ثم غض بصره، وجد صورته حاضرة في خياله كأنه ينظر إليها، ولكن إذا فتح العين وأبصر، أدرك تفرقة بين حالتي غض العين وفتحها، ولا ترجع التفرقة إلى اختلاف بين بين الصورتين لاتحادهما، بل الافتراق إنما هو بمزيد الكشف والوضوح، فالصورة المتخيلة صارت بالرؤيا أتم انكشافا، فإذا الخيال أول الإدراك، والرؤيا استكمال لإدراك الخيال، وهي غاية الكشف، لا لأنها في العين، بل لو خلق الله هذا الإدراك الكامل المتجلي في الصدر أو الجهة أو أي عضو فرض، استحق أن يسمى رؤية. وإذا فهمت هذا في المتخيلات – أي المدركات التي تدخل في الخيال من الصور والأجسام – فقس عليه الحال في المعلومات – أي ما يدرك بالعقل –، ولا يدخل في الخيال كذات الباري وكل ما ليس بجسم، كالعلم والقدرة والإرادة وغيرها، فإن لمعرفتها وإدراكها أيضا درجتين: إحداهما: أولى، والثانية: استكمال لها، وبينهما من التفاوت في مزيد الكشف والايضاح ما بين المتخيل والمرئي، فتسمى الثانية بالإضافة إلى الأولى لقاء ومشاهدة ورؤية، وهذه التسمية حق، لأن الرؤية سميت رؤية لأنها غاية الكشف، وكما أن سنة الله جارية بأن تطبق الأجفان يمنع من تمام الكشف الذي هو الرؤية في المتخيلات، فكذلك سنته أن النفس ما دامت محجوبة بالبدن وعوارضه وشهواته، لم يحصل لها تمام

الكشف الذي هي المشاهدة واللقاء في المعلومات الخارجية عن الخيال، فإذا ارتفع بالموت حجاب البدن، وخلصت النفس، لم يكن بعد في غاية التنزه عن كدورات الدنيا، بل كانت ملوثة بها، إلا أن النفوس مختلفة في ذلك:
فمنها: ما تراكم عليه الخبث والصدى، فصار كالمرآة التي فسد بطول تراكم الخبث وجوهرها، فلا تقبل الإصلاح والتصقيل، وهؤلاء هم المحجوبون عن ربهم أبد الآباد، نعوذ بالله من ذلك. ومنها: ما لم ينتهي إلى حد الرين والطبع، ولم يخرج عن قبول التزكية والتصقيل، وهذه النفوس غير متناهية الدرجات والمراتب، إذ المتلوث بالكدورات عرض عريض في (الواقع) بين الرين والطبع، وبين التزكية التامة والتجرد الكلي الذي لم يكن فيه شوب من الكدورات، وهذه النفوس المتلوثة على اختلاف درجاتها ومراتبها تحتاج إلى التطهير لتستعيد للمشاهدة واللقاء بتجلي الحق فيها، وتطهيرها إنما هو بنوع عقوبة من العقوبات الأخروية، وهي كمراتب التلوث غير متناهية الدرجات، أولها سكرة الموت، وآخرها الدخول في النار، وما بينهما عقوبات البرزخ وأهوال القيامة بأنواعها، فكل نفس لا بد لها من عقوبة من هذه العقوبات لتتطهر من كدوراتها: فمنها: ما يتطهر بمجرد سكرة الموت وشدة النزع، ومنها ما يتطهر بها، وينقص عقوبات البرزخ، ومنها ما لا يتطهر إلا بأن يذوق بعض عقوبات الآخرة، ومنها ما لا يحصل تطهيره إلا بالعرض على النار عرضا يقمع منها الخبث الذي تدنست به، فربما كان ذلك لحظة حقيقية، وربما كان سبعة آلاف سنة – كما وردت به الأخبار – وربما كان أقل أو أكثر، ولا يعلم تفصيل ذلك إلا الله سبحانه، والمحجوبون الذين بلغوا حد الرين والطبع يكونون مخلدين في النار.
ثم النفوس القابلة للتطهير إذا أكمل الله تطهيرها وتزكيتها، وبلغ الكتاب أجله، استعدت حينئذ لصفائها ونقائها عن الكدورات لأن تتجلى فيه جلية الحق، فتتجلى فيها تجليا يكون انكشاف تجلية بالإضافة إلى ما علمته وعرفته كانكشاف تجلي المرئيات بالإضافة إلى المتخيلات، وهذه المشاهدة والتجلي تسمى رؤية، لأنه في الظهور والجلاء والوضوح والانكشاف كالرؤية بالبصر، بل هو فوقه بمراتب شتى، إذ الرائي في الأول العقل،

وفي الثاني البصر، وشتان ما بينهما، فإن الاختلاف في مراتب الإدراك والرؤية بحسب اختلاف نورية المدرك، وأي نسبة لنورية البصر إلى نورية العقل وإشراقه، وما للعقل من النفوذ في حقائق الأشياء وبواطنها أنى يكون للبصر.

وقد ظهر مما ذكر: أنه لا يفوز بدرجة الرؤية والمشاهدة إلا العارفون في الدنيا، لأن المعرفة هي البذر الذي ينقلب في الآخرة مشاهدة، كما تنقلب النواة شجرة والبذر زرعا، ومن لا نواة له كيف يحصل له النخل، ومن لم يلق البذر كيف يحصد الزرع، فمن لم يعرف الله في الدنيا فكيف يراه في الآخرة، ومن لم يجد لذة المعرفة في الدنيا فلا يجد لذة النظر في العقبى، إذ لا يستأنف لأحد في الآخرة ما لم يصحبه في الدنيا، فلا يحصد المرء إلا ما زرع، ولا يحشر إلا على ما مات عليه، ولا يموت إلا على ما عاش عليه.

ولما كانت المعرفة على درجات متفاوتة، يكون التجلي أيضا على درجات متفاوتة، فاختلاف التجلي بالإضافة إلى اختلاف المعارف كاختلاف النبات بالإضافة إلى اختلاف البذور، إذ يختلف لا محالة: بكثرتها وقلتها، وجودتها، ورداءتها، وضعفها. ثم كلما كان التجلي والمشاهدة أقوى، كان ما يترتب عليه من حب الله والأنس به أشد وأقوى، وكلما كان الحب والأنس أزيد، كان ما يترتب عليه من البهجة واللذة أعلى وأقوى، وتبلغ هذه اللذة مرتبة لا تؤثر عليها لذة أخرى من نعيم الجنة، بل ربما بلغت حدا تتأذى من كل نعيم سوى لقاء الله ومشاهدته، فالنعمة والبهجة في الجنة بقدر حب الله، وحب الله بقدر معرفته، فأصل السعادات هي المعرفة التي عبر الشرع عنه ب (الإيمان).

فإن قيل: اللقاء والمشاهدة إن كانت زيادة كشف للمعرفة حتى تتحقق بين لذة الرؤية ولذة المعرفة نسبة، لكانت لذة اللقاء والرؤية قليلة، وإن كانت أضعاف لذة المعرفة، إذ هي في الدنيا ضعيفة، فتضاعفها إلى أي حد فرض لا ينتهي في القوة، إلا أن يستحقر في جنبها سائر لذات الجنة ونعيمها.

قلنا: هذا الاستحقاق والتقليل للذة المعرفة باعثه عدم المعرفة أو ضعفها

فإن من خلا عن المعرفة، أو كانت له معرفة ضعيفة وقلبه مشحون بعلائق الدنيا، لا يدرك لذتها، فمن كملت معرفته وصفت عن علائق الدنيا سريرته، قويت بهجته واشتدت لذته، بحيث لا توازنها لذة، فإن للعارفين في معرفتهم وفكرتهم ومناجاتهم لله عز وجل ابتهاجات ولذات لو عرضت عليهم الجنة ونعيمها في الدنيا بدلا عنها لم يستبدلوها بها. ثم هذه اللذة مع كمالها لا نسبة لها أصلا إلى لذة اللقاء والمشاهدة، كما لا نسبة للذة خيال المعشوق إلى رؤيته، ولا للذة استنشاق روائح الأطعمة الطيبة إلى ذوقها وأكلها، ولا للذة اللمس باليد إلى لذة الوقاع.

ومما يوضح ذلك أن لذة النظر إلى وجه المعشوق تتفاوت بأمور:

أحدها - كمال جمال المعشوق ونقصانه.

وثانيها - كمال قوة الحب والشهوة وضعفه.

وثالثها - كمال الإدراك وضعفه، فإن الالتذاذ برؤية المعشوق في ظلمة، أو من بعد، أو من وراء ستر رقيق، ليس كالالتذاذ برؤيته على قرب من غير ستر عند كمال الضوء.

ورابعها عدم الآلام الشاغلة والعوائق المشوشة ووجودها، فإن التذاذ الصحيح الفارغ المتجرد للنظر إلى المعشوق ليس كالتذاذ الخائف المذعور أو المريض المتألم، أو المشغول قلبه بمهم من المهمات، فلو كان العاشق ضعيف الحب، ناظرا إلى معشوقه على بعد ومن وراء ستر رقيق، مشغول القلب بمهمات، مجتمعة عليه حيات وعقارب تؤذيه وتلدغه، لم يكن خاليا عن لذة ما في هذه الحالة من مشاهدة معشوقه، إلا أنه إذا فرض ارتفاع الستر وإشراق الضوء، واندفاع الحيات والعقارب المؤذية، وفراغ قلبه من المهمات، وحدوث عشق مفرط، وشهوة قوية، بحيث بلغت أقصى الغايات، تضاعفت لذته، بحيث لم تكن للذته الأولى نسبة إليها بوجه، فكذلك الحال في نسبة لذة المعرفة في الدنيا مع حجاب البدن والاشتغال بمهماته، ومع تسلط حيات الشهوات وعقاربها: من الجوع، والعطش والشبق، والغضب، والحزن، والهم، ومع ضعف النفس وقصورها ونقصانها في الدنيا عن التشوق إلى الملأ الأعلى، لالتفاتها إلى أسفل السافلين.

إلى لذة اللقاء والمشاهدة التي يندفع فيها جميع ذلك عن النفس، فالعارف لعدم خلوه في الدنيا عن هذه العوائق والمشوشات وإن قويت معرفته لا يمكن أن تكمل لذته وتصفو بهجته، وإن ضعفت عوائقه ومشوشاته في بعض الأحوال وبقي سالما، لاح له من جمال المعرفة ما تعظم لذته وبهجته ويدهش عقله، بحيث يكاد القلب يتفطر لعظمته، إلا أن ذلك كالبرق الخاطف، ولا يمكن أن يدوم، إذ الخلو عن العوائق والمشوشات ليس يمكن أن يدوم بل هو آني، ويعرض بعد الآن من الشواغل والأفكار والخواطر ما يشوشه وينقصه، وهذه ضرورة قائمة في هذه الحياة الفانية، فلا تزال هذه اللذة منقصة إلى الموت، وإنما الحياة الطيبة بعده، وإنما العيش عيش الآخرة، فإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون، ولذا كل عارف كملت معرفته في الدنيا وأحب لقاء الله يحب الموت ولا يكرهه، إلا من حيث إرادة زيادة استكمال في المعرفة، فإن المعرفة كما عرفت بمنزلة البذر، وكلما كثرت المعرفة بالله وبصفاته وبأفعاله وبأسرار مملكته، قويت المشاهدة واشتدت، وكثر النعيم في الآخرة وعظم، كما إنه كلما كثر البذر وحسن كثر الزرع وحسن. ولا ريب في أن المعرفة لا تنتهي إلى مرتبة لا تكون فوقها مرتبة، إذ بحر المعرفة لا ساحل له، والإحاطة بكنه جلال الله محال، فالعارف وإن قويت معرفته، ربما أحب طول العمر وكره الموت لتزداد معرفته.

ثم أهل السنة قالوا: (إن الرؤية في الآخرة مع تنزهها عن التخيل والتصوير والتقدير بالشكل والصورة والتحديد بالجهة والمكان: تكون بالعين دون القلب): (وهو عندنا باطل): إذ الرؤية بالعين محال في حق الله تعالى، سواء كانت في الدنيا أو في الآخرة، فكما لا تجوز رؤية الله سبحانه في الدنيا بالعين والبصر، فكذلك لا تجوز في الآخرة، وكما تجوز رؤيته في الآخرة بالعقل والبصيرة لأهل البصائر - أعني غاية الانكشاف والوضوح بحيث تتأدى إلى المشاهدة واللقاء - فكذلك تجوز رؤيته في الدنيا بهذا المعنى، والحجاب بينه وبين خلقه ليس إلا الجهل وقلة المعرفة دون الجسد، فإن العارفين وأولياء الله يشاهدونه في الدنيا في جميع أحوالهم ومنصرفاتهم،

وإن كان الحاصل في الآخرة أزيد انكشافا وأشد انجلاء بحسب زيادة صفاء النفوس وزكائها وتجردها عن العلائق الدنيوية - كما تقدم مفصلا -،
وقد ثبت ذلك من أئمتنا الراشدين العارفين بأسرار النبوة، روى شيخنا الأقدم (محمد بن يعقوب الكليني) وشيخنا الصدوق (محمد بن علي بن بابويه) رحمهما الله بإسنادهما الصحيح عن الصادق (ع): (أنه سئل عما يرون من الرؤية، فقال: الشمس جزء من سبعين جزء من نور الكرسي، والكرسي جزء من سبعين جزء من نور العرش، والعرش جزء من سبعين جزء من نور الحجاب، والحجاب جزء من سبعين جزء من نور الستر، فإن كانوا صادقين فليملأوا أعينهم من نور الشمس ليس دونها سحاب). وبإسنادهما عن أحمد بن إسحاق قال: (كتبت إلى أبي الحسن الثالث (ع) أسأله عن الرؤية وما أختلف فيه الناس، فكتب: لا تجوز الرؤية ما لم يكن بين الرائي والمرئي هواء ينفذه البصر فإذا انقطع الهواء عن الرائي والمرئي لن تصح الرؤية وكان في ذلك الاشتباه، لأن الرائي متى ساوى المرئي فالسبب الموجب بينهما في الرؤية وجب الاشتباه، وكان ذلك التشبيه لأن الأسباب لا بد من اتصالها بالمسببات). وعن أبي بصير عن الصادق (ع) قال (قلت له: أخبرني عن الله - عز وجل - هل يراه المؤمنون يوم القيامة؟ قال: نعم! وقد راوه قبل يوم القيامة. فقلت: متى؟ قال: حين قال لهم ألست بربكم، قالوا بلا... ثم سكت ساعة، ثم قال: وإن المؤمنين ليرونه في الدنيا قبل يوم القيامة، ألست تراه في وقتك هذا؟! قال أبو بصير فقلت له: جعلت فداك! فأحدث بهذا عنك؟ فقال: لا! فإنك إذا حدثت به فأنكره منكر جاهل بمعنى ما تقوله، ثم قدر أن ذلك تشبيه كفر، وليست الرؤية بالقلب كالرؤية بالعين، تعالى الله عما يصفه المشبهون والملحدون).
وسئل أمير المؤمنين (ع): (هل رأيت ربك حين عبدته؟ فقال: ويلك! ما كنت اعبد ربا لم أره. قيل: وكيف رأيته؟ قال: ويلك! لا تدركه العيون في مشاهدة الأبصار، ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان) (٣٢). وقال سيد

---

(٣٢) صححنا الأحاديث كلها على أصول (الكافي): الجزء الأول، باب إبطال الرؤية. وعلى (الوافي): ١ / ٦٩، باب إبطال الرؤيا.

الشهداء (ع): (كيف يستدل عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتى يكون هو المظهر لك، متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك، ومتى بعدت حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك، عميت عين لا تراك عليها رقيبا، وخسرت صفقة عبد لهم تجعل من حبك نصيبا). وقال (ع) أيضا: (تعرفت لكل شئ فما جهلك شئ) وقال:
(وأنت الذي تعرفت إلي في كل شئ، فرأيتك ظاهرا في كل شئ، وأنت الظاهر لكل شئ) (٣٣). وأمثال ذلك مما ورد عنهم - عليهم السلام - أكثر من أن تحصى.

فصل

الطريق إلى الرؤية واللقاء

الطريق إلى تحصيل محبة الله وتقويتها ثم استعداد الرؤية واللقاء أمران
أحدهما - تطهير القلب من شواغل الدنيا وعلائقها، والتبتل إلى الله بالذكر والفكر، ثم إخراج حب غير الله من القلب، إذ القلب مثل الإناء الذي لا يسع الماء - مثلا - ما لم يخرج منه الخل. وما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه، وكمال الحب في أن يحب الله بكل قلبه، وما دام يلتفت إلى غيره فزاوية من قلبه مشغولة بغيره، وبقدر ما يشتغل بغير الله ينقص منه حب الله إلى أن يكون التفاته إلى الغير من حيث أنه صنع الله - تعالى وفعله ومظهر من مظاهر أسماء الله - تعالى -، وإلى التجريد والتفريد الإشارة بقوله تعالى:
(قل الله ثم ذرهم) (٣٤)
وثانيهما - تحصيل معرفة الله وتقويتها وتوسيعها وتسليطها على القلب والأول، أعني قطع العلائق، بمنزلة تنقية الأرض من الحشائش، والثاني أي المعرفة، بمنزلة البذر فيها، ليتولد منه شجر المحبة.
ثم لتحصيل المعرفة طريقان:
أحدهما - الأعلى، وهو الاستدلال بالحق على الخلق، وذلك بأن

---

(٣٣) صححنا فقرات دعاء عرفة على (مفاتيح الجنان): ص ٢٧٢ - ٢٧٤ طبعة الكراوري
(٣٤) الأنعام، الآية: ٩١

يعرف الله بالله، وبه يعرف غيره، أي أفعاله وآثاره. وإلى هذا أشير في الكتاب الإلهي بقوله: (أو لم يكف بربك أنه على كل شئ شهيد) (٣٥)
وهذا الطريق غامض، وفهمه صعب على الأكثرين. وقد أشرنا إلى كيفيته في بعض كتبنا الإلهيات.
وثانيهما - وهو الأدنى، الاستدلال بالخلق على الحق - سبحانه - وهذا الطريق في غاية الوضوح، وأكثر الأفهام يتمكن من سلوكه، وهو متسع الأطراف، ومتكثر الشعوب والأكناف، إذ ما من ذرة من أعلى السماوات إلى تخوم الأرضين إلا وفيها عجائب آيات وغرائب بينات تدل على وجود الواجب وكمال قدرته وغاية حكمته ونهاية جلاله وعظمته، وذلك مما لا يتناهى.
(قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي) (٣٦)
وعدم وصول بعض الأفهام من هذا الطريق إلى معرفة الله مع وضوحه، إنما للإعراض عن التفكير والتدبر والاشتغال بشهوات الدنيا وحظوظ النفس. ثم سلوك هذا الطريق، أي الاستدلال على الله - تعالى - وعلى كمال قدرته وعظمته، بالتفكر في الآيات الآفاقية والأنفسية، خوض في بحار لا ساحل لها، إذ عجائب ملكوت السماوات والأرض مما لا يمكن أن تحيط به الأفهام، فإن القدر الذي تبلغه أفهامنا القاصرة من عجائب حكمته الباهرة تنقضي الأعمار دون إيضاحه ولا نسبة لما أحاط به علمنا إلى ما أحاط به علم العلماء، ولا نسبة له إلى ما أحاط به علم الأنبياء، ولا نسبة له إلى ما أحاط به علم الخلائق كلهم، ولا نسبة له إلى ما استأثر الله بعلمه، بل كلما عرفه الخلائق جميعا لا يستحق أن يسمى علما في جنب علم الله، ونحن قد أشرنا إلى لمعة يسيرة من عجائب حكمته المودعة في بعض مخلوقاته في مبحث التفكر.

---

(٣٥) فصلت، الآية: ٥٣.
(٣٦) الكهف، الآية: ١١٠

فصل

تفاوت المؤمنين في محبة الله

إعلم أن المؤمنين جميعا مشتركون في أصل محبة الله لاشتراكهم في أصل الإيمان، ولكنهم متفاوتون في قدرها، وسبب تفاوتهم أمران:

أحدهما – اختلافهم في المعرفة وحب الدنيا فإن أكثر الناس ليس لهم من معرفة الله إلا ما قرع أسماعهم من كونه متصفا بصفات كذا وكذا، من دون وصول إلى حقيقة معناها، وإلى اعتقادهم بأن الموجودات المشاهدة صادرة عنه، من غير تدبر في عجائب القدرة وغرائب الحكمة المودعة فيها.

وأما العارفون: فلهم الخوض في بحر التفكر والتدبر في أنواع المخلوقات، واستخراج ما فيها من الحكم الخفية، والمصالح العجيبة، التي كل واحد منها كمشعلة في إزالة ظلمة الجهل، والهداية إلى كمال عظمة الله، ونهاية جلاله وكبريائه، فمثل الأكثرين كمثل عامي أحب عالما بمجرد استماعه أنه حسن التصنيف، من دون علم ودراية بما في تصانيفه، فتكون له معرفة مجملة ويكون له بحسنه ميل مجمل، ومثل العارفين كمثل عالم فتش عن تصانيفه وأطمع على ما فيها من دقائق المعاني وبلاغة العبارات. ولا ريب في أن العالم بجملته صنع الله وتصنيفه، فمن عرف ذلك مجملا تكون له بحسبه محبة مجملة، ومن وقف على ما فيه من عجائب القدرة ودقائق الحكمة تكون له غاية الحب، وكلما ازدادت معرفته بوجوه الحكم والمصالح المودعة في كل مخلوق ازداد حبه فمن اعتقد أن ما تبنيه النحل من البيوت المسدسة إنما هو بإلهام الله – تعالى – إياها، من غير استعداد لفهم الحكمة في اختيار الشكل المسدس على سائر الأشكال، لا يكون في معرفة الله وإدراك عظمته وحكمته كمن يفهم ذلك ويتيقنه. ثم، كما إن دقائق الحكم وعجائب القدرة غير متناهية، ولا يمكن لأحد أن يحيط بها، وإنما ينتهي كل إلى ما يستعد له، فينبغي أن تكون مراتب الحب أيضا غير متناهية، وكل عبد ينتهي إلى مرتبة تقتضيها معرفته.

وثانيهما – اختلافهم في الأسباب المذكورة للحب، فإن من يحب الله لكونه منعما عليه ومحسنا إليه، ضعفت محبته لتغيرها بتغير الإنعام والاحسان

ولا يكون حبه في حالة البلاء كحبه في حالة الرخاء والنعماء. وأما من يحبه لذاته، أو بسبب كماله وجماله ومجده وعظمته، فإنه لا يتفاوت حبه بتفاوت الإحسان إليه.

فصل

الواجب أظهر الموجودات

عجبا لأقوام عميت قلوبهم عن معرفة الله - سبحانه -، مع أن الله - تعالى - أظهر الموجودات وأجلاها، لأن البديهة العقلية قاضية بأنه يجب أن يكون في الوجود موجود قائم بذاته، أي ما هو صرف الوجود، ولولاه لم يتحقق موجود أصلا، يتحقق صرف الوجود القائم بذاته المقوم لغيره أظهر وأجلى من تحقق كل موجود بغيره عند البصيرة الصافية، قال الله - سبحانه -:

(الله نور السماوات والأرض) (٣٧)

والنور هو الظاهر لنفسه المظهر لغيره، ومبدأ الإدراك من المدرك إنما هو الوجود، فكلما أدركته إنما تدرك أولا وجوده، وإن لم تشعر بذلك. ولا ريب في أن الظاهر لنفسه أظهر من الظاهر بغيره، وأيضا كل موجود سوى الله - سبحانه - يعلم وجوده بقليل من الآثار، فإن وجود الحياة لزيد - مثلا - لا يدل عليه إلا حركته وتكلمه وبعض أخر من إعراض نفسه، ولا يدل عليه شئ آخر من سائر الموجودات، وكذا وجود السماء - مثلا - لا يدل عليه سوى وجود ظهور جسمها وحركتها، ولا يدل عليه شئ آخر من الموجودات التي تحتها وفوقها.

وأما وجود الواجب - تعالى - فيدل عليه كل شئ إذ ليس الوجود مدرك محسوس أو معقول، وحاضر أو غائب، إلا وهو شاهد ومعرف لوجوده فالسبب في خفائه مع كونه أجلى وأظهر من كل شئ غاية وضوحه وظهوره، فإن شدة ظهور الشئ قد يكون سببا لخفائه، لأنه يكل المدارك ويحسرها، فشدة ظهوره - سبحانه - بلغت حدا بهرت العقول وأدهشتها

----

(٣٧) النور الآية ٣٥

فضعفت عن إدراكه. وهذا كما إن الخفاش يبصر بالليل ولا يبصر بالنهار، لا لخفاء النهار واستتاره، بل لشدة ظهوره وضعف بصر الخفاش، فإن بصره ضعيف يبهره نور الشمس إذا أشرق، فتكون قوة ظهوره مع ضعف بصره سببا لامتناع أبصاره فلا يرى شيئا إلا إذا امتزج بالضوء الظلام وضعف ظهوره، فكذلك عقولنا ضعيفة، وجمال الحضرة الإلهية في نهاية الاشراق والاستنارة، وفي غاية الاستغراق والشمول، حتى لم تشذ عن ظهوره ذرة من ملكوت السماوات والأرض، فصار ظهوره سبب خفائه، فسبحان من احتجب بإشراق نوره، واختفى عن العقول والبصائر بشدة ظهوره!

ولا تتعجب من اختفاء شئ بسبب شدة ظهوره، فإن الأشياء إنما تستبان بأضدادها، وما عم وجوده حتى لا ضد له عسر إدراكه، فلو اختلفت الأشياء، فدل بعضها على الله - تعالى - دون بعض، أدركت التفرقة على قرب، ولما اشتركت في الدلالة على نسق واحد، أشكل الأمران، ومثاله نور الشمس المشرق على الأرض، فإنا نعلم أنه عرض من الأعراض يحدث في الأرض، ويزول عند غيبة الشمس، فلو كانت الشمس دائمة الاشراق لا غرب لها، لكنا نظن أن لا هيئة في الأجسام إلا ألوانها، وهي السواد والبياض وغيرهما، وأما الضوء فلا ندركه وحده لكن لما غابت الشمس واظلمت المواضع أدركنا تفرقة بين الحالتين، فعلمنا أن الأجسام قد استضاءت بضوء فارقها عند الغروب، فعرفنا وجود النور بعدمه وما كنا نطلع عليه لولا عدمه إلا بعسر شديد، وذلك لمشاهدتنا الأجسام متشابهة غير مختلفة في النور والظلام. وهذا مع أن النور أظهر المحسوسات، إذ به تدرك سائر المحسوسات، فما هو ظاهر في نفسه مظهر لغيره انظر كيف استبهم أمره بسبب ظهوره لولا طريان ضده، فإذن واجب الوجود لذاته هو أظهر الأشياء وبه ظهرت الأشياء كلها ولو كان له عدم أو غيبة أو تغير، لانهدت في السماوات

والأرض وبطل الملك والملكوت، وأدركت التفرقة بين الحالتين، ولو كان بعض الأشياء موجودا به، وبعضها موجودا بغيره، لأدركت التفرقة بين الشيئين في الدلالة، ولكن دلالته عامة في الأشياء على نسق واحد، ووجوده دائم في الأحوال يستحيل خلافه، فلا جرم أورثت شدة ظهوره خفاء كما قيل:

خفي لإفراط الظهور تعرضت * لإدراكه أبصار قوم أخافش
وحظ عيون الزرق من نور وجهه * لشدته حظ العيون العوامش

قال أمير المؤمنين (ع): (لم تحط الأوهام، بل تجلى لها بها، وبها امتنع منها) وقال (ع): (ظاهر في غيب، وغائب في ظهور). وقال (ع): (لا تجنه البطون عن الظهور، ولا تقطعه الظهور عن البطون، قرب فنأى وعلا فدنا، وظهر فبطن وبطن فعلن، ودان ولم يدن): أي ظهر وغلب، ولم يغلب. ومن هناك قيل: (عرفت الله بجمعه بين الأضداد).

فصل

علائم محبة الله

محبة العبد لله – سبحانه – له علامات:

الأولى – أن يحب لقاؤه بطريق المشاهدة والعيان في دار السلام، ولتوقفه على الموت يحب الموت ويتمناه، إذ كل من يحب شيئا يحب لقاؤه ووصله، وإذا علم أنه يمتنع الوصول إليه إلا بالارتحال من الدنيا بالموت لأحب الموت لا محالة، وكيف يثقل على المحب أن يسافر من وطنه إلى مستقر محبوبه ليتنعم بمشاهدته، ولذا قال (حذيفة عند موته: (حبيب جاء على فاقة، لا أفلح اليوم من ندم). قال بعض الأكابر: (لا يكره الموت إلا مريب، لأن الحبيب لا يكره لقاء الحبيب على كل حال).

ثم من يكره الموت، فإن كانت كراهته له لحب الدنيا والتأسف على فراق الأهل والأولاد والأموال، وكان حبه للدنيا وتأسفه على مفارقتها في غاية الكمال، بحيث لم يحب الموت ولم يسر قلبه أصلا بما يترتب عليه من لقاء الله – تعالى –، ولم يجد في قلبه شوقا إليه مطلقا فلا ريب في كون مثل هذه الكراهة منافيا لأصل الحب، ولو لم يكن حبه للدنيا في غاية الكمال، بحيث لم يجد في قلبه ميلا إلى ما يترتب على الموت من لقاء الله، بل كان محبا للدنيا إلا أنه كان له شوق إلى لقاء الله – تعالى – أيضا أو كان لذلك كراهته للموت ضعيفة، فمثل هذا الحب للدنيا ينافي كمال حب الله، لأن الحب الكامل هو الذي يستغرق كل القلب، ولا يبعد أن تكون معه شائبة ضعيفة من حب الله، فإن الناس متفاوتون في حب الله،

فمنهم من يحبه بكل قلبه. ومنهم من لا يحبه بكل قلبه، بل يحب معه غيره أيضا من الأهل والولد والمال، فلا جرم يكون فرحه بلقاء الله عند القدوم عليه على قدر حبه وكراهته لفراق الدنيا عند الموت على قدر حبه لها، وإن كانت كراهته للموت لأجل إرادته الاستعداد والتهيؤ للقاء الله، ومشاهدته بتحصيل زيادة العلم والعمل، لا لحب الأهل والمال، ولا للتأسف على فراق الدنيا، فهو لا يدل ضعف الحب ولا ينافي أصله، وهو كالمحب الذي وصل إليه خبر قدوم حبيبه، فأحب أن يتأخر قدومه ساعة ليعمر داره ويفرشها ويهيأ أسبابها، ليلقاه فارغ القلب عن الشواغل، وعلامة ذلك الجد في العمل، واستغراق الهم في تحصيل المعرفة، والاستعداد للآخرة.

الثانية – أن يؤثر مراد الله – سبحانه – على مراده، إذ المحب

لا يخالف هوى محبوبه لهوى نفسه، كما قيل:

أريد وصاله ويريد هجري * فأترك ما أريد لما يريد

فمن كان محبا لله: يمتثل أوامره ويجتنب نواهيه، ويحترز عن اتباع الشهوات، ويدع الكسالة والبطالة، ولا يزال مواضبا على طاعته وانقياده ويكون مبتهجا متنعما بالطاعة ولا يشغلها، ويسقط عنه تعبها. وقد روي: (أن زليخا لما آمنت، وتزوج بها يوسف (ع)، انفردت عنه، وتخلت للعبادة، وانقطعت إلى الله – تعالى –، وكان يوسف يدعوها إلى فراشه نهارا فتدافعه إلى الليل، وإذا دعاها ليلا سوفت إلى النهار، فعاتبها في ذلك فقالت يا رسول الله! إنما كنت أحبك قبل أن أعرف ربك، فأما إذ عرفته فلا أؤثر على محبته محبة من سواه، وما أريد به بدلا). ثم الحق أن العصيان يضاد كمال المحبة لا أصلها، ولذا قد يأكل الرجل المريض ما يضره، ويزيد في مرضه مع أنه يحب نفسه، ويحب صحته، والسبب ضعف المعرفة وغلبة الشهوة، فيعجز عن القيام بحق المحبة.

الثالثة – ألا يغفل عن ذكر الله – سبحانه –، بل يكون دائما مستهترا بذكره، إذ من أحب شيئا أكثر ضرورة ذكره وذكر ما يتعلق به فمحب الله لا يخلو عن ذكر الله وذكر رسوله وذكر القرآن وتلاوته، لأنه كلامه، ويكون محبا للخلوة ليتفرد بذكره وبمناجاته، ويكون له كمال

الأنس والالتذاذ بمناجاته، وفي أخبار داود: (كذب من ادعى محبتي وإذا جنه الليل نام عني، أليس كل محب يحب لقاء حبيبه، فها أنا ذا موجود لمن طلبني).

الرابعة - ألا يحزن ولا يتألم عن فقد شئ، ولا يفرح بوجود شئ سوى ما يقربه إلى الله أو يبعده عنه، فلا ينبغي أن يحزن ويجزع في المصائب، ولا يسر بنيل المقاصد الدنيوية، ولا يتأسف على ما يفوته إلا على ما فات منه من طاعة مقربة إلى محبوبه، أو على صدور معصية مبعدة، أو على ساعة خلت عن ذكر الله والأنس به.

الخامسة - أن يكون مشفقا رؤوفا على عباد الله، رحيما على أولياءه وشديدا على أعداء الله، كارها لمن يخالفه ويعصيه، إذ مقتضى الحب الشفقة والمحبة لإحياء المحبوب والمنسوبين إليه، والبغض لأعدائه ومخالفيه.

السادسة - أن يكون في حبه خائفا متذللا تحت سلطان العظمة والجلال، وليس الخوف مضادا للحب، كما ظن، إذ إدراك العظمة يوجب الهيبة وإدراك الجمال يوجب الحب، ولخصوص المحبين خوف الأعراض، وخوف الحجاب وخوف الإبعاد، وخوف الوقوف، وسلب المزيد وقال بعض العرفاء: (من عبد الله بمحض المحبة من غير خوف هلك بالبسط والإدلال، ومن عبده من طريق الخوف من غير محبة انقطع عنه بالبعد والاستيحاش ومن عبده عن طريقهما أحبه الله، فقربه ومكنه وعلمه).

السابعة - كتمان الحب والشوق من إظهاره ومن إظهار الوجد واجتناب الدعوى، تعظيما للمحبوب وإجلالا له، وهيبة منه وغيرة على سره، فإن الحب سر من أسرار المحبوب، فلا ينبغي إفشاؤه، ولأنه ربما يدخل في الدعوى ما يجاوز حد الواقع، فيكون من الافتراء، والتعظم به العقوبة في العقبى والبلية في الدنيا. نعم، ربما غشيته سكرة في حبه، حتى يدهش فيها، وتضطرب أحواله، فيظهر عليه حبه من دون اختيار وتمحل. فمثله معذور، لأنه تحت سلطان المحبة مقهور ومن عرف أن حصول حقيقة المعرفة والمحبة التي تنبغي أن تكون في حق الله يستحيل أن يحصل لأحد وأن يطلع على ما اعترف عظماء الإنسان - أعني الأنبياء والأولياء - من

العجز والقصور، وإن صنفا واحدا من الأصناف الغير المتناهية من ملائكته ملائكة بعدد جميع ما خلق الله من شئ، هم أهل المحبة لله، ما خطر على قلوبهم مذ خلقهم الله – وهو ثلاثمائة ألف سنة قبل خلق العالم – سوى الله – سبحانه –، وما ذكروا غيره، لأستحيي منه حق الحياء أن يعد ما عليه من المعرفة والمحبة معرفة ومحبة، وخرس لسان عن التظاهر بالدعوى.

وروي في بعض الأخبار: (أن بعض أهل الله سأل بعض الصديقين أن يسأل الله – تعالى – أن يعطيه ذرة من معرفته، ففعل ذلك، فحار عقله وذهل لبه، ووله قلبه، وهام في الجبال، وبقي شاخصا سبعة أيام، لا ينتفع بشئ ولا ينتفع به شئ، فسأل له الصديق ربه أن ينقص بعض الذرة من المعرفة التي أعطاه، فأوحى الله – تعالى – إليه: (إنا أعطيناه جزءا من مئة ألف جزء من ذرة من المعرفة، وذلك أن مئة ألف عبد سألوني شيئا من المحبة في الوقت الذي سألني هذا، فأخرت إجابتهم إلى أن شفعت أنت لهذا، فلما أجبتك فيما سألت أعطيتهم كما أعطيتك، فقسمت ذرة من المعرفة بين مئة ألف عبد، فهذا ما أصابه من ذلك). فقال: سبحانك سبحانك! أنقصه مما أعطيته، فأذهب الله عنه جملة ما أعطاه، وأبقى فيه عشر معشاره وهو جزء من عشرة آلاف جزء من مئة ألف جزء من ذرة، فاعتدل خوفه وحبه ورجاؤه، وسكن، وصار كسائر الكمل من العارفين) (٣٨).

والحق أن حقائق الصفات الإلهية أجل وأعظم من إدراك العقول البشرية، ولا يطيق أحد من الكمل أن يتحمل لفهم جزء من الأجزاء الغير المتناهية منها فالوصول إلى ما عليه الحضرة الربوبية من العظمة والجلال وسائر صفات الكمال في حيز المحال، (وما قيل أو يقال فيه) وهم أو خيال فأين يحصل لأحد ما يليق به من المعرفة والمحبة؟ فلو أمكن أن تدخل أمثال هذه العوالم المخلوقة من السماوات والأرضين وما فوقهما وأضعافهما بقدر غير متناه في جوف خردلة، لأمكن أن تدخل في أعظم العقول ذرة من عظمته وجلاله، وغاية المعرفة أن يعرف عظمته وقدرته وجلاله وعزته وسائر أوصافه الكمالية بأمثال هذه العنوانات وتمثيلات، وهي أيضا لو ضوعفت إلى

---

(٣٨) صححنا الرواية على (إحياء العلوم): ٤ / ٢٨٨.

غير النهاية في أزمنة غير متناهية، لكانت بيانات قاصرة، بل وهمية خيالية، فسبحان من لا سبيل إلى معرفته إلا بالعجز عن معرفته!. ومن علامات المحبة الأنس والرضا كما يأتي. وقد جمع بعض العارفين علامات المحب في أبيات، فقال:

لا تخدعن فللمحب دلائل * ولديه من تحف الحبيب وسائل
منها تنعمه بمر بلائه * وسروره في كل ما هو فاعل
فالمنع منه عطية مقبولة * والفقر أكرم وبر عاجل
ومن الدلائل أن ترى من عزمه * طوع الحبيب وإن ألح العاذل
ومن الدلائل أن يرى متبسما * والقلب فيه من الحبيب بلابل
ومن الدلائل أن يرى متفهما * لكلام من يحظى لديه سائل
ومن الدلائل أن يرى متقشفا * متحفظا عن كل ما هو قائل
ومن الدلائل أن تراه مشمرا * في خرقتين على شطوط الساحل
ومن الدلائل حزنه ونحيبه * خوف الظلام فما له من عاذل
ومن الدلائل أن تراه باكيا * أن قد رآه على قبيح فاعل
ومن الدلائل أن تراه راضيا * بمليكه في كل حكم نازل
ومن الدلائل زهده فيما ترى * من دار ذل والنعيم الزائل
ومن الدلائل أن تراه مسلما * كل الأمور إلى المليك العادل
ومن الدلائل ضحكه بين الورى * والقلب محزون كقلب الثاكل
ومن الدلائل أن تراه مسافرا * نحو الجهاد وكل فعل فاضل

فصل

معنى حب الله لعبده

إعلم أن شواهد الكتاب والسنة ناطقة بأن الله سبحانه يحب العبد، كقوله تعالى: (يحبهم ويحبونه) (٣٩) وقوله تعالى -: (إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله) (٤٠). وقوله - تعالى -: (إن الله يحب التوابين ويحب

---

(٣٩) (المائدة، الآية: ٥٧

(٤٠) الصف الآية: ٤

المتطهرين) (٤١) وقوله – تعالى –: (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم) (٤٢).
وقال رسول الله (ص): (إن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب ولا يعطي الإيمان إلا من يحب). وقال (ص): ((إذا أحب الله عبدا لم يضره ذنب). وقال (ص): (إذا أحب الله عبدا ابتلاه، فإن صبر اجتباه، وإن رضي اصطفاه). وقال (ص): (من أكثر ذكر الله أحبه الله). وقال (ص) حاكيا عن الله: (لا يزال العبد يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ولسانه الذي ينطق به). وقال (ص): (إذا أحب الله عبدا،
جعل له واعظا من نفسه، وزاجرا من قلبه، يأمره وينهاه)... وأمثال ذلك أكثر من أن تحصى.
ثم حقيقة الحب – وهو الميل إلى موافق ملائم – غير متصور في حق الله تعالى، بل هذا أنما يتصور في حق نفوس ناقصة، والله سبحانه صاحب كل جمال وكمال وبهاء وجلال، وكل ذلك حاضر له بالفعل أزلا وأبدا، إذ لا يتصور تجدده وزواله، فلا يكون له إلى غيره نظر من حيث أنه غير، بل ابتهاجه بذاته وصفاته وأفعاله، وليس في الوجود إلا ذاته وصفاته وأفعاله ولذلك قال بعض العرفاء – لما قرأ قوله – تعالى –: (يحبهم ويحبونه): (نحن نحبهم، فإنه ليس يحب إلا نفسه)، على معنى أنه الكل، وإنه في الوجود ليس غيره، فمن لا يحب إلا ذاته، وصفات ذاته، وأفعال ذاته، وتصانيف ذاته، فلا يجاوز حبه وذاته وتواضع ذاته من حيث هي متعلقة بذاته، فهو إذن لا يحب إلا ذاته. وليس المراد من محبة الله لعبده هو الابتهاج العام الذي له تعالى بأفعاله له، إذ المستفاد من الآيات والأخبار: أن له تعالى خصوصية محبة لبعض عباده ليست لسائر العباد والمخلوقات، فمعنى هذه المحبة يرجع إلى كشف الحجاب عن قلبه حتى يراه بقلبه، وإلى تمكينه إياه من القرب إليه، وإلى إرادته ذلك به في الأزل، وإلى تطهير باطنه عن

----

(٤١) البقرة الآية: ٢٢٢.
(٤٢) آل عمران، الآية: ٣١

حلول الغير به، وتخليته عن عوائق تحول بينه وبين مولاه، حتى لا يسمع إلا بالحق ومن الحق، ولا يبصر إلا به، ولا ينطق إلا به - كما في الحديث القدسي، فيكون تقربه بالنوافل سببا لصفاء باطنه، وارتفاع الحجاب عن قلبه، وحصوله في درجة القرب من ربه، وكل ذلك من فضل الله تعالى ولطفه به

ثم قرب العبد من الله لا يوجب تغيرا وتجددا في صفات الله تعالى إذ التغير عليه سبحانه محال، لأنه لا يزال في نعوت الكمال والجلال والجمال على ما كان عليه في أزل الآزال، بل يوجب مجرد تغيير العبد بترقيه في مدارج الكمال، والتخلق بمكارم الأخلاق التي هي الأخلاق الآلهية، فكلما صار أكمل صفة وأتم علما وإحاطة بحقائق الأمور، وأثبت قوة في قهر الشياطين وقمع الشهوات، وأظهر نزاهة عن الرذائل، وأقوى تصرفا في ملكوت الأشياء صار أقرب إلى الله، ودرجات القرب غير متناهية، لعدم تناهي درجات الكمال، فمثل تقرب العبد إلى الله ليس كتقرب أحد المتقاربين إلى الآخر، إذا تحركا معا، بل كتقرب أحدهما مع تحركه إلى الآخر الذي كان ساكنا، أو كتقرب التلميذ في درجات الكمال إلى أستاذه، فإن التلميذ متحرك مترق من حضيض الجهل إلى بقاء العلم، ويطلب القرب من أستاذه في درجات العلم والكمال، والأستاذ ثابت واقف، وإن كان التلميذ يمكن أن يصل إلى مرتبة المساواة لأستاذه لتناهي كمالاته، وأما العبد، كائنا من كان، لا يمكن أن يصل إلى كمال يمكن أن تكون له نسبة إلى كمالاته سبحانه، لعدم تناهي كمالاته شدة وقوة وعدة وعلامة كون العبد محبوبا عن الله: أن يكون هو محبا له تعالى، مؤثرا إياه على غيره من المحاب، وأن يرى من بواطن أموره وظواهره أنه تعالى يهيئ له أسباب السعادة فيها، ويرشده إلى ما فيه خيره ويصده عن المعاصي بأسباب يعلم حصولها منه سبحانه، وأنه تعالى يتولى أمره، ظاهرة وباطنه، وسره وجهره، فيكون هو المشير عليه، والمدبر لأمره، والمزين لأخلاقه، والمستعمل لجوارحه، والمسدد لظاهره وباطنه، والجاعل لهمومه هما واحدا، والمبغض للدنيا في قلبه، والموحش له من غيره، والمؤنس له بلذة المناجاة في خلواته،

والمكاشف له عن الحجب بينه وبين معرفته.
تذنيب
الحب في الله والبغض في الله
إعلم أن الأخبار متظاهرة في مدح الحب في الله والبغض في الله وعظم فضيلته وثوابه، ومعناه لا يخلو عن إبهام، فلا بد أن نشير إلى بعض هذه الأخبار، ثم نبين حقيقته ونكشف عن معناه:
أما الأخبار: كقول النبي (ص): (ود المؤمن في الله أعظم شعب الإيمان، ألا ومن أحب في الله، وأبغض في الله، ومنع في الله، فهو من أصفياء الله). وقال (ص) لأصحابه: (أي عرى الإيمان أوثق؟) فقالوا الله ورسوله أعلم فقال بعضهم: الصلاة، وقال بعضهم: الزكاة، وقال بعضهم: الصيام وقال بعضهم: الحج والعمرة، وقال بعضهم الجهاد فقال رسول الله (ص): (لكل ما قلتم فضل وليس به، ولكن أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله، وتوالي أولياء الله والتبري من أعداء الله). وقال (ص): (المتحابون في الله يوم القيامة على أرض زبرجدة خضراء في ظل عرشه عن يمينه - وكلتا يديه يمين - وجوههم أشد بياضا وأضوأ من الشمس الطالعة، يغبطهم بمنزلتهم كل ملك مقرب وكل نبي مرسل، يقول الناس: من هؤلاء؟ فيقال: هؤلاء المتحابون في الله). وقال سيد الساجدين (ع): (إذا جمع الله عز وجل الأولين والآخرين، قام مناد فنادى ليسمع الناس، فيقول: أين المتحابون في الله؟ قال: فيقوم عنق من الناس، فيقال لهم: إذهبوا إلى الجنة بغير حساب. قال: فتلقاهم الملائكة فيقولون: إلى أين؟ فيقولون: إلى الجنة بغير حساب، فيقولون: أي حزب أنتم من الناس فيقولون نحن المتحابون في الله. قال: فيقولون: وأي شئ كانت أعمالكم؟ قالوا: كنا نحب في الله ونبغض في الله. قال: فيقولون: نعم أجر العالمين). وقال الباقر (ع): (إذا أردت أن تعلم إن فيك خيرا، فانظر إلى قلبك، فإن كان يحب أهل طاعة الله وبغض أهل معصيته ففيك خير والله يحبك، وإذا كان يبغض أهل طاعة الله ويحب أهل معصيته فليس فيك خير والله يبغضك والمرء مع من أحبه) وقال (ع):

(لو أن رجلا أحب رجلا لله، لأثابه الله على حبه إياه، وأن كان المحبوب في علم الله من أهل النار، ولو أن رجلا أبغض رجلا لله، لأثابه الله على بغضه إياه، وإن كان المبغض في علم الله من أهل الجنة). وقال الصادق (ع): (من أحب لله، وأبغض لله، وأعطى لله، فهو ممن كمل إيمانه). وقال (ع): (إن المتحابين في الله يوم القيامة على منابر من نور، قد أضاء نور وجوههم ونور أجسادهم ونور منابرهم كل شئ، حتى يعرفوا به فيقال: هؤلاء المتحابون في الله). وقال (ع): (وهل الإيمان إلا الحب في الله والبغض في الله؟ ثم تلا هذه الآية:

(حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون) (٤٣)

وقال (ع): (ما التقى المؤمنان قط إلا كان أفضلهما أشدهما حبا لأخيه). وقال (ع): (من لم يحب على الدين ولم يبغض على الدين فلا دين له) والأخبار بهذه المضامين كثيرة (٤٤).

وإذا عرفت ذلك، فلنشر إلى معنى الحب في الله والبغض في الله فنقول: الحب الذي بين إنسانين، إما يحصل بمجرد الصحبة الاتفاقية، كالصحبة بحسب الجوار، أو بحسب الاجتماع في سوق، أو مدرسة، أو سفر، أو باب سلطان، أو أمثال ذلك، ومعلوم أن مثل هذا الحب ليس من الحب في الله بل هو الحب بحسب الاتفاق، أو لا يحصل بمجرد ذلك، بل له سبب وباعث آخر، وهذا على أربعة أقسام:

الأول - أن يحب إنسان إنسانا لذاته، لا ليتوصل به إلى محبوب ومقصود وراءه، بأن يكون هو في ذاته محبوبا عنده، بمعنى أنه يلتذ برؤيته ومعصيته ومشاهدة أخلاقه، لاستحسانه له، فإن كل جميل لذيذ في حق من أدرك جماله، وكل لذيذ محبوب واللذة تتبع الاستحسان، والاستحسان يتبع المناسبة والموافقة والملائمة بين الطباع. ثم ذلك المستحسن،

----

(٤٣) الحجرات، الآية: ٧

(٤٤) صححنا الأحاديث كلها على (أصول الكافي): ج ٢، باب الحب في الله والبغض في الله وعلى (الوافي): ٣ / ٣٤٤، باب الحب في الله والبغض في الله.

إما أن يكون جمال الصورة، وكمال العقل، وغزارة العلم، وحسن الأخلاق والأفعال، وكل ذلك يستحسن عند الطباع السليمة، وكل مستحسن مستلذ به ومحبوب، ومن هذا القسم أن يحبه لأجل مناسبة خفية معنوية بينهما، فإنه قد تستحكم المودة بين شخصين من غير حسن في خلق وخلق. ومن دون ملاحة في صورة. ولا غيرها من الأعضاء، بل المناسبة باطنة توجب الألفة والموافقة والمحبة، فإن شبه الشئ ينجذب إليه بالطبع، والأشياء الباطنة خفية، ولها أسباب دقيقة ليس في قوة البشر أن يطلع عليها، وإلى هذا القسم من الحب والموافقة أشار رسول الله (ص) بقوله: (الأرواح جنود مجندة، فما تعارف منهما ائتلف، وما تناكر منها اختلف). فالحب نتيجة التناسب الذي هو التعارف، والبغض نتيجة التناكر. ومعلوم أن هذا القسم من الحب لا يدخل في الحب لله، بل هو حب الطبع وشهوة النفس، لذا يتصور ممن لا يؤمن بالله، إلا أنه إن اتصل به غرض مذموم صار مذموما، وإلا فهو مباح لا يوصف بمدح وذم.

الثاني – أن يحبه لا لذاته، بل لينال منه محبوبا وراء ذاته، وكانت لهذا المحبوب فائدة دنيوية. ولا ريب في أن كلما هو وسيلة إلى المحبوب محبوب، وعدم كون هذا الحب من جملة الحب في الله ظاهر.

الثالث – أن يحبه لا لذاته، بل لغيره، وذلك الغير راجع إلى حظوظه في الآخرة دون الدنيا، وذلك كحب التلميذ الأستاذ، لأن يتوصل به إلى تحصيل العلم وتحسين العمل، ومقصوده من العلم والعمل سعادة الآخرة. وهذا الحب من جملة الحب في الله، وصاحبه من محبي الله، وكذلك حب الأستاذ للتلميذ، لأنه يتلقف منه العلم، وينال بواسطته مرتبة التعليم، ويترقى به إلى درجة التعظيم في ملكوت السماء. قال عيسى (ع): ((من علم وعمل وعلم، فذلك يدعى عظيما في ملكوت السماء). ولا يتم التعليم إلا بمتعلم، فهو إذن آلة في تحصيل هذا الكمال، فإن أحبه لأنه آلة إذ جعل صدره مزرعة لحرثه فهو محب لله.

بل التحقيق: أن كل من يحب أحدا لصنعته، أو فعله الذي يوجب تقربه إلى الله، فهو من جملة المحبين في الله، كحب من يتولى له إيصال

الصدقة إلى المستحقين، وحب طباخ يحسن صنعته في الطبخ لأجل طبخه لمن يضيفه تقربا إلى الله، وحب من ينفق عليه ويواسيه بكسوته وطعامه ومسكنه وجميع مقاصده التي يقصده في الدنيا، ومقصوده من ذلك الفراغ لتحصيل العلم والعبادة، وحب من يخدمه بنفسه من غسل ثيابه وكنس بيته وطبخ طعامه وأمثال ذلك من حيث أنه يفرغه لتحصيل العلم والعمل...

وقس على ما ذكر أمثاله، والمعيار أن كل من أحب غيره من حيث توسله لأجله إلى فائدة أخروية فهو محب لله وفي الله.

الرابع - أن يحبه لله وفي الله، لا لينال منه علما أو عملا، أو يتوسل به إلى أمر وراء ذاته، وذلك بأن يحبه من حيث أنه متعلق بالله ومنسوب إليه، أما بالنسبة العامة التي ينتسب بها كل مخلوق إلى الله، أو لأجل خصوصية النسبة أيضا، من تقربه إلى الله، وشدة حبه وخدمته له تعالى.

ولا ريب في أن من آثار غلبة الحب أن يتعدى من المحبوب إلى كل من يتعلق به ويناسبه، ولو من بعد، فمن أحب إنسانا حبا شديدا، أحب محب ذلك الإنسان وأحب محبوبه ومن يخدمه ومن يمدحه ويثني عليه أو يثني عليه محبوبه، وأحب من يتسارع إلى رضاء محبوبه، كما قيل:

أمر على الديار ديار ليلى * أقبل ذا الجدار وذا الجدارا

وما حب الديار شغفن قلبي * ولكن حب من سكن الديارا

وأما البغض في الله، فهو أن يبغض إنسان إنسانا لأجل عصيانه لله ومخالفته له تعالى، فإن من يحب في الله لا بد وأن يبغض في الله، فإنك إن أحببت إنسانا لأنه مطيع لله ومحبوب عنده، فإن عصاه لا بد أن تبغضه، لأنه عاص فيه وممقوت عند الله، قال عيسى (ع): (تحببوا إلى الله ببغض أهل المعاصي، وتقربوا إلى الله بالتباعد عنهم، والتمسوا رضاء الله بسخطهم. وروي: (أنه تعالى أوحى إلى بعض أنبيائه: أما زهدك في الدنيا فقد تعجلت الراحة، وأما انقطاعك إلي فقد تعززت بي، ولكن هل عاديت في عدوا، أو واليت وليا؟).

ثم للمعصية درجات مختلفة، فإنها قد تكون بالاعتقاد، كالكفر والشرك والبدعة، وقد تكون بالقول والفعل، وهذا إما أن يكون مما يتأذى به

غيره، كالقتل والغضب والضرب وشهادة الزور وسائر أنواع الظلم، أو لا يكون مما يتأذى به غيره، وهذا إما يوجب فساد الغير، كالجمع بين الرجال والنساء، وتهيئة أسباب الشر والفساد على ما هو دأب صاحب الماخور، أو لا يوجب فساد الغير، كالزنا وشرب الخمر، وهذا أيضا إما كبيرة أو صغيرة. وإظهار البغض أيضا له درجات مختلفة، كالتباعد والهجران، وقطع اللسان عن المكالمة والمحادثة والتغليظ في القول، والاستخفاف والإهانة، وعدم السعي في طاعته، والسعي في إساءته وإفساد مآربه، وبعض هذا أشد من بعض، كما أن درجات الفسق والمعصية أيضا كذلك. فينبغي أن يكون الأشد من درجات البغض بإزاء الأشد من درجات المعصية والفسق، والوسط بإزاء الوسط، والأضعف بإزاء الأضعف.

وينبغي ألا يترك أولا النصيحة، والأمر بالمعروف. والنهي عن المنكر وتغليظ القول في الوعظ والإرشاد، لا سيما إذا كان العاصي ممن بينه وبينه صحبة متأكدة. ثم العاصي إن كان ممن له صفات محمودة، كالإيمان والعلم والسخاء والعبادة والطاعة أو أمثال ذلك، ينبغي أن يكون مبغوضا لأجل معصيته ومحبوبا لأجل صفته المحمودة، وهذا كما أن من وافقك في غرض وخالفك في آخر تكون معه على حالة متوسطة بين التردد إليه والتوحش عنه فلا تبالغ في إكرامه مبالغتك في إكرام من يوافقك في جميع أغراضك ولا تبالغ في إهانته مبالغتك في إهانة من خالفك في جميع أغراضك.

تتميم

الوفاء في الحب

إعلم أن من تمام الحب للأخوان في الله (الوفاء)، وهو الثبات على الحب ولوازمه وإدامته إلى الموت وبعده مع أولاده وأصدقائه، وضده (الجفاء)، وهو قطع الحب أو بعض لوازمه في أيام الحياة أو بعد الموت بالنسبة إلى أولاده وأحبته، ولولا الوفاء في الحب لما كانت فيه فائدة، إذ الحب إنما يراد للآخرة، فإن انقطع قبل الموت لضاع السعي وحبط العمل، ولذلك قال رسول الله في السبعة الذين يظلمهم الله يوم القيامة: (وأخوان تحابا في الله اجتمعا على ذلك وتفرقا عليه). وروي: (أنه (ص) كان

يكرم بعض العجائز كلما دخلت عليه، فقيل له في ذلك، فقال: إنها كانت تأتينا أيام خديجة، وإن كرم العهد من الدين). فمن الوفاء مراعاة جميع الأصدقاء والأقارب والمتعلقين، ومراعاتهم أوقع في القلب من مراعاة الأخ المحبوب في نفسه، فإن فرحه بتفقد من يتعلق به أكثر من فرحه بتفقد نفسه، إذ لا تعرف قوة المحبة والشفقة إلا بتعديها من المحبوب إلى كل من يتعلق به، حتى أن من قوي حبه لأخيه تميز في قلبه كلبه الذي على باب داره من سائر الكلاب. ولا ريب في أن المحبة التي تنقطع – ولو بعد الممات – لا تكون محبة في الله، إذ المحبة في الله دائمة لا انقطاع لها. فما قيل من أن (قليل الوفاء بعد الوفاة خير من كثيره حال الحياة) إنما هو لدلالته على كون الحب في الله. وبالجملة: الوفاء بالمحبة تمامها. ومن آثار الوفاء أن يكون شديد الجزع من مفارقته، وألا يسمع بلاغات الناس عليه، وأن يحب صديقه وبغض عدوه، ليس من الوفاء موافقة الأخ فيما يخالف الحق في أمر يتعلق بالدين، بل من الوفاء المخالفة له وإرشاده إلى الحق.

هذا وأما البعد والأنس، فقد عرفت أن الأنس عبارة عن استبشار القلب بما يلاحظه من المحبوب بعد الوصول، والبعد خلافه، والأنس والخوف والشوق، كلها من آثار المحبة، وكل واحد منها يرد على المحب بحسب نظره، ومما يغلب عليه في وقته، فإذا غلب عليه التطلع من وراء حجب الغيب إلى منتهى الجمال، واستشعر قصوره من الاطلاع على كنه الجلال، انبعثت النفس وانزعجت له، وهاجت إليه، فسميت هذه الحالة في الانزعاج (شوقا)، وهو بالإضافة إلى أمر غايب، وإذا غلب عليه الفرح بالقرب ومشاهدة الحضور بما هو حاصل من الكشف، وكان نظره مقصورا على مطالعة الجمال الحاضر المكشوف، غير ملتفت إلى ما لم يدركه بعد، استبشر القلب بما يلاحظه فيه، فيسمى استبشاره (أنسا)، وإن كان نظره إلى صفات العز والجلال والاستغناء وعدم المبالاة، واستشعر إمكان الزوال والبعد، تألم قلبه بهذا الاستشعار، فيسمى تألمه (خوفا)، وهذه الأحوال تابعة لهذه الملاحظات، فإن غلب الأنس وتجرد عن ملاحظة

ما غاب عنه وما يتطرق إليه من خطر الزوال، عظم نعيمه ولذته، وغلب عليه الأنس بالله، ولم تكن شهوته إلا في الانفراد والخلوة، وذلك لأن الأنس بالله يلازمه التوحش من غير الله، بل كلما يعوق من الخلوة يكون أثقل الأشياء على القلب، كما روي: (أن موسى (ع) لما كلمه ربه، مكث دهرا لا يسمع كلامه أحد من الخلق إلا أخذه الغشيان)، لأن الحب يوجب عذوبة كلام المحبوب وعذوبة ذكره، فيخرج عن القلب عذوبة ما سواه فإن خالط الناس كان كمنفرد في جماعة، ومجتمع في خلوة، وغريب في حضر، وحاضر في سفر، وشاهد في غيبة، وغائب في حضور، ومخالط بالبدن، متفرد بالقلب المستغرق في عذوبة الذكر، قال أمير المؤمنين (ع) في وصفهم: (هم قوم هجم بهم العلم على حقيقة الأمر، فباشروا روح اليقين، واستلانوا ما استوعره المترفون، وأنسوا بما أستوحش منه الجاهلون، صحبوا الدنيا بأبدان أرواحها متعلقة بالمحل الأعلى، أولئك خلفاء الله في أرضه، والدعاة إلى دينه).

فصل

الأنس بالله من أنكر وجود الحب والشوق أنكر وجود الأنس أيضا، ظنا أنه يدل على التشبيه، وهو ناش عن الجهل بالابتهاجات العقلية واللذات الحقيقية وعن القصور في طريق المعرفة، والجمود على أحكام الحس، والغفلة عن عالم العقل والبصيرة، وقد ظهر ثبوت الأنس من بعض الأخبار السابقة، ويدل عليه ما ورد في أخبار داود: (إن الله عز وجل أوحى إليه: يا داود! أبلغ أهل أرضي: إني حبيب لمن أحبني، وجليس لمن جالسني، ومؤنس لمن أنس بذكري. وصاحب لمن صاحبني، ومختار لمن اختارني، ومطيع لمن أطاعني، ما أحبني عبد أعلم ذلك يقينا من قلبه إلا قبلته لنفسي، وأحببته حبا لا يتقدمه أحد من خلقي، من طلبني بالحق وجدني، ومن طلب غيري لم يجدني، فارفضوا يا أهل الأرض ما أنتم عليه من غرورها، وهلموا إلى كرامتي ومصاحبتي ومجالستي، وآنسوا بي أوانسكم، وأسارع إلى محبتكم).

ج: ٣

فصل

الأنس قد يثمر الإدلال

قال أبو حامد الغزالي: (الأنس إذا دام وغلب واستحكم، ولم يشوشه قلق الشوق، ولم ينغصه خوف البعد والحجاب، فإنه يثمر نوعا من الانبساط في الأقوال والأفعال والمناجاة مع الله سبحانه، وقد يكون منكرا بحسب الصورة، لما فيه من الجرأة وقلة الهيبة، ولكنه محتمل ممن أقيم في مقام الأنس، ومن لم يقم في ذلك المقام وتشبه بهم في الفعل والكلام، هلك وأشرف على الكفر. ومثاله مناجاة (برخ الأسود) الذي أمر الله تعالى كليمه موسى (ع) أن يسأله ليستسقي لبني إسرائيل، بعد أن قحطوا سبع سنين، وخرج موسى في سبعين ألفا، فأوحى الله عز وجل إليه: كيف استجيب لهم وقد أظلت عليهم ذنوبهم؟ سرائرهم خبيثة، يدعونني على غير يقين، ويأمنون مكري، إرجع إلى عبد من عبادي يقال له (برخ)، فقل له: يخرج حتى أستجيب له. فسأل عنه موسى، فلم يعرف، فبينما موسى ذات يوم يمشي في طريق، إذا بعبد أسود قد استقبله، بين عينيه تراب من أثر السجود، في شملة قد عقدها على عنقه، فعرفه موسى بنور الله عز وجل، فسلم عليه وقال له: ما اسمك؟ فقال: اسمي برخ، قال: فأنت طلبتنا منذ حين، أخرج فاستسقي لنا، فخرج، فقال في كلامه: ما هذا من فعالك، ولا هذا من حلمك، وما الذي بدا لك؟ أتعصت عليك غيومك؟ أم عاندت الرياح عن طاعتك؟ أم نفذ ما عندك؟ أم اشتد غضبك على المذنبين؟ ألست كنت غفارا قبل خلق الخاطئين؟ خلقت الرحمة وأمرت بالعفو، أم ترينا أنك ممتنع؟ أم تخشى الفوت فتعجل بالعقوبة؟!... قال: فما برح حتى اخضل بني إسرائيل بالمطر، وأنبت الله عز وجل العشب في نصف يوم حتى بلغ الركب، ثم رجع (برخ)، فاستقبله موسى فقال: كيف رأيت حين خاصمت ربي، كيف أنصفني؟! فهم به موسى، فأوحى الله إليه: إن برخا يضحكني كل يوم ثلاث

مرات))!! (٤٥). ولا ريب في أن أمثال هذه الكلمات الصادرة عن الانبساط والإدلال يحتمل من بعض العباد دون البعض، فمن انبساط الأنس قول موسى:
(أن هي إلا فتنتك) (٤٦)
وقوله في التعلل والاعتذار، لما قيل له:
(إذهب إلى فرعون إنه طغى) (٤٧): (ولهم علي ذنب فأخاف أن يقتلون) (٤٧). وقوله: (ويضيق صدري) (٤٩). وقوله: (إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى) (٥٠).
وهذا من غير موسى سوء الأدب، لأن الذي أقيم مقام الأنس يلاطف ويحتمل منه ما لا يحتمل من غيره، كيف ولم يحتمل من يونس النبي (ع) ما دون هذا الحال، أقيم مقام القبض والهيبة، فعوقب بالسجن في بطن الحوت في ظلمات ثلاث، فنودي عليه إلى يوم الحشر، لولا أن تداركته نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم، ونهي نبينا أن يقتدي به، فقيل له: واصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم)) (١).
وهذه الاختلافات بعضها لاختلاف المقامات والأحوال، وبعضها لما سبق في الأزل من التفاضل والتفاوت في القسمة بين العباد، قال الله سبحانه: تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات) (٢)
فالأنبياء والأولياء مختلفون في الصفات والأحوال، ألا ترى أن عيسى

---

(٤٥) هذا من عجائب المنقولات الخرافية، والغريب من (أبي حامد الغزالي) أن يركن إلى مثله، وقد أشار المصنف – قدس سره – إلى بطلان ما نقله بقوله: (ولا ريب)).
(٤٦) الأعراف، الآية: ١٥٤.
(٤٧) طه، الآية: ٢٤ النازعات، الآية ١٧.
(٤٨) الشعراء، الآية: ١٤
(٤٩) الشعراء الآية: (١٣)
(٥٠) طه، الآية: ٤٥
(١) القلم، الآية:) ٤٨
(٢) البقرة، الآية ٢٥٣

بن مريم (ع) كان في مقام الانبساط والإدلال، ولإدلاله له سلم على نفسه، فقال:
(والسلام علي يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا) (٣).
وهذا انبساط منه لما شاهد من اللطف في مقام الأنس. وأما يحيى عليه السلام فإنه أقيم مقام الهيبة والحياء، فلم ينطق حتى سلم عليه خالقه، فقال:
(والسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا) (٤)
وانظر كيف أحتمل لأخوة يوسف ما فعلوا به، وقد قال بعض العلماء:
(قد عددت من أول قوله تعالى):
(إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا) (٥).
إلى رأس العشرين آية من أخباره تعالى عنهم، فوجدت به نيفا وأربعين خطيئة، بعضها أكبر من بعض، وقد يجتمع في الكلمة الواحدة الثلاث والأربع، فغفر لهم وعفا عنهم، ولم يحتمل لعزيز في مسألة واحدة سأل عنها في القدر، حتى قيل: لئن عاد محي اسمه عن ديوان النبوة).
ومن فوائد هذه القصص في القرآن: أن تعرف بها سنة الله في عباده الذين خلوا من قبل، فما في القرآن شئ إلا وفيه أسرار وأنوار يعرفها الراسخون في العلم.
تذنيب
العزلة
إعلم أن من بلغ مقام الأنس، غلب على قلبه حب الخلوة والعزلة عن الناس، لأن المخالطة مع الناس تشغل القلب عن التوجه التام إلى الله.
فلا بد لنا من بيان أن الأفضل من العزلة والمخالطة أيهما، فإن العلماء في ذلك مختلفون، والأخبار أيضا في ذلك مختلفة، ولكل واحد منهما أيضا

---

(٣) مريم، الآية: ٣٣
(٤) مريم، الآية: ١٤
(٥) يوسف، الآية: ٨

فوائد ومفاسد، فنقول: الظاهر من جماعة: تفضيل العزلة على المخالطة مطلقا. والظاهر من الأخرى: عكس ذلك.
نظر الأولين إلى أطلاق ما ورد في مدح العزلة، وإلى فوائدها وما ورد في مدحها، كقول النبي (ص): (أن الله يحب العبد التقي الخفي)، وقوله (ص): (أفضل الناس مؤمن يجاهد بنفسه وماله في سبيل الله، ثم رجل معتزل في شعب من الشعاب)، وقوله (ص) لمن سأله عن طريق النجاة: (ليسعك بيتك، وأمسك عليك دينك، وابك على خطيئتك)، وقول الصادق (ع): (فسد الزمان، وتغير الأخوان، وصار الانفراد أسكن للفؤاد)، وقوله (ع): (أقلل معارفك، وأنكر من تعرف منهم)، وقوله (ع): (صاحب العزلة متحصن بحصن الله تعالى، ومحرس بحراسته، فيا طوبى لمن تفرد به سرا وعلانية! وهو يحتاج إلى عشر خصال: علم الحق والباطل، وتحبب الفقر، واختيار الشدة، والزهد، واغتنام الخلوة، والنظر في العواقب، ورؤية التقصير في العباد مع بذل المجهول، وترك العجب، وكثرة الذكر بلا غفلة، فإن الغفلة مصطاد الشيطان ورأس كل بلية وسبب كل حجاب، وخلوة البيت عما لا يحتاجه إليه في الوقت. قال عيسى بن مريم عليهما السلام: (أخزن لسانك لعمارة قلبك، وليسعك بيتك، واحذر من الرياء وفضول معاشك، واستح من ربك، وابك على خطيئتك وفر من الناس فرارك من الأسد والأفعى فإنهم كانوا دواء فصاروا اليوم داء ثم الق الله متى شئت) قال ربيع بن خثيم: (إن استطعت أن تكون اليوم في موضع لا تعرف ولا تعرف فافعل ففي العزلة صيانة الجوارح وفراغ القلب وسلامة العيش، وكثر سلاح الشيطان، والمجانبة من كل سوء وراحة القلب، وما من نبي ولا وصي إلا واختار العزلة في زمانه، إما في ابتدائه وإما في انتهائه) (٦)
وأما فوائد العزلة، فكالفراغ للعبادة، والذكر والفكر، والاستيناس بمناجاة الله والاشتغال باستكشاف أسرار الله في ملكوت السماوات والأرض

---

(٦) صححنا هذا القول، وكذا الحديث السابق على (مصباح الشريعة باب ٢٤، وعلى (البحار): باب العزلة عن شرار الخلق -: مج ١٥ / ٥١ ط أمين الضرب

والتخلص عن المعاصي التي يتعرض الإنسان لها غالبا بالمخالطة: كالغيبة والرياء وسائر آفات اللسان ومسارقة الطبع الأعمال الخفية، والأخلاق الردية من الناس والمداهنة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والاستخلاص من الفتن والخصومات وأخطارها أو من شر الناس وإيذائهم قولا وفعلا وقطع طمعه عن الناس وقطع طمعهم عنه، والخلاص من مشاهدة الظلمة، والفسقة والجهال والثقلاء والحمقى، ومقاسات أخلاقهم.

ونظر الآخرين - أعني القائلين بتفضيل المخالطة على العزلة - إلى إطلاق الظواهر الواردة في مدح المخالطة والمؤالفة والمؤانسة وإلى فوائدها، أما ما ورد في مدحها، كقول النبي (ص): (المؤمن ألف مألوف ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف). وقوله (ص): (من فارق الجماعة مات ميتة الجاهلية) وكالأخبار الواردة في ذم الهجرة عن الأخوان، وقوله (ص): (إياكم والشعاب وعليكم بالعامة والجماعة والمساجد).

وأما فوائد المخالطة: كالتعليم والتعلم وكسب الأخلاق الفاضلة من مجالسة المتصفين بها واستماع المواعظ والنصائح ونيل الثواب بحضور الجمعة والجماعة والجنازة وعيادة المرضى وزيارة الأخوان وقضاء حوائج المحتاجين ورفع الظلم عن المظلومين وإدخال السرور على المؤمنين والاستيناس بالأخوان وبأهل الورع والعبادة والتقوى وهو يروح القلب ويهيج داعية النشاط في العبادة وإيصال النفع إلى المسلمين بالمال والجاه واللسان واستفادة مزيد الأجر والثواب بتحصيل المعاش والكد على العيال وارتياض النفس بمقاساة الناس في تحمل أذاهم، وكسر النفس وشهواتها وإدراك صفة التواضع لتوقفه على معاشرة الناس ومخالطتهم وعدم حصوله في الوحدة، واستفادة التجارب والكياسة في مصالح الدنيا والدين فإنها لا تحصل إلا من مخالطة الخلق ومشاهدة مجاري أحوالهم. هذه هي فوائد كل من العزلة والمخالطة، وفوائد كل منهما مفاسد وغوائل للآخر. وأنت - بعد ما عرفت فوائد كل منهما وغوائله - تعلم أن الحكم بترجيح أحدهما على الآخر على الإطلاق خطأ. كيف يجوز أن يقال: أن العزلة أفضل لشخص جاهل لم يتعلم شيئا من أصوله وفروعه، ولم يقرع سمعه علم الأخلاق ولم يميز بين فضائل الصفات ورذائلها

فضلا عن أن تحصل له التخلية والتحلية ومع ذلك يمكن أن يحصل ذلك بالمخالطة مع العلماء وأولي الأخلاق الفاضلة؟ وكيف يجوز أن يقال: أن المخالطة أفضل لمن حصل ما في وسعه وقدرته من العلم والعمل، ووصل إلى مرتبة الابتهاج والالتذاذ بالطاعات والمناجاة، ولم يترتب على مخالطته مع الناس شئ من الفوائد الدينية والدنيوية، بل تترتب عليه المفاسد الكثيرة؟

فالصحيح أن يقال: إن الأفضلية فيهما تختلف بالنظر إلى الأشخاص والأحوال والأزمان والأمكنة. فينبغي أن ينظر إلى كل شخص وحاله، وإلى خليطه وإلى باعث مخالطته وإلى ما يحصل بمخالطته من فوائد المخالطة وما يفوت لأجلها من فوائد العزلة ويوازن بين ذلك، حتى يظهر الأفضل والأرجح.

ولاختلاف ذلك في حق الأشخاص بملاحظة الأحوال والفوائد والآفات، بما يظهر - بعد التأمل - أن الأفضل لبعض الخلق العزلة التامة ولبعضهم المخالطة ولبعضهم الاعتدال في العزلة والمخالطة وبما ذكر يظهر أن الأفضل لمن بلغ مقام الأنس والاستغراق: الخلوة والعزلة إذ لا ريب في أن المخالطة توجب السقوط عن مرتبة الشهود والأنس، ولا يتصور من فوائدها شئ يقاوم ذلك. ولذلك كان المحبون المستأنسون بالله يعتزلون عن الخلق . يؤثرون الخلوة. قال أويس القرني: (ما كنت أرى أحدا يعرف ربه فيأنس بغيره). وقال بعضهم: (إذا رأيت الصبح أدركني استرجعت كراهية لقاء الناس). وقال بعضهم: (سرور المؤمن ولذته في الخلوة بمناجاة ربه)

وقال بعض الصالحين: (رأيت في بعض البلاد عابدا خرج من بعض قلل الجبال، فلما رآني تنحى عني وتستر بشجرة، فقلت له: سبحان الله! أتبخل علي بالنظر إليك؟ فقال: يا هذا! إني قمت في هذا الجبل دهرا طويلا أعالج قلبي في الصبر عن الدنيا وأهلها فطال في ذلك تعبي وفنى فيه عمري، فسألت الله - تعالى - أن يعطيني ذلك فسكن قلبي عن الاضطراب وألف الوحدة والانفراد، فلما نظرت إليك خفت أن أوقع في الأول فإني أعوذ من شرك برب العالمين وحبيب القانتين ثم صاح وقال: واغماه من طول المكث في الدنيا! ثم حول وجهه عني وقال: سبحان من ذاق قلوب العارفين من لذة الخلوة وحلاوة الانقطاع إليه! ما ألهى قلوبهم عن ذكر الجنان وعن الحور

الحسان). وقال بعض الأكابر: إنما يستوحش الإنسان من نفسه لخلو ذاته عن الفضيلة فبملاقاة الناس ومخالطتهم يفرح ويطرد الوحشة من نفسه فإذا كانت ذاته فاضلة طلب الوحدة ليستعين بها على الفكرة، ويستخرج العلم والحكمة ومن هنا قيل: (الاستيناس بالناس من علامات الافلاس).

فمن تيسر له منزلة بدوام الذكر والأنس بالله، وبدوام الفكر والتحقيق في معرفة الله، فالتجرد والخلوة أفضل له من كل ما يتعلق بالمخالطة، فإن غاية العبادات وثمرة المجاهدة أن يموت الإنسان محبا لله عارفا بالله، ولا محبة إلا بالأنس الحاصل بدوام الذكر، ولا معرفة إلا بدوام الفكر، وفراغ القلب شرط لكل منهما، ولا فراغ مع المخالطة.

فإن قلت: لا منافاة بين المخالطة مع الناس والأنس بالله، ولذا كان الأنبياء مخالطين بالناس مع غاية استغراقهم في الشهود والأنس.

قلنا: لا يتسع للجمع بين مخالطة الخلق ظاهرا، والاقبال التام على الله سرا، إلا قوة النبوة. فلا ينبغي أن يغتر كل ضعيف بنفسه، فيطمع في ذلك. ثم، بما ذكرناه يظهر وجه الجمع بين الأخبار الواردة من الطرفين فإن ما ورد في فضيلة العزلة إنما هو بالنظر إلى بعض الناس، وما ورد في فضيلة المخالطة أنما هو بالنظر إلى بعض آخر.

ومنها:

السخط

السخط

فيما يخالف هواه من الواردات الإلهية والتقديرات الربانية،

ويرادفه الإنكار والاعتراض، وهو من شعب الكراهة لأفعال الله، وهو ينافي الإيمان والتوحيد. وما للعبد العاجز الذليل المهين الجاهل بمواقع القضاء والقدر، والغافل عن موارد الحكم والمصالح، والاعتراض والانكار والسخط لأفعال الخالق الحكيم العليم الخبير، وأنى للعبد ألا يرضى بما يرضى به ربه، ولعمري! أن من يعترض على فعل الله فهو أشد الجهلاء، ومن لم يرض بالقضاء فليس لحمقه دواء. وقد ورد في الخبر القدسي: (خلقت الخير والشر، فطوبى لمن خلقته للخير وأجريت الخير على يديه، وويل لمن خلقته للشر وأجريت الشر على يديه، وويل ثم ويل لمن قال لم

وكيف!). وفي خبر قدسي آخر: (أنا الله لا إله إلا أنا، من لم يصبر على بلائي، ولم يشكر على نعمائي، ولم يرض بقضائي، فليتخذ ربا، سواي). وفي مناجاة موسى: ((أي رب! أي خلقك أحب إليك؟ قال: من إذا أخذت منه المحبوب سالمني. قال: فأي خلقك أنت عليه ساخط؟ قال: من يستخيرني في الأمر، فإذا قضيت له سخط قضائي). وفي الخبر القدسي: (قدرت المقادير، ودبرت التدبير، وأحكمت الصنعة، فمن رضي فله الرضا مني حين يلقاني، ومن سخط فله السخط مني حين يلقاني).

وقال الباقر (ع): (من سخط القضاء مضى عليه القضاء، وأحبط الله أجره). وقال الصادق (ع): (كيف يكون المؤمن مؤمنا، وهو يسخط قسمته، ويحقر منزلته، والحاكم عليه الله، وأنا الضامن لمن لم يهجس في قلبه إلا الرضا أن يدعو الله فيستجاب له) وفي بعض الأخبار: (أن نبيا من الأنبياء شكى إلى الله – عز وجل – الجوع والفقر والعرى عشر سنين فما أجيب إليه، ثم أوحى الله – تعالى – إليه: كم تشكو؟ وهكذا كان بدؤك عندي في أم الكتاب قبل أن أخلق السماوات والأرض، وهكذا سبق لك مني، وهكذا قضيت عليك قبل أن أخلق الدنيا، أفتريد أن أعيد خلق الدنيا من أجلك؟ أم تريد أن أبدل ما قدرته عليك، فيكون ما تحب فوق ما أحب، ويكون ما تريد فوق ما أريد؟ وعزتي وجلالي! لئن تلجلج هذا في صدرك مرة أخرى، لأمحونك من ديوان النبوة) (٧). وروي أنه: (أوحى الله – تعالى – إلى داود (ع): تريد وأريد وإنما يكون ما أريد، فإن أسلمت لما أريد كفيتك ما تريد، وإن لم تسلم لما أريد أتعبتك فيما تريد ثم لا يكون إلا ما أريد) (٨).

وبالجملة: من عرف أن العالم بجميع أجزائه، من الجواهر والأعراض صادرة عنه على وجه الحكمة والخيرية، وإنها النظام الأصلح الذي لا يتصور

---

(٧) صححنا هذا الحديث، وكذا الأخبار القدسية، السابقة، على (إحياء العلوم): ٤ / ٢٩٥ – ٢٩٦

(٨) صححنا هذا الحديث، وكذا ما روي قبله عن أهل البيت – عليهم السلام – على (أصول الكافي): ج ٢ – باب الرضا بالقضاء وعلى (سفينة البحار): ١ / ٢٢٤

فوقه نظام، ولو تغير جزء منه على ما هو اختلت الأصلحية والخيرية، وعرف الله بالربوبية، وعرف نفسه بالعبودية، يعلم أن السخط والإعراض وعدم الرضا بالشئ مما يرد، ويكون غاية الجهل والخطر، ولذلك لم يكون أحد من الأنبياء أن يقول قط في أمر: ليت كان كذا، حتى قال بعض أصحاب النبي (ص): (خدمت رسول الله (ص) عشر سنين، فما قال لي لشئ فعلته: لما فعلت، ولا لشئ لم أفعله لم لم تفعله، ولا قال في شئ كان: ليته لم يكن، ولا في شئ لم يكن: ليته كان، وكان إذا خاصمني مخاصم من أهله، يقول: دعوه، لو قضى شئ لكان). وروي: (أن آدم (ع) كان بعض أولاده الصغار يصعدون على بدنه وينزلون، ويجعل أحدهم رجليه على أضلاعه كهيئة الدرج، فيصعد إلى رأسه، ثم ينزل على أضلاعه كذلك وهو مطرق إلى الأرض لا ينطق، ولا يرفع رأسه، فقال له بعض ولده: يا أبت! أما ترى ما يصنع هذا بك؟ لو نهيته عن هذا، فقال: يا بني! أني رأيت ما لم تروا، وعلمت ما لم تعلموا، أني تحركت حركة واحدة فأهبطت من دار الكرامة إلى دار الهوان، ومن دار الشقاء، فأخاف أن أتحرك حركة أخرى فيصيبني ما لا أعلم) (٩).

فصل

الرضا - فضيلة الرضا - رضا الله - رد إنكار تحقق الرضا - هل يناقض الدعاء ونحوه الرضا - طريق تحصيل الرضا - التسليم.

ضد السخط (الرضا)، وهو ترك الاعتراض والسخط باطنا وظاهرا قولا وفعلا، وهو من ثمرات المحبة ولوازمها، إذ المحب يستحسن كلما يصدر عن محبوبه، وصاحب الرضا يستوي عنده الفقر والغنا، والراحة والعناء، والبقاء والفناء، والعز والذل، والصحة والمرض، والموت والحياة ولا يرجح بعضها على بعض، ولا يثقل شئ منها على طبعه، إذ يرى صدور الكل من الله - سبحانه -، وقد رسخ حبه في قلبه، بحيث يحب أفعاله ويرجح على مراده مراده - تعالى -، فيرضى لكل ما يكون ويرد، وروي: (أن واحدا من أرباب الرضا عمر سبعين سنة، ولم يقل

---

(٩) صححنا الحديث على (إحياء العلوم): ٤ / ٢٩٥

في هذه المدة لشئ كان: ليته لم يكن، ولا لشئ لم يكن: ليته كان).
وقيل لبعضهم: (ما وجدت من آثار الرضا في نفسك؟ فقال: ما في رائحة من الرضا، ومع ذلك لو جعلني الله جسرا على جهنم، وعبر علي الأولون والآخرون من الخلائق ودخلوا الجنة، ثم يلقوني في النار، وملأ بي جهنم لأحببت ذلك من حكمه، ورضيت به من قسمه، ولم يختلج ببالي أنه لما كان كذا، وليت لم يكن كذا، ولم هذا حظي وذاك حظهم)). وصاحب الرضا في روح وراحة وسرور وبهجة، لأنه يشاهد كل شئ بعين الرضا وينظر في كل شئ إلى نور الرحمة الإلهية، وسر الحكمة الأزلية فكأن كل شئ حصل على وفق مراده وهواه. وفائدة الرضا، عاجلا، فراغ القلب للعبادة والراحة من الهموم، وآجلا، رضوان الله والنجاة من غضبه - تعالى -.

فصل

فضيلة الرضا

الرضا بالقضاء أفضل مقامات الدين وأشرف منازل المقربين، وهو باب الله الأعظم من دخله دخل الجنة. قال الله - سبحانه -:
(رضي الله عنهم ورضوا عنه) (١٠)
وعن النبي (ص): (أنه سئل طائفة من أصحابه: ما أنتم؟ فقالوا: مؤمنون، فقال: ما علامة إيمانكم؟ فقالوا: نصبر على البلاء ونشكر عند الرخاء ونرضى بمواقع القضاء فقال: مؤمنون ورب الكعبة!)، وفي خبر آخر، قال: (حكماء علماء كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء). وقال (ص): (إذا أحب الله عبدا ابتلاه، فإن صبر اجتباه، فإن رضي اصطفاه). وقال (ص): (أعطوا الله الرضا من قلوبكم، تظفروا بثواب فقركم). وقال (ص): (إذا كان يوم القيامة، أنبت الله - تعالى - لطائفة من أمتي أجنحة، فيطيرون من قبورهم إلى الجنان، يسرحون فيها، ويتنعمون فيها كيف شاؤوا، فتقول لهم الملائكة: هل رأيتم الحساب؟ فيقولون

---

(١٠) المائدة، الآية: ١٢٢ التوبة، الآية: ١٠١ المجادلة، الآية: ٢٢ البينة الآية: ٨.

ما رأينا حسابا، فنقول لهم: هل جزتم الصراط؟ فيقولون: ما رأينا صراطا، فتقول لهم: هل رأيتم جهنم؟ فيقولون: ما رأينا شيئا، فتقول الملائكة: من أمة من أنتم؟ فيقولون: من أمة محمد (ص)، فتقول: ناشدناكم الله! حدثونا ما كانت أعمالكم في الدنيا فيقولون: خصلتان كانتا فينا، فبلغنا الله هذه المنزلة بفضل رحمته، فيقولون: وما هما؟ فيقولون: كنا إذا خلونا نستحي أن نعصيه، ونرضى باليسير مما قسم لنا، فتقول الملائكة: يحق لكم هذا). وقال الصادق (ع): (أن الله بعدله وحكمته وعلمه، جعل الروح والفرح في اليقين والرضا عن الله – تعالى – وجعل الهم والحزن في الشك والسخط). وروي: (أن موسى (ع) قال: يا رب! دلني على أمر فيه رضاك. فقال – تعالى –: إن رضاي في رضاك بقضائي). وروي: (أن بني إسرائيل قالوا له (ع): سل لنا ربك أمرا إذا نحن فعلناه يرضى عنا، فقال موسى (ع): إلهي! قد سمعت ما قالوا، فقال: يا موسى! قل لهم يرضون عني حتى أرضى عنهم) (١١). وقال سيد الساجدين (ع): (الصبر والرضا رأس طاعة الله، ومن صبر ورضي عن الله فيما قضى عليه فيما أحب أو كره، لم يقض الله – عز وجل – له فيما أحب أو كره إلا ما هو خير له). وقال – صلوات الله عليه –: (الزهد عشرة أجزاء، أعلى درجة الزهد أدنى درجة الورع، وأعلى درجة الورع أدنى درجة اليقين، وأعلى درجة اليقين أدنى درجة الرضا). وقال الباقر (ع): (أحق خلق الله أن يسلم لما قضى الله – عز وجل –، من عرف الله – عز وجل – ومن رضي بالقضاء، أتى عليه القضاء وعظم الله أجره). وقال الصادق (ع): (أعلم الناس بالله أرضاهم بقضاء الله). وقال (ع): (قال الله – عز وجل –: عبدي المؤمن، لا أصرفه في شئ إلا جعلته خيرا له، فليرض بقضائي، وليصبر على بلائي وليشكر نعمائي اكتبه يا محمد من الصديقين عندي). وقال (ع): (عجبت للمرء المسلم لا يقضي الله – عز وجل – له قضاء إلا كان خيرا له، أن قرض بالمقاريض كان خيرا له، وأن ملك مشارق الأرض ومغاربها كان خيرا له). وقال (ع):

---

(١١) صححنا الأحاديث على (إحياء العلوم): ٤ / ٢٩٥ – ٢٩٦.

(إن فيما أوحى الله – عز وجل – إلى موسى بن عمران (ع): يا موسى ابن عمران! ما خلقت خلقا أحب إلي من عبدي المؤمن، وأني إنما أبتليه لما هو خير له، وأعافيه لم هو خير له، وأزوي عنه لما هو خير له، وأنا أعلم بما يصلح عليه عبد، فليصبر على بلائي، وليشكر نعمائي، وليرض بقضائي، اكتبه في الصديقين عندي، إذا عمل برضاي وأطاع أمري).
وقيل له (ع): بأي شئ يعلم المؤمن أنه مؤمن؟ قال: (بالتسليم لله، والرضا فيما ورد عليه من سرور أو سخط). وقال الكاظم (ع) (ينبغي لمن غفل عن الله، ألا يستبطئه في رزقه، ولا يتهمه في قضائه) (١٢).

وصل

رضاء الله

قد ظهر من بعض الأخبار المذكورة: أن رضا الله – سبحانه – من العبد يتوقف على رضا العبد عنه – تعالى –، فمن فوائد رضا العبد بقضاء الله وثمراته رضا الله – سبحانه – عنه، وهو أعظم السعادات في الدارين، وليس في الجنة نعيم فوقه، كما قال – سبحانه –:
(ومساكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر) (١٣)
وفي الحديث: (أن الله يتجلى للمؤمنين في الجنة، فيقول لهم: سلوني فيقولون: رضاك يا ربنا!)، فسؤالهم الرضا بعد التجلي، يدل على أنه أفضل كل شئ. وورد في تفسير قوله – تعالى –: (ولدينا مزيد): أنه يؤتى لأهل الجنة في وقت المزيد ثلاث تحف من عند رب العالمين ليس في الجنان مثلها:
إحداها هداية الله، ليس عندهم في الجنان مثلها، وذلك قوله تعالى:
(فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين) (١٤)
والثانية: السلام عليهم من ربهم فتزيد ذلك على الهداية، وهو

---

(١٢) صححنا الأحاديث على (أصول الكافي) ج ٢ – باب الرضا بالقضاء وعلى (سفينة البحار): ١ / ٥٢٤.
(١٣) التوبة، الآية: ٧٣
(١٤) السجدة الآية: ١٧

قوله - تعالى -:
(سلام قولا من رب رحيم) (١٥)
والثالثة: يقول الله - تعالى -: (إني عنكم راض)، وهو أفضل من الهدية والتسليم، وذلك قوله - تعالى -:
(ورضوان من الله أكبر) (١٦):
أي من النعيم الذي هم فيه.
ومعنى رضا الله عن العبد قريب من معنى حبه له، إلا أنه في الآخرة سبب لدوام النظر والتجلي في غاية ما يتصور من اللقاء والمشاهدة. ولهذا ليست رتبة في الجنة فوقه. ويروه أهل الجنة أقصى الأماني، وغاية الغايات
فصل
رد إنكار تحقق الرضا
من الناس من أنكر إمكان تحقق الرضا في أنواع البلاء وفيما يخالف الهوى، وقال المتمكن فيهما: هو الصبر دون الرضا، وهو إنما أتى من ناحية إنكار المحبة، إذ بعد ثبوت إمكان الحب لله واستغراق الهم به لا يخفى إيجابه للرضا بأفعال المحبوب. وذلك يكون من وجهين:
أحدهما - أن يوجب الاستغراق في الحب إبطال الاحساس بالألم، حتى يجري عليه المؤلم ولا يحس به، وتصيبه جراحة ولا يدرك المها. ولا تستبعدن ذلك، فإن المحارب عند خوضه في الحرب، وعند شدة غضبه أو خوفه، قد تصيبه جراحة وهو لا يحس بها فإذا رأى الدم استدل به على الجراحة، بل الذي يعدو في شغل مهم قد تصيبه شوكة في قدمه، ولا يحس بألمها لشغل قلبه. والسر: أنا القلب إذا صار مستغرقا بأمر من الأمور، لم يدرك ما عداه. فالعشق المستغرق الهم بمشاهدة المعشوق أو بحبه قد يصيبه ما كان يتألم به أو يغتم، لولا عشقه، ولا يدرك ألمه وغمه لاستيلاء الحب على قلبه، وهذا إذا أصابه من غير حبيبه، فكيف إذا أصابه من حبيبه.

----

(١٥) يس، الآية: ٥٨
(١٦) التوبة، الآية ٧٣

ولا ريب في أن حب الله – تعالى – أشد من كل حب، وشغل القلب به أعظم الشواغل، إذ جمال الحضرة الربوبية وجلالها لا يقاس به جمال، فمن ينكشف له شئ منها، فقد يبهره بحيث يدهش ويخشى عليه، ولا يحس بما يجري عليه.

وثانيهما – – ألا يبلغ الاستغراق في الحب بحيث لا يحس بالألم ولا يدركه، ولكن يكون راضيا به، بل راغبا فيه، مريدا له بعقله، وإن كان كارها له بطبعه، كالذي يلتمس من الفصاد الفصد والحجامة، فإنه يدرك ألمه، إلا أنه راض به وراغب فيه. فالمحب الخالص لله إذا أصابته بلية من الله، وكان على يقين بأن ثوابها الذي ادخر له فوق ما فاته، رضي بها ورغب فيها، وأحبها وشكر الله عليها. هذا إن كان نظره إلى الثواب والأجر الذي يجازى به على ابتلائه بالمصائب والبلايا، وربما غلب الحب بحيث يكون حظ المحب ولذته وابتهاجه في مراد حبيبه ورضاه لا لمعنى آخر فيكون مراد حبيبه ورضاه محبوبا عنده مطلوبا، وكل ذلك مشاهد محسوس في حب الخلق، فضلا عن حب الخالق والجمال الأزلي الأبدي الذي لا منتهى لكماله المدرك بعين البصيرة التي لا يعتريها الغلط والخطأ، فإن القلوب إذا وقفت بين جماله وجلاله، فإذا لاحظوا جلاله هابوا، وإذا لاحظوا جماله تاهوا ويشهد بذلك حكايات المحبين، على ما هو في الكتب مسطورة، وفي الألسنة والأفواه مذكور. فإن للحب عجائب من لم يذق طعمها لا يعرفها.

وقد روينا: أن أهل مصر مكثوا أربعة أشهر لم يكن لهم غذاء إلا النظر إلى وجه يوسف الصديق (ع)، كانوا إذا جاعوا نظروا إلى وجهه، فشغلهم جماله عن الاحساس بألم الجوع. بل في القرآن ما هو أبلغ من ذلك، وهو قطع النسوة أيديهن لاستهتارهن بملاحظة جماله، حتى ما أحسسن بذلك. وروي (أن عيسى (ع) مر برجل أعمى وأبرص، مقعد مفلوج، وقد تناثر لحمه من الجذام، وهو يقول: الحمد لله الذي عافاني مما ابتلى به كثيرا من الناس فقال عيسى: يا هذا! أي شئ من البلاء تراه مصروفا عنك؟ فقال: يا روح الله! أنا خير ممن لم يجعل الله في قلبه ما جعل في قلبي من معرفة، فقال: صدقت! هات يدك، فناوله يده، فإذا هو أحسن الناس وجها، وأفضلهم

هيئة، قد أذهب الله عنه ما كان به، وصحب عيسى وتعبد به).

فصل

هل يناقض الدعاء ونحوه الرضا

إعلم أن الدعاء غير مناقض للرضا، وكذلك كراهية المعاصي، ومقت أهلها، وحسم أسبابها، والسعي في إزالتها بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والخروج من بلد ظهرت فيه المعاصي. وقد زعمت طائفة من أهل البطالة والغرور: إن جميع ذلك يخالف الرضا. إذ كل ما يقصد رده بالدعاء وأنواع المعاصي والفجور والكفر من قضاء الله وقدره، فيجب للمؤمن أن يرضى به. وقد رأوا السكوت على المنكرات مقاما من مقامات الرضا، وسموه حسن الخلق، وهذا جهل بالتأويل، وغفلة من أسرار الشريعة ودقائقها.

أما الدعاء، فلا ريب في أنا قد تعبدنا به، وقد كثرت أدعية الأنبياء والأئمة، وكانوا على أعلى مقامات الرضا، وتظاهرت الآيات وتواترت الأخبار في الأمر بالدعاء وفوائده وعظم مدحه، وأثنى الله – سبحانه – على عباده الداعين، حيث قال:

(ويدعوننا رغبا ورهبا) (١٧). وقال (أدعوني أستجب لكم) (١٧).

وقال: (أجيب دعوة الداع إذا دعان) (١٩).

وهو يوجب صفاء الباطن، وخشوع القلب، ورقة النظر، وتنور النفس وتجليها. وقد جعله الله – تعالى – مفتاحا للكشف، وسببا لتواتر مزايا اللطف والاحسان. وهو أقوى الأسباب لإفاضة الخيرات والبركات من المبادي العالية.

فإن قيل: ما يرد على العبد من المكاره والبلايا يكون بقضاء الله وقدره، والآيات والأخبار ناطقة بالرضا بقضاء الله مطلقا، فالتشمر لرده في الدعاء يناقض الرضا.

قلنا أن الله – سبحانه – بعظيم حكمته، أوجد الأشياء على التسبيب

---

(١٧) الأنبياء، الآية: ٩٠

(١٨) المؤمن، الآية ٦٠

(١٩) البقرة الآية: ١٨٦

والترتيب بينهما فربط المسببات بالأسباب، ورتب بعضها على بعض، وجعل بعضها سببا وواسطة لبعض آخر، وهو مسبب الأسباب. والقدر عبارة عن حصول الموجودات في الخارج من أسبابها المعينة بحسب أوقاتها، مطابقة لما في القضاء، والقضاء عبارة عن ثبوت صور جميع الأشياء في العالم العقلي على الوجه الكلي، مطابقة لما في العناية الإلهية المسماة بالعناية الأولى والعناية عبارة عن إحاطة علم الله – تعالى – بالكل على ما هو عليه إحاطة تامة فنسبة القضاء إلى العناية كنسبة القدر إلى القضاء. ثم، من جملة الأسباب لبعض الأمور الدعاء والتصدق وأمثالهما. فكما أن شرب الماء سبب رتبه مسبب الأسباب لإزالة العطش، ولو لم يشربه لكان عطشه باقيا إلى أن يؤدي إلى هلاكه، وشرب المسهل سبب لدفع الأخلاط الردية، ولو لم يشربه لبقيت على حالها، وهكذا في سائر الأسباب، وكذلك الدعاء سبب رتبه الله – تعالى – لدفع البلايا ورفعها، ولو لم يدع لنزل البلاء ولم يندفع.

فلو قيل: لو كان في علم الله – تعالى – وفي قضائه السابق، أن زيدا – مثلا – يدعو الله، أو يتصدق، عند ابتلائه ببلية كذا، وتندفع به بليته لدعاء أو تصدق، ودفع بليته، ولو كان فيهما أنه لا يدعو الله ولا يتصدق ويبتلي بتلك البلية، لم يدع الله ولم يتصدق، ولم تندفع عنه البلية. والحاصل: إن كل ما تعلقت به العناية الكلية والقضاء الأزلي يحصل مقتضاه في الخارج وعالم التقدير، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر فأي فائدة في سعي العبد واجتهاده

قلنا: هذه من جملة شبهات الجبرية على كون العبد مجبورا في فعله ونفي الاختيار عنه، ولا مدخلية لها بكون الدعاء غير مناقض للرضا، وكونه من جملة الأسباب المرتبة منه – تعالى – لحصول مسبباتها، كالتزويج لتحصيل الولد، والأكل والشرب لدفع الجوع والعطش، ولبس الثياب لدفع الحر والبرد، وغير ذلك. ثم الجواب من الشبهة المذكورة وأمثالها مذكور في موضوعها.

وأما إنكار المعاصي وكراهتها، والفرار من أهلها ومن البلد الذي شاعت فيه، فقد تعبد الله به عباده وذمهم على الرضا بها، فقال:

(ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها) (٢٠). وقال: (رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطبع الله على قلوبهم) (٢١)

وفي بعض الأخبار: (من شهد منكرا ورضي به فكأنه قد فعله).

وفي آخر: (لو أن عبدا قتل بالمشرق ورضي بقتله آخر بالمغرب، كان شريكا في قتله). وفي آخر: (أن العبد ليغيب عن المنكر ويكون عليه مثل وزر صاحبه)، قيل وكيف ذلك؟ قال (فيبلغه فيرضى به).

وأما بعض الكفار والفجار والفساق، ومقتهم والانكار عليهم، فما ورد فيه من شواهد الكتاب والسنة أكثر من أن يحصى. قال الله سبحانه: (لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء) (٢٢). وقال: ((يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء) (٢٣).

وفي الخبر: (إن الله أخذ الميثاق على كل مؤمن أن يبغض كل منافق).

وقال (ص): (أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله). وقد تقدمت جملة من شواهد هذا في باب الحب في الله والبغض في الله.

فإن قيل: المعاصي إن لم تكن بقضاء الله وقدره فهو محال وقادح في التوحيد، وإن كانت بقضاء الله مطلقا فكراهتها ومقتها كراهة لقضاء الله. والآيات والأخبار مصرحة بوجوب الرضا بقضاء الله مطلقا، وذلك تناقض، فكيف السبيل إلى الجمع؟ وأنى يأتي الجمع بين الرضا والكراهة في شئ واحد؟

قلنا: المقرر عند بعض الحكماء: أن الشرور الواقعة في العالم، من المعاصي وغيرها، راجعة إلى الإعدام دون الموجودات، فلا تكون مراده له - تعالى -، ولا داخلة في قضائه، وعند بعضهم أنها داخله في قضائه بالعرض لا بالذات، ولا ضيرة في كراهة ما ليس في قضاء الله - تعالى - بالذات. وعند بعضهم: أنها شرور قليلة باعثة لخيرات كثيرة. وعلى هذا

----

(٢٠) يونس الآية: ٧.

(٢١) التوبة، الآية ٨٨، ٩٤

(٢٢) آل عمران، الآية: ٢٨

(٢٣ المائدة، الآية: ٥٤

فينبغي أن تكون مكروهة من حيث ذاتها، وبهذه الحيثية لا تكون من قضاء الله والرضا به، وفرضه من خبث كونها باعثة لخيرات كثيرة. والتحقيق: أن الأوصاف الثلاثة ثابتة للشرور الواقعة في العالم، أعني أنها راجعة إلى الإعدام وداخلة في قضائه - تعالى - بالعرض، وشرور قليلة باعثة لخيرات كثيرة. وعلى هذا فوجه الجمع أظهر. ثم لأبي حامد الغزالي هنا وجه جمع آخر، لا يروي الغليل ولا يشفي العليل.

فإن قيل: بعض أهل المعاصي ومقتهم موقوف على ثبوت الاختيار لهم وتمكنهم من تركها، وإثبات ذلك مشكل.

قلنا: لا إشكال فيه، إذ البديهة قاضية بثبوت نوع اختيار للعباد في أفعالهم، لا سيما فيما يتعلق به التكليف والخوض في هذه المسألة مما لا ينبغي. فالأولى فيها السكوت، والتأدب بآداب الشرع، والرجوع إلى ما ورد من العترة الطاهرة. وما يمكن أن يقال فيها قد ذكرناه في كتابنا المسمى ب (جامع الأفكار).

فصل

طريق تحصيل الرضا

الطريق إلى تحصيل الرضا، أن يعلم أن ما قضى الله - سبحانه - له هو الأصلح بحاله، وإن لم يبلغ فهمه إلى سيره فيه. مع أن السخط والكراهة لا يفيد شيئا ولا يتبدل به القضاء. فإن ما قدر يكون، وما لم يقدر لم يكن، وحسرة الماضي وتدبير الآتي يذهبان بتركه الوقت بلا فائدة، وتبقى تبعة السخط عليه. فينبغي أن يدهشه الحب لخالقه عن الاحساس بالألم، كما للعاشق، وأن يهون عليه العلم بعظم التعب والعناء - كما للمريض والتاجر المتحملين شدة الحجامة والسفر - فيفوض أمره إلى الله، إن الله بصير بالعباد.

تتميم

التسليم

إعلم أن التسليم، ويسمى تفويضا أيضا، قريب من الرضا، بل هو فوق الرضا، لأنه عبارة عن ترك الإعراض في الأمور الواردة عليه، وحوالتها

بأسرها إلى الله، مع قطع تعلقه عليها بالكلية، بمعنى ألا يكون طبعه متعلقا بشئ منها. فهو فوق الرضا، إذ في مرتبة الرضا كلما يفعل الله به يوافق طبعه، فالطبع ملحوظ ومنظور له، وفي مرتبة التسليم يجعل الطبع وموافقته ومخالفته كلها موكلة إلى الله – سبحانه –، وفوق مرتبة التوكل أيضا، إذ التوكل – كما يأتي – عبارة عن الاعتماد في أموره على الله، فهو بمنزلة توكيل الله في أموره، وكأنه يجعل الله – تعالى – بمثابة وكيله، فيكون تعلقه بأموره باقيا، وفي مرتبة التسليم بقطع العلاقة من الأمور المتعلقة به بالكلية ومنها:

الحزن

وهو التحسر والتألم، لفقد محبوب، أو فوت مطلوب. وهو أيضا، كالاعتراض والانكار، ومترتب على الكراهة للمقدرات الإلهية.

والفرق: إن الكراهة في الاعتراض أشد من الكراهة في الحزن، كما أن ضد الكراهة – أعني الحب في ضدهما – بعكس ذلك، أي ظهوره في السرور الذي ضد الحزن أشد من ظهوره في الرضا الذي هو ضد الاعتراض. فإن الرضا هو منع النفس في الواردات من الجزع مع عدم كراهة وفرح، والسرور هو منعها فيها عن الجزع مع الابتهاج والانبساط. فالسرور فوق الرضا في الشرافة، كما أن الحزن تحت الاعتراض في الخسة والرذالة، وسبب الحزن وشدة الرغبة في المشتهيات الطبيعية، والميل إلى مقتضيات قوتي الغضب والشهوة، وتوقع البقاء للأمور الجسمانية. وعلاجه: أن يعلم أن ما في عالم الكون والفساد من: الحيوان، والنبات، والجماد، والعروض، والأموال، في معرض الفناء والزوال، وليس فيها ما يقبل البقاء وما يبقى ويدوم هو الأمور العقلية، والكمالات النفسية المتعالية عن حيطة الزمان وحوزة المكان وتصرف الأضداد وتطرق الفساد. وإذا تيقن بذلك زالت عن نفسه الخيالات الفاسدة، والأماني الباطلة. فلا يتعلق قلبه بالأسباب الدنيوية، ويتوجه بشراشره إلى تحصيل الكمالات العقلية، والسعادات الحقيقية الموجبة للاتصال بالجواهر النورية الباقية، والمجاورة للأنوار القادسة الثابتة، فيصل إلى مقام البهجة والسرور، ولا تلحقه أحزان

عالم الزور، كما أشير إليه في الكتاب الإلهي بقوله:
(ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) (٢٤)
وفي أخبار داود (ع): (يا داود! ما لأوليائي والهم بالدنيا؟ إن الهم يذهب حلاوة مناجاتي من قلوبهم، إن محبي من أوليائي أن يكونوا روحانيين لا يغتمون). والحاصل: أن حب الفانيات والتعلق بما من شأنه الفوات خلاف مقتضى العقل، وحرام على العاقل أن يفرح بوجود الأمور الفانية، أو يحزن بزوالها. ولقد قال سيد الأوصياء - عليه آلاف التحية والثناء -: (ما لعلي وزينة الدنيا؟ وكيف أفرح بلذة تفنى، ونعيم لا يبقى؟!).
بل ينبغي أن يرضي نفسه بالموجود، ولا يغتم بالمفقود، ويكون راضيا بما يرد عليه من خير وشر. وقد ورد في الآثار: (إن الله - تعالى - بحكمته وجلاله جعل الروح والفرح في الرضا واليقين)، ومن رضي بالموجود ولا يحزن بالمفقود، فقد فاز بأمن بلا فزع، وسرور بلا جزع، وفرح بلا حسرة، ويقين بلا حيرة، وما لطالب السعادة أن يكون أدون حالا من سائر طبقات الناس، فإن كل حزب بما لديهم فرحون، كالتاجر بالتجارة، والزارع بالزراعة، بل الشاطر بالشطارة، والقواد بالقيادة، مع أن ما هو السبب والموجب المفرح في الواقع ونفس الأمر ليس إلا لأهل السعادة والكمال وما لغيرهم محض التوهم ومجرد الخيال. فينبغي لطالب السعادة أن يكون فرحانا بما عنده من الكمالات الحقيقية والسعادات الأبدية، ولا يحزن على فقد الزخارف الدنيوية، والحطام الطبيعية، ويتذكر ما خاطب الله به نبيه (ص):
(ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى) (٢٥)
ومن تصفح فرق الناس، يجد أن كل فرقة منهم فرحهم بشئ من الأشياء، وبه اهتزازهم وقوامهم ونظام أمرهم. فالصبيان فرحهم باللعب وتهيئة أسبابه، وهو في غاية القبح والركاكة عند من جاوز مرتبتهم. والبالغون

----
(٢٤) يونس، الآية: ٦٢.
(٢٥) طه، الآية: ١٣١

حد الرجولة، بعضهم فرحان بالدرهم والدينار، وبعضهم بالضياع والعقار وأخر بالاتباع والانصهار، وفرقة بالنسوان والأولاد، وطائفة بالحرف والصنايع، وبعضهم بالحسب والنسب، والآخر بالجاه والمنصب، وبعضهم بالقوة الجسمانية، وأخر بالجمال الصوري، وطائفة بالكمالات الدنيوية: كالخط والشعر، وحسن الصوت، والطب، والعلوم الغريبة، وغير ذلك، حتى ينتهي إلى من لا يفرح إلا بالكمالات النفسية والرياسات المعنوية وهم أيضا مختلفون، فبعضهم غاية فرحه بالعبادة والمناجاة، وآخر بمعرفة حقائق الأشياء، حتى يصل إلى من ليس فرحه إلا بالأنس بحضرة الربوبية، والاستغراق في لجة أنواره، وسائر المراتب عنده فيئ زائل وخيال باطل. ولا ريب في أن العاقل يعلم أن ما ينبغي أن يفرح ويبتهج به حصول هذه المرتبة وسائر الأمور، كسراب بقيعة يحسبه الضمآن ماء. فلا ينبغي للعاقل أن يحزن بفقدها ويفرح بوجودها. ثم من تأمل، يجد أن الحزن ليس أمرا وجوديا لازما، بل هو أمر اختياري يحدثه الشخص في نفسه بسوء اختياره. إذ كلما يفقد من شخص ويحزن لأجله ليس موجودا لكثير من الناس، بل ربما لم يملكوه في مدة عمرهم أصلا، ومع ذلك لا تجدهم محزونين على هدمه، بل فرحون راضون، ولو كان الحزن لازما لفقد هذا الأمر، لكان كل من فقده محزونا، وليس كذلك. وأيضا كل حزن يعرض لأجل مصيبته يزول بعد زمان ويتبدل بالسرور، ولو كان الحزن لأجلها أمر ضروريا لازما لما زال أصلا.

ثم العجب من العاقل أن يحزن من فقد الأمور الدنيوية، مع أنه يعلم أن الدنيا دار فناء، وزخارفها متنقلة بين الناس، ولا يمكن بقاؤها لأحد، وجميع الأسباب الدنيوية ودائع الله ينتقل إلى الناس على سبيل التبادل والتناوب. ومثلها مثل شمامة تدار في مجلس بين أهله على التناوب، يتمتع بها في كل لحظة واحد منهم، ثم يعطيها غيره. فطامع البقاء للحطام الدنيوية كمن طمع في ملكية الشمامة واختصاصها به إذا وصلت إليه نوبة الاستمتاع، وذا استردت منه عرض له الحزن والخجلة. وما المال والأهلون إلا ودائع، ولا بد يوما أن ترد الودائع. فلا ينبغي للعاقل أن

يغتم ويحزن لأجل رد الوديعة، كيف والحزن بردها كفران للنعمة؟ إذ أقل مراتب الشكر أن ترد الوديعة إلى صاحبها على طيب النفس، لا سيما إذا استرد الأخس - أعني الخبائث الدنيوية - وبقي الأشرف - أعني النفس وكمالاتها العلمية والعملية -، فينبغي لكل عاقل ألا يعلق قلبه بالأمور الفانية، حتى لا يحزن بفقدها. قال سقراط: (إني لم أحزن قط، إذ ما أحببت قط شيئا حتى أحزن بفوته، ومن سره ألا يرى ما يسوؤه، فلا يتخذ شيئا يخاف له فقدا).

ومنها:

عدم الاعتماد

أو ضعفه في أموره على الله، والوثوق بالوسائط، والنظر إليها فيها.

وسببه: إما ضعف اليقين أو ضعف القلب، أو كلاهما. فهو من رذائل الإيمان، بل هو من شعب الشرك. ولذا ورد في ذمة من الآيات والأخبار ما ورد، قال الله - سبحانه -:

(إن الذين تدعون من دون الله عبادا أمثالكم) (٢٦) وقال: (إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه) (٢٧) وقال: (ولله خزائن السماوات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون) (٢٨)

وفي أخبار داود (ع): (ما اعتصم عبد من عبادي بأحد من خلقي عرفت ذلك من نيته، إلا قطعت أسباب السماوات من يديه، وأسخطت الأرض من تحته، ولم أبال بأي واد هلك). وقال رسول الله (ص): من اغتر بالعبيد أذله الله). وقيل (مكتوب في التوراة: ملعون من ثقته بإنسان مثله). فينبغي للمؤمن أن يتخلى عنه باكتساب ضده، أعني التوكل، كما يأتي.

وصل

التوكل - فضيلة التوكل - درجات للتوكل - السعي لا ينافي التوكل - الأسباب التي لا ينافي السعي إليها التوكل - اعقل وتوكل - درجات

---

(٢٦) الأعراف، الآية: ١٩٣

(٢٧) العنكبوت، الآية: ١٧.

(٢٨) المنافقون، الآية: ٧.

في التوكل تفنيد زعم طريق تحصيل التوكل.
* * *

التوكل اعتماد القلب في جميع الأمور على الله وبعبارة أخرى: حوالة العبد جميع أموره على الله، وبعبارة أخرى: هو التبري من كل حول وقوة، والاعتماد على حول الله وقوته. وهو موقوف على أن يعتقد اعتقاد جازما بأنه لا فاعل إلا الله، وأنه لا حول ولا قوة إلا بالله وأن له تمام العلم والقدرة على كفاية العباد، ثم تمام العطف والعناية والرحمة بجملة العباد والآحاد، وأنه ليس وراء منتهى قدرته قدرة، ولا وراء منتهى علمه علم، ولا وراء منتهى عنايته عناية. فمن اعتقد ذلك اتكل قلبه لا محالة على الله وحده، ولم يلتفت إلى غيره، ولا إلى نفسه أصلا. ومن لم يجد ذلك من نفسه، فسببه إما ضعف اليقين، أو ضعف القلب، ومرضه باستيلاء الجبن عليه وانزعاجه بسبب الأوهام الغالبة عليه. فإن القلب الضعيف ينزعج تبعا للوهم، وطاعة له من غير نقصان في اليقين، كانزعاجه أن يبيت مع ميت في قبر أو فراش، مع يقينه بأنه جماد في الحال لا يتصور منه أضرار، فلا ينبغي أن يخاف منه ويفر عنه، كما لا يفر من سائر الجمادات. وكذا من كان ضعيف القلب وتناول العسل - مثلا -، فشبه العسل بين يديه بالعذرة، فربما نفر طبعه لضعف قلبه وتعذر عليه أن يتناوله، مع يقينه بأنه عسل ولا مدخلية للعذر فيه. فالتوكل لا يتم إلا بقوة اليقين وقوة القلب جميعا، إذ بهما يحصل سكون القلب وطمأنينته. فالسكون في القلب شئ آخر، واليقين شئ آخر. فكم من يقين لا طمأنينة معه، كما قال تعالى: (أو لم تؤمن؟ قال: بلى ولكن ليطمئن قلبي) (٢٩).
فالتمس أن يشاهد إحياء الميت بعينه ليثبت اليقين في خياله، فإن النفس تتبع الخيال وتطمئن به، ولا تطمئن باليقين في ابتداء أمره إلى أن تبلغ درجة النفس المطمئنة، وذلك لا يكون في البداية. وكم من مطمئن لا يقين له، كأرباب الملل والمذاهب الباطلة. فإن اليهودي مطمئن القلب إلى تهوده، وكذا النصراني، ولا يقين لهما أصلا، وإنما يتبعون الظن وما

----

(٢٩) البقرة، الآية: ٢٦٠

تهوى الأنفس. وإذا توقف التوكل على اليقين وقوة القلب، وارتفع بضعف أحدهما، يظهر أن التوكل من الفضائل المتعلقة بقوتي العاقلة الغضبية معا، وضده - أعني عدم التوكل - من رذائل أحدهما أو كليهما. ثم، إنك قد عرفت في باب التوحيد، أن عماد التوكل وما يبتني عليه، هو المرتبة الثالثة من التوحيد، وهي أن ينكشف للعبد بإشراق نور الحق، بأنه لا فاعل إلا هو، وإن ما عداه من الأسباب والوسائط مسخرات مقهورات تحت قدرته الأزلية. فطالب التوكل يلزم عليه أن يحصل هذه المرتبة من التوحيد ليحصل له التوكل. وقد عرفت - أيضا - أن المرتبة الثانية منه - أعني التوحيد الاعتقادي - إذا قويت ربما أورثت حال التوكل، إلا أن التوكل كما ينبغي موقوف على المرتبة الثالثة منه.

فصل

فضيلة التوكل

التوكل منزل من منازل السالكين ومقام من مقامات الموحدين، بل هو أفضل درجات الموقنين. ولذا ورد في مدحه وفضله وفي الترغيب فيه ما ورد من الكتاب والسنة، قال الله - تعالى -:

(وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين) (٣٠)

وقال: (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) (٣١). وقال: (إن الله يحب المتوكلين) (٣٢). وقال: (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) (٣٣). وقال: (ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم) (٣٤):

أي عزيز لا يذل من استجار به، فلا يضع من لاذ بجنابه، وحكيم لا يقصر عن تدبير من توكل على تدبيره. وقال رسول الله (ص): (من انقطع إلى الله، كفاه الله كل مؤنة، ورزقه من حيث لا يحتسب. ومن انقطع إلى الدنيا وكله الله إليها). وقال (ص): (من سره أن يكون

---

(٣٠) المائدة، الآية: ٢٦

(٣١) آل عمران، الآية: ١٢٢، ١٦٠، المائدة الآية: ١٢، التوبة، الآية ٥٢ إبراهيم، إبراهيم، الآية: ١١ المجادلة، الآية ١٠ التغابن الآية: ١٣.

(٣٢) آل عمران، الآية ١٥٩

(٣٣) الطلاق، الآية: ٣

(٣٤) الانفعال، الآية: ٥٠

أغنى الناس، فليكن بما عند الله أوثق منه بما في يده). وقال (ص): (لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله، لرزقتم كما ترزق الطيور تغدو خماصا وتروح بطانا). وعن علي بن الحسين – عليهما السلام – قال: (خرجت حتى انتهيت إلى هذا الحائط، فاتكأت عليه، فإذا رجل عليه ثوبان أبيضان ينظر في تجاه وجهي، ثم قال: يا علي بن الحسين! ما لي أراك كئيبا حزينا؟ أعلى الدنيا؟ فرزق الله حاضر للبر والفاجر. قلت: ما على هذا أحزنت، وإنه لكما تقول. قال: فعلى الآخرة؟ فوعد صادق يحكم فيه ملك قاهر قادر. قلت: ما على هذا أحزن، وإنه لكما تقول. فقال: مم حزنك؟ قلت مما نتخوف من فتنة ابن الزبير وما فيه للناس. قال: فضحك، ثم قال: يا علي بن الحسين! هل رأيت أحدا دعا الله فلم يجبه؟ قلت: لا! قال: فهل رأيت أحدا توكل على الله فلم يكفه؟ قلت: لا! قال: فهل رأيت أحدا سأل الله فلم يعطه؟ قلت: لا!... ثم غاب عني)، ولعل الرجل كان هو الخضر – على نبينا وعليه السلام – وقال الصادق (ع): (أوحى الله إلى داود: ما اعتصم بي عبد من عبادي دون أحد من خلقي، عرفت ذلك من نيته، ثم تكيده السماوات والأرض ومن فيهن، إلا جعلت له المخرج من بينهن). وقال (ع): (إن الغنى والعز يجولان، فإذا ظفرا بموضع التوكل أوطنا) وقال (ع): (من أعطى ثلاثا لا يمنع ثلاثا: من أعطى الدعاء أعطى الإجابة، ومن أعطى الشكر أعطى الزيادة، ومن أعطى التوكل أعطى الكفاية ثم قال: أتلوت كتاب الله – عز وجل – (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) وقال: (ولئن شكرتم لأزيدنكم)، وقال: (ادعوني استجب لكم)؟)
وقال (ع): (إيما عبد أقبل قبل ما يحب الله – تعالى – أقبل الله قبل ما يحب ومن اعتصم بالله عصمه الله، ومن أقبل الله قبله وعصمه، لم يبالي لو سقطت السماء على الأرض، أو كانت نازلة نزلت على أهل الأرض فتشملهم بلية، كان في حزب الله بالتقوى من كل بلية، أليس – تعالى – يقول: (إن المتقين في مقام أمين)؟). وقال (ع) (إن الله – تعالى – يقول: وعزتي وجلالي ومجدي وارتفاعي على عرشي! لأقطعن أمل كل مؤمل من الناس في غيري باليأس، ولأكسونه ثوب المذلة عند الناس، ولأنحينه من قربي

ولأبعدنه من وصلي، أيؤمل غيري في الشدائد والشدائد بيدي؟ ويرجو غيري؟ ويقرع بالفكر باب غيري، وبيدي مفاتيح الأبواب وهي مغلقة؟ وبابي مفتوح لمن دعاني، فمن ذا الذي أملني لنوائبه فقطعته دونها، ومن ذا الذي رجاني لعظيمة فقطعت رجاءه مني؟ جعلت آمال عبادي عندي محفوظة، فلم يرضوا بحفظي، وملأت سماواتي ممن لا يمل من تسبيحي، وأمرتهم ألا يغلقوا الأبواب بيني وبين عبادي، فلم يثقوا بقولي، ألم يعلم من طرقته نائبة من نوائبي أنه لا يملك كشفها أحد غيري إلا من بعد أذني؟ فما لي أراه لاهيا عني؟ أعطيته بجودي ما لم يسألني، ثم انتزعته عنه فلم يسألني رده، وسأل غيري، أفتراني أبدأ بالعطاء قبل المسألة؟ ثم أسأل فلا أجيب سائلي؟ أبخيل أنا فيبخلني عبدي؟ أوليس الجود والكرم لي؟
أوليس العفو والرحمة بيدي؟ أولست أنا محل الآمال؟ فمن يقطعها دوني؟ أفلا يخشى المؤملون أن يؤملوا غيري؟ فلو أن أهل سماواتي وأهل أرضي أملوا جميعا، ثم أعطيت كل واحد منهم مثلما أمل الجميع، ما انتقص من ملكي مثل عضو ذرة، وكيف ينقص ملك أنا قيمه؟ فيا بؤسا للقانطين من رحمتي! ويا بؤسا لمن عصاني ولم يراقبني! (٣٥)

فصل

درجات التوكل

للتوكل في الضعف والقوة ثلاث درجات:

الأول - أن يكون حاله في حق الله والثقة بعنايته وكفالته كحاله بالثقة بالوكيل، وهذه أضعف الدرجات ويكثر وقوعها ويدوم مدة مديدة، ولا ينافي أصل التدبير والاختيار بل ربما زاول كثيرا من التدبيرات بسعيه واختياره. نعم ينافي بعض التدبير، كالتوكل على وكيله في الخصومة، فإنه يترك تدبيره من غير جهة الوكيل، ولكن لا يترك التدبير الذي أشار إليه

----

(٣٥) صححنا الأحاديث على (أصول الكافي): ج ٢، باب التفويض إلى الله والتوكل عليه وعلى (البحار): باب التوكل والتفويض والرضا: مج ١٥ ٢ / ١٥٣، ط (أمين الضرب). وللعلامة (المجلسي) - قدس سره - في الموضع المذكور، في الحديث الخامس، تحقيق دقيق وبيان لطيف، لا يسع المقام ذكره هنا، فمن أراد الوقوف عليه، فعليه بمراجعة الموضع المذكور.

وكيله، ولا التدبير الذي عرفه من عادته وسنته دون تصريح إشارته.
الثانية - أن تكون حاله مع الله كحال الطفل مع أمه، فإنه لا يعرف غيرها، ولا يفزع إلا إليها، ولا يعتمد إلا عليها. فإن رآها تعلق في كل حال بذيلها، وإن ورد عليه أمر في غيبتها كان أول سابق لسانه يا أماه!.
والفرق بين هذا وسابقه، إن هذا متوكل قد فنى في موكله عن توكله، أي ليس يلتفت قلبه إلى التوكل، بل التفاته إنما هو إلى المتوكل عليه فقط، فلا مجال في قلبه لغير المتوكل عليه. وأما الأول فتوكل بالكسب والتكلف، وليس فانيا عن توكله، أي له التفات إلى توكله، وذلك شغل صارف عن ملاحظة المتوكل عليه وحده. وهذا أقل وقوعا ودواما من الأول إذ حصوله إنما هو للخواص، وغاية دوامه أن يدوم يوما أو يومين، وينافي التدبيرات، إلا تدبير الفزع إلى الله بالدعاء والابتهال، كتدبير الطفل في التعلق بأمه فقط.
الثالثة - وهي أعلى الدرجات، أن يكون بين يدي الله في حركاته وسكناته مثل الميت بين يدي الغاسل، بأن يرى نفسه ميتا، وتحركه القدرة الأزلية كما يحرك الغاسل الميت. وهو الذي قويت نفسه، ونال الدرجة الثالثة من التوحيد. والفرق بينه وبين الثاني، أن الثاني لا يترك الدعاء والتضرع، كما إن الصبي يفزع إلى أمه، ويصيح ويتعلق بذيلها، ويعدو خلفها، وهذا ربما يترك الدعاء والسؤال ثقة بكرمه وعنايته، فهذا مثال صبي علم أنه لم يرض بأمه، فالأم تطلبه، وإن لم يتعلق بذيلها فهي تحمله، وإن لم يسأل اللبن فهي تسقيه. ومن هذا القسم توكل إبراهيم الخليل (ع) لما وضع في المنجنيق ليرمى به إلى النار، وأشار إليه روح الأمين بسؤال النجاة والاستخلاص من الله سبحانه - فقال: (حسبي من سؤالي علمه بحالي). وهذا نادر الوقوع، عزيز الوجود، فهو مرتبة الصديقين، وإذا وجد فدوامه لا يزيد على صفرة الوجل، أو حمرة الخجل، وهو ينافي التدبيرات ما دام باقيا، إذ يكون صاحبه كالمبهوت. ثم، توكل العبد على الله قد يكون في جميع أموره، وقد يكون في بعضها. وتختلف درجات ذلك بحسب كثرة الأمور المتوكل فيها وقلتها. وقال الكاظم (ع) في قوله

عز وجل -: (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) ٣٦
التوكل على الله درجات، منها أن تتوكل على الله في أمورك كلها فما فعل بك كنت عنه راضيا، تعلم أنه لا يألوك خيرا وفضلا، وتعلم أن الحكم في ذلك له، فتوكل على الله بتفويض ذلك إليه، وثق به فيها وفي غيرها. ولعل سائر درجات التوكل أن يتوكل على الله في بعض أموره دون بعض، وتعدد الدرجات حينئذ بحسب كثرة الأمور المتوكل فيها وقلتها.

فصل

السعي لا ينافي التوكل

إعلم أن الأمور الواردة على العباد إما أن تكون خارجة عن قدرة العباد ووسعهم، بمعنى أنه لا تكون لها أسباب ظاهرة قطعية أو ظنية لجلبها أو دفعها أو تكون لها أسباب جالبة لها أو دافعة إياها، إلا أن العبد لا يتمكن منها. فمقتضى التوكل فيها ترك السعي بالتمحلات والتدبيرات الخفية، وجوالتها على رب الأرباب، ولو دبر في تغييرها بالتمحلات والتكلفات، لكان خارجا عن التوكل رأسا، أو لا تكون خارجة عن قدرتهم، بمعنى أن لها أسبابا قطعية أو ظنية يمكن للعبد أن يحصلها ويتوصل بها إلى جلبها أو دفعها. فالسعي في مثلها لا ينافي التوكل، بعد أن يكون وثوقه واعتماده بالله دون الأسباب. فمن ظن أن معنى التوكل ترك الكسب بالبدن، وترك التدبير بالعقل رأسا، والسقوط على الأرض كالخرقة الملقاة، فقد أبعد عن الحق، لأن ذلك محرم في الشرع الأقدس، فإن الشارع كلف الإنسان بطلب الرزق بالأسباب التي هداه الله إليها، من زراعة، أو تجارة، أو صناعة، أو غير ذلك مما أحله الله، وبإبقاء النسل بالتزويج، وكلفه بأن يدفع عن نفسه الأشياء المؤذية بالتوسل إلى الأسباب المعينة لدفعها. وكما أن العبادات أمور أمر الله - تعالى - عباده بالسعي فيها، ليحصل لهم بها التقرب إليه والسعادات في دار الآخرة، فكذلك طلب الحلال ودفع الضرر والألم عن النفس والأهل والعيال أمور أمرهم الله - تعالى - ليحصل لهم

----

(٣٦) الطلاق، الآية: ٣

بها التوسل إلى العبادات وما يؤدي إلى التقرب والسعادة. ولكنه - سبحانه - كلفهم أيضا بالا يثقوا إلا به، ولا يعتمدوا على الأسباب. كما إنه - سبحانه - كلفهم بالا يتكلوا على أعمالهم الحسنة، بل على فضله ورحمته. فمعنى التوكل المأمور به في الشريعة: اعتماد القلب على الله في الأمور كلها، وانقطاعه عما سواه. ولا ينافيه تحصيل الأسباب إذا لم يسكن إليها، وكان سكونه إلى الله - سبحانه - دونها مجوزا في نفسه أن يؤتيه الله مطلوبه من حيث لا يحتسب، دون هذه الأسباب التي حصلها، وأن يقطع الله هذه الأسباب عن مسبباتها.

فصل

الأسباب التي لا ينافي السعي إليها التوكل

الأسباب التي لا ينافي تحصيلها ومزاولتها للتوكل، هي الأسباب القطعية أو الظنية، وهي التي يقطع أو يظن بارتباط المسببات بها بتقدير الله ومشيته ارتباطا مطردا لا يتخلف عنها، سواء كانت لجلب نفع أو لدفع ضر منتظر أو لإزالة آفة واقعة، وذلك كمد اليد إلى الطعام للوصول إلى فيه، وحمل الزاد للسفر، واتخاذ البضاعة للتجارة، والوقاع لحصول الأولاد، وأخذ السلاح للعدو، والادخار لتجدد الاضطرار، والتداوي لإزالة المرض، والتحرز عن النوم في ممر السيل ومسكن السباع وتحت الحائط المائل، وغلق الباب، وعقل البعير، وترك الطريق الذي يقطع أو يظن وجود السارقين أو السباع الضارة فيه... وقس عليها غيرها.

وأما الأسباب الموهومة، كالرقية، والطيرة، والاستقصاء في دقائق التدبير، وإبداء التمحلات لأجل التبديل والتغيير، فيبطل بها التوكل، لأن أمثال ذلك ليست بأسباب عند العقلاء، وليست مما أمر الله - تعالى - بها، بل ورد النهي عنها، على أن المأمور به الإجمال في الطلب وعدم الاستقصاء قال رسول الله (ص): (إلا أن الروح الأمين نفت في روعي: أنه لا تموت نفس حتى تستكمل رزقها، فاتقوا الله - تعالى - وأجملوا في طلب). وقال (ص): (ما أجمل في الطلب من ركب البحر).

وقال الصادق (ع): (ليكن طلب المعيشة فوق كسب المضيع، ودون طلب

الحريص، الراضي بدنياه، المطمئن إليها، ولكن أنزل نفسك من ذلك بمنزلة المنصف المتعفف، ترفع نفسك عن منزلة الواهن الضعيف، وتكتسب ما لا بد منه، إن الذين أعطوا المال ثم لم يشكروا لا مال لهم). وقال (ع): (إذا فتحت بابك، وبسطت بساطك، فقد قضيت ما عليك).

فصل

اعقل وتوكل

إعلم أن التوكل لا يبطل بالأسباب المقطوعة والمظنونة، مع أن الله قادر على إعطاء المطلوب بدون ذلك، لأن الله – سبحانه – ربط المسببات بالأسباب، وأبى أن يجري الأشياء إلا بالأسباب. ولذا لما أهمل الأعرابي بعيره، وقال: توكلت على الله، قال له النبي (ص): اعقلها وتوكل) وقال الصادق (ع): أوجب الله لعباده أن يطلبوا منه مقاصدهم بالأسباب التي سببها لذلك وأمرهم بذلك) وقال الله تعالى:
(خذو حذركم (٣٧). وقال في كيفية صلاة الخوف: (وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم) ٢٨ وقال: (وأعدوا لهم ما استطعتم من قود ومن رباط الخيل) ٣٩. وقال لموسى: (فاسر بعبادي ليلا) ٤٠ والتحصين بالليل اختفاء عن أعين الأعداء دفعا للضرر.

وفي الإسرائيليات: إن موسى بن عمران (ع) اعتل بعلة، فدخل عليه بنو إسرائيل، فعرفوا علته، فقالوا له: لو تداويت بكذا لبرئت، فقال لا أتداوى حتى يعافني الله من غير دواء. فطالت علته، فأوحى الله إليه: وعزتي وجلالي! لا أبرؤك حتى تتداوى بما ذكروه لك. فقال لهم داووني بما ذكرتم فداووه فبرئ. فأوجس في نفسه من ذلك فأوحى الله تعالى إليه: أردت أن تبطل حكمتي بتوكلك على، فمن أودع العقاقير منافع الأشياء غيري؟) وروي: (أن زاهدا من الزهاد، فارق الأمصار وأقام في سفح جبل، فقال لا أسأل شيئا حتى يأتيني ربي برزقي. فقعد سبعا، فكاد

----

(٣٧) النساء الآية: ٧٠

(٣٨) النساء الآية: ١٠١

(٣٩) الأنفال، الآية ٦١.

(٤٠) الدخان الآية: ٢٣

يموت ولم يأته رزق، فقال: يا رب! إن أحييتني فأتني برزقي الذي قسمت لي، وإلا فاقبضني إليك. فأوحى الله تعالى إليه: وعزتي وجلالي لا أرزقك حتى تدخل الأمصار، وتقعد بين الناس. فدخل المصر فأقام، فجاء هذا بطعام، وهذا بشراب، فأكل وشرب فأوجس في نفسه ذلك، فأوحى الله له: أردت أن تذهب حكمتي بزهدك في الدنيا: أما علمت أني أرزق عبدي بأيدي عبادي أحب إلي من أن أرزقه بيد قدرتي لا)

فصل درجات الناس في التوكل

إعلم أن درجات الناس - كما عرفت - في التوكل مختلفة، بحسب تفاوت مراتبهم في قوة اليقين وضعفه، وفي قوة التوحيد وضعفه:

فمنهم: من كمل إيمانه ويقينه، بحيث سقط وثوقه عن الأسباب بالكلية، وتوجه بشراشره إلى الواحد الحق، ولا يرى مؤثرا إلا هو، وليس نظره إلى غيره أصلا، وقلبه مطمئن ساكن بعنايته بحيث لا يختلج بباله احتمال أن يكله ربه إلى غيره، ولا يعتري نفسه اضطراب أصلا. فلا بأس لمثله أن يعرض عن الأسباب المقطوعة أو المظنونة بالكلية، لأن الله سبحانه يحفظه ويحرسه ويصلح أموره، ويرزقه من حيث لا يحتسب، سواء حصل الأسباب أم لا، وسواء كسب أم لم يكتسب، إلا أنه ربما لم يترك السبب والكسب ويتبع أمر الله فيه، إلا أنه ليس وثوقه إلا بالله دون السبب والكسب. وما ورد من حكايات بعض الكمل من الأولياء، من أنهم يسافرون في البوادي التي لا يطرقها الناس بغير زاد ثقة بالله، ويصل إليهم الرزق، أو لا يحترزون من السباع الضارة، أو يغلظون القول بالنسبة إلى أهل الاقتدار من الملوك والسلاطين من دون خوف ومبالاة، اعتمادا على الله، والله - سبحانه - ينجيهم منهم، كانوا منهم أي من الكاملين في التوكل. قال الصادق (ع): (أبى الله - عز وجل - أن يجعل أرزاق المؤمنين إلا من حيث لا يحتسبون) وإنما خصه بالمؤمنين، لأن كمال الإيمان يقتضي ألا يثق صاحبه بالأسباب وأن يتوكل على الله - عز وجل وحده. وكمال الإيمان إنما يكون

لصاحب العلم المكنون من الأنبياء والأولياء، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء
. ومنهم: من لم يبلغ قوة إيمانه ويقينه حدا تغيب عن نظره الأسباب
والوسائط، ويكون مقصور الالتفات إلى جانب الحق. فهذا هو الذي
لا ينبغي له أن يعرض عن الأسباب ويتركها، لأن مثله ليس له المظنة التي
توصله إلى المقصد بدون الوسائط: أعني قوة التوكل على الله واليقين
به سبحانه

فصل تفنيد زعم

بعض الناس زعم: أن حق التوكل أن يكتفي بالأسباب الخفية عن
الأسباب الجلية، كأن يسافر في البوادي التي لا يطرقها الناس بغير زاد
بعد أن راض نفسه على جوع الأسبوع وما يقاربه، بحيث يصبر عنه من
غير ضيق قلب، واضطراب نفس، وتشويش خاطر وفتور في ذكر الله،
وبعد أن يكون بحيث يقوى على التقوت بالحشيش وما يتفق له، وأن يوطن
نفسه على أنه مات جوعا كان خيرا له في الآخرة

وكأن يجلس في مسجد أو بيته ويترك الكسب، ويتفرغ للعبادة
والفكر والذكر، واستغراق وقته بها، بحيث لا يستشرف نفسه إلى الناس
في انتظاره ومن يدخل فيحمل إليه شيئا، بل يكون قوي القلب في الصبر
والاتكال على الله. وهذا محض الخطأ، إذ من جاهد نفسه وراضها بحيث
يصبر على جوع الأسبوع، ويمكنه التقوت بالحشيش، صارت الأسباب
له جليه فإن عدم الحاجة أحد الغنائين. ثم إن كان اعتماده - حينئذ -
على صبره وتمكنه من التقوت بالحشيش، فأين التوكل؟ وإن كان وثوقه
بالله وحده فليقم في بلده مع الأسباب، كما أمر الله به في الشرع. وأما
توطين نفسه باختياره على الموت، فممنوع عقلا، ومحرم شرعا. قال الله
- سبحانه -:
(ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة)

----

(٤١) البقرة الآية ١٩٥.

وأما الجالس في بيته التارك لكسبه، يعبد الله من دون طلب
،
فهو أيضا قد ترك متابعة أمر الله. قال الصادق (ع): (إن من يقوته أشد عبادة منه) وربما يكون مثله كلا على الناس، فإن حاله ينادي بالبؤس واليأس، بل هو ضرب على تواطن الناس وتعرض للذل. وبالجملة لا مدخل لخفاء الأسباب وجلائها في التوكل، بعد ما تقرر أن معناه الثقة بالله وحده لا بالأسباب، فسواء وجود الأسباب وفقدها وجلاؤها وخفاؤها.

فصل طريق تحصيل التوكل

الطريق إلى تحصيل التوكل - بعد تقوية التوحيد والاعتقاد، بأن الأمور بأسرها مستندة إليه سبحانه، وليس لغيره مدخلية فيها - أن يتذكر الآيات والأخبار المذكورة الدالة على فضيلته ومدحه، وكونه باعث النجاة والكفاية، ثم يتذكر أن الله - سبحانه - خلقه بعد أن لم يكن موجودا وأوجده من كتم العدم، وهيأ له ما يحتاج إليه، وهو أرأف بعباده من الوالدة بولدها، وقد ضمن بكفايته من توكل عليه، فيستحيل أن يضيعه بعد ذلك ولا يكفيه مؤنته، ولا يوصل إليه ما يحتاج، ولا يدفع عنه ما يؤذيه، لتقدسه من العجز والنقص والخلف والسهو. وينبغي أن يتذكر الحكايات التي فيها عجائب صنع الله في وصول الأرزاق إلى صاحبها وفي دفع البلايا والأسواء عن بعض عبيده، والحكايات التي فيه عجائب قهر الله في إهلاك أموال الأغنياء وإذلال الأقوياء، وكم من عبد ليس له مال وبضاعة ويرزقه الله بسهولة، وكم من ذي مال وثروة هلكت بضاعته أو سرقت وصار محتاجا، وكم من قوي صاحب كثرة وعدة وسطوة صار عاجزا ذليلا بل سبب ظاهر، وكم من ذليل عاجز صار قويا واستولى على الكل. ومن تأمل في ذلك، يعلم أن الأمور بيد الله فيلزم الاعتماد عليه والثقة به. والمناط أن يعلم أن الأمور لو كانت بقدرة الله - سبحانه - من غير مدخلية للأسباب والوسائط فيها، فعدم التوكل عليه - سبحانه - والثقة بغيره غاية الجهل، وإن كانت لغيره - سبحانه من الوسائط والأسباب مدخلية، فالتوكل من جملة أسباب الكفاية وإنجاح الأمور، إذ السمع

والتجربة شاهدان بأن من توكل عليه وانقطع إليه كفاه الله كل مؤنه. فكما أن شرب الماء سبب لإزالة العطش، وأكل الطعام سبب لدفع الجوع، فكذا التوكل سبب رتبه مسبب الأسباب لإنجاح المقاصد وكفاية الأمور. وعلامة حصول التوكل، ألا يضطرب قلبه، ولا يبطل سكونه بفقد أسباب نفسه وحدوث أسباب ضره. فلو سرقت بضاعته، أو خسرت تجارته، أو تعوق أمر من أموره، كان راضيا به، ولم تبطل طمأنينته، ولم تضطرب نفسه، بل كان حال قلبه في السكون قبله وبعده واحدا. فإن من لم يسكن إلى شئ لم يضطرب بفقده، ومن اضطر لفقد شئ فقد سكن إليه واطمأن به.

ومنها:

الكفران

وضده الشكر

الشكر - فضيلة الشكر - الشكر نعمة يجب شكرها - المدارك لتمييز محاب الله عن مكارهه - أقسام النعم واللذات - الأكل - لا فائدة في الغذاء ما لم يكن بشهوة وميل - عجائب المأكولات - حاجة تحضير الطعام إلى آلاف الأسباب - تسخير الله التجار لجلب الطعام - نعم الله في خلق الملائكة للانسان - الأسباب الصارفة للشكر - طريق تحصيل الشكر - الصحة خير من السقم.

* * * وبعد ما تعرف حقيقة الشكر، وكونه متعلقا بأي القوى، تعرف بالمقايسة حقيقة الكفران وكونه من رذائل القوى.

فنقول: الشكر هو عرفان النعمة من المنعم، والفرح به، والعمل بموجب الفرح بإضمار الخير، والتحميد للمنعم، واستعمال النعمة في طاعته. أما المعرفة، فبأن تعرف أن النعم كلها من الله، وأنه هو المنعم، والوسائط مسخرات من جهته. ولو أنعم عليك أحد، فهو الذي سخره لك، وألقى في قلبه من الاعتقادات والإرادات ما صار به مضطرا إلى الايصال إليك، فمن عرف ذلك، حصل أحد أركان الشكر لله، وربما كان مجرد ذلك شكرا، وهو الشكر بالقلب. كما روي: (أن موسى قال في مناجاته: إلهي

خلقت آدم بيدك، وأسكنته جنتك، وزوجته حواء أمتك، فكيف شكرك؟ فقال: علم أن ذلك مني، فكانت معرفته شكرا).
ثم هذه المعرفة فوق التقديس وفوق بعض مراتب التوحيد، وهما داخلان فيها. إذ التقديس تنزيهه - سبحانه - عن صفات النقص، والتوحيد قصر المقدس عليه، والاعتراف بعدم مقدس سواه وهذه المعرفة هي اليقين بأن كل ما في العالم موجود منه، والكل نعمة منه، فينطوي فيه مع التقديس والتوحيد كمال القدرة والانفراد بالفعل، ولذلك قال رسول الله (ص): (من قال: سبحانه الله، فله عشر حسنات، ومن قال: لا إله إلا الله، فله عشرون حسنة ومن قال: الحمد لله، فله ثلاثون حسنة).
فسبحان الله: كلمة تدل على التقديس، ولا إله إلا الله: كلمة تدل على التوحيد، والحمد لله: كلمة تدل على معرفة النعم من الواحد الحق. ولا تظنن أن هذه الحسنات بإزاء تحريك اللسان بهذه الكلمات من غير عقد القلب بمعانيها، بل هي بإزاء الاعتقاد بمعانيها التي هي المعارف المعدودة من أبواب الإيمان واليقين. وأما الفرح بالمنعم، مع هيئة الخضوع والتواضع، فهو أيضا من أركان الشكر. بل كما أن المعرفة شكر قلبي برأسه، فهو أيضا في نفسه شكر بالقلب، وإنما يكون شكرا إذا كان فرحه بالمنعم أو بالنعمة لا من حيث أنه نعمة ومال ينتفع به ويلتذ منه في الدنيا، بل من حيث أنه يقدر بها على التوصل إلى القرب من المنعم والنزول في جواره، والنظر إلى وجهه على الدوام. وأمارته ألا يفرح من الدنيا إلا بما هو مزرعة الآخرة ومعينة عليها، ويحزن بكل نعمة تلهيه عن ذكر الله وتصده عن سبيله، لأنه ليس يريد النعمة لذاتها، بل من حيث أنها توصله إلى مجاورة المنعم وقربه ولقائه. وأما العمل بموجب الفرح الحاصل من معرفة المنعم، هو القيام بما هو مقصود المنعم ومحبوبه، وهو يتعلق بالقلب واللسان والجوارح. أما المتعلق بالقلب فقصده الخير وإضماره لكافة الخلق. وأما المتعلق باللسان فإظهار الشكر لله من تحميدات الدالة عليه. وأما المتعلم بالجوارح، فاستعمال نعم الله في طاعته ولتوقي من الاستعانة بها على معصيته حتى أن من جملة شكر العينين أن يستر كل عيب يراه من مسلم، ومن جملة شكر الأذنين

أن يستر كل عيب يسمعه من مسلم، فيدخل هذا وأمثاله في جملة شكر نعمة هذه الأعضاء بل قيل: من كفر نعمة العين ولم يستعملها فيما خلقت لأجله كفر نعمة الشمس أيضا، إذ الأبصار إنما يتم بها، وإنما خلقتها ليبصر بهما ما ينفعه في دينه ودنياه، ويقي بهما ما يضره فيهما. بل المراد من خلق السماء والأرض وخلق الدنيا وأسبابها أن يستعين بها على الوصول إلى الله ولا وصول إليه إلا بمحبته والأنس به في الدنيا، والتجافي عن الدنيا وغرورها ولذاتها وعلائقها، ولا أنس إلا بدوام الذكر ولا محبة إلا بالمعرفة الحاصلة بدوام الفكر، ولا يمكن الذكر والفكر إلا ببقاء البدن، ولا يبقى البدن إلا بالأرض والماء والهواء والنار، ولا يتم ذلك إلا بخلق الأرض والسماء وخلق سائر الأشياء وكل، ذلك لأجل البدن. والبدن مطية النفس. والنفس الراجعة إلى الله هي المطمئنة بطول العبادة والمعرفة. فكل من استعمل شيئا بغير طاعة الله فقد كفر نعمة الله في جميع الأسباب التي لا بد منها لإقدامه على تلك المعصية. وإذا عرفت حقيقة الشكر، تعرف بالمقايسة حقيقة الكفران، فإنه عبارة عن الجهل بكون النعم من الله، أو عدم الفرح بالمنعم والنعمة من حيث إيصالها إلى القرب منه، أو ترك استعمال النعمة فيما يحبه المنعم، أو استعمالها في ما يكرهه.

ثم، بما ذكرناه، وإن ظهر أن حقيقة الشكر ملتئمة من الأمور الثلاثة، إلا أنه قد يطلق الشكر على كل واحد أيضا، كما قال الصادق (ع): (شكر كل نعمة، وإن عظمت، أن تحمد الله)، وقال (ع): (شكر النعم اجتناب المحارم، وتمام الشكر قول الرجل: الحمد لله رب العالمين). وسئل عنه (ع): (هل للشكر حد إذا فعله العبد كان شاكرا؟ قال: نعم! قيل: ما هو؟ قال: يحمد الله على كل نعمة عليه في أهل ومال، وإن كان فيما أنعم عليه في ماله حق أداه. ومنه قوله – جل وعز –: (سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين (٤٢). ومنه قوله تعالى (رب أنزلني منزلا مباركا وأنت خير المنزلين) (٤٣). وقوله: (رب أدخلني

---

(٤٢) الزخرف، الآية: ١٣

(٤٣) المؤمنون، الآية: ٢٩.

مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطانا نصيرا) (٤٤) وقال - (ع): (كان رسول الله (ص) إذا ورد عليه أمر يسره، قال: الحمد لله على هذه النعمة. وإذا ورد عليه أمر يغتم به، قال: الحمل لله على كل حال). وقال (ع). (إذا أصبحت وأمسيت، فقل عشر مرات: اللهم ما أصبحت بي من نعمة أو عافية في دين أو دنيا، فمنك وحدك لا شريك لك لك الحمد ولك الشكر بها علي يا رب، حتى ترضى وبعد الرضا. فإنك إذا قلت ذلك، كنت قد أديت شكر ما أنعم الله به عليك في ذلك اليوم وفي تلك الليلة). وفي رواية: (كان نوح (ع) يقول ذلك إذا أصبح، فسمي بذلك عبدا شكورا). وقال (ع): (إذا ذكر أحدكم نعمة الله، فليضع خده على التراب شكرا لله، فإن كان راكبا فلينزل وليضع خده على التراب وإن لم يكن يقدر على النزول للشهرة فليضع خده على قربوسه (٤٥)، وإن لم يقدر فليضع خده على كفه، ثم ليحمد الله على ما أنعم عليه). وروي: (أن الصادق (ع) قد ضاعت دابته، فقال: لئن ردها الله علي لأشكرن الله حق شكره) قال الرواي: فما لبث أن أتي بها، فقال: (الحمد لله).
فقال قائل له جعلت فداك! أليس قلت لأشكرن الله حق شكره؟ فقال أبو عبد الله (ع) (ألم تسمعني قلت: الحمد لله؟) (٤٦). ثم الشكر باللسان لإظهار الرضا من الله، ولذا أمر به. وقد كان السلف يتسائلون بينهم، ونيتهم استخراج الشكر لله، ليؤجر كل واحد من الشاكر والسائل. وقد روي: (أن رسول الله (ص) قال لرجل: كيف أصبحت؟ فقال: بخير. فأعاد عليه السؤال فأعاد عليه الجواب، فأعاد السؤال ثالثة، فقال: بخير، أحمد الله وأشكره. فقال (ص): هذا الذي أردت منك)
(تنبيه) لا ريب في أن الجزء الأول من الشكر - أعني معرفة النعم من الله - من متعلقات العاقلة وفضائلها. والثاني - أعني الفرح للنفس -

----

(٤٤) الإسراء، الآية: ٨٠
(٤٥) القربوس - بفتحتين -: حنو السرج، أي قسمه المقوس المرتفع من قدام المقعد ومن مؤخره.
(٤٦) هذه الرواية مذكورة في (أصول الكافي) ج ٢ - باب الشكر. وفي (الوافي: ٣ / ٣٢٤ - باب الشكر. إلا أن المنقول في نسخ (جامع السعادات) فيه اختلاف كثير عما في الموضوعين فصححناها عليهما.

إن كان من النعم العقلية الروحانية، يكون متعلقا بالعاقلة أيضا، وإن كان لأجل وصول نعمة الغلبة والاستيلاء – مثلا – على عدو ظالم، يكون متعلقا بالقوة الغضبية، وإن كان من نعمة المال والأولاد، يكون متعلقا بالقوة الشهوية. والجزء الثالث – أعني العمل بمقتضى الفرح الحاصل من معرفة المنعم – فهو من ثمرات الحب للمنعم والخوف من زوال نعمته. وبهذا يظهر: أن الشكر والكفران من متعلقات القوى الثلاث، الأول من فضائلها إذا امتزجت وتسالمت، والثاني من رذائلها.

فصل

فضيلة الشكر

الشكر أفضل منازل الأبرار، وعمدة زاد المسافرين إلى عالم الأنوار، وهو موجب لدفع البلاء وازدياد النعماء. وقد ورد به الترغيب الشديد، وجعله الله سببا للمزيد. قال الله – سبحانه –:
(ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم) (٤٧). وقال: (لئن شكرتم لأزيدنكم) (٤٨) وقال: فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون) (٤٩). وقال (وسنجزي الشاكرين)) ٥٠

ولكونه غاية الفضائل والمقامات، ليس لكل سالك أن يصل إليه، بل ليس الوصول إليه إلا لأوحدي من كمل السالكين. ولذا قال الله رب العالمين:
(وقليل من عبادي الشكور) ٥١ وكفى به شرفا وفضلا، أنه خلق من أخلاق الربوبية، كما قال الله – سبحانه –: (والله شكور حليم) ١. وهو فاتحة كلام أهل الجنة وخاتمته، كما قال الله – تعالى –: (وقالوا الحمد

----

(٤٧) النساء، الآية: ١٤٦

(٤٨) إبراهيم، الآية: ٧.

(٤٩) البقرة، الآية ١٥٢

(٥٠) آل عمران، الآية: ١٤٥

(٥١) سبأ، الآية: ١٣

(١) التغابن، الآية: ١٧.

لله الذي صدقنا وعده) (٣). وقال: (وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين) ٣
وقال رسول الله (ص): (الطاعم الشاكر، له من الأجر كأجر الصائم المحتسب. والمعافى الشاكر، له من الأجر كأجر المبتلى الصابر. والمعطى الشاكر، له من الأجر كأجر المحروم القانع). وقال (ص): (إن للنعم أوابد كأوابد الوحش، فقيدوها بالشكر). وقال (ص): (ينادي مناد يوم القيامة: ليقوم الحمادون! فيقوم زمرة. فينصب لهم لواء فيدخلون الجنة) فقيل: من الحمادون؟ فقال: (الذين يشكرون الله على كل حال)
وقال السجاد (ع): (إن الله - سبحانه - يحب كل عبد حزين، ويحب كل عبد شكور). وقال الباقر (ع): (كان رسول الله (ص) عند عائشة ليلتها، فقالت: يا رسول الله! لم تتعب نفسك وقد غفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: يا عائشة! ألا أكون عبدا شكورا؟...
قال: وكان يقوم على أطراف أصابع رجليه، فأنزل الله - تعالى -: طه! ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى). وقال الصادق (ع): (ما أنعم الله على عبد من نعمة فعرفها بقلبه وحمد الله ظاهرا بلسانه، فتم كلامه، حتى يؤمر له بالمزيد). وقال (ع): ((ثلاث لا يضر معهن شئ): الدعاء عند الكرب، والاستغفار عند الذنب، والشكر عند النعمة) (٤). وقال (ع): (في كل نفس من أنفاسك شكر لازم لك، بل ألف أو أكثر، وأدنى الشكر رؤية النعمة من الله - تعالى - من غير علة يتعلق القلب بها دون الله - عز وجل - أو الرضا بما أعطى، وألا تعصيه بنعمته وتخالفه بشئ من أمره ونهيه بسبب نعمته. فكن لله عبدا شاكرا على كل حال، تجد الله ربا كريما على كل حال، ولو كان عند الله - تعالى - عبادة تعبد بها عباده المخلصون أفضل من الشكر على كل حال، لأطلق لفظة منهم على جميع الخلق بها، فلما لم يكن أفضل منها، خصها من بين العبادات، وخص أربابها، فقال:

---

(٢) الزمر، الآية: ٧٤
(٣) يونس الآية: ١٠
(٤) صححنا الأحاديث على (أصول الكافي): ج ٢، باب الشكر.
وعلى (البحار): مج ١٥: ٢ / ١٣٢ / ١٣٥، باب الشكر.

(وقليل من عبادي الشكور). وتمام الشكر الاعتراف بلسان السر، خاضعا لله بالعجز عن بلوغ أدنى شكره، لأن التوفيق للشكر نعمة حادثة يجب الشكر عليها، وهي أعظم قدرا وأعز وجودا من النعمة التي من أجلها وفقت له، فليزمك على كل شكر شكر أعظم منه، إلى ما لا نهاية له، مستغرقا في نعمه، قاصرا عاجزا عن درك غاية شكره، وأنى يلحق العبد شكر نعمة الله، ومتى يلحق صنيعه بصنيعه، والعبد الضعيف لا قوة له أبدا إلا بالله - عز وجل - والله غني عن طاعة العبد قوي على مزيد النعم على الأبد، فكن لله عبدا شاكرا على هذا الأصل، ترى العجب (٥)
ثم كما إن الشكر من المنجيات الموصلة إلى سعادة الأبد وزيادة النعمة في الدنيا، فضده أعني الكفران - من المهلكات المؤدية إلى شقاوة السرمد وعقوبة الدنيا وسلب النعم. قال الله - سبحانه -:
(فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف) ٦. وقال تعالى
(إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) ٧
وقال الصادق (ع) إشكر من أنعم عليك. وانعم على من شكرك، فإنه لا زوال للنعماء إذا شكرت، ولا بقاء لها إذا كفرت. الشكر زيادة في النعم وأمان من الغير، أي من التغيير). فصل
الشكر نعمة يجب شكرها
لما كانت حقيقة الشكر عبارة عن عرفان كل النعم من الله مع صرفها في جهة محبة الله، فالشكر على كل نعمة على أن تعرف كونها من الله وتصرفها في جهة محبته. ولا ريب في أن هذه المعرفة والصرف أيضا نعمة من الله، إذ جميع ما يتعاطاه باختيارنا نعمة من الله، لأن جوارحنا، وقدرتنا، وإرادتنا، ودواعينا، وإفاضة المعارف علينا، وسائر الأمور التي هي أسباب حركاتنا، بل نفس حركاتنا، من الله. وعلى هذا، فالشكر على كل نعمة

----

(٥) صححنا الحديث على مصباح (الشريعة): الباب السادس. وعلى (سفينة البحار) ١ / ٧١٠
(٦) النحل الآية: ١١١
(٧) الرعد: ١٢

نعمة أخرى من الله يحتاج إلى شكر آخر. وهو أن يعرف أن هذا الشكر أيضا نعمة من الله - سبحانه - فيفرح به ويعمل بمقتضى فرحه. وهذه المعرفة والفرح تحتاج إلى شكر آخر. وهكذا فلا بد من الشكر في كل حال، وليس يمكن أن تنتهي سلسلة الشكر إلى ما لا يحتاج إلى شكر. فغاية شكر العبد أن يعرف عجزه عن أداء حق شكره - تعالى - إذ عرفان عجزه مسبب عن عرفان جميع النعم، حتى شكره من الله وهذا غاية ما يمكن للعبد. ويشهد بذلك ما روي: (أن الله - عز وجل - أوحى إلى موسى (ع): يا موسى! اشكرني حق شكري. فقال: يا رب! كيف أشكرك حق شكرك وليس من شكر أشكرك به إلا وأنت أنعمت به علي؟ قال: يا موسى! الآن شكرتني، حيث علمت أن ذلك مني) وكذلك أوحى ذلك إلى داود، فقال: (يا رب! كيف أشكرك وأنا لا أستطيع أن أشكرك إلا بنعمة ثانية من نعمك). وفي لفظ آخر: (وشكري لك نعمة أخرى منك ويوجب علي الشكر لك، فقال: إذا عرفت هذا فقد شكرتني). وفي خبر آخر: (إذا عرفت أن النعم مني، رضيت عنك بذلك شكرا). وروي: (أن السجاد (ع) كان إذا قرأ هذه الآية (وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها) يقول: سبحان من لم يجعل في أحد من معرفة نعمه إلا المعرفة بالتقصير عن معرفتها!) كما لم يجعل في أحد من معرفة إدراكه أكثر من العلم أن لا يدركه فشكره - تعالى - معرفة العارفين بالتقصير عن معرفة شكره، فجعل معرفتهم بالتقصير شكرا، كما علم علم العارفين بأنهم لا يدركونه، فجعله إيمانا علما منه أنه قد وسع العباد فلا يتجاوز ذلك فإن شيئا من خلقه لا يبلغ مدى عبادته، فكيف يبلغ مدى عبادته من لا مدى له ولا كيف؟ تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا. وقال أبو الحسن (ع): (من حمد الله على النعمة فقد شكره، وكان الحمد لله أفضل من تلك النعمة (٨) يعني أنه نعمة فوق تلك النعمة، يستدعي شكرا آخر.

---

(٨) صححنا الروايات على (أصول الكافي) ج ٢، باب الشكر. وعلى (الوافي) ٣ / ٣٢٤ باب الشكر

فصل

المدرك لتمييز محاب الله عن مكارهه

لما عرفت أن الشكر عبارة عن استعمال نعم الله فيما يحبه، والكفران عبارة عن نقيض ذلك - أعني ترك استعمالها فيه أ استعمالها فيما يكرهه - فلا بد من معرفة ما يحبه وما يكرهه، وتمييز محابه عن مكارهه، حتى يتمكن من أداء الشكر وترك الكفران، لتوقفهما على معرفتهما وتمييزها. وهذا التمييز والتعريف له مدركان:

أحدهما - الشرع، فإنه كشف عن جميع ما يحبه وما يكرهه، عبر عن الأول بالواجبات والمندوبات، وعن الثاني بالمحرمات والمكروهات. فمعرفة ذلك موقوفة على معرفة جميع أحكام الشرع في أفعال العباد، فمن لم يطلع على حكم الشرع في جميع أفعاله، ولم يمكنه القيام بحق الشكر.

وثانيهما - العقل والنظر بعين الاعتبار، فإن العقل متمكن - في الجملة - من أن يدرك بعض وجوه الحكم في بعض الموجودات. فإن الله سبحانه ما خلق شيئا في العالم إلا وفيه حكم كثيرة، وتحت كل حكمه مقصود ومصلحة وهذا المقصود والمصلحة هو محبوب الله تعالى. فمن أستعمل كل شئ على النحو الذي يؤدي إلى المقاصد المطلوبة وعلى الجهة التي خلق لها فقد شكر نعم الله تعالى، وإن استعمل شيئا على النحو الذي لم يؤد إلى المقصود منه أو في جهة غير الجهة التي خلق لها، فقد كفر نعمة الله).

ثم العقل لا يتمكن من معرفة كل حكمة مطلوبة من كل شئ، إذ الحكم المقصودة من الأشياء، إما جلية أو خفية. أما الجلية: كحكمة حصول الليل والنهار في وجود الشمس، وحكمة انتشار الناس وسكونهم في وجود الليل والنهار، وحكمة انشقاق الأرض بأنواع النبات في وجود الغيم ونزول الأمطار وحكمة الأبصار في العين، والبطش في اليد، والمشي في الرجل، وحصول الأولاد، وبقاء النسل في الآت التناسل وخلق الشهوة، وحكمة المضغ والطحن في خلق الأسنان وأمثال ذلك. وأما الحكم الخفية: كالحكم التي في خلق الكواكب السيارة والثابتة، واختصاص كل منها بقدر معين وموضع خاص، والحكم التي في بعض الأعضاء الباطنية للحيوان، من

الأمعاء والمرارة والكلية وأحاد العروق والأعصاب والعضلات، وما فيها من التجاويف والالتفاف والاشتباك والانحراف والدقة والغلظة وغير ذلك. فهذه الحكم وأمثالها لا يعرفها كل أحد، ومن يعرف منها شيئا فلا يعرف إلا قدرا يسيرا. فإن جميع أجزاء العالم، سماءه وكواكبه، وما فيها من الأوضاع والحركة والاختصاصات، وعناصره من كثرة النار والهواء والماء والأرض، وما فيها من البحار والجبال والرياح، والمعدن والنبات والحيوان، لا تخلو ذرة من ذراته من حكم كثيرة من عشرة إلى ألف أو أكثر، وقليل منها جلية، وأكثرها دقيقة خفية، وبعضها متوسطة في الجلاء والخفاء، يعرفها المتفكرون في خلق السماوات والأرض، وأكثر الحكم الدقيقة مما لا يعرفها غير خالقها وموجودها. ثم ما عدا الإنسان من الأشياء المجردة والمادية، الروحانية والجسمانية، جارية على وفق الحكمة، ومستعملة ذواتها وأجزاؤها وما يتعلق بها على الوجه الذي هو مقتضى المصلحة المقصودة منها وأما الإنسان فلكونه محل الاختيار ومجراه فقد يجري ويستعمل الأشياء التي يتمكن من استعمالها على خلاف ذلك، فيكون كافرا بنعمة الله سبحانه. فمن ضرب غيره بيده فقد كفر نعمة الله في اليد، إذ خلقت له اليد ليدفع بها عن نفسه ما يؤذيه، ويأخذ ما ينفعه، لا ليهلك به غيره. ومن نظر إلى وجه غير المحرم فقد كفر نعمة العين، لأنها خلقت ليبصر بها ما ينفعه في دينه ودنياه، ويتقي بها ما يضره فيهما. ومن أدخر الدراهم والدنانير وحبسهما فقد كفر نعمة الله فيهما، لأنهما حجران لا منفعة ولا عوض في أعيانهما، وإنما خلقهما الله تعالى ليكونا حاكمين يحصل بهما التعديل والمساواة والتقدير بين سائر الأموال من الأعيان المتناثرة المتباعدة، فهما عزيزان في أنفسهما. ولا غرض في أعينهما. ونسبتهما إلى سائر الأموال نسبة واحدة. فمن ملكهما فكأنه ملك، كل شئ لا كمن ملك ثوبا، فإنه لا يملك إلا الثوب. فإن أحتاج إلى طعام ربما لم يرغب صاحب الطعام في الثوب، إذ لا غرض له في ذاته، بخلاف النقدين، فإنهما من حيث الصورة كأنهما ليسا بشئ، ومن حيث المعنى كإنهما كل الشئ. والأشياء إنما تستوي نسبتها إلى المختلفات – إذا لم يكن لها صورة خاصة تقيدها

بخصوصها - كالمرآة لا لون لها وتحكي كل لون، وكالحرف لا معنى لها في نفسها بل تظهر لها المعاني في غيرها، وكذلك النقدان، لا غرض فيهما مع كونهما وسيلة إلى كل غرض. فالحكمة في خلقهما أن يحكما بين الأموال بالعدل، وتعرف بهما المقادير المختلفة، وتقوم بهما الأشياء المتباينة، ويحصل التوسل بهما إلى سائر الأموال. فيلزم إطلاقهما لتداولهما الأيدي، وتحصل بهما التسوية في تبادل الأعيان والمنافع المتخالفة، فمن ادخرهما وحبسهما فقد ظلمهما، وأبطل الحكمة فيهما، وكفر نعمة الله فيهما، وكان كمن حبس حاكم المسلمين في سجن، ومن لم يدخرهما ولم يتصرف أزيد مما يحصل به التوصل إلى ما يحتاج، وأنفق الزائد في سبيل الله، فهو الذي استعملهما على وفق الحكمة وشكر نعمة الله فيهما. ولما عجز أكثر الناس عن قراءة الأسطر الإلهية المكتوبة على صفحاتها في فائدتهما وحكمتهما بخط إلهي لا حرف فيه ولا صوت، أخبرهم الله عن ذلك بقوله:

(والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم) ٩

وبما ذكرنا من وجه الحكمة فيهما، يظهر أن من أتخذ الأواني منهما فقد كفر نعمة الله فيهما أيضا، وكذا من عاملة معاملة الربا فيهما فقد كفر النعمة وظلم، لأنها أنما خلقا لغيرهما لا لأنفسهما، إذ لا غرض في عينيهما، فإذا أتجر في عينهما فقد اتخذهما مقصودا لأنفسهما على خلاف وضع الحكمة، وكذلك الحكمة في خلق الأطعمة أن يتغذى بها فلا ينبغي أن تصرف عن جهتها وتقيد في الأيدي، بل اللازم أن تخرج عن يد المستغني عنها إلى المحتاج. ولذا ورد في الشرع حرمة الاحتكار والمنع عن معاملة الربا في الأطعمة، لأن ذلك يوجب صرفها عن الحكمة المقصودة منها. وإذا عرفت ذلك، فقس عليه جميع أفعالك وأعمالك وحركاتك وسكناتك، فإن كل فعل يصدر منك أما شكر أو كفران لا يتصور أن ينفك عنهما، مثلا لو استنجيت باليمين، فقد كفرت نعمة اليدين، إذ خلق الله اليدين وجعل

---

(٩) التوبة، الآية: ٣٥

إحداهما أقوى، واستحق الأقوى لرجحانه التفضيل، وتفضيل الناقص عليه عدول عن العدل، وهذا التفضيل إنما يتصور بأن تصرف الأقوى في الأفعال الشريفة، كأخذ المصحف وأكل الطعام، وتصرف الأضعف في الأعمال الخسيسة، كإزالة النجاسة، فمن خالف ذلك فقد عدل عن العدل وأبطل الحكمة وكفر النعمة، وكذلك إذا لبست خفك فابتدأت باليسرى فقد ظلمت، لأن الخف وقاية للرجل، فللرجل فيه حظ، والبداءة في الحظوظ ينبغي أن تكون بالأشرف، وهو العدل والعمل على وفق الحكمة، فخلافه ظلم وكفران. وكذلك إن استقبلت القبلة عند قضاء الحاجة، فقد كفرت نعمة الله في خلق الجهات وخلق سعة العالم، لأنه خلق الجهات متعددة متسعة، وشرف بعضها بأن وضع فيه بيته، فينبغي استقباله بالأفعال الشريفة، كالصلاة والجلوس للذكر والاغتسال والوضوء دون الأفعال الخسيسة، كقضاء الحاجة ورمي البزاق، فمن قضى حاجته أو رمى بزاقه إلى جهة القبلة فقد ظلمها وكفر نعمة الله. وكذلك من كسر غصنا من شجرة من غير حاجة مهمة، ومن غير غرض صحيح، فقد كفر نعمة الله في خلق الأشجار وفي خلق اليد. أما اليد فلأنها لم تخلق للعبث، بل للطاعة المعينة عليها. وأما الشجر، فلأن الله تعالى خلقه، وخلق له العروق وساق إليه الماء، وخلق فيه قوة الاغتذاء والنماء ليبلغ منتهى نشوه فينتفع به عباده، فكسره قبل منتهى نشوه لأعلى وجه ينتفع به عباده، مخالفة المقصود الحكمة وعدول عن العدالة. نعم أن كان له غرض صحيح في كسره فله ذلك. إذ الشجر والحيوان جعلا فداءين لأغراض الإنسان، فإنهما جميعا فانيان هالكان. فإفناء الأخس في بقاء الأشرف مدة ما أقرب إلى العدل من تضييعهما جميعا. وإليه الإشارة بقوله تعالى:

(وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعا) ١٠

ثم هذه الأفعال المتصفة بالكفران، بعضها يوجب نقصان القرب وانحطاط المنزلة، وبعضها يخرج بالكلية عن حدود القرب إلى عالم البعد

----

(١٠) الجاثية الآية: ١٢

الذي هو أفق الشياطين. ولذلك يوصف بعضها - في لسان الفقه - بالكراهة وبعضها بالحضر. وقد سومح في الفقه حيث جعل فيه بعض هذه المكاره مكروهة غير محضورة، مع أن جميعها عدول عن العدل، وكفران للنعمة، ونقصان عن الدرجة المبلغة إلى القرب، لأن الخطاب به إنما هو إلى العوام الذين تقرب درجتهم من درجة الأنعام، وقد انغمسوا في ظلمات أعظم من أن تظهر أمثال هذه الظلمات بالإضافة إليها. فإن المعاصي كلها ظلمات، إلا أن بعضها فوق بعض، فيتمحق بعضها في جنب البعض. ولذا ترى أن السيد يعاتب عبده إذا استعمل سكينه بغير أذنه، ولكن لو قتل، بهذا السكين أعز أولاده لم يبق لاستعمال السكين بغير أذنه حكم ونكاية في نفسه. ولذا جميع هذه المكاره موصوفة عند أرباب القلوب بالحضر، ولا يتسامحون في شئ مما راعاه الأنبياء والأولياء من الآداب. حتى نقل: (أن بعضهم جمع أكرارا من الحنطة يتصدق بها، فسئل عن سببه فقال: لبست المداس مرة فابتدأت بالرجل اليسرى سهوا، فأريد أن أكفره بالصدقة).

فصل

أقسام النعم واللذات

إعلم أن النعمة عبارة عن كل خير ولذة وسعادة، بل كل مطلوب ومؤثر. وهي تنقسم إلى مؤثر لذاته لا لغيره، أي تكون غاية مطلوبة لذاتها ليس فوقها غاية أخرى، وهي مخصوصة بسعادة الآخرة التي لا انقضاء لها، أعني لذة النظر إلى وجه الله، وسعادة لقائه، وسائر لذات الجنة، من البقاء الذي لا فناء له، والسرور الذي لا غم فيه، والعلم الذي لا جهل معه، الغنى الذي لا فقر بعده وغير ذلك. فإنها لا تطلب ليتوصل بها إلى غاية أخرى مقصودة وراءها، بل تطلب لذاتها، وهذه هي النعمة الحقيقية واللذة الواقعية، ولذلك قال رسول الله (ص): (لا عيش إلا عيش الآخرة)، وغالب هذه النعمة والسعادة وأقواها وأشرفها هي اللذة والبهجة المرضية العقلية دون الجسمانية - كما لا يخفى -، فيختص بإدراكها العقل، ولاحظ للسمع والبصر والشم والبطن والفرج فيها. وإلى ما يقصد لغيره، أي تكون مطلوبة لأجل الغاية المطلوبة لذاتها ووسيلة إليها، سواء أكانت مقصودة

لذاتها أيضا أم لا. وهي تنقسم إلى أربعة أقسام:
القسم الأول – وهو الأقرب الأخص: الفضائل النفسية المذكورة في هذا الكتاب، ويجمعها العلم والعفة والشجاعة والعدالة، وهذه مع كونها لذيذة في نفسها، تكون وسيلة إلى النعمة التي هي غاية الغايات بلا توسط وسيلة أخرى. ولذلك قلنا: هي أقرب الوسائل وأخصها. وأشرفها العلم وأشرف أفراد العلم: العلم بالله وصفاته وملائكته ورسله، وأحوال النشأة الآخرة، وسائر أفعاله، وعلم المعاملة الراجع إلى علم الأخلاق، إذ هو الذي يؤدي إلى السعادة الحقيقية بلا توسط شئ آخر، وسائر العلوم إنما هي مقصودة من حيث كونها وسائل إلى هذا العلم، وهذه الفضائل لذيذة في الدنيا والآخرة نافعة فيهما، أي تؤدي إلى الراحة فيهما، وجميلة على الإطلاق، أي تستحسن في جميع الأحوال. ضدها – أعني الجهل والأخلاق السيئة – ضارة مؤلمة في الدارين، قبيحة على الإطلاق. وسائر الصفاة ليست جامعة لهذه الأوصاف. فإن أكل لذائذ الأطعمة وطيباتها يوجب اللذة والنفع، أي حصول الراحة في الحال، ولكنه ضار في المال، وترك الشهوات بعكس ذلك.
ثم لذة المعرفة وفضائل الأخلاق دائمة لازمة لا تزول أبدا، لا في الدنيا ولا في الآخرة، وعقلية يختص بإدراكها العقل دون سائر الحواس. وأما غيرها من اللذات، فبعضها مما يشترك فيه الإنسان وبعض الحيوانات، كلذة الرئاسة والغلبة والاستيلاء، وهذه اللذة موجودة في الأسد والنمر وبعض أخر من الحيوانات وبعضها مما يشترك فيه الإنسان وسائر الحيوانات، كلذة البطن والفرج وهي أخس اللذات ولذلك اشترك فيها كلما ما دب ودرج، حتى الديدان والحشرات. فمن جاوز هذه اللذة، تشبثت به لذة الغلبة والاستيلاء، فإن جاوزها أيضا ارتقى إلى اللذة العقلية، فصار أقرب اللذات عليه لذة المعرفة، لا سيما لذة معرفة الله ومعرفة صفاته وأفعاله. وهذه مرتبة الصديقين، ولا ينال تمامها إلا بخروج حب الرئاسة من القلب، وآخر ما يخرج من رؤس الصديقين حب الرئاسة والجاه، ولذلك قمعها بالكلية، بحيث لا يقع بها الاحساس قط، يشبه أن يكون

خارجا عن مقدرة البشر. نعم ربما غلبت لذة المعرفة في أحوال، بحيث لا يقع معها الاحساس بلذة الجاه والرئاسة، إلا أن ذلك لا يدوم، بل تعتريه الفترات، فتعود إلى الحالة البشرية. وعلى هذا تنقسم القلوب إلى
أربعة أقسام: لا يحب إلا الله، ولا يستريح إلا إليه، وليس فرحه إلا بزيادة المعرفة والفكر فيه، ولا يسكن إلا بحبه وأنسه، وقلب: أغلب أحواله الأنس بالله والتلذذ بمعرفته والفكر فيه، ولكن في بعض الأوقات والأحوال يعتريه الرجوع إلى أوصاف البشرية. وقلب: أغلب أحواله التلذذ بالجاه والرئاسة والمال وسائر الشهوات البدنية، وفي بعض الأوقات يتلذذ بالعلم والمعرفة وحب الله والأنس به. وقلب: لا يدري ما لذة المعرفة وما معنى الأنس بالله، وإنما لذته بالرئاسات والشهوات. والأول - أن كان ممكنا في الوجود فهو في غاية الندور. والثاني - أيضا نادر. والسر في ندور هذين القسمين: أن من انحصرت لذاته بمعرفة الله وحبه وأنسه، أو غلب عليه ذلك، فهو من ملوك الآخرة، والملوك هم الأقلون ولا يكثرون فكما لا يكون الفائق في الملك والاستيلاء في الدنيا إلا نادرا، وأكثر الناس دونهم، فكذا في ملك الآخرة فإن الدنيا مرآة الآخرة. إذ الدنيا عالم
الشهادة وفي الآخرة عالم الغيب، وعالم الشهادة تابع لعالم الغيب، كما إن الصورة في المرآة تابعة لصورة الناظر في المرآة، وهي وإن كانت الثانية في رتبة الوجود، إلا أنها في أمر الرؤية أولى، لأنك ترى صورتك في المرآة أولا، ثم ترى نفسك، فتعرف بالصورة القائمة بالمرآة صورتك التي هي قائمة بك ثانيا على سبيل المحاكاة، فانقلب التابع في الوجود متبوعا في حق الرؤيا والمعرفة، وانقلب المتأخر متقدما. وهذا النوع من الانعكاس والانتكاس ضرورة هذا العالم. وكذا عالم الملك والشهادة يحاكي عالم الغيب والملكوت، فمن الناس من لا ينظر في مرآة عالم الشهادة إلا بنظر الاعتبار، فلا ينظر في شئ من عالم الملك إلا ويعبر به إلى عالم الملكوت، فيسمى عبوره عبرة، وقد أمر الخلق به، فقيل:
(فاعتبروا يا أولي الأبصار) ١١

----

(١١) الحشر الآية: ٢

ومنهم من عميت بصيرته، فلم يعتبر، فاحتبس في عالم الملك والشهادة وستفتح إلى حبسه له أبواب جهنم. وأما الثالث – فأكثر وجودا منه.
وأما الرابع – فدار الدنيا طافحة به، لقصور أكثر الناس عن إدراك لذة العلم، إما لعدم الذوق، إذ من لم يعرف ولم يشتق، إذ الشوق فرع الذوق وذلك إما لقصور فطرتهم وعدم اتصافهم بعد بالصفة التي بها يستلذ العلم، كالطفل الرضيع الذي لا يدرك لذة العسل، ولا يستلذ إلا باللبن، فهؤلاء ممن يحيي باطنه بعد كالطفل. وإما لمرض قلوبهم أو موتها بسبب أتباع الشهوات، كالمريض الذي لا يدرك لذة الشكر، أو الميت الذي سقط عنه الإدراك، وهؤلاء كالمرضى أو الأموات بسبب اتباع الشهوات.
القسم الثاني – الفضائل البدنية: وهي أربعة: الصحة، والقوة، وطول العمر، والجمال.
الثالث – النعم الخارجة المضيفة بالبدن: وهي: المال، والجاه، والأهل، وكرم العشيرة.
الرابع – الأسباب التي تناسب وجه الفضائل النفسية، ويعبر عنها بالنعم التوفيقية: وهي هداية الله، ورشدة، وتسديده، وتأييده وهذه الجملة مما يتوقف بعضها على بعض، إلى أن ينتهي إلى السعادة التي هي مطلوبة لذاتها. والتوقف إما على سبيل اللزوم والضرورة، كتوقف سعادة الآخرة على الفضائل النفسية والبدنية، وتوقف الفضائل النفسية على صحة البدن، أو على سبيل النفع والإعانة، كتوقف الفضائل النفسية والبدنية على النعم الخارجة. ووجه كونها معينة نافعة في تحصيل العلم وتهذيب الأخلاق وصحة البدن ظاهر. وإعانة الجمال في كسب الفضائل النفسية والبدنية مبني على أن القبيح مذموم، والطباع عنه نافرة، فحاجات الجميل إلى الإجابة أقرب، وجاهه في الصدور أوسع. وأيضا الغالب دلالة الجمال على فضيلة النفس، لأن نور النفس إذا تم إشراقه تأدى إلى البدن. ولذلك عول أصحاب الفراسة في معرفة مكارم النفس على هيئات البدن. ثم إنا لا نعني بالجمال ما يحرك الشهوة، فإن ذلك أنوثة، بل نعني به البراءة عن العيوب والنقص والزيادة، وارتفاع القامة على الاستقامة، مع الاعتدال

في اللحم، وتناسب الأعضاء، وتناسب خلقة الوجه، بحيث لا تنبو الطباع عن النظر إليه. وأما احتياج الفضائل الخلقية والجسمية والخارجية إلى النعم التوقيفية، فلأن المراد بالتوقيفية هو التآلف بين إرادة العبد وبين قضاء الله وقدره، بشرط كون المراد والمقضى سعادة. وبعبارة أخرى: هو توجيه الأسباب نحو المطلوب.

وأما الهداية، فلها مراتب: أولاها: الهداية العامة، وهي إراءة طريق الخير وتعريفه. وثانيتها: الخاصة، وهي الإفاضات المتتالية الواردة من الله على بعض عبيده، نظرا إلى مجاهدتهم. وثالثتها: الهداية المطلقة، وهي النور الذي يشرق في عالم النبوة والولاية فيهتدى بهما إلى ما لا يهتدى إليه بالعقل. وتوقف تحصيل كل خير وفضيلة، كائنا ما كان، على مساعدة القضاء والقدر، وعلى العلم بطريق الخير، ظاهر.

وأما الرشد، فالمراد به العناية الإلهية، التي تعين الإنسان عند توجهه إلى مقاصده، فيقويه على ما فيه صلاحه، ويفتره عما فيه فساده، ويكون ذلك من الباطن. وبعبارة أخرى: هو هداية باعثة إلى جهة السعادة محركة إليها. وقد ظهر احتياج تحصيل الخير والسعادة إليه من مفهومه.

وأما التسديد، فهو توجيه حركاته إلى صوب المطلوب وتيسرها عليه، ليصل إليه في أسرع وقت. فالهداية محض التعريف، والرشد هو تنبيه الداعية لتستيقظ وتتحرك، والتسديد إعانة ونصرة بتحريك الأعضاء إلى صوب الصواب والسداد. وقد ظهر وجه كون التسديد معينا في طلب الخير أيضا من حاق معناه.

وأما التأييد، فإنه جامع للكل، بل هو عبارة عن تقوية أمره بالبصيرة فكأنه من داخل، وبقوة البطش ومساعدة الأسباب من خارج. وتقرب منه العصمة، وهي عبارة عن وجود إلهي يسنح في الباطن يقوى به الإنسان على تحري الخير وتجنب الشر، حتى يصير كمانع باطني غير محسوس يمنع عن الشر. وهو المراد من برهان الرب في قوله تعالى: (ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه) (١٢)

----

(١٢) يوسف، الآية: ٢٤.

تنبيه

إعلم أن النعم الأخروية، التي هي الغايات المطلوبة لذواتها، وتفاصيلها وأسبابها وما يتوقف وجودها عليه، إلى أن ينتهي إلى مسبب الأسباب، مما لا يمكن دركها، والعقول البشرية قاصرة عن درك قليلها فضلا عن كثيرها.

وأما الوسائل الأربعة من النعم التي انقسم كل منها أيضا إلى أربعة أقسام، وصار مجموعها ستة عشر قسما، فيستدعي كل قسم من الستة عشر أسبابا، وتلك الأسباب أسبابا، حتى تنتهي بالآخرة إلى مسبب الأسباب وموجود الكل. والمتفكر يعلم، أن كلا منها يتوقف على نعم وأسباب أخرى متسلسلة خارجة عن حد الاحصاء. فإن نعمة الصحة التي من النعم الواقعة في المرتبة المتأخرة تتوقف على أسباب ونعم من جملتها نعمة الأكل، فإن إحصاءها وإن لم يكن ممكنا، إلا أنا نشير إلى بعضها على سبيل التلويح دون الاستقصاء، لتقاس عليها البواقي. فنقول:

نعمة الأكل تتوقف على إدراك الغذاء وأسبابه، وعلى شهوة الطعام وميله وإرادته وأسبابه، وعلى القدرة إلى تحصيله وأسبابه، وعلى وجود أصل الغذاء المأكول وتكونه، وعلى إصلاحه بعد وجوده وتكونه، وعلى الأسباب الموصلة له إلى كل إنسان أو كان بعيدا عنه، وعلى أسباب الطحن والجذب والهضم والدفع وسائر الأفعال الباطنة إلى أن يصير جزء للبدن، وعلى الملائكة الموكلين على فعل من الأفعال المذكورة. فها هي نذكرها إجمالا وتلويحا في فصول:

فصل

الأكل

الأكل يتوقف أولا على إدراك الغذاء المأكول رؤية ولمسا واستشماما وذوقا، إذ ما لم يبصره لم يمكنه تمييزه وطلبه، وما لم يلامسه لم يتمكن من درك بعض أوصافه اللازمة في الأكل، وما لم يشمه لم يتشخص ما يكرهه رائحته عما تطيب رائحته، وربما توقف تحصيله على استشمام رائحته من بعد، لا سيما لبعض الحيوانات، وما لم يذقه لم يدرك أنه موافق أو مخالف له، وبذلك ظهر توقفه على خلق الحواس المدركة الظاهرة، فخلقها الله

سبحانه. ثم، الأسباب التي يتوقف عليها خلق هذه الحواس مما لا تتناهى، فلا نتعرض لبيانها. وبعد إدراك الغذاء – على ما ذكر – لا بد له من قوة أخرى يعرف بها كون الغذاء الذي ذاقه سابقا ورآه مرة أخرى موافقا أو مخالفا، وهذه القوة هي الحس المشترك، الذي يتأدى إليه جميع المحسوسات ويجتمع فيه، فإنك إذا أكلت شيئا أصفر مثلا فوجدته مرا مخالفا لك فتركته فإذا رأيته مرة أخرى فلا تعرف أنه مر ما لم تذقه، لولا الحس المشترك، إذ العين تبصر الصفرة ولا تدرك المرارة، والذوق يدرك المرارة ولا يدرك الصفرة، فلا بد من حاكم يجتمع عنده الصفرة والمرارة جميعا، حتى إذا أدرك الصفرة حكم بأنه مر، فيمتنع عن تناوله ثانيا. وهذه القوة – أعني الحس المشترك – يتوقف خلقه على أسباب ونعم لا يمكن إحصاؤها، فلتذرها على سنابلها.

ثم الإدراك بالحواس الظاهرة والحس المشترك، مما تشترك فيه سائر الحيوانات، ولو انحصر إدراك الإنسان أيضا به لكان ناقصا. إذ البهيمة تأكل ما تستلذ به في الحال ويضرها في ثاني الحال، فتمرض وتموت، إذ ليس لها إلا الإحساس بالحاضر، وأما إدراك العواقب فليس لها إليه سبيل. فيتوقف تمييز صلاح العواقب وفسادها على قوة أخرى. فخلق الله للانسان العقل، به يدرك مضرة الأطعمة ومنفعتها في المآكل، وبه يدرك كيفية طبخ الأطعمة وتركيبها وأعداد أسبابها، فينتفع بعقله في الأكل الذي هو سبب صحته وهو أخس فوائد العقل وأقل الحكم فيه، إذ الحكم والفوائد المترتبة عليه أكثر من أن تحصى، وأعظم الحكم فيه معرفة الله ومعرفة صفاته وأفعاله. والعقل بمنزلة السلطان في مملكة البدن، والحواس الخمس كالجواسيس وأصحاب الأخبار والموكلين بنواحي المملكة، وقد وكل كل واحدة منها بأمر خاص. فواحدة بأخبار الألوان، وأخرى بأخبار الأصوات وأخرى بأخبار الروائح، وأخرى بأخبار الطعون، وأخرى بأخبار الحر والبرد والخشونة والملاسة واللين والصلابة. فهذه الجواسيس يقتنصون الأخبار من أقطار المملكة، ويسلمونها إلى الحس المشترك، وهو قاعد في مقدمة الدماغ، مثل صاحب الكتب والقصص على باب الملك، يجمع

القصص والكتب الواردة من نواحي العالم، ويأخذها ويسلمها إلى العقل الذي هو السلطان مختومة، إذ ليس له إلا أخذها وحفظها، وأما معرفة حقائق ما فيها فليس إليه. ولكن إذا صادف القلب العاقل الذي هو الأمير والملك سلم، لأنها آتية إليه مختومة، فيفتشها الملك ويطلع على أسرار المملكة، ويحكم فيها بأحكام عجيبة لا يمكن استقصاؤها. وبحسب ما يلوح له من الأحكام والمصالح يحرك الجنود - أعني الأعضاء - في الطلب أو الهرب أو إتمام التدبيرات التي تعن له. ثم عجائب حكم العقل والأسباب التي يتوقف خلقه عليها ليس دركها في مقدرة البشر، وهذه ما يتوقف عليه الأكل من الإدراكات وأسبابها.

فصل

لا فائدة في الغذاء ما لم يكن بشهوة وميل

إذا أدرك الغذاء، لم يفد فائدة ما لم تكن شهوة له وميل وشوق إليه.

إذ لولا الميل إليه لكان إدراكه بأي حس وقوة فرضا معطلا. ألا ترى أن المريض يرى الطعام ويدرك أنه أنفع الأشياء له، وقد سقطت شهوته، فلا يتناوله، فيبقى البصر والإدراك معطلا في حقه؟ فيتوقف الأكل على ميل إلى الموافق، ويسمى شهوة، ونفرة عن المخالف، ويسمى كراهة. فخلق الله شهوة الطعام وسلطها على الإنسان كالمتقاضي الذي يضطره إلى التناول، وهذه الشهوة لو لم تسكن بعد أخذ قدر الحاجة لأسرفت وأهلكت نفسه، فخلق الله الكراهة عند الشبع لترك الأكل بها، ولم يجعلها كالزرع الذي لا يزال يجتذب الماء إذا أنصب في أسافله حتى يفسد، ولذلك يحتاج إلى آدمي يقدر غذاءه بقدر الحاجة، فيسقيه مرة ويقطع عنه الماء أخرى. ثم مجرد الميل والشهوة لا يكفي، ما لم تنبعث الداعية إلى تناول الغذاء، فخلق الله تعالى له الإرادة أعني انبعاث النفس إلى تناوله. وربما حصل الاحتياج إلى قوة الغضب أيضا ليندفع عن نفسه المؤذي وما يضاده ويخالفه، ومن أراد أن يأخذ منه ما حصله من الغذاء. ثم لكل واحد من الشهوة، والكراهة، والإرادة، والغضب، أسباب لا يمكن إحصاؤها. ثم بعد أدراك الغذاء وميله وشهوته وإرادته، لا يفيد شيئا من ذلك ما لم يتحقق الطلب والأخذ بالفعل بآلاتهما. فكم من زمن شائق إلى شئ بعيد منه مدرك له مائل

إليه مريد له، لا يمكنه أن يمشي إليه لفقد رجله، أو لا يمكنه أن يتناوله لفقد يده أو لفلج أو عذر فيهما. فلا بد من آلات للحركة، وقدرة في تلك الآلات على الحركة، لتكون حركتها بمقتضى الشهوة طلبا فلذلك خلق الله تعالى لك الأعضاء التي تنظر إلى ظاهرها ولا تعرف أسرارها. فمنها ما هو آلة للطلب، كالرجل للانسان، والجناح للطير، والقوائم للدواب. ومنها ما هو آلة لدفع المؤذي والمانع من طلب الغذاء، كالقرن لبعض الحيوانات، والأنياب لبعض أخر منها، والمخلب لبعض آخر منها، والأسلحة للانسان القائمة مقام هذه الآلة. ومنها ما هو آلة للأخذ والتناول، فاليدين للانسان. ثم لهذه الأعضاء أسباب وحكم خارجة عن الحد والحصر، وقد تقدم قليل من حكمها وعجائبها في باب التفكر.

فصل

عجائب المأكولات

عمدة ما يتوقف عليه الأكل وأصله ومناطه، هي الأغذية والأطعمة المأكولة، ولله تعالى في خلقها عجائب كثيرة لا تحصى، وأسباب متوالية لا تتناهى. والأغذية والأدوية من الأطعمة لم يبلغ عددها من الكثرة حدا يمكن إحصاؤها وحصرها، فضلا عن بيان عجائبها وأسبابها. فنحن نترك الجميع، ونأخذ من جملتها حبة من الحنطة، ونبين بعض أسبابها وحكمها وعجائبها. فنقول:

قد خلق الله في حبة الحنطة من القوى ما يتغذى به كما خلق فيك، فإن النبات إنما يفارقك في الحس والحركة دون الاغتذاء، لأنه يتغذى بالماء. ولا تتعرض لذكر آلات النبات في اجتذاب الغذاء إلى نفسه، بل نشير إلى لمعة من كيفية اغتذاء الحبة. فنقول:

أن الحبة لا تغتذي بكل شئ، بل يتوقف اغتذاؤها على أرض فيها ماء. ولا بد أن تكون أرضها رخوة متخلخلة بتغلغل الهواء إليها، فلو تركتها في أرض ندية صلبة متراكمة لم تنبت لفقد الهواء. ثم الهواء لا يتحرك إليها بنفسه، فلا بد من حصول أسباب الريح حتى تحرك الهواء وتضربه وينفذ فيها بقهر وعنف، وإليه الإشارة بقوله تعالى:

(وأرسلنا الرياح لواقح) ١٣
وإلقاحها إنما هو إيقاعها الازدواج بين الهواء والماء والأرض. ثم لا يكفي ذلك في إنباته في برد مفرط، فيحتاج إلى حرارة الصيف والربيع. فهذه أربعة أسباب، فإن الماء لا بد أن ينساق إلى أرض الزراعة من البحار والشطوط والأنهار والعيون والسواقي، فانظر كيف خلق الله جميع ذلك. ثم الأرض ربما تكون مرتفعة لا ترتفع إليها مياه العيون والقنوات، فخلق الله الغيوم، وهي سحب ثقال حاملات للماء، وسلط عليها الرياح لتسويقها بإذنه إلى أقطار العالم من المرتفعات والمنخفضات، وترسلها مدرارا على الأراضي في وقت الربيع والخريف على حسب الحاجة، ثم خلق الجبال حافظة للمياه تنفجر منها العيون تدريجا على قدر الحاجة، ولو خرجت دفعة لغرقت البلاد، وهلك الزرع والمواشي. ونعم الله تعالى وعجائب صنعه وحكمته في السحاب والبحار والجبال والأمطار لا يمكن إحصاؤها. وأما الحرارة، فإنها لا يمكن أن تحصل في الماء والأرض، لكونهما باردين. فخلق الله الشمس، وسخرها، وجعلها – مع بعدها عن الأرض – مسخنة لها في وقت دون وقت، ليحصل الحر عند الحاجة إليه، والبرد عند الافتقار إليه، وهذه أخس حكم الشمس، والحكم فيها أكثر من أن تحصى. ثم النبات إذا أرتفع على الأرض كان في الفواكه انعقاد وصلابة، فتفتقر إلى رطوبة تنضجها، فخلق الله القمر، وجعل من خاصيته الترطيب، كما يظهر لك ذلك إذا كشفت رأسك له في الليل، فإنه تغلب على رأسك الرطوبة المعبر عنها ب (الزكام)، فهو بترطيبه ينضج الفواكه ويرطبها، ويصبغها بتقدير الخالق الحكيم. وهذا أيضا أخس فوائد القمر وحكمه، وما فيه من الحكم والفوائد لا مطمع في استقصائه، بل كل كوكب في السماء فقد سخر لفوائد كثيرة لا تفي القوى البشرية بإحصائها. وكما أنه ليس في أعضاء البدن عضو لا فائدة فيه، فكذلك ليس عضو من أعضاء بدن العالم لا تكون فيه فائدة أو فوائد كثيرة. والعالم كله كشخص واحد، وآحاد أجسامه

---

(١٣) الحجرة الآية: ٢٢

كالأعضاء له، وهي متفاوتة تفاوت أعضاء البدن، وشرح ذلك ليس في مقدرة البشر وكلها مسخرات لله سبحانه، وآثار من قدرته الكاملة، ورشحات من أبحر عظمته الباهرة، وليست في أنفسها إلا أعدام صرفة.
فأرباب القلوب العارفون بالله المحبون له، إذا نظروا إلى ملكوت السماوات والأرض، والآفاق والأنفس، والحيوانات والنباتات، لا ينظرون إليها إلا من حيث أنها آثار قدرة ربهم، ورشحات صفاته، ويكون تفكرهم وسعيهم في العثور على عجائبها وحكمها، وابتهاجهم وشغفهم لأجل ذلك. كما أن من أحب عالما لم يزل مشغوفا بطلب تصانيفه، فيزداد بمزيد الوقوف على عجائب علمه حبا له. فكذلك الأمر في عجائب صنع الله، فإن العالم كله من تصنيفه تعالى، بل جميع المصنفين أيضا من تصنيفه الذي صنفه بواسطة قلوب عباده. فإن تعجبت من تصنيف، فلا تتعجب من المصنف، بل من الذي سخر المصنف لتأليفه بما أنعم عليه من هدايته وتسديده وتعريفه.
كما إذا رأيت لعب المشعوذ (١٤) يترقص ويتحرك حركات موزونة متناسبة، فلا تتعجب من اللعب، فإنها خرق محركة لا متحركة، ولكن تعجب من حذق المشعوذ المحرك لها بروابط دقيقة عن الأبصار. وقد ظهر أن غذاء النبات لا يتم إلا بالماء والهواء والشمس والقمر والكواكب، ولا يتم ذلك إلا بالأفلاك التي هي مركوزة فيها، ولا تتم الأفلاك إلا بحركاتها، ولا تتم حركاتها إلا بملائكة سماوية يحركونها، وكذلك تتسلسل الأسباب إلى أن تنتهي إلى مسبب الأسباب وغاية الكل، وليس لنا سبيل إلى إدراك تفاصيلها واستنباط عجائب حكمها ودقائق مصالحها.

فصل

حاجة تحضير الطعام إلى آلاف الأسباب

ثم ما ينبت من الأرض من النبات، وما يحصل من الحيوانات، لا يمكن أن تقضم وتؤكل كذلك، بل لا بد في كل واحد من إصلاح وطبخ وتركيب وتنظيف، بإلقاء البعض وإبقاء البعض، إلى غير ذلك من الأعمال التي لا تحصى، وكل من الأطعمة يتوقف إصلاحها على أمور خاصة كثيرة،

---

(١٤) المشعوذ: الرجل الحيال الذي يصنع الشعبذة.

واستقصاء ذلك في كل طعام طويل. فلنأخذ رغيفا واحدا، وننظر إلى بعض ما يحتاج إليه حتى يستدير ويصلح للأكل، إذ بيان جميع ما يحتاج إليه حتى يستدير الرغيف الواحد ليس ممكنا، فنقول:

أول ما يتوقف عليه هذا الرغيف الأرض، ثم القاء البذر فيها، ثم الثور الذي يثير الأرض مع آلته، كالفدان وغير ذلك، ثم تنقية الأرض من الحشائش، والتعهد بسقي الماء إلى أن يعقد الحب ويبدو صلاحه، ثم الحصاد، ثم الفرك، ثم التنقية والتصفية، ثم الطحن، ثم العجن، ثم الخبز. فتأمل عدد هذه الأفعال، واستحضر سائر الأفعال التي لم نذكرها، ثم تذكر عدد الأشخاص القائمين بها، وعدد الآلات التي يحتاج إليها. من الحديد والخشب والحجر وغيرها. وانظر إلى أعمال الصناع في إصلاح آلات الحراثة والتصفية والطحن والخبز من تجارة وحدادة وغيرهما، واحتياج كل منها إلى آلات كثيرة. ثم انظر كيف ألف الله سبحانه بين قلوب هؤلاء الصناع المصلحين، وسلط عليهم الأنس والمحبة، حتى ائتلفوا واجتمعوا وبنوا المدن والبلاد، ورتبوا المساكن والدور متجاورة متقاربة، وبنوا الأسواق والخانات وسائر أصناف البقاع، ولو تفرقت آراؤهم، وتنافرت طباعهم تنافر طباع الوحوش، لتبددوا وتباعدوا، ولم ينتفع بعضهم ببعض. ثم لما كان في جبلة الإنسان الغيظ والعداوة، والحسد والمنافسة، والانحراف عن الحق، ربما زالت المحبة بين البعض لأعراض، فيزدحمون عليها، ويتنافسون فيها، وربما أدى إلى التنافر والتقابل. فبعث الله الأنبياء بالشرائع والقوانين ليرجعوا إليها عند التنازع، فيرتفع نزاعهم. ثم بعث الله العلماء الذين هم ورثة الأنبياء لحفظ هذه الشرائع والعلم بها. وبعث الله السلاطين حتى يقيموا الناس قهرا عليها لو أرادوا التخلف عنها، فسلط الله السلاطين أولى القوة والعدة على الناس، وألقى رعبهم في قلوبهم، وألهمهم إصلاح العبادة، بأن رتبوا الرؤساء والقضاة والحكام والسجن والأسواق واضطروا الخلق إلى قانون الشرع والعدل، وألزموهم التآلف والتعاون، ومنعوهم عن التفرق والتباغض فإصلاح الرعايا والصناع بالسلاطين، وإصلاح السلاطين بالعلماء، وإصلاح العلماء بالأنبياء، وإصلاح الأنبياء بالملائكة

وإصلاح الملائكة بعضهم ببعض إلى أن ينتهي إلى حضرة الربوبية، التي هي ينبوع كل نظام، ومطلع كل حسن وجمال، ومنشأ كل ترتيب وتأليف وقد ظهر مما ذكر: إن من فتش يعلم أن رغيفا واحدا لا يستدير بحيث يصلح للأكل ما لم يعمل عليه آلاف ألوف من الملائكة وصناع الإنس.

فصل

تسخير الله التجار لجلب الطعام

ثم جميع الأطعمة لما لم يمكن أن يوجد في كل مكان وبلد، إذ لكل واحد شروط مخصوصة لأجلها، لا يمكن إلا أن يوجد في بعض الأماكن دون بعض، والناس منتشرون على وجه الأرض، وقد يبعد عنهم بعض ما يحتاجون إليه من الأطعمة، بحيث تحول بينهم وبينها البراري والبحار، فسخر الله – تعالى – التجار، وسلط عليهم حرص المال وشره الربح حتى يقاسوا الشدائد، ويركبوا الأخطار في قطع المفاوز وركوب البحار فيحملون الأطعمة وأنواع الحوائج من الشرق إلى الغرب ومن الغرب إلى الشرق. فانظر كيف علمهم الله صناعة السفن وكيفية الركوب فيها، وكيف خلق الحيوانات وسخرها للحمل والركوب في البوادي والجبال من الجمال وكيفية قطعها البراري والمراحل تحت الأعباء الثقيلة وصبرها على الجوع والعطش، ومن الخيل وكيفية سرعته سيرها وحركتها، ومن الحمار وصبره على التعب وانظر كيف خلق الله ما يحتاج إليه السفن وهذه الحيوانات من الأسباب والغذاء، وينتهي إلى حد لا يمكن تحديده.

فصل

نعم الله في خلق الملائكة للانسان

ثم مجرد وجود الغذاء وحضوره وإصلاحه لا يفيد فائدة ما لم يؤكل ويصير جزء للبدن. وهذا موقوف على أعمال كثيرة، محتاجة إلى أسباب كثيرة، من الطحن، والجذب، والهضم المعدي والكبدي، وغير ذلك من الأفعال التي يحتاج كل منه إلى أسباب كثيرة. وقد أشرنا إلى لمعة من كيفية ذلك في باب التفكر، فرجع إليه. وهنا تشير إلى أنموذج من نعمة الله في خلق الملائكة. فنقول:

أن كثرة الملائكة لم تبلغ حدا يمكن تصوره تفصيلا أو أجمالا. ولهم طبقات وأصناف: منها: طبقات الملائكة الأرضية. ومنها الملائكة السماوية. ومنها: حملة العرش العظيم ومنها: المسلسلون. ومنها: المهيمنون.. وغير ذلك مما لم نسمع اسمهم ورسمهم، ولا يحيط بهم إلا الله - سبحانه - فكل صنع من صنائع الله في الأرض والسماء لا يخلو عن ملك أو ملائكة موكلين به. فانظر كيف وكلهم الله بك فيما يرجع إلى الأكل والاغتذاء الذي كلامنا فيه، دون ما يجاوز، وذلك من صنائع الله وأفعاله، ومن الوحي إلى الأنبياء والهداية والإرشاد وغيرها، فإن استقصاء ذلك ليس من مقدورات البشر. فنقول: إن كل جزء من أجزاء بدنك، بل من أجزاء النبات، لا يغتذي إلا بأن يوكل به سبعة من الملائكة، هم أقل الأعداد إلى عشرة إلى مائة، إلى أكثر من ذلك بمراتب.

بيان ذلك: إن معنى الاغتذاء: أن يقوم جزء من الغذاء مقام جزء تلف من بدنك. وهذا موقوف على حركات وتغيرات واستحالات للغذاء، حتى يصير جزء للبدن كالجذب والهضم وصيرورته لحما وعظما. ومعلوم أن الغذاء والدم واللحم أجسام ليست لها قدرة ومعرفة واختيار حتى تتحرك وتتغير بأنفسها، ومجرد الطبع لا يكفي في ترددها في أطوارها، كما أن البر بنفسه لا يصير طحينا وعجينا وخبزا مطبوخا إلا بصناع، والصناع في الباطن هم الملائكة، كما أن الصناع في الظاهر هم أهل البلد. فالغذاء، بعد وضعه في الفم إلى أن يصير دما لا بد له من صناع من الملائكة، ولا تتعرض لهم ولبيان عددهم، ونقول: بعد صيرورته دما إلى أن يصير جزء للبدن، ويتوقف على سبعة من الملائكة، إذ لا بد من ملك يجذب الدم إلى جوار اللحم والعظم إذ الدم لا يتحرك بنفسه، ولا بد من ملك آخر يمسك الغذاء في جواره، ولا بد من ثالث يخلع عنه صورة الدم، ومن رابع يكسوه صورة اللحم والعظم والعرق، ومن خامس يدفع الفضل الزائد من الحاجة، ومن سادس يلصق ما اكتسب صفة اللحم باللحم، وما اكتسب صفة العظم بالعظم، وما اكتسب صفة العرق بالعرق حتى لا يكون منفصلا، ولا بد من سابع يراعي المقادير في الالصاق، فيلحق بالمستدير على ما لا يبطل استدارته، وبالعريض

على ما لا يبطل عرضه، وبالمجوف على ما لا يبطل تجويفه، وهكذا...
ويراعى في الالصاق لكل عضو ما يليق به ويحتاج إليه. فلو جمع لأنف الصبي - مثلا - من الغذاء ما يجمع على فخذه، لكبر أنفه، وبطل تجويفه وتشوهت صورته، بل ينبغي أن يسوق إلى الأجفان مع رقتها، وإلى الأفخاذ مع غلظتها، وإلى الحدقة مع صفائها، وإلى العظم مع صلابته، ما يليق بكل واحد منها من حيث القدر والشكل، ويراعي العدل في القسمة والتقسيط وإلا بطلت الصورة، وتشوهت الخلقة، ورق بعض المواقع وضعف البعض فمراعاة هذه الهندسة مفوضة إلى ملك من الملائكة. وإياك وأن تظن أن الدم بطبعه يهندس شكل نفسه، فإن من أحال هذه الأمور إلى الطبع جاهل ولا يدري ما يقول. فإن أراد من الطبع قوة عديمة الشعور ويقول: أن كل فعل من هذه الأفعال موكول إلى قوة لا شعور لها، فنقول ذلك أدل على عظمة الله وحكمته وقدرته، إذ لا ريب في أن ما لا شعور له ليس له في نفسه أن يفعل فعلا ما، فضلا عن أن يفعل أفعالا متقنة محكمة مشتملة على الحكم الدقيقة، والمصالح الجليلة والخفية. فتكون هذه شروطا ناقصة لإيجاد الله - سبحانه - هذه الأفعال بلا واسطة أو بواسطة عدد هذه القوى من الملائكة. وعلى أي تقدير، لا بد من سبعة أشخاص من مخلوق الله سبحانه - مسخرين في باطنك، موكلين بهذه الأفعال قد شغلوا بك وأنت في النوم تستريح، وفي الغفلة تتردد، وهم يصلحون الغذاء في باطنك ولا خبر لك منهم، وكذلك في كل جزء من أجزائك التي لا تتجزأ، حتى يفتقر بعض الأجزاء - كالعين والقلب - إلى أكثر من مائة ملك. ثم الملائكة الأرضية مددهم من الملائكة السماوية على ترتيب معلوم، لا يحيط بكنهه إلا الله، ومدد الملائكة السماوية من حملة العرش، والمنعم على جميعهم بالتأييد والتسديد والهداية المهيمن القدوس، المنفرد بالملك والملكوت والعزة والجبروت. ومن أراد أن يعلم - إجمالا - كثرة الملائكة الموكلين بالسماوات والأرضين، وأجراء النبات والحيوانات، والسحب والهواء والبحار والجبال والأمطار وغير ذلك، فليرجع في ذلك إلى الأخبار الواردة من الحجج - عليهم السلام -. ثم لا بد أن يفرض كل فعل من الأفعال السبعة المذكورة

إلى ملك من الملائكة، ويكون الموكل به ملكا واحدا على حدة، ولا يمكن أن يفوض جميعها إلى ملك واحد، كما لا يمكن أن يتولى إنسانا واحدا سبعة أعمال في الحنطة، كالطحن وتمييز النخالة، ودفع الفضلة عنه، وصب الماء عليه، والعجن، وقطعها كسرات مدورة، وترقيقها رغفانا عريضة، وإلصاقها بالتنور. إذ الملك وحداني الصفة ليس فيه خلط وتركيب من المتضادات. فلا يكون لكل واحد منهم إلا فعل واحد، كما أشير إليه بقوله - تعالى -:

(وما منا إلا له مقام معلوم) ١٥

ولذلك، ليس بينهم تحاسد وتنافس. ومثالهم في تعيين مرتبة كل واحد منهم وعدم مزاحمة الآخرين له مثال الحواس الخمس، وليس كالانسان الذي يتولى بنفسه أمورا مختلفة، وسبب ذلك اختلاف صفاته ودواعيه، فإنه لما لم يكن وحداني الصفة لم يكن وحداني الفعل، ولذلك ترى أنه يطيع الله تارة ويعصيه أخرى. وذلك غير موجود في الملائكة، فإنهم مجبولون على الطاعة لم تتصور في حقهم معصية، ولكل منهم طاعة خاصة معينة. فالراكع منهم راكع أبدا، والساجد منهم ساجد دائما، والقائم منهم قائم أبدا، لا اختلاف في أفعالهم ولا فتور، ولكل واحد منهم مقام معلوم.

وإذ قد ظهر لك عدد ما يحتاج إليه بعض أفعال مجرد الاغتذاء من الملائكة الأرضية المستمدين من الملائكة السماوية، فقس عليه سائر أفعال الاغتذاء، وسائر أفعالك الباطنة والظاهرة، فإن بيان ذلك ليس ممكنا. ثم قس على ذلك إجمالا جملة صنائع الله وأفعاله الواقعة في عالمي الجبروت والملكوت، وعالم الملك والشهادة، فسماواته وأرضه وما بينهما وما تحتهما وما فوقهما فإن أعداء الملائكة الموكلين بها غير متناهية، كيف ومجامع طبقات الملائكة وقد ظهر مما عرف من توقف كل نعمة على نعم كثيرة متسلسلة، إلى أن ينتهي إلى الله، واتصال البعض بالبعض ووقوع الارتباط والترتب

---

(١٥) الصافات، الآية: ١٦٤

بينهما: إن من كفر نعمة الله فقد كفر كل نعمة في الوجود، فمن نظر إلى غير محرم – مثلا – فقد كفر، ففتح العين نعمة الله في الأجفان، ولا تقوم الأجفان إلا بالعين، ولا العين إلا بالرأس، ولا الرأس إلا بجميع البدن، ولا البدن إلا بالغذاء، ولا الغذاء إلا بالماء والأرض والهواء والمطر والغيم والشمس والقمر وسائر الكواكب، ولا يقوم شئ من ذلك إلا بالسماوات ولا السماوات إلا بالملائكة. فإن الكل كالشئ الواحد، يرتبط البعض منه بالبعض ارتباط أعضاء البدن بعضها ببعض. فإذا قد كفر كل نعمة في الوجود، من ابتداء الثرى إلى منتهى الثريا. وحينئذ لا يبقى جماد ولا نبات ولا حيوان، ولا ماء ولا هواء، ولا كوكب ولا فلك ولا ملك، إلا يلعنه. ولذلك ورد في الأخبار: (أن البقعة التي يجتمع فيها الناس، إما تلعنهم إذا تفرقوا، أو تستغفر لهم). وكذلك ورد: (إن الملائكة يلعنون العصاة). وورد: (أن العالم يستغفر له كل شئ، حتى الحوت في البحر). وأمثال هذه الأخبار الدالة على ما يفيد المراد خارجة بطرفه عن الاحصاء، وكل ذلك إشارة إلى أن العاصي بتطريفة واحدة يجني على جميع الملك والملكوت.

ثم جميع ما ذكرناه إنما يتعلق بجزء من المطعم، فاعتبر ما سواه. ثم تأمل هل يمكن أن يخرج أحد عن عهدة الشكر؟ كيف ولله في كل طرفة على كل عبد من عبيده نعم كثيرة خارجة عن الاحصاء؟ فإن في كل نفس ينبسط وينقبض نعمتين، إذ بانبساطه يخرج الدخان المحترق من القلب، ولو لم يخرج لهلك، وبانقباضه يجتمع روح الهواء إلى القلب، ولو لم يدخل نسيم الهواء فيه لا نقطع قلبه وهلك. ولم كان اليوم والليلة أربعا وعشرين ساعة وفي كل ساعة يوجد ألف نفس تخمينا، وإذا اعتبرت ذلك وقست عليه سائر النعم، يكون عليك في كل يوم وليلة آلاف ألوف نعمة في كل جزء من أجزاء بدنك، بل في كل جزء من أجزاء العالم، وكيف يمكن إحصاء ذلك ولذلك قال الله – تعالى –:

(وأن تعدوا نعمة الله لا تحصوها) ١٦

----

(١٦) إبراهيم، الآية: ٣٤ النحل، الآية: ١٨

وورد: (أن من لم يعرف نعمة الله إلا في مطعمه ومشربه، فقد قل علمه وحضر عذابه). فالبصير لا تقع عينه في العالم على شئ، ولا يلم خاطره بموجود إلا ويتحقق أن الله فيه نعمة عليه. ولذلك قال موسى بن عمران: (إلهي! كيف أشكرك ولك علي في كل شعرة من جسدي نعمتان: أن لينت أصلها، وإن طمست رأسها).

فصل

الأسباب الصارفة للشكر

إعلم أن السبب الصارف لأكثر الخلق عن الشكر، إما قصور معرفتهم بأن النعم كلها من الله – سبحانه –، أو قصور معرفتهم وإحاطتهم بصنوف النعم وآحادها، أو جهلهم بحقيقة الشكر وكونه استعمال النعمة في إتمام الحكمة التي أريدت بها، وظنهم أن حقيقة الشكر مجرد أن يقولوا بلسانهم: الحمد لله، أو الشكر لله، أو الغفلة الناشئة عن غلبة الشهوة واستيلاء الشيطان، بحيث لا يتنبهون للقيام بالشكر، كما في سائر الفضائل والطاعات أو عدم احتسابهم للجهل ما يعم الخلق ويشملهم في جميع الأحوال من النعم نعمة. ولذلك لا يشكرون على جملة من النعم، لكونها عامة للخلق، مبذولة لهم في جميع الحالات. فلا يرى كل واحد لنفسه اختصاصا بها، فلا يعدها نعمة. وتأكد ذلك بالفهم واعتيادهم بها، فلا يتصورون خلاف ذلك، ويظنون إن كل إنسان يلزم أن يكون على هذه الأحوال. فلذلك تراهم لا يشكرون الله على روح الهواء، ووفور الماء، وصحة البصر والسمع وأمثال ذلك. ولو أخذ يمحقهم، حتى انقطع عنهم الهواء، وحبسوا في بيت حمام فيه هواء حار، أو بئر فيها هواء تقبل رطوبة الماء، ماتوا. فإن ابتلى واحد بشئ من ذلك، ثم نجى منه، ربما قدر ذلك نعمة وشكر لله عليه. وكذا البصير، إذا عميت عينه، ثم أعيد عليه بصره، عده نعمة وشكره، ولو لم يبتل بالعمى وكان بصيرا دائما كان غافلا عن الشكر. وهذا غاية الجهل، إذ شكرهم صار موقوفا على أن تسلب منهم النعمة ثم ترد عليهم في بعض الأحوال، مع أن النعمة في جميع الأحوال أولى بالشكر.

فلما كانت رحمة الله واسعة قد عمت الخلق في جميع أحوالهم لم يعدها الجاهلون نعمة. ومثلهم كمثل العبد السوء الذي لو لم يضرب بطر وترك الشكر، وإذا ضرب في غالب الأحوال ترك ساعة شكر المولى على ذلك. ومن تأمل يعلم أن نعمة الله عليه في شربة ماء عند عطشه أعظم من ملك الأرض كلها. كما نقل: (أن بعض العلماء دخل على بعض الخلفاء، وفي يده كوز ماء يشربه، فقال له: عظني. فقال: لو لم تعط هذه الشربة إلا ببذل أموالك وملكك كله، ولو لم تعطه بقيت عطشانا، فهل تعطه؟ قال: نعم! قال: فكيف تفرح بملكك لا يساوي شربة ماء!) هذا مع أن كل عبد لو أمعن النظر في حاله، لرأى من الله نعمة أو نعما كثيرة تخصه لا يشاركه فيها أحد، أو يشاركه يسير الناس، إما في العقل، أو في الخلق، أو في الورع والتقوى، أو الدين أو في صورته وشخصه، أو أهله وولده أو مسكنه وبلده، أو رفاقه وأقاربه، أو عزه وجاهه، أو طول عمره وصحة جسمه، أو غير ذلك من محابه. بل نقول: لو كان أحد لا يكون مخصوصا بشئ من ذلك، فلا ريب في أنه يعتقد في نفسه اختصاصه ومزيته في بعض هذه على سائر الخلق. فإن أكثر الناس يعتقدون كونهم اعقل الناس، أو أحسن أخلاقا منهم، مع أن الأمر ليس كذلك ولذلك لا يشكون من نقصان العقل كما يشكون من قلة المال، ولا يسألون الله أن يعطيهم العقل كما يسألون منه زيادة المال ويرى من غير عيوبا يكرهها وأخلاق يذمها، ولا يرى ذلك من نفسه.

وبالجملة: كل أحد يقدر في نفسه من المحاب وصفة الكمال ما لا يراه في غيره، وإن لم يكن مطابقا للواقع. ولذلك لو خير بأن يسلب منه ماله ويعطي ما خصص به غيره، لكان لا يرضى به. بل التأمل يعطي أن كل واحد من أكثر الناس لا يرضى أن يكون في جميع الصفات والأفعال والدين والدنيا مثل شخص آخر من الناس كائنا من كان، بل لو وكل إليه الاختيار وقيل له: أنت مخير في صيرورتك مثل من شئت وأردت من أفراد الناس لم يخير إلا نفسه. وإلى هذا أشار الله - سبحانه - بقوله:

ج / ٣

(كل حزب بما لديهم فرحون) ١٧
وإذا كان الأمر هكذا، فأنى له لا يشكر الله على ذلك مع قطع النظر عن النعم العامة؟ ولو لم يكن لشخص من نعم الله إلا الأمن والصحة والقوة لعظمت النعمة في حقه، ولم يخرج عن عهدة الشكر. قال رسول الله (ص): (من أصبح آمنا في سربه، معافى في بدنه، وعنده قوت يومه، فكأنما خيرت له الدنيا بحذافيرها). ومهما فتشت الناس، لوجدتهم يشكون عن أمور وراء هذه الثلاث، مع أنها وبال عليهم. بل لو لم تكن للانسان نعمة سوى الإيمان الذي به وصوله إلى النعيم المقيم والملك العظيم، لكان جديرا به أن يستعظم النعمة ويصرف في الشكر عمره. بل ينبغي للعاقل ألا يفرح إلا بالمعرفة واليقين والإيمان. ونحن نعلم من العلماء من لو سلم إليه جميع ما دخل تحت ملوك الأرض من الشرق إلى الغرب، من أموال وأتباع، وأنصار وبلدان وممالك، بدلا عن عشر عشير من علمه لم يأخذه، لرجائه أن نعمة العلم تفضي به إلى قرب الله - تعالى - بالآخرة. بل لو سلم إليه جميع ذلك عوضا عن لذة العلم في الدنيا، مع نيله في الآخرة إلى ما يرجوه، لم يأخذه ولم يرض به، لعله بأن لذة العلم دائمة لا تنقطع، وثابتة لا تسرق ولا تغصب، وصافية لا كدورة فيها بخلاف لذات الدنيا.

فصل

طريق تحصيل الشكر

الطريق إلى تحصيل الشكر أمور:

الأول - المعرفة والتفكر في صنائعه - تعالى -، وضروب نعمه الظاهرة والباطنة والعامة والخاصة.

الثاني - النظر إلى الأدنى في الدنيا وإلى الأعلى في الدين.

الثالث - أن يحضر المقابر، ويتذكر أن أحب الأشياء إلى الموتى وأهم سؤالهم ودعواهم من الله أن يردوا إلى الدنيا، ويتحملوا ضروب الرياضات ومشاق العبادات في الدنيا، ليتخلصوا في الآخرة من العذاب،

----

(١٧) المؤمنين الآية: ٥٤. الروم، الآية ٣٢

أو يزيد ثوابهم وترفع درجاتهم. فليقدر نفسه منهم مع إجابة دعوته ورده إلى الدنيا، فليصرف بقية عمره فيما يشتهي أهل القبور العودة لأجله.
الرابع - أن يتذكر بعض ما ورد عليه في بعض أيام عمره من المصائب العظيمة والأمراض الصعبة التي ظن هلاك نفسه بها، فليتصور أنه هلك بها ويغتنم الآن حياته وماله من النعم، فليشكر الله على ذلك، ولا يتألم ولا يحزن من بعض ما يرد عليه مما ينافي طبعه.
الخامس - أن يشكر في كل مصيبة وبلية من مصائب الدنيا من حيث إنه لم تصبه مصيبة أكبر منها، وإنه لم تصبه مصيبة في الدين. ولذلك قال عيسى (ع) في دعائه: (اللهم لا تجعل مصيبتي في ديني!). وقال رجل لبعض العرفاء: (دخل اللص في بيتي وأخذ متاعي)، فقال له: (اشكر الله لو كان الشيطان يدخل بدله في قلبك ويفسد توحيدك، ماذا كنت تصنع؟).
ومن حيث أن كل مصيبة إنما هي عقوبة لذنب صدر منه، فإذا حلت به هذه العقوبة حصلت له النجاة من عقوبة الآخرة، كما قال رسول الله (ص): (إن العبد إذا أذنب ذنبا فإصابته شدة أو بلاء في الدنيا، فالله أكرم من أن يعذبه ثانيا). وقد ورد هذا المعنى بطرق متعددة من أئمتنا - عليهم السلام - أيضا، فليشكر الله على تعجيل عقوبته وعدم تأخيرها إلى الآخرة. ومن حيث أن هذه المصيبة كانت مكتوبة آتية إليه البتة، فقد أتيت وفرغ منها. ومن حيث أن ثوابها أكثر منها وخير له، لما يأتي في باب الصبر من عظم مثوبات الابتلاء بالمصائب في الدنيا ومن حيث أنها تنقص في القلب حب الدنيا والركون إليها، وتشوق إلى الآخرة وإلى لقاء الله سبحانه.
إذ لا ريب في أن من آتاه النعم في الدنيا على وفق المراد، من غير امتزاج ببلاء ومصيبة، يورث طمأنينة القلب إلى الدنيا وأنسا بها، حتى تصير كالجنة في حقه، فيعظم بلاؤه عند الموت بسبب مفارقته، وإذا كثرت عليه المصائب انزعج قلبه عن الدنيا ولم يأنس بها، وصارت الدنيا سجنا عليه وكانت نجاته منها كالخلاص من السجن. ولذلك قال رسول الله (ص): (الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر) فمحن الدنيا ومصائبها ورياضاتها توجب انزعاج النفس عنها، والتفاتها إلى عالمها الأصلي، وتشوقها إلى

الخروج عنها إليه ورغبتها إلى لقاء الله وما أعد في دار الآخرة لأهلها.
فإن قلت: غاية ما يتصور في البلاء أن يصبر عليه، وأما الشكر عليه فغير متصور، إذ الشكر إنما يستدعي نعمة وفرحا، والبلاء مصيبة وألم فكيف يشكر عليه؟ وعلى هذا ينبغي ألا يجتمع الصبر والشكر على شئ واحد، إذ الصبر يستدعي بلاء وألما، والشكر يستدعي نعمة وفرحا، فهما متضادان غير مجتمعين، فكيف حكمتم باجتماعهما في المصائب والبلايا الدنيوية؟
قلنا: كل واحد من النعمة والبلاء ينقسم إلى مطلق ومقيد. فالنعمة المطلقة كسعادة الآخرة والعلم والإيمان والأخلاق الحسنة في الدنيا، والنعمة المقيدة في الدنيا - أي ما هو نعمة وصلاح من وجه وبلاء وفساد من وجه - كالمال الذي يصلح الدين من وجه، ويفسده من وجه. والبلاء المطلق، كشقاوة الآخرة والكفر والجهل والأخلاق السيئة والمعاصي في الدنيا، والبلاء المقيد، كمصائب الدنيا، من الفقر والخوف والمرض وسائر أقسام المحن والمصائب، فإنها وإن كانت بلاء في الدنيا، ولكنها نعم في الآخرة. وعنه التحقيق لا تخلو عن تكفير الخطيئة، أو رياضة النفس، أو زيادة التجرد أو رفع الدرجة. فالنعمة المطلقة بإزائها الشكر المطلق، ولا معنى لاجتماع الصبر معه، والصبر الذي يجتمع معه لا ينافيه، كما يأتي. والبلاء المطلق لم يؤمر بالصبر عليه، إذ لا معنى للصبر على الكفر والمعصية، بل يجب عدم الصبر عليه والسعي في تركه. وأما البلاء المقيد، فهو الذي يجتمع فيه الصبر والشكر، وليس اجتماعهما من جهة واحدة حتى يلزم اجتماع الضدين، بل الصبر من حيث إيجابه الاغتمام والألم في الدنيا، والشكر من حيث أدائه إلى سعادة الآخرة وغيرها مما ذكر.
ثم لو لم يصبر على جهة شريفة، ولم يشكر على جهة خيرية، صار بلاء مطلقا لزم تركه بالرجوع إلى الصبر والشكر. وأما النعمة المقيدة، كالمال والثروة، فإن أدت إلى إصلاح الدين كانت نعمة مطلقة يجب عليها الشكر، ولم يكن محلا للصبر، وإن أدت إلى فساده كانت بلاء مطلقا واجب الترك، وإن أدت إلى بلاء الدنيا، كأن يصير ماله سببا لهلاك أولاده، وفساد مزاجه ويصير فوته باعثا لابتلائه ببعض المصائب الدنيوية، كان حكمه حكم البلاء

المقيد ثم يأتي في باب الصبر: إن الصبر قد يكون على الطاعة وعلى المعصية، وفيهما يتحقق الشكر والصبر، إذ الشكر - كما عرفت - هو - عرفان النعمة من الله والفرح به، وصرف النعمة إلى ما هو المقصود منها بالحكمة، والصبر - كما يأتي - وهو ثبات باعث الدين، أعني العقل النظري، في مقابلة باعث الهوى، أعني القوة الشهوية. ولا ريب في أنه في أداء الطاعة وترك المعصية يتحقق الثبات المذكور، إذ هو صرف النعمة إلى ما هو المقصود، إذ باعث الدين إنما خلق لحكمة دفع باعث الهوى، وقد صرفه إلى مقصود الحكمة. وأنت خبير بأنه وأن تحقق الشكر والصبر في هذه الطاعة وترك هذه المعصية، إلا أن ما تصبر عليه هو هذه الطاعة وترك هذه المعصية، إذ الصبر إنما هو عليهما، وأما الشكر فعلى باعث الدين أعني العقل الباعث لهذه الطاعة وترك هذه المعصية، فالمشكور عليه هو باعث الدين دون نفس الطاعة وترك المعصية، فاختلف فيهما الصبر والشكر في المتعلق، أي ما يصبر عليه وما يشكر عليه، واتحدا في فعل الصبر والشكر إذ فعل الصبر هو الثبات والمقاومة، وهو عين الطاعة وترك المعصية، وفعل الشكر هو صرف النعمة في مقصود الحكمة، وهو أيضا عين الطاعة وترك المعصية. ويمكن أن يقال: إن من فعل هذه الطاعة، وترك هذه المعصية عرف كونهما من الله وفرح به، ويعمل طاعة أخرى شكرا له. وعلى هذا فيتحد متعلقا الشكر والصبر في هذه الطاعة وترك هذه المعصية، أعني المشكور عليه وما يصبر عليه، إذ هما نفس هذه الطاعة وترك هذه المعصية بعينها، ويختلف فعلاهما. إذ فعل الصبر هو هذه الطاعة وترك هذه المعصية، وفعل الشكر تحميد أو طاعة أخرى.

فصل

الصحة خير من السقم

لا تظنن مما قرع سمعك من فضيلة البلاء وأدائه إلى سعادة الأبد أنه خير من العافية في الدنيا، بل مع ذلك كله العافية في الدنيا خير من البلاء والمصيبة فيها

فإياك أن تسأل من الله البلايا والمصائب في الدنيا، فإن رسول الله (ص) كان يستعذ في دعائه من بلاء الدنيا ومن بلاء الآخرة، وكان يقول هو

والأنبياء والأوصياء - عليهم السلام -: (ربنا آتنا في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة)، وكانوا يستعيذون من شماتة الأعداء وسوء القضاء.
وقال (ص): (سلوا الله العافية، فما أعطي عبد أفضل من العافية إلا اليقين)، وأشار باليقين إلى عافية القلب من الجهل والشك، وهو أعلى وأشرف من عافية البدن، وقال (ص) في دعائه: (والعافية أحب إلي).
وبالجملة: هذا أظهر من أن يحتاج إلى الاستشهاد. إذ البلاء إنما يصير نعمة بالإضافة إلى ما هو أكثر منه في الدنيا والآخرة، وبالإضافة إلى ما يرجى من الثواب في الآخرة، ومن حيث يوجب تجرد النفس وانقطاعها من الدنيا وميلها إلى الآخرة. فينبغي أن يسأل تمام النعمة في الدنيا، والثواب في الآخرة على شكر المنعم، والتجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، فإنه قادر على إعطاء الكل، وما نقل عن بعض العارفين، من سؤالهم المصائب والبلاء، كما قال بعضهم: (أود أن أكون جسرا على النار يعبر علي الخلق كلهم فينجون، وأكون أنا في النار) وقال سمنون المحب ((وليس لي في سواك حب فكيفما شئت فاختبرني) فمبناه على غلبة الحب، بحيث يظن المحب بنفسه أنه يحب البلاء. ومثل ذلك حالة تعتريه وليس لها حقيقة. فإن من شرب كأس المحبة سكر، ومن سكر توسع في الكلام، ولما زال سكره علم أن ما غلب عليه كانت حالة لا حقيقة. فما تسمعه من هذا القبيل فهو كلام العشاق الذين أفرط حبهم، وكلام العشاق يستلذ سماعه ولا يعول عليه. وقد روي: (أن فاختة كان يراودها زوجها فتمنعه، فقال: ما الذي يمنعك عني، ولو أردت أن أقلب لك ملك سليمان ظهرا لبطن لفعلته لأجلك؟ فسمع ذلك سليمان (ع)، فطلبه وعاتبه في ذلك فقال: يا نبي الله كلام العشاق لا يحكى). ونقل: (أن سمنون المحب بعد ما قال البيت المذكور، ابتلى بمرض الحصر، فكان يصيح ويجزع ويسأل الله العافية، ويظهر الندامة مما قال، ويدور على أبواب المكاتب، ويقول للصبيان: ادعوا لعمكم الكذاب). والحاصل: أن صيرورة البلاء أحب عند بعض المحبين من العافية، لاستشعارهم رضا المحبوب لأجله، وكون رضاه عندهم أحب وألذ من العافية إنما يكون في غليان الحب، فلا يثبت ولا يدوم. ومع ذلك كله، فأعلم أن الظاهر من بعض الأخبار الآتية

في باب الصبر: أن في الجنان درجات عالية لا يبلغها أحد إلا بالمصائب الدنيوية والصبر والشكر عليها، ويؤيده ابتلاء أكابر النوع، من الأنبياء والأولياء بالمصائب العظيمة في الدنيا، وما ورد من أن أعظم البلاء موكل بالأنبياء ثم بالأولياء، ثم بالأمثل فالأمثل في درجات العلاء والولاء. وعلى هذا فالظاهر اختلاف أصلحية كل من البلاء والعافية باختلاف مراتب الناس. فمن كان قوي النفس صابرا شاكرا في البلاء، ولم يصده عن الذكر والفكر والحضور والأنس والطاعات والاقبال عليها، ولم يصر باعثا لنقصان الحب لله، فالبلاء في حقه أفضل في بعض الأوقات، إذ بإزائه في الآخرة من عوالي الدرجات ما لا يبلغ بدونه. ومن كان له ضعف نفس يوجب ابتلائه بالمصائب جزعا أو كفرانا، أو منعه شئ مما ذكر، فالعافية أصلح في حقه، وربما كان البلاء مما منعه من الوصول إلى المراتب العظيمة، فلا ريب في أن العافية وعدم هذا البلاء أفضل وأعلى منه. فإن البصير الذي توسل بعينيه إلى النظر إلى عجائب صنع الله، وتوصل به إلى معرفة الله، وتمكن لأجل العينين إلى مطالعة العلوم وتصنيف الكتب الكثيرة من أنواع العلوم، وتبقى آثاره العلمية على مر الدهور، وينتفع من علومه الناس أبدا، وربما بلغ لأجل العينين إلى غاية درجات المعرفة والقرب والحب والأنس والاستغراق، ولولا وجود العينين له لم يبلغ إلى شئ من ذلك، فلا ريب في أن وجود البصر لمثله أفضل وأصلح من عدمه، ولولا ذلك لكان رتبة شعيب مثلا - وقد كان ضريرا من بين الأنبياء - فوق رتبة موسى وإبراهيم وغيرهما - عليهم السلام - لأنه صبر على فقد البصر، وموسى لم يصبر عليه، ولكان الكمال في أن يسلب الإنسان الأطراف كلها ويترك كلحم على وضم. وهذا باطل، فإن كل واحد من الأعضاء آلة في الدين، فيفوت بفواتها ركن من الدين. ويدل على ذلك ما ورد في عدة من الأخبار: (أن كل ما يرد على المؤمن من البلاء أو عافية أو نعمة أو بلية، فهو خير له وأصلح في حقه) وما ورد في بعض الأحاديث القدسية: (أن بعض عبادي لا يصلحه إلا الفقر والمرض، فأعطيته ذلك، وبعضهم لا يصلحه إلا الغنى والصحة، فأعطيته ذلك). وبذلك يجمع بين أخبار العافية وأخبار البلاء.

الجزع

ومنها:

وهو إطلاق دواعي الهوى، من الاسترسال في رفع الصوت، وضرب الخدود، وشق الجيوب، أو ضيق الصدر والتبرم والتضجر. وهو وأن كان من نتائج ضعف النفس وصغرها الذي من رذائل القوة الغضبية فقط، إلا أنه لما كان ضده الصبر، وله أقسام بعضها من متعلقات القوة الشهوية - كما يأتي - فلذلك لم نذكره في متعلقات قوة الغضب فقط، بل ذكرناه هنا. ثم الجزع في المصائب من المهلكات، لأنه في الحقيقة إنكار لقضاء الله، وإكراه لحكمه، وسخط على فعله. ولذا قال رسول الله (ص): (الجزع عند البلاء تمام المحنة) وقال (ص): (أن عظم الجزاء مع عظم البلاء وإن الله إذا أحب قوما ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا ومن سخط فله السخط). وفي الخبر القدسي: (من لم يرض بقضائي، ولم يشكر على نعمائي، ولم يصبر على بلائي، فليطلب ربا سواي). وروي: (أن زكريا لما هرب من الكفار، واختفى في الشجرة، وعرفوا ذلك، جاؤوا بالمنشار فنشرت الشجرة حتى بلغ المنشار رأس زكريا، فأن أنة، فأوحى الله إليه: يا زكريا! لئن صعدت منك أنة ثانية لأمحونك من ديوان النبوة! فعض زكريا (ع) على أصبعه حتى قطع شطرين) وبالجملة: العاقل يعلم أن الجزع في المصائب لا فائدة فيه، إذ ما قدر يكون، والجزع لا يرده. ولا ريب في أنه يترك الجزع بعد مضي مدة، فليتركه أولا حتى لا يضيع أجره. وقد نقل: (أنه مات ابن لبعض الأكابر، فعزاه مجوسي، وقال له: ينبغي للعاقل أن يفعل اليوم ما يفعله الجاهل بعد خمسة أيام. فقال: اكتبوه عنه). وقال الصادق (ع): الصبر يظهر ما في بواطن العباد من النور والصفاء، والجزع يظهر ما في بواطنهم من الظلمة والوحشة. والصبر يدعيه كل أحد وما يثبت عنده إلا المخبتون، والجزع ينكره كل أحد وهو أبين على المنافقين، لأن نزول المحنة والمصيبة يخبر عن الصادق والكاذب. وتفسير الصبر ما يستمر مذاقه، وما كان عن اضطراب لا يسمى صبرا. وتفسير الجزع اضطراب القلب وتحزن الشخص، وتغير اللون

والحال. وكل نازلة خلت أوائلها من الاخبات والإنابة والتضرع إلى الله فصاحبها جزوع غير صابر. والصبر ما أوله مر وآخره حلو، من دخله من أواخره فقد دخل، ومن دخله من أوائله فقد خرج، ومن عرف قدر الصبر لا يصبر عما منه الصبر، وقال الله تعالى في قصة موسى والخضر عليهما السلام: فكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا، فمن صبر كرها، ولم يشك إلى الخلق، ولم يجزع بهتك ستره، فهو من العام ونصيبه ما قال الله غز وجل:
وبشر الصابرين: أي بالجنة والمغفرة. ومن استقبل البلاءِ بالرحب، وصبر على سكينة ووقار، فهو من الخاص، ونصيبه ما قال الله عز وجل: أن الله مع الصابرين) (١٨).

فصل

الصبر - مراتب الصبر - أقسام الصبر - فضيلة الصبر - الصبر على السراء - اختلاف مراتب الصبر في الثواب - طريق تحصيل الصبر - التلازم بين الصبر والشكر - القانون الكلي في معرفة الفضائل - تفضيل الصبر - على الشكر.

* * * ضد الجزع (الصبر)، وهو ثبات النفس وعدم اضطرابها في الشدائد والمصائب، بأن تقاوم معها، بحيث لا تخرجها عن سعة الصدر وما كانت عليه قبل ذلك من السرور والطمأنينة، فيحبس لسانه عن الشكوى، وأعضائه عن الحركات الغير متعارفة. وهذا هو الصبر على المكروه، وضده الجزع.
وله أقسام أخر لها أسماء خاصة تعد فضائل أخر: كالصبر في الحروب، وهو من أنواع الشجاعة، وضده الجبن والصبر في كظم الغيظ، وهو الحلم، وضده الغضب. والصبر على المشاق، كالعبادة، وضده الفسق، أي الخروج عن العبادات الشرعية. والصبر على شهوة البطن والفرج من قبائح اللذات، وهي العفة، وإليه أشير في قوله سبحانه:

----

(١٨) صححنا الحديث على (مصباح الشريعة): باب ٩٢ وعلى (البحار) باب الصبر واليسر بعد العسر، مج ١٥: ٢ / ١٤٣

(وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى، فإن الجنة هي المأوى) ١٩
وضده الشره. والصبر عن فضول العيش، وهو الزهد، وضده
الحرص. والصبر في كتمان السر، وضده الإذاعة، والأولان، كالصبر
على المكروه من فضائل قوة الغضب. والرابع، من نتائج المحبة والخشية.
والبواقي، من فضائل قوة الشهوة كما يأتي. وفي ذلك: أن من عد
الصبر مطلقا من فضائل القوة الشهوية أو القوة الغضبية إنما أراد به
بعض أقسامه.
ويظهر من ذلك: أن أكثر أخلاق الإيمان داخل في الصبر. ولذلك
لما سئل رسول الله (ص) عن الإيمان، قال: (هو الصبر، لأنه أكثر
أعماله وأشرفها)، كما قال: (الحج عزم). وقد عرف مطلق الصبر بأنه
مقاومة النفس مع الهوى، وبعبارة أخرى: إنه ثبات باعث الدين في مقابلة
باعث الهوى. والمراد بباعث الدين هو العقل النظري الهادي إلى طريق الخير
والصلاح، والعقل العملي المنفذ لأحكامه المؤدية إلى الفوز والفلاح. والمراد
بباعث الهوى هو قوة الشهوة الخارجة عن طاعة العقل، والقتال دائما بين
الباعثين قائم، والحرب بينهما أبدا سجال (٢٠)، وقلب العبد معركته، ومدد
باعث الدين من الملائكة الناظرين لحزب الله، ومدد باعث الهوى من الشياطين
الناصرين لأعداء الله، فإن ثبت باعث الدين بأمداد الملائكة حتى قهر باعث
الهوى واستمر على مخالفته، غلب حزب الله والتحق بالصابرين، وإن
تحاول وضعف حتى سلب باعث الهوى بأمداد الشياطين ولم يصبر على دفعه،
التحق بأتباع الشياطين. وعمدة ما يثبت به باعث الدين هي قوة المعرفة،
أي اليقين لكون الهوى عدوا قاطعا لطريق الوصول إلى الله مضادا لأسباب
السعادات في الدنيا والآخرة. ثم باعث الدين إما يقهر داعي الهوى بالكلية،
بحيث لا تبقى له قوة المنازعة، فيدوم الصبر، وتستقر النفس في مقام
الاطمينان، وتنادي من وراء سرادقات الجمال بخطاب: (يا أيتها النفس

----
(١٩) النازعات، الآية: ٤٠ - ٤١
(٢٠) (الحرب بينهم سجال): مثل مشهور، أي تارة لهم وتارة عليهم

المطمئنة! ارجعي إلى ربك راضية مرضية)، فتدخل في زمرة الصديقين السابقين، وتنسلك في سلك عباده الصالحين، أو يغلب داعي الهوى وينقهر باعث الدين، بحيث لا تبقى له قوة المنازعة، وييأس عن المجاهدة والمقاومة، فتسلم نفسه الشريفة الملكوتية التي هي سر الله ووديعته إلى حزب الشيطان.

ومثله مثل من أخذ أعز أولاده المتصف بجميع الكمالات، ويسلمه إلى الكفار من أعدائه، فيقتلونه لديه، ويحرقونه بين يديه، بل هو أسوأ حالا منه بمراتب كما لا يخفى. إذ لا يكون لأحدهما الغلبة التامة، بل يكون بينهما تنازع وتجاذب، فتارة يغلب هذا، وتارة يغلب ذاك، فتكون النفس في مقام المجاهدة إلى أن يغلب أحد الباعثين، فتدخل في حزب الله أو حزب الشيطان. ثم غلبت أحد الباعثين على الآخر إما أن تكون في جميع مقتضياته أو بعضها، وتخرج من القسمين ثلاثة أحوال:

الأولى – أن يغلب باعث الدين على جميع الشهوات في جميع الأوقات.

الثانية – أن يغلب عليه الجميع في الجميع.

الثالثة – أن يغلب على بعض دون بعض في الجميع، أو يغلب عليها كلا أو بعضا دون بعض.

وقد أشير إلى أهل الحالة الأولى في الكتاب الإلهي بقوله تعالى: (يا أيتها النفس المطمئنة... إلى آخر الآية) ٢١ وإلى الثانية بقوله: (ولكن حق القول مني لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين) ٢٢ وإلى الثالثة بقوله: (خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا عسى الله أن يتوب عليهم) ٢٣

فصل

مراتب الصبر

الصبر على المكروه ومشاق العبادات وعن ترك الشهوات، أن كان بيسر وسهولة فهو الصبر حقيقة، وأن كان بتكلف وتعب فهو التصبر مجازا. وإذا أدام التقوى وقوى التصديق بما في العاقبة من الحسنى،

----

(٢١) الفجر، الآية: ٢٧ – ٢٨

(٢٢) السجدة، الآية: ١٣

(٢٣) التوبة الآية: ١٠٣

تيسر الصبر ولم يكن له تعب ومشقة، كما قال الله سبحانه:
(فأما من أعطى واتقى، وصدق بالحسنى، فسنيسره لليسرى) ٢٤
ومتى تيسر الصبر وصار ملكة راسخة أورث مقام الرضا، وإذا أدام مقام الرضا أورث مقام المحبة. وكما أن مقام المحبة أعلى من مقام الرضا، فكذلك مقام الرضا أعلى من مقام الصبر. ولذلك قال رسول الله (ص):
(أعبد الله على الرضا، فإن لم تستطع ففي الصبر على ما تكره خير كثير).
قال بعض العارفين: (أهل الصبر على ثلاث مقامات: الأول: ترك الشكوى، وهذه درجة التائبين. الثاني: الرضا بالمقدر، وهذه درجة الزاهدين. الثالث: المحبة لما يصنع به مولاه، وهذه درجة الصديقين).
وكأن هذا الانقسام مخصوص بالصبر على المكروه بالمصائب والمحن.
ثم باعث الصبر إما إظهار الثبات وطمأنينة القلب عند الناس، ليكون عندهم مريضا، كما نقل عن معاوية: أنه أظهر البشاشة، وترك الشكوى في مرض موته وقال:

وتجلدي للشامتين أريهم * أني لريب الدهر لا أتزعزع

وهذا صبر العوام، وهم الذين يعملون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون، أو توقع الثواب ونيل الدرجات الرفيعة في دار الآخرة، وهذا صبر الزهاد والمتقين، وإليه إشارة بقوله تعالى:
(إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب) ٢٥
أو الالتذاذ والابتهاج بورود المكروه من الله سبحانه. إذ كل ما يريد من المحبوب محبوب، والمحب يشتاق إلى التفات محبوبه، ويرتاح به، وإن كان ما يؤذيه ابتلاء وامتحانا له، وهذا صبر العارفين، وإليه الإشارة بقوله تعالى:
(وبشر الصابرين، الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا أنا لله وإنا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة) ٢٦

---

(٢٤) الليل، الآية: ٥ / ٧
(٢٥) الزمر، الآية: ١٠
(٢٦) البقرة، الآية: ١٥٥ – ١٥٧.

وقد ورد: أن الإمام محمد بن علي الباقر عليهما السلام قال لجابر ابن عبد الله الأنصاري - وقد اكتنفته علل وأسقام، وغلبه ضعف الهرم -: (كيف تجد حالك؟) قال: أنا في حال الفقر أحب إلي من الغنى، والمرض أحب إلي من الصحة، والموت أحب إلي من الحياة. فقال الإمام (ع): (أما نحن أهل البيت فما يرد علينا من الله من الفقر والغنى والمرض والصحة والموت والحياة، فهو أحب إلينا). فقام جابر، وقبل بين عينيه، وقال: صدق رسول الله (ص) حيث قال لي: (يا جابر! ستدرك واحدا من أولادي أسمه اسمي، يبقر العلوم بقرا).

تذنيب

أقسام الصبر

الصبر باعتبار حكمه ينقسم إلى الأقسام الخمسة، فالصبر عن الشهوات المحرمة وعلى مشاق العبادات الواجبة فرض، وعلى بعض المكاره وأداء المندوبات نفل، وعلى الأذية التي يحرم تحملها حرام، كالصبر على قطع يده، أو يد ولده، أو قصد حريمه بشهوة محضورة، وعلى أذى تناله بجهة مكروهة في الشرع. وبذلك يظهر أن كل صبر ليس محمودا، بل بعض أنواعه ممدوح، وبعض أنواعه مذموم، والشرع محكم، فما حسنه حسن، وما قبحه قبيح.

فصل

فضيلة الصبر الصبر منزل من منازل السالكين، ومقام من مقامات الموحدين. وبه ينسلك العبد في سلك المقربين، ويصل إلى جوار رب العالمين. وقد أضاف الله أكثر الدرجات والخيرات إليه، وذكره في نيف وسبعين موضعا من القرآن. ووصف الله الصابرين بأوصاف، فقال عز من قائل:

(وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا) ٢٧

وقال: (وتمت كلمة

ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا) ٢٨ وقال: (ولنجزين الذين

----

(٢٧) السجدة، الآية: ٢٤

(٢٨) الأعراف الآية: ١٣٦

صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ٢٩ وقال: (أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ٣٠. فما من فضيلة إلا وأجرها بتقدير وحساب إلا الصبر، ولذا قال: (إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب) ٣٢. ووعد الصابرين بأنه معهم، فقال: (واصبروا أن الله مع الصابرين) ٣٢ وعلق النصرة على الصبر، فقال: (بلا أن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين) ٣٣ وجمع للصابرين الصلوات والرحمة والهدى، فقال: (أولئك عليهم صلوات من ربهم فرحمة وأولئك هم المهتدون) ٣٤ والآيات الواردة في مقام الصبر خارجة عن حد الاستقصاء، والأخبار المادحة له أكثر من أن تحصى. قال رسول الله (ص): (الصبر نصف الإيمان). وقال (ص): (من أقل ما أوتيتم اليقين وعزيمته الصبر، ومن أعطى حظه منهما لم يبال ما فاته من قيام الليل وصيام النهار، ولئن تصبروا على مثل ما أنتم عليه أحب إلي من أن يوافيني كل امرئ منكم بمثل عمل جميعكم، ولكني أخاف أن تفتح عليكم الدنيا بعدي فينكر بعضكم بعضا، وينكركم أهل السماء عند ذلك، فمن صبر واحتسب ظفر بكمال ثوابه)... ثم قرأ قوله تعالى:

(ما عندكم ينفذ وما عند الله باق) ٣٥

وقال (ص): (الصبر كنز من كنوز الجنة). وقال (ص): (أفضل الأعمال ما أكرهت عليه النفوس). ولا ريب في أن الصبر مما تكرهه النفوس، ولذا قيل: (الصبر صبر). وقال (ص): (في الصبر على تكره خير كثير). وقال (ص): (الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، ولا جسد لمن لا رأس له، ولا أيمان لمن لا صبر له). وسئل (ص) عن الإيمان، فقال: (الصبر والسماحة). وقال (ص):

----

(٢٩) النحل الآية: ٩٦
(٣٠) القصص، الآية: ٥٤
(٣١) الأنفال، الآية ٤٧
(٣٢) آل عمران، الآية: ١٢٥
(٣٣) البقرة، الآية: ١٥٧
(٣٤) الزمر، الآية: ١٠
(٣٥) النحل، الآية: ٩٦

(ما تجرع عبد قط جرعتين، أحب إلى الله من جرعة غيض ردها بحلم، وجرعة مصيبة يصبر الرجل لها، ولا قطرت بقطرة أحب إلى الله تعالى من قطرة دم أريقت في سبيل الله، وقطرة دمع في سواد الليل وهو ساجد ولا يراه إلا الله، وما خطا عبد خطوتين أحب إلى الله تعالى من خطوة إلى الصلاة الفريضة، وخطوة إلى صلة الرحم). وروي: (أنه تعالى أوحى إلى داود (ع): يا داود! تخلق بأخلاقي، وأن من أخلاقي أني أنا الصبور). وروي: (أن المسيح قال للحواريين: إنكم لا تدركون ما تحبون إلا بصبركم على ما تكرهون) (٣٦). وقال (ص): (ما من عبد مؤمن أصيب بمصيبة فقال كما أمره الله: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أجرني في مصيبتي وأعقبني خيرا منها، إلا وفعل الله ذلك). وقال (ص): (قال الله عز وجل: إذا وجهت إلى عبد من عبيدي مصيبة في بدنه أو ماله أو ولده، ثم استقبل ذلك بصبر جميل، استحييت منه أن أنصب له ميزانا وأنشر له ديوانا) (٣٧). وقال (ص): (الصبر ثلاثة: صبر عند المصيبة، وصبر على الطاعة، وصبر عن المعصية. فمن صبر على المصيبة حتى يردها بحسن عزائها كتب الله له ثلاث مائة درجة، ما بين الدرجة إلى الدرجة كما بين السماء إلى الأرض، ومن صبر على الطاعة كتب الله له ستمائة درجة، ما بين الدرجة إلى درجة كما بين تخوم الأرض إلى العرش، ومن صبر على المعصية كتب الله له ستمائة درجة، ما بين الدرجة إلى الدرجة كما بين تخوم الأرض إلى منتهى العرش). وقال (ص): (سيأتي على الناس زمان لا ينال الملك فيه إلا بالقتل والتجبر، ولا الغني إلا بالغصب والبخل، ولا المحبة إلا باستخراج الدين واتباع الهوى، فمن أدرك ذلك الزمان فصبر على الفقر وهو يقدر على الغنى، وصبر على البغضة وهو يقدر على المحبة، وصبر على الذل وهو يقدر على العز، آتاه الله ثواب خمسين صديقا ممن صدق بي) (٣٨). وقال (ص): (أن الله تعالى قال لجبرائيل: ما جزاء من سلبت كريمته؟ فقال: سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا.

---

(٣٦) صححنا النبويات على (إحياء العلوم): ٤ / ٥٣، كتاب الصبر
(٣٧) صححنا الرواية على (البحار): مج ١٥: ٢ / ١٤٨، باب الصبر واليسر بعد العسر

قال: جزاؤه الخلود في داري، والنظر إلى وجهي). وقال (ص) لرجل قال له: ذهب مالي وسقم جسمي: لا خير في عبد لا يذهب ماله ولا بسقم جسمه، أن الله إذا أحب عبدا ابتلاه، وإذا ابتلاه صبره). وقال (ص): (إن الرجل يكون له الدرجة عند الله تعالى لا يبلغها بعمل حتى يبتلي ببلاء في جسمه فيبلغها بذلك). وقال (ص): (إذا أراد الله بعبد خيرا، وأراد أن يصافيه، صب عليه البلاء صبا وثجه عليه ثجا، فإذا وعاه، قالت الملائكة صوت معروف، وإذا دعاه ثانيا: فقال: يا رب! قال الله تعالى: لبيك عبدي وسعديك! ألا تسألني شيئا إلا أعطيتك، أو رفعت لك ما هو خير، وادخرت لك عندي ما هو أفضل منه. فإذا كان يوم القيامة جيئ بأهل الأعمال فوزنوا أعمالهم بالميزان، أهل الصلاة والصيام والصدقة والحج، ثم يؤتى بأهل البلاء، فلا ينصب لهم ميزان، ولا ينشر لهم ديوان، يصب عليهم الأجر صبا كما كان يصب عليهم البلاء صبا، فيود أهل العافية في الدنيا لو أنهم كانت تقرض أجسادهم بالمقاريض لم يرون ما يذهب به أهل البلاء من الثواب، فذلك قوله تعالى: إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب). وقال (ص): إذا رأيتم الرجل يعطيه الله ما يحب، وهو مقيم على معصيته، فاعلموا أن ذلك استدراج)... ثم قرأ قوله تعالى: (فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شئ) ٣٩

يعني: لما تركوا ما أمروا به فتحنا عليهم أبواب الخيرات حتى إذا فرحوا بما أوتوا - أي بما أعطوا من الخير - أخذناهم بغتة. وروي: (أن نبيا من الأنبياء شكى إلى ربه، فقال: يا رب، العبد المؤمن يطيعك ويجتنب معاصيك تزوي عنه الدنيا وتعرضه للبلاء، ويكون العبد الكافر لا يطيعك ويجتري على معاصيك تزوي عنه البلاء وتبسط له الدنيا! فأوحى الله تعالى إليه: إن العباد إلي والبلاء لي، وكل يسبح بحمدي. فيكون المؤمن عليه من الذنوب، فأزوي عنه الدنيا وأعرض له البلاء فيكون كفارة

---

(٣٨) صححنا الرواية، وكذا ما قبلها، على (أصول الكافي): ج ٢، باب الصبر وعلى (الوافي): ٣ / ٣٢١ - - ٢٢٣، باب الصبر.
(٣٩) الأنعام، الآية: ٤٤

لذنوبه حتى يلقاني، فأجزيه بحسناته، ويكون الكافر له من الحسنات، فأبسط له في الرزق وأزوي عنه البلاء فأجزيه بحسناته في الدنيا حتى يلقاني فأجزيه بسيئاته وعن أبي عبد الله (ع) قال: (قال رسول الله صلى الله عليه وآله: قال الله عز وجل: إني جعلت الدنيا بين عبادي قرضا، فمن أقرضني منها قرضا أعطيته بكل واحدة منهن عشرا إلى سبعمائة ضعف وما شئت من ذلك، ومن لم يقرضني منه قرضا فأخذت منه شيئا قسرا، أعطيته ثلاث خصال لو أعطيت واحدة منهن ملائكتي لرضوا بها مني. قال: ثم تلا أبو عبد الله (ع) قوله عز وجل (الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا أنا لله وإنا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم)، فهذه واحدة من ثلاث خصال، (ورحمة) اثنتان، (فأولئك هم المهتدون) ثلاث. ثم قال أبو عبد الله (ع): هذا لمن أخذ الله منه شيئا قسرا). وقال أمير المؤمنين (ع): (بني الإيمان على أربعة دعائم: اليقين، والصبر، والجهاد، والعدل). وقال أمير المؤمنين (ع) (الصبر صبران: صبر عند المصيبة حسن جميل، وأحسن من ذلك الصبر عندما حرم الله عز وجل عليك) وقال علي (ع): (الصبر وحسن الخلق والبر والحلم من أخلاق الأنبياء). وقال أمير المؤمنين (ع): ((أيما رجل حبسه السلطان ظلما فمات، فهو شهيد، وإن ضربه فمات، فهو شهيد) ٤١). وقال أمير المؤمنين (ع): (من إجلال الله ومعرفة حقه ألا تشكو وجعك، ولا تذكر مصيبتك). وقال أمير المؤمنين (ع) (ألا أخبركم بأرجى آية في كتاب الله؟) قالوا: بلا! فقرأ عليهم:

(وما أصابكم من مصيبة فيما كسبت أيديكم ويعفوا عن كثير) ٤٢

فالمصائب في الدنيا بكسب الأوزار، فإذا عافاه الله في الدنيا فالله أكرم من أن يعذبه ثانيا، وأن عفا عنه في الدنيا فالله أكرم من أن يعذبه يوم القيامة). وقال الباقر (ع): (الجنة محفوفة بالمكاره والصبر، فمن

---

(٤٠) صححنا الأحاديث الأربعة على (إحياء العلوم): ٤ / ١١٤، باب الصبر

(٤١) صححنا الروايات الثلاث على (أصول الكافي): ج ٢، باب الصبر وعلى ((الوافي): ٣ / ٣٢١ – ٣٢٣، باب الصبر

(٤٢) الشورى، الآية: ٣٠

صبر على المكاره في الدنيا دخل الجنة. وجهنم محفوفة باللذات والشهوات فمن أعطى نفسه لذتها وشهوتها دخل النار). وقال (ع): (مروءة الصبر في حال الفاقة والحاجة والتعفف والغنى، أكثر من مروءة الإعطاء) (٤٣) وقال (ع): (لما حضرت أبي علي بن الحسين عليهما السلام الوفاة، ضمني إلى صدره، ثم قال: يا بني! أوصيك بما أوصاني به أبي حين حضرته الوفاة، وبما ذكر أن أباه أوصاه به، قال: يا بني أصبر على الحق وأن كان مرا). وقال الصادق (ع): (إذا دخل المؤمن قبره، كانت الصلاة عن يمينه، والزكاة عن يساره، والبر مطل عليه، ويتنحى الصبر ناحيته. فإذا دخل عليه الملكان اللذان يليان مساءلته، قال الصبر للصلاة والزكاة والبر: دونكم صاحبكم، فإن عجزتم عنه فأنا دونه). وقال (ع): (إذا كان يوم القيامة، يقوم عنق من الناس، فيأتون باب الجنة، فيضربونه، فيقال لهم: من أنتم؟ فيقولون: نحن أهل الصبر، فيقال لهم: على ما صبرتم؟ فيقولون: كنا نصبر على طاعة الله ونصبر عن معاصي الله، فيقول الله تعالى: صدقوا! ادخلوهم الجنة. وهو قول الله تعالى: إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب). وقال (ع): (من ابتلى من المؤمنين ببلاء فصبر عليه، كان له مثل أجر ألف شهيد). وقال (ع): (إن الله عز وجل أنعم على قوم فلم يشكروا، فصارت عليهم وبالا، وأبتلي قوما بالمصائب فصبروا، فصارت عليهم نعمة) وقال عليه السلام: (من لا يعد الصبر لنوائب الدهر يعجز). وقال (ع): (أن من صبر صبر قليلا، وأن من جزع جزع قليلا... ثم قال: عليك بالصبر في جميع أمورك، فإن الله عز وجل بعث محمدا (ص) فأمره بالصبر والرفق، فقال:

(واصبروا على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا) ٤٤

وقال أبو الحسن (ع) لبعض أصحابه: (أن تصبر تغتبط، وإلا

---

(٤٣) قال العلامة (المجلسي) – قدس سره في (بحار الأنوار): مج ١٥ ج ٢، في باب الصبر على المصيبة، في ذيل هدا الخبر: (بيان المروة: هي الصفاة التي بها تكمل إنسانية الإنسان)

(٤٤) المزمل، الآية: ١٠

تصبر يقدر الله مقاديره، راضيا كنت أم كارها) (٤٥). والأخبار في فضيلة الصبر على البلاء وعظم ثوابه وأجر ه أكثر من أن تحصى. ولذلك كان الأتقياء والأكابر محبين طالبين له، حتى نقل: (أن واحدا منهم دخل على ابن مريض له، فقال: يا بني! لئن تكن في ميزاني أحب إلي من أن أكون في ميزانك. فقال: يا أبة! لئن يكن ما تحب أحب إلي من أن يكون ما أحب). وقال بعضهم: (ذهبت عيني منذ ثلاثين سنة، ما علم به أحد).

فصل

الصبر على السراء

كل ما يلقى العبد في الدنيا، وما يوافق هواه، أو لا يوافقه، بل يكرهه، وهو في كل منهما محتاج إلى الصبر. إذ ما يوافق هواه، كالصحة الجسمية، واتساع الأسباب الدنيوية، ونيل الجاه والمال، وكثرة الأولاد والأتباع، لو لم يصبر عليه، ولم يضبط نفسه عن الانهماك فيه والاغترار به، أدركه الطغيان والبطر. (فإن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى).

وقال بعض الأكابر: (البلاء يصبر عليه المؤمن، والعوافي لا يصبر عليه إلا الصديق). وقال بعض العرفاء: (الصبر على العافية أشد من الصبر على البلاء). ولذ لما توسعت الدنيا على الصحابة وزال عنهم ضيق المعاش، قالوا: (ابتلينا بفتنة الضراء فصبرنا، وابتلينا بفتنة السراء فلا نقدر على الصبر عليها). ومن هنا قال الله سبحانه:

(يا أيها الذين آمنوا لا تلهيكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله) ٤٦. وقال (إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم) ٤٧.

ومعنى الصبر على متاع الدنيا: ألا يركن إليه، ويعلم أنه مستودع عنده، وعن قريب يسترجع عنه، فلا ينهمك في التنعم والتلذذ، ولا يتفاخر

----

(٤٥) صححنا الأحاديث الواردة عن أهل البيت - عليهم السلام - في باب الصبر على الجزء الثاني من أصول الكافي باب الصبر، وعلى الوافي: ٣ / ٣٢١ - ٣٢٣، كتاب الصبر

(٤٦) المنافقون، الآية: ٩

(٤٧) التغابن، الآية: ١٤

به على فاقده من إخوانه المؤمنين، ويرعى حقوق الله في ماله بالإنفاق، وفي بدنه ببذل المعونة للخلق، وفي منصبه بإعانة المظلومين، وكذلك في سائر ما أنعم الله به.

والسر في كون الصبر عليها أشد من الصبر على البلاء: أنه ليس مجبورا على ترك ملاذ الدنيا، بل له القدرة والتمكن على التمتع بها، بخلاف البلاء، فإنه مجبور عليه، ولا يقدر على دفعه، فالصبر عليه أسهل. ولذا ترى أن الجائع إذا لم يقدر على الطعام أقدر على الصبر منه إذا قدر عليه.

وأما ما لا يوافق هواه وطبعه، فله ثلاثة أقسام:

الأول - ما يكون مقدورا للعبد، كالطاعات والمعاصي. أما الطاعة، فالصبر عليها شديد، لأن النفس بطبعها تنفر عنها، وتشتهي التقهر والربوبية كما يأتي وجهه، ومع ذلك يثقل عليها بعض العبادات باعتبار الكسل، وبعضها باعتبار البخل، وبعضها باعتبارهما، كالحج والجهاد، فلا تخلو طاعة من اعتبار يشق على النفس أن تصبر عليه، ومع ذلك يحتاج المطيع فيها إلى الصبر في حالات ثلاثة تتضاعف لأجلها الصعوبة، إذ يحتاج إليها قبل العمل في تصحيح النية والاخلاص، وتطهيرها عن شوائب الرياء، وفي حالة العمل لئلا يغفل عن الله في أثنائه، ولا يخل بشئ من وظائفه وآدابه، ويستمر على ذلك إلى الفراغ وبعد الفراغ عنه، لئلا يتطرق إليه العجب، ولا يظهر رياء وسمعة. والنهي عن إبطال العمل وعن إبطال الصدقات بالمن والأذى أمر بهذا القسم من الصبر. وأما المعاصي، فلكون جميعها مما تشتهيها النفس. فصبرها عليها شديد، وعلى المألوفة المعتادة أشد، إذ العادة كالطبيعة الخامسة، ولذا ترى أن كل معصية شاعت وتكررت ثقل استنكارها، فإن الاستبعاد في مثل لبس الحرير أكثر من الاستبعاد في أطلاق اللسان طول النهار في أعراض الناس، مع أن الغيبة أشد من الزنا، كما نطقت به الأخبار. فإذا انضافت العادة إلى الشهوة، ظهر جندان من جنود الشيطان على جند الله، فيصعب تركها.

ثم المعصية أن كانت مما يسهل فعلها، كان الصبر عنها أشد، كمعاصي

اللسان من الغيبة والكذب، ولو كانت مع ذلك مشتملة على تمام ما تقتضيه جبلة النفس من الاستعلاء والربوبية، كالكلمات التي توجب نفي الغير، والقدح فيه، والثناء على ذاتها تصريحا أو تعريضا، كان الصبر عنا أشد. إذ مثل ذلك – مع كونه مما تيسر فعله وصار مألوفا معتادا – انضافت إليه شهوتان للنفس فيه: إحداهما نفي الكمال من غيرها، وأخراهما إثباته لذاتها. وميل النفس إلى مثل تلك المعصية في غاية الكمال، إذ به يتم ما تقتضيه جبلتها من التفوق والعلو، فصبرها عنها في غاية الصعوبة. وقد ظهر مما ذكر: أن أكثر ما شاع وذاع من المعاصي إنما يصدر من اللسان. فينبغي من كل أحد أن يجتهد في حفظ لسانه بتقديم التروي على كلام يريد أن يتكلم به، فإن لم يكن معصية تكلم به، وإلا تركه، ولو لم يقدر على ذلك، وكان لسانه خارجا عن إطاعته في المحاورات وجبت عليه العزلة والانفراد، وتركه التكلم مع الناس، حتى تحصل له ملكة الاقتدار على حفظه. ثم صعوبة الصبر وسهولته لما كانت تختلف في آحاد المعاصي باختلاف داعية تلك المعاصي قوة وضعفا، فينبغي لكل طالب السعادة أن يعلم أن داعية نفسه إلى أي معصية أشد، فيكون سعيه في تركها أكثر. ثم حركة الخواطر باختلاج الوساوس أيسر بكثير من حركة اللسان بقبائح الكلمات، فلا يمكن الصبر عنها أصلا، إلا بأن يغلب على القلب هم آخر في الدين يستغرفه، كمن أصبح وهمومه هم واحد. وأكثر جولان الخاطر إنما يكون في فائت لا تدارك له، أو في مستقبل لا بد وأن يحصل منه ما هو مقدور. وكيف كان، فهو تصور باطل، وتضييع وقت. إذ آلة استكمال العبد قلبه، فإذا غفل القلب في لحظة من ذكر يستفيد به أنسا بالله، أو فكر يستفيد به معرفة بالله، ويستفيد بالمعرفة حب الله، فهو مغبون.

الثاني – ما ليس حصوله مقدورا للعبد، ولكنه يقدر على دفعه بالتشفي، كما لو أوذي بفعل أو قول، أو جني عليه في نفسه أو ماله، فإن حصول الأذية والجناية وإن لم يرتبط باختياره، إلا أنه يقدر على التشفي من المؤذي أو الجاني بالانتقام منه، والصبر على ذلك بترك المكافات. وهو قد يكون واجبا، وقد يكون فضيلة، وهو أعلى مراتب الصبر.

ولأجل ذلك خاطب الله نبيه (ص) بقوله:
(واصبروا كما صبر أولو العزم من الرسل) ٤٨ وبقوله: (فاصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا) ٤٩. وبقوله: (ودع أذاهم وتوكل على الله ٥٠ وقال: (ولتسمعن من الذين أوتو الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور) ٥١. وقال (وأن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين) ٥٢
وقال رسول الله (ص) (صل من قطعك، واعط من حرمك، واعف عمن ظلمك) وروي: (أنه (ص) قسم مرة مالا، فقال بعض الأعراب من المسلمين: هذه قسمة ما أريد بها وجه الله! فأخبر به رسول الله، فاحمرت وجنتاه ثم قال: رحم الله أخي موسى، قد أوذي بأكثر من هذا فصبر،
الثالث – ما ليس مقدورا للعبد مطلقا، كالمصائب والنوائب. والصبر عليه شديد في غاية الصعوبة، ولا ينال إلا ببضاعة الصديقين، والوصول إليه يتوقف على اليقين التام. ولذا قال النبي (ص): (أسألك من اليقين ما يهون علي مصائب الدنيا). وقد تقدم بعض الأخبار الواردة في فضيلة هذا القسم من الصبر. وقال (ص): (قال الله: إذا ابتليت عبدي ببلائي فصبر، ولم يشكني إلى عواده، أبدلته لحما خيرا من لحمه، ودما خيرا من دمه، فإن أبرأته أبرأته ولا ذنب له، وأن توفيته فإلى رحمتي). وقال صلى الله عليه وسلم: (من إجلال الله ومعرفة حقه: ألا تشكو وجعك، ولا تذكر مصيبتك). وقال (ص): (من ابتلي فصبر، وأعطي فشكر، وظلم فغفر أولئك لهم الأمن وهم مهتدون). وقال (ص): (أن الله – تعالى قال لجبرائيل: ما جزاء من سلبت كريمته؟ فقال: سبحانك!! لا علم لنا إلا ما علمتنا. قال: جزاؤه الخلود في داري والنظر إلى وجهي). وقال داود (ع): (يا رب! ما جزاء الحزين يصبر على المصائب ابتغاء مرضاتك؟

----

(٤٨) الأحقاف، الآية ٣٥
(٤٩) المزمل، الآية: ١٠
(٥٠) الأحزاب، الآية: ٤٨
(٥١) آل عمران، الآية: ١٨٦
(٥٢) النحل، الآية: ١٢٦

قال: جزاؤه أن ألبسه الأمان، لا أنزعه عنه أبدا). وقال لابنه سليمان (ع) (يستدل على تقوى المؤمن بثلاث: حسن التوكل في ما لم ينل، وحسن الرضا فيما قد نال، وحسن الصبر فيما قد فات). وروي: (أن من ابتلي بموت ثلاثة أولاد. لم يرد على النار أصلا).

تذنيب

اختلاف مراتب الصبر في الثواب

لما كان الصبر على العافية بمعنى ترك الشهوات المحرمة وعدم الانهماك فيها فهو راجع إلى الصبر عن المعصية. وعلى هذا فأقسام الصبر ثلاثة: الصبر على المصائب والنوائب، والصبر على الطاعة، والصبر عن المعصية. ثم ما تقدم من الخبر النبوي صريح في كون الأول أقل ثوابا، والآخر أكثر ثوابا، والوسط وسطا بينهما. وربما ظهر من بعض الأخبار: كون الأول أكثر ثوابا. وأبو حامد الغزالي رجح الأول أولا، وبه صرح بعض المتأخرين من أصحابنا للخير النبوي، ثم رجح الثاني ثانيا محتجا بما روي عن ابن عباس أنه قال: (الصبر في القرآن على ثلاثة أوجه: صبر على أداء فرائض الله – تعالى – فله ثلاثمائة درجة، وصبر عن محارم الله تعالى – وله ستمائة درجة، وصبر على المصيبة عند الصدمة الأولى، فله تسعمائة درجة). وبأن كل مؤمن يقدر على الصبر عن المحارم، وأما الصبر على بلاء الله فلا يقدر عليه إلا ببضاعة الصديقين، لكونه شديدا على النفس. وعندي: أن القول بكون أحدهما أكثر ثوابا على الإطلاق غير صحيح إذ القول بأن الصبر عن كلمة كذب أو لبس ثوب من الحرير لحظة، أكثر ثوابا من الصبر على موت كثير من أعز الأولاد بعيد، وكذا القول بأن الصبر على فقد درهم أكثر ثوابا من كف النفس عن كبائر المعاصي، وفطامها عن ألذ اللذات والشهوات مع القدرة عليها أبعد، فالصواب: التفضيل بأن كل صبر من أي قسم كان من الثلاثة إذا كان على النفس أشد وأشق فثوابه أكثر مما كان أسهل وأيسر، كائنا ما كان، لما ثبت وتقرر أن أفضل الأعمال أحمزها، وبه يحصل الجمع والتلاؤم بين الأخبار.

فصل

طريق تحصيل الصبر

الطريق إلى تحصيل الصبر: تقوية باعث الدين، وتضعيف باعث الهوى

والأول: إنما يكون بأمور:

الأول – أن يكثر فكرته فيما ورد من فضل الصبر وحسن عواقبه في الدنيا والآخرة، وأن يعلم أن ثواب الصبر على المصيبة أكثر مما فات، وإنه بسبب ذلك مغبوط بالمصيبة، إذ فاته ما لا يبقى معه إلا مدة الحياة في الدنيا، وحصل له ما يبقى بعد موته أبد الدهر، فيجازى على المدة القصيرة الفانية بالمدة الطويلة الخالدة، وعلى الغاية القريبة الزائلة بالغاية المديدة الباقية. ومن أسلم خسيسا في نفيس، فلا ينبغي أن يحزن بفوات الخسيس في الحال.

الثاني – أن يتذكر قلة قدرة الشدة الدنيوية ووقتها واستخلاصه عنها عن قريب، مع بقاء الأجر على الصبر عليها.

الثالث – أن يعلم أن الجزع قبيح مضر بالدين والدنيا، ولا يفيد ثمرة إلا حبط الثواب وجلب العقاب، كما قال أمير المؤمنين (ع): (أن صبرت جرت عليك المقادير وأنت مأجور، وإن جزعت جرت عليك المقادير وأنت مأزور

الرابع – أن يعود مصارعة هذا الباعث باعث الهوى تدريجا حتى يدرك لذة الظفر بها فيتجرى عليها، ويقوى متنه في مصارعتها. فإن الاعتياد والممارسة للأعمال الشاقة يؤكد القوى التي تصدر منها تلك الأعمال. ولذا تزيد قوة الممارسين للأعمال الشاقة – كالحمالين والفلاحين – على قوة التاركين لها فمن عود نفسه مخالفة الهوى غلبه مهما شاء وأراد.

وأما الثاني: أعني تضعيف الهوى، إنما يكون بالمجاهدة والرياضة، من الصوم والجوع وقطع الأسباب المهيجة لشهوة من النظر إلى مظانها وتخيلها، وبالتسلية بالمباح من الجنس الذي يشتهيه بشرط ألا يخرج عن القدر المشروع.

تتميم أن قيل: الصبر في المصائب إن كان المراد به ألا تكون في نفسه كراهة المعصية، فذلك داخل تحت الاختيار، إذ الإنسان مضطر إلى الكراهة، فبماذا ينال درجة الصبر في المصائب؟
قلت: من كان عارفا بالله وبأسرار حكمته وقضائه وقدره، بأن يعلم يقينا بأن كل أمر صدر من الله وأبتلي به عباده من ضيق أو سعة، وكل أمر مرهوب أو مرغوب على وفق الحكمة والمصلحة بالذات، وما عرض من ذلك ممن يعده شرطا، فأمر عرضي لا يمكن نزع الخير المقصود منه، وإن ذلك إذا كان متيقنا له، استعدت نفسه للصبر ومقاومة الهوى في الغم والحزن، وطابت بقضائه وقدره، وتوسع صدره بمواقع حكمه، وأيقن بأن قضاءه لم يجر إلا بالخيرة. وقد أشار إلى ذلك أمير المؤمنين (ع) بقوله: (اطرح عنك واردات الهموم بعزائم الصبر وحسن اليقين). ومن بلغ بهذه الدرجة، يتلذذ وبكل ما يرد عليه. ومثله يتمتع بثروة لا تنفد، ويتأيد بعز لا يفقد، فيسرح في ملك الأبد، ويعرج إلى قضاء السرمد. هذا مع أن العبد إنما يخرج عن مقام الصابرين بالجزع، وشق الجيوب، وضرب الخدود، والمبالغة بالشكوى، وإظهار الكآبة، وتغيير العادة في الملبس والمطعم ونحوها، وهذه الأمور داخلة تحت اختياره، فينبغي أن يجتنب عنها، ويظهر الرضا بقضاء، ويبقى مستمرا على عادته، ويعتقد أن ذلك كان وديعة فاسترجعت، ولا يخرجه عن حد الصابرين توجع القلب وجريان الدمع، لأن ذلك مقتضى البشرية. لما مات إبراهيم ولد النبي (ص) فاضت عيناه بالدمع، فقيل له: أما نهيتنا عن هذا؟ قال: (هذه رحمة، إنما يرحم الله من عباده الرحماء). وقال أيضا (ص): (العين تدمع والقلب يحزن، ولا يقول ما يسخط الرب). بل ذلك لا يخرج عن مقام الرضا أيضا، فإن المقدم على الفصد والحجامة راض به، مع أنه متألم بسببه لا محالة. نعم، من كمال الصبر كتمان المصائب، لما ورد من أن كتمان المصائب والأوجاع والصدقة من كنوز البر. وقد ورد المدح في كثير من الأخبار على عدم الشكاية من الأمراض والمصائب. وقال الباقر (ع) (الصبر الجميل، صبر ليس به شكوى إلى الناس). وفي بعض الأخبار:

(أن الشكاية أن تقول: ابتليت بما لم يبتل به أحد، وأصابني ما لم يصب أحدا، وليس الشكوى أن تقول سهرت البارحة، وحميت اليوم، ونحو ذلك). وقال الصادق (ع): (من اشتكى ليلة، فقبلها بقبولها، وأدى إلى الله شكرها، كانت كعبادة ستين سنة)، قيل له: ما قبولها؟ قال: (يصبر عليها ولا يخبر بما كان فيها، فإذا أصبح حمد الله على ما كان).

تتميم

التلازم بين الصبر والشكر

إعلم أنه اختلف في أفضلية كل من الصبر والشكر على الآخر، فرجح كلا منهما على الآخر طائفة. والظاهر أنه لا ترجيح لأحدهما على الآخر، لأنهما متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر. إذ الصبر على الطاعة وعلى المعصية هو عين الشكر، لكون أداء الطاعة وترك المعصية شكرا، كما مر في باب الشكر. والصبر على الشدائد والمصائب يستلزم الشكر، لما مر من أن الشدائد والمصائب الدنيوية تتضمن نعما، فالصبر على هذه الشدائد يستلزم الشكر على تلك النعم ولأن الصبر على المصائب هو حبس النفس عن الجزع تعظيما لله سبحانه -. وهذا هو الشكر بعينه، لأنه تعظيم لله يمنع عن العصيان، والشاكر يمنع نفسه عن الكفران مع ميل النفس إليه، وهذا هو عين الصبر عن المعصية. وأيضا، توفيق الصبر والعصمة من الجزع نعمة يشكر عليها الصابر، فكل صبر يستلزم الشكر، وبالعكس. وبالجملة: لا ريب في استلزام كل من الصبر والشكر للآخر، فإن اجتماعهما في الطاعة وترك المعصية، بل اتحادهما فيهما، أمر ظاهر، كما تقدم. وفي البلاء المقيد الدنيوي، إذا حصل فيه الصبر، فلا ريب في عدم انفكاكه عن تصور النعم اللازمة له، ومن الثواب الأخروي، وحصول الانزعاج عن الدنيا والرغبة إلى الآخرة، فيشكر على ذلك. فهو لا ينفك عن الشكر، لأنه يعرف هذه النعم من الله، كما يعرف البلاء أيضا من الله فيفرح بالنعم، ويعمل بمقتضى فرحه من التحميد وغيره. وفي النعمة المقيدة مثل المال، إذا توسل به إلى تحصيل الدين، فلا ريب في أنه كما تحقق فيه الشكر تحقق فيه الصبر أيضا. إذ في إنفاق المال وبذله في تحصيل الدين

حبس النفس عما تحبه وتميل إليه، وثبات باعث الدين في مقابلة باعث الهوى. وفي البلاء المطلق، كالكفر والجهل، لا معنى لتحقق الشكر أو الصبر فيه، وفي النعمة المطلقة كسعادة الآخرة والعلم وحسن الأخلاق، كما يتحقق فيها الشكر يتحقق فيها الصبر أيضا. إذ تحصيل السعادة، والعلم، والأخلاق الفاضلة، والابقاء عليها، لا ينفك عن مقاومته مع الهوى ومنع النفس عما تميل إليه. مع أن الشكر عليهما يستلزم منع النفس عن الكفر وهو الصبر على المعصية. حتى أن شكر العينين بالنظر إلى عجائب صنع الله يستلزم الصبر عن الغفلة والنوم، والنظر إلى ما تميل إليه النفس من النظر إلى غير المحارم وأمثال ذلك.

فإن قيل: استلزام كل من الصبر والشكر للآخر مما لا ريب فيه، إلا أن الكلام في أنه إذا لم يتحقق الاتحاد بينهما في فعل، كما في فعل الطاعة وترك المعصية لكونهما متحدين فيهما، بل تحقق الاستلزام الموجب لتحقق جهتين، فأي الجهتين أفضل؟ مثل أن يبتلى أحد بمصيبة دنيوية، فصبر عليها، بمعنى أنه عرف إنها من الله وحبس نفسه عن الجزع والاضطراب، وشكر عليها أيضا، بمعنى أنه عرف أن النعم اللازمة لها من الثواب الأخروي وغيرها من الله، وفرح بها، وعمل بمقتضى فرحه من التحميد أو طاعة أخرى، فهل الأفضل حينئذ جهة الصبر، أو جهة الشكر؟

قلنا: التأمل يعطي: أن كل صبر هو شكر بعينه، وبالعكس. فلا تتحقق بينهما جهتان مختلفتان حتى يتصور الترجيح بينهما. فإن الصبر على البلاء إنما هو حبس النفس عن الجزع تعظيما لله. وهذا هو عين الشكر إذ كل طاعة لله – سبحانه – شكر، وفي الشكر على النعم المطلقة منع النفس عن الكفران، وهو عين الصبر عن المعصية.

فإن قلت: فعلى هذا، يجتمع الصبر والشكر في محل واحد بجهة واحدة، وقد تقدم أنهما متضادان، إذ الصبر يستدعي ألما، والشكر يستدعي فرحا، وقد ذكرت أن اجتماع الصبر والشكر في محل واحد إنما يكون من جهتين متغايرتين لا من جهة واحدة.

قلنا: امتناع الاتحاد فيهما إنما هو في الصبر والشكر على ما هو كان

نعمة وبلاء بعينه، فإنه لا يمكن أن يكون الصبر على موت ولد – أعني حبس النفس عن الجزع – هو عين الشكر على النعمة إذ موت الولد بعينه ليس نعمة بل هو مستلزم للنعمة. فالشكر على اللازم، والصبر على الملزوم. فاختلفت جهتا الصبر والشكر، فلا اتحاد
. وما ذكرنا من الاتحاد
إنما هو الشكر والصبر على النعمة وترك المعصية، أو على البلاء والطاعة. وندعي أن من وصلت إليه نعمة، فشكر عليها بعرفانها من الله، ففرح بها وعمل بمقتضى الفرح، من التحميد أو طاعة أخرى، كان هذا الشكر عين الصبر عن المعصية هي الكفران، أو على الطاعة التي هي التحميد وغيره. كذا من ابتلي ببلية، فصبر عليها بحبس نفسه عن الجزع، فهذا الصبر. عين الشكر بأداء الطاعة التي هي تعظيم الله بكف النفس عن الجزع، أو عن المعصية التي هي الجزع والاضطراب. وهذا الاتحاد والعينية يطرد في كل صبر وشكر، ولا يتحقق شكر لا يكون عن الصبر من هذا الوجه، وبالعكس. وليس بينهما تضاد وتغاير أصلا، واستلزم واختلاف الجهة إنما هو في ٥٦ الصبر على البلاء والشكر على ما يستلزمه من النعم، ولا يمكن هنا اتحادهما لتضادهما، وفي هذه الصورة يكون كل من الصبر والشكر المتميزين عن الآخر باختلاف الجهة عين الآخر، من حيث ملاحظة الاعتبار السابق فلا يمكن الترجيح في هذه الصورة مع اختلاف الجهة أيضا.
فإن قيل عرفان النعم من الله داخل في حقيقة الشكر، وليس داخلا في الصبر، فينبغي أن يكون الشكر لذلك أفضل من الصبر.
قلنا: في الشق الأول من صورة العينية والاتحاد، يكون عرفان النعمة داخلا في الصبر وفي الشق الثاني منهما، وفي صورة الاستلزام، يدخل عرفان البلاء من الله في الصبر. فكما أن الشاكر يرى نعمة العينين من الله، فكذا الصابر يرى العمى من الله، فهما في المعرفة متساويان. ثم جميع ما ذكر في الفرق بين الصبر والشكر إنما إذا كانت حقيقة الصبر حبس النفس عن الشكوى في البلاء مع الكراهة والتألم (١)، وعلى هذا يكون

----

(١) قال أستاذ البشر المحقق (الطوسي) – قدس سره – في تعريف الصبر
(الصبر حبس النفس عن الجزع عند المكروه، وهو يمنع الباطل عن الاضطراب واللسان عن الشكاية، والأعضاء عن الحركات غير المعتادة.)

الرضا فوقه، لو قطع النظر عن كون الصبر شكرا أيضا، ويكون الشكر فوق الرضا، إذ الصبر مع التألم والرضا يمكن بما لا ألم فيه ولا فرح، والشكر لا يمكن إلا على محبوب يفرح به، ولو لم يعتبر في مفهوم الصبر الكراهة والتألم، لصار الرضا والشكر في بعض درجاته، إذ يمكن أن يصل حال العبد في الحب مرتبة لا يتألم من البلاء أو يفرح به، لأنه يراه من محبوبه. وحينئذ، فترك الشكوى في البلاء مع الكراهة صبر، وبدونها رضا، ومع الفرح به شكر.

تنبيه

القانون الكلي في معرفة الفضائل

إعلم أن المعيار والقانون الكلي في معرفة فضائل الأعمال والأحوال وترجيح بعضها على بعض عند أرباب القلوب: أن العمل كلما كان أكثر تأثيرا في إصلاح القلب وتصفيته وتطهيره عن شوائب الدنيا، وأشد إعدادا له لمعرفة الله وانكشاف جلاله في ذاته وصفائه وأفعاله، كان أفضل. وعلى هذا القانون، لولا الاتحاد والعينية والتلازم بينهما، لكان اللازم أن يوازن بين كل درجة درجة من درجات الصبر والشكر وترجيح أحدهما، إذ لكل منهما درجات مختلفة في تنوير القلب وتصفيته، وسبب الاختلاف أسباب:

منها - الاختلاف بين أقسام النعم وأقسام البلاء.

ومنها - اختلاف مراتب المعرفة والفرح المأخوذين في الشكر، واختلاف الطاعة التي تفعل في كل منهما صعوبة وسهولة. فربما كان بعض درجات الصبر أشد تنويرا وأكثر إصلاحا للقلب من بعض درجات الشكر، وربما كان الأمر بعكس ذلك في بعض آخر من درجاتهما. فإن الأعمال والأحوال المندرجة تحت كل منهما كثيرة، وباختلافها - كثرة وقلة - تختلف درجاتهما. فمن الأمور والأحوال التي تندرج تحت الشكر: حياء العبد من تتابع نعم الله عليه، ومعرفته بتقصيره عن الشكر، واعتذاره من قلة الشكر، واعترافه بأن النعم ابتداء من الله - تعالى - من غير استحقاقه لها، وعلمه بأن الشكر أيضا نعمة من نعمه ومواهبه، وحسن تواضعه بالنعم، والتذلل، وقلة اعتراضه، وحسن أدبه بين يدي المنعم وتلقي النعم بحسن القبول، واستعظام

صغيرها، وشكر الوسائط، لقوله (ص): (من لم يشكر الناس لم يشكر الله). وقال السجاد (ع): (أشكركم لله أشكركم للناس). وقال (ع): (يقول الله – تعالى – لعبد من عبيده يوم القيامة: أشكرت فلانا؟ فيقول: بل شكرتك يا رب! فيقول: لما تشكرني إذ لم تشكره). وقال الصادق (ع): (اشكر من أنعم عليك وانعم على من شكرك). ولا ريب في أنه كلما ازدادت هذه الأحوال في الشكر، وطال زمانه، ازداد فضله. وقد نقل:) أن رجلا (كان يهوى ابنة عم له، وهي أيضا تهواه، فاتفقا مزاوجتهما فقال الرجل ليلة الزفاف لها: تعالي حتى نحيي هذه الليلة شكرا لله على ما جمعنا، فقالت: نعم! فصليا تلك الليلة بأسرها، ولم يتفرغ أحدهما إلى صاحبه. فلما كانت الليلة الثانية، قالا مثل ذلك، فصليا طول الليل...
فهكذا يفعلان في ثمانين سنة، وبقيا على تلك الحالة في ثمانين سنة في كل ليلة، من دون رجوع لأحدهما ومن دون اتفاق مضاجعة
بينهما، فضلا عن شئ آخر). ولا يخفى أن هذا الشكر أفضل مراتب من صبرهما على بلاء العزوبة لو لم يحصل بينهما الجمع والوصول.

تتميم

تفضيل الصبر على الشكر

إعلم أن الظاهر من بعض الأخبار: أن الصبر أفضل وأكثر ثوابا من الشكر. كما روي: (أنه يؤتى يوم القيامة بأشكر أهل الأرض، فيجزيه الله جزاء الشاكرين. ويؤتى بأصبر أهل الأرض، فقال له: أترضى أن نجزيك كما جزينا هذا الشاكر؟ فيقول: نعم يا رب! فيقول الله تعالى: كلا! أنعمت عليه فشكر، وابتليتك فصبرت، لأضعفن عليك الأجر عليه! فيعطى أضعاف جزاء الشاكرين). وكقوله (ع): (الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر). وهذا يدل على أفضلية الصبر من الشكر، لأن المشبه به أعلى رتبة من المشبه. وكقول الباقر (ع): (مروءة الصبر في حال الحاجة والفاقة والتعفف والغنى، أكثر من مروءة الإعطاء). ويؤيد ذلك قوله تعالى: (إنما يوفي الصابرون أجرهم بغير حساب). وينبغي أن يرتكب في أمثال هذه الأخبار تقييدان:

أحدهما – التقييد ببعض المراتب، بأن يقال: المراد أن بعض مراتب الصبر أفضل من بعض مراتب الشكر. وهذا مما لا ريب فيه، فإن من سلب أعز أولاده وابتلي بالفقر والمرض، ومع ذلك صبر ولم يجزع، فهو أفضل البتة ممن أعطي مالا كثيرا فقال: شكرا لله، الحمد لله، من دون إبداء عمل آخر من الطاعات لا وليس المراد أن كل ما يسمى صبرا أفضل من كل درجة من درجات الشكر. إذ البديهة حاكمة بأن الشكر على نعمة بالاشتغال بالطاعة والعبادات، وترك المعاصي سنين كثيرة متتالية، من دون فتور، أفضل وأعلى رتبة من منع النفس عن الجزع لأجل عشرة دراهم سرقت منه.
وثانيهما – التقييد بخروجها على ما هو الظاهر عند جمهور الناس من الانفكاك بين الصبر والشكر. فإن الجمهور لا يفهمون من حبس النفس عن الجزع عند الابتلاء ببلية إلا الصبر، ولا يلتفتون إلى أن هذا الحبس نوع عبادة حصلت تعظيما لله، وهو عين الشكر. وكذا لا يفهمون من إظهار التحميد والاشتغال بالصلاة عند وصول نعمة إلا الشكر، ولا يلتفتون إلى أن هذا العمل عين منع النفس عن الكفران، وهو الشكر بعينه.
ومنها:

الفسق

وهو الخروج عن طاعة المبدأ الحقيقي وعبادته. وضده الطاعة، وهي تمجيد المبدأ والتخضع له بأداء ضروب العبادات المقررة في الشريعة. وعمدة العبادات الموظفة في الشريعة هي: الطهارة، والصلاة، والذكر، والدعاء، وتلاوة القرآن، والصوم، والحج، وزيارة النبي (ص) والأئمة عليهم السلام: والجهاد في سبيل الله، وأداء المعروف، الشامل للزكاة، والخمس، والصدقة المندوبة، وغيرها. والأخير – أعني أداء المعروف بأقسامه – قد تقدم. والجهاد في هذا الزمان ساقط. فنشير إلى بعض الأسرار والدقائق والآداب الباطنة المتعلقة بالبواقي، في مقاصد وخاتمة. وأما آدابها وأحكامها وشرائطها الظاهرة، فهي مذكورة في الفقهيات.

المقصد الأول

الطهارة – حقيقة الطهارة – ما ينبغي للمؤمن في الطهارة – إزالة

الأوساخ – آداب الحمام – السر في إزالة الأوساخ.
إعلم أن الطهارة والنظافة أهم الأمور للعباد. إذ الطهارة الظاهرة وسيلة إلى حصول الطهارة الباطنة، وما لم تحصل الأولى لم تحصل الثانية.
ولذا ورد في مدحها ما ورد، قال الله سبحانه:
(فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المتطهرين) (٢). وقال:
(ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم) (٣).
وقال رسول الله (ص): (بني الدين على النظافة). وقال (ص): (الطهور نصف الإيمان). وقال (ص): (مفتاح الصلاة الطهور).
وقال (ص): بئس للعبد القاذورة). وقال (ص): ((من اتخذ ثوبا فلينظفه). وقال أمير المؤمنين (ع): (النظيف من الثياب يذهب الهم والحزن، وهو طهور للصلاة).
ثم للطهارة أربع مراتب:
الأولى – تطهير الظاهر من الأحداث والأخباث والفضلات.
الثانية – تطهير الجوارح من الجرائم والآثام والتبعات.
الثالثة – تطهير القلب من مساوي الأخلاق ورذائلها.
الرابعة – تطهير السر عما سوى الله تعالى، وهي تطهير الأنبياء والصديقين. والطهارة في كل مرتبة نصف العمل الذي فيها، إذ الغاية القصوى في عمل السر أن ينكشف له جلال الله وعظمته، وتحصل له المعرفة التامة، والحب والأنس. ولا يمكن حصول ذلك ما لم يرتحل عن ما سوى الله، ولذلك قال الله تعالى:
(قل الله ثم ذرهم) ٤. فإن الله وغيره لا يجتمعان في قلب واحد:
(وما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه) (٥).
فتطهير السر عما سوى الله نصف عمله، والنصف الآخر شروق نور

----

(٢) التوبة، الآية: ١٠٩
(٣) المائدة، الآية: ٧
(٤) الأنعام الآية: ٩١.
(٥) الأحزاب الآية: ٤

الحق فيه. والغاية القصوى في عمل القلب عمارته بالأخلاق المحمودة، والعقائد الحقة المشروعة. ولا يتصف بها ما لم ينظف عن نقائضها، من الأخلاق المذمومة، والعقائد الفاسدة. فتطهيرها عنها أحد الشطرين، والشطر الآخر تحليته بالفضائل والعقائد الحقة.

وأما عمل الجوارح، فالمقصود منه عمارتها بالطاعات. ولا يمكن ذلك ما لم يطهر عن المعاصي والمناهي. فهذا التطهير نصف عملها، ونصفه الآخر عمارتها بالطاعات. وقس على ذلك الحال في المرتبة الأولى. وإلى ذلك الإشارة بقول النبي (ص): (الطهور نصف الإيمان). فإن المراد: أن تطهير الظاهر، والجوارح، والقلب، والسر، من النجاسات والمعاصي ورذائل الأخلاق وما سوى الله نصف الإيمان، ونصفه الآخر عمارتها بالنظافة والطاعات ومعالي الأخلاق، والاستغراق في شهود جمال الحق وجلاله. ولا تظنن أن مراده (ص) إن مجرد تطهير الظاهر عن النجاسات بإضافة الماء نصف الإيمان، مع تلوث الجوارح بأخباث المعاصي، وتنجس القلب بأقذار مساوي الأخلاق، وتشوش السر وتكدره بما سوى الله.

فالمراد التطهير في المراتب الأربع، التي هي من مقامات الدين، وهي مرتبة يتوقف بعضها على بعض، ولا يمكن أن ينال العبد ما هو الفوق، ما لم يتجاوز ما دونه، فلا يصل إلى طهارة السر مما سوى الله، وعمارته بمعرفة الله، وانكشاف جلاله وعظمته، ما لم يفرغ عن طهارة القلب عن الأخلاق المذمومة، وتحليته بالملكات المحمودة. ولا يصل إلى ذلك ما لم يفرغ عن طهارة الجوارح من المعاصي وعمارتها بالطاعات. ولا يصل إلى ذلك ما لم يفرغ عن إزالة الخبث والحدث عن الظاهر، وعمارته بالنظافة والنزاهة.

فصل

حقيقة الطهارة

طهارة الظاهر، إما عن الخبث، أو عن الحدث، أو عن فضلات البدن، وما يتعلق بها من الأحكام الظاهرة الواجبة والمحرمة والمندوبة والمكروهة، مستقصاة في كتب الفقه.

وأما الآداب الباطنة لطهارة الخبث وإزالته عند التخلي لقضاء الحاجة،

أن يتذكر عنده نقصه وحاجته، وخبث باطنه، وخسة حاله، وما يشتمل عليه من الأقذار، وكونه حامل النجاسات، ويتذكر باستراحة نفسه عند إخراجها، وسكون قلبه عن دنسها، وفراغه للعبادات والمناجاة، وأن الأخلاق الذميمة التي في باطنها نجاسات باطنة، وأقذار كامنة، لتستريح نفسها عند إخراجها، ويطمئن قلبه من إزالة دنسها، وعند إخراجها يصلح للوقوف على بساط الخدمة، ويتأهل للقرب والوصول إلى حريم العزة.

فكما يسعى أخراج النجاسات الظاهرة لاستراحة البدن مدة قليلة في الدنيا، فينبغي أن يجتهد أيضا في إخراج الأقذار الباطنة، والنجاسات الداخلة الغائضة (٦) في الأعماق، المفسدة على الإطلاق، لتستريح الروح والبدن في الدنيا والآخرة أبد الآباد. قال الصادق (ع): (إنما سمي المستراح مستراحا لاستراحة النفس من أثقال النجاسات، واستفراغ الأقذار والكسافات فيها. والمؤمن يعتبر عندها أن الخالص من حطام الدنيا كذلك تصير عاقبته، فيستريح بالعدول عنها وتركها، ويفرغ نفسه وقلبه عن شغلها، ويستنكف عن جمعها وأخذها استنكافه عن النجاسة والغائط والقذر، ويتفكر في نفسه المكرمة في حال كيف تصير ذليلة في حال، ويعلم أن التمسك بالقناعة والتقوى يورث له راحة الدارين. فإن الراحة في هوان الدنيا، والفراغ من التمتع بها، وفي إزالة النجاسة من الحرام والشبهة. فيغلق عن نفسه باب الكبر بعد معرفته إياها، ويفر من الذنوب، ويفتح باب التواضع والندم والحياء، ويجتهد في أداء أوامره واجتناب نواهيه، طلبا لحسن المآب، وطيب الزلفى. ويسجن نفسه في سجن الخوف والصبر والكف عن الشهوات، إلى أن يتصل بأمان الله تعالى في دار القرار، ويذوق طعم رضاه، فإن المعلول على ذلك، وما عداه فلا شئ) (٧).

وينبغي أن يتأمل في أن ما دفع عنه من الغائط والقذر هو ما كان يشتهيه، ويحترص في طلبه من لذائذ الأطعمة وكلما كانت ألذ عفونتها أشد، فما

---

(٦) الغائضة: الغائر. غيض الدمع حبسه وأخفاه

(٧) الحديث مذكور في (مصباح الشريعة)، الباب التاسع وفي (مستدرك الوسائل): ١ / ٣٧ - ٣٨، كتاب الطهارة. وفي الموضوعين اختلاف كثير عما ذكر هنا، فصححناه كما كان في الموضوعين.

كانت عاقبة ذلك، فليحذر من أن يأخذه من غير حله، فيعذب أبد الآباد لأجله

فصل

ما ينبغي للمؤمن في الطهارة

ينبغي لكل مؤمن أن يستحضر عند اشتغاله بالطهارة عن الحدث: أن تكليفه بها للدخول في العبادات والمناجاة مع خالق البريات إنما هو لكون أعضائه التي أمر بغسلها مباشرة للأمور الدنيوية، منهمكة في الكدورات الطبيعية، فخرجت عن أهلية القيام بين يدي الله سبحانه، والاشتغال بعبادته. فالأمر بغسلها، لتتطهر عن هذه الكدورات، فيتأهل للمناجاة.

ولا ريب في أن مجرد غسلها لا يطهرها عن الأدناس الدنيوية والكدورات الجسمانية، ما لم يطهر قلبه عن الأخلاق الذميمة، والعلائق الدنيوية، ما لم يعزم على الرجوع إلى الله، والانقطاع عن الدنيا وشهواتها. فينبغي أن يكون قلبه عند الطهارة مطهرا عن ذمائم الصفات وخبائث الشهوات، جازما على فطام الأعضاء التي هي أتباعه وخدامه عن شهوات الدنيا، لتسري نوريته وطهارته إلى تلك الأعضاء، ثم أمر في الوضوء أولا: بغسل الوجه، الذي هو مجمع أكثر الحواس الظاهرة، التي هي أعظم الأسباب الباعثة على مطالب الدنيا، ليتوجه ويقبل بوجه للقلب على الله، وهو خال من تلك الأدناس، وثانيا: بغسل اليدين، له مباشرتهما أكثر الأمور الدنيوية والمشتهيات الطبيعية المانعة من الإقبال على الآخرة، وثالثا: بمسح الرجلين، للتوصل بهما إلى أكثر المطالب الدنيوية، والمقاصد الطبيعية. فأمر بتطهير جميعهما ليسوغ له الدخول بها في العبادات والاقبال عليها. وأمر في الغسل بغسل جميع البشرة، لأن أدنى حالات الإنسان وأشدها تعلقا بالملكات الشهوية حالة الوقاع، ولجميع بدنه مدخل في تلك الحالة. ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وآله: (تحت كل شعرة جنابة) فحيث كان جميع بدنه بعيدا عن المرتبة العلية، منغمسا في اللذات الدنية، كان غسله أجمع من أهم المطالب الشرعية، ليتأهل لمقابلة الجهة الشريفة، والدخول في العبادة المنيفة. وأمر في التيمم بمسح الأعضاء بالتراب، عند تعذر غسلها بالماء، وضعا لتلك

الأعضاء الرئيسة، وهضما لها بملاقاتها أثر التربة الخسيسة.
ثم لما كان القلب هو الرئيس الأعظم لهذه الجوارح والأعضاء، والمستخدم لها في تلك الأمور المبعدة عن جنابه تعالى، وهو الموضع لنظر الله سبحانه، كما قال (ص): (إن الله لا ينظر إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم)، فله من ذلك الحظ الأوفر والنصيب الأكمل. فيكون الاشتغال بتطهيره من الرذائل والتوجهات المانعة من درك الفضائل أولى من تطهير الأعضاء الظاهرة عند اللبيب العاقل. وإذا لم يمكن تطهيره من الأخلاق الرذيلة، وتحليته بالأوصاف الجميلة، لرسوخه على حب الدنيا الدنية، فليقمه في مقام الهضم والإزراء، ويسقيه بسياط الذل والاغضاء. كما إنه عند تعذر غسل الأعضاء بالماء يهضمها ويذللها بالوضع على التراب، عسى أن يرحم ربه تواضعه وانكساره، فيهبه نفحة من نفحات نوره اللامع، فإنه عند المنكسرة قلوبهم، كما ورد في الأثر، فترق من هذه الإشارات ونحوها إلى ما يوجب لك الإقبال، ويتدارك سالف الإهمال.
ثم ما ذكر من السر في الطهارة، يمكن استنباطه – مع زيادة – من كلام مولانا الصادق (ع) في (مصباح الشريعة)، حيث قال: (إذا أردت الطهارة والوضوء، فتقدم إلى الماء تقدمك إلى رحمة الله، فإن الله تعالى قد جعل الماء مفتاح قربته ومناجاته، ودليلا إلى بساط خدمته، وكما أن رحمة الله تطهر ذنوب العباد كذلك النجاسات الظاهرة يطهرها الماء لا غيره، قال الله تعالى:
(وهو الذي أرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته وأنزلنا من السماء ماء طهورا) (٨). وقال الله – تعالى –: (وجعلنا من الماء كل شئ حي أفلا يؤمنون) (٩).
فكما أحيى به كل شئ من نعيم الدنيا، كذلك برحمته وفضله جعل حياة القلوب بالطاعات. وتفكر في صفاء الماء ورقته، وطهره وبركته، ولطيف امتزاجه بكل شئ. واستعمله في تطهير الأعضاء التي أمرك الله

----

(٨) الفرقان، الآية: ٤٨
(٩) الأنبياء، الآية: ٣٠

بتطهيرها، وتعبدك بآدابها في فرائضه وسننه فإن تحت كل واحدة منها فوائد كثيرة، فإذا استعملتها بالحرمة انفجرت لك عيون فوائده عن قريب. ثم عاشر خلق الله تعالى كامتزاج الماء بالأشياء، يؤدي كل شئ حقه، ولا يتغير عن معناه، معتبرا لقول الرسول (ص): (مثل المؤمن الخالص كمثل الماء). ولتكن صفوتك مع الله تعالى في جميع طاعاتك كصفوة الماء حين أنزله من السماء وسماه طهورا، وطهر قلبك بالتقوى واليقين عند طهارة جوارحك بالماء) (١٠)

ومن الأسرار الواردة في الطهارة وتخصيص بعض الأعضاء بالتطهير في الوضوء، ما أشار إليه مولانا الرضا (ع) بقوله: (إنما أمر بالوضوء ليكون العبد طاهرا إذا قام بين يدي الجبار عند مناجاته إياه مطيعا له، فيما أمره، نقيا من الأدناس والنجاسة، مع ما فيه من ذهاب الكسل، وطرد النعاس، وتزكية الفؤاد للقيام بين يدي الجبار. وإنما وجب ذلك على الوجه واليدين والرأس والرجلين، لأن العبد إذا قام بين يدي الجبار، فإنما ينكشف من جوارحه ويظهر ما يحب فيه الوضوء، وذلك أنه بوجهه يسجد ويخضع، وبيده يسأل ويرغب ويرهب ويتبتل، وبرأسه يستقبل في ركوعه وسجوده، وبرجليه يقوم ويقعد. وأمر بالغسل من الجنابة دون الخلاء، لأن الجنابة من نفس الإنسان، وهو شئ يخرج من جميع جسده والخلاء ليس هو من نفس الإنسان، إنما هو غذاء يدخل من باب ويخرج من باب) (١١)

----

(١٠) صححنا الحديث على (مصباح الشريعة) الباب العاشر وعلى المستدرك): ١ / ٥١ - ٥٢ كتاب الطهارة

(١١) هذه الرواية نقلها العلامة المجلسي قدس سره في (البحار) ١٨ / ٥٦، باب علل الوضوء وثوابه وعقاب تركه، وعن (العيون والعلل) لشيخ المحدثين مولانا (الصدوق) - رضوان الله عليه - ولم أعثر عليها إلا في الموضع المذكور من (بحار الأنوار).
ولا يخفى لأن ما نقله العلامة (المجلسي) - قدس الله روحه - في الوضع المذكور فيه اختلاف كثير عما ذكر في نسخ (جامع السعادات) الخطية والمطبوعة، بحيث لا يمكن تصحيح الرواية إلا بنقلها من (البحار) وذكرها في هامش الكتاب وذلك غير ممكن، لضيق المقام، فلأجله تركنا تصحيحها، لعل القارئ الكريم يقف على مصدر آخر لها فمن أراد الاطلاع على الرواية، فعليه بمراجعة (البحار) في الموضع المذكور

فصل

في إزالة الأوساخ

ينبغي لكل مؤمن أن يطهر بدنه من فضلاته ودرنه وأوساخه، كشعر الرأس بالحلق، وشعر الأنف والشارب وما طال من اللحية بالقبض، وشعر الإبط والعانة وسائر الأعضاء بالنورة، وكأظافر اليدين والرجلين بالقلم، وما يجتمع من الوسخ والقمل في شعر الرأس واللحية بالغسل والتسريح بالمشط، وما يجتمع من الوسخ في معاطف الأذنين بالمسح ومثله، وما يجتمع منه على الأسنان وأطراف اللسان بالسواك والمضمضة، وما يجتمع في الأنف من الرطوبات الملتصقة بالاستنشاق، وما يجتمع من الوسخ تحت الأظافر بالطعام والغسل، وما يجتمع من الدرن على جميع بدنه، وترشيح العرق وغبار الطريق بالدخول في الحمام

تنبيه

آداب الحمام

ينبغي لمن يدخل الحمام، أن يتذكر بحرارته حر النار، ويقدر نفسه محبوسا في البيت ساعة، ويقيسه إلى جهنم، ويستعيذ بالله منها. قال الصادق (ع): (فإذا دخلت البيت الثالث، فقل: نعوذ بالله من النار ونسأله الجنة. وترددها إلى وقت خروجك من البيت الحار) وقال أمير المؤمنين (ع): نعم البيت الحمام، يذهب بالدرن، وتذكر فيه النار).

وفيه إشارة إلى أنه ينبغي للعاقل ألا يغفل عن ذكر الآخرة في لحظة، فإنها مقره ومستقره. فيكون له في كل ما يراه، من ماء أو نار أو غيرهما، عبرة وموعظة. فإن المرء ينظر في كل شئ بحسب همته. فالبزاز إذا دخل دار معمورة مفروشة ينظر إلى الفرش ويتأمل في قيمتها. والحائك إذا دخلها ينظر إلى الثياب ويتأمل في كيفية نسجها، والنجار إذا دخلها ينظر إلى أبوابها وشبابيكها ويتأمل في كيفية نجرها وتركيبها، والبناء إذا دخلها ينظر إلى الحيطان والسقف وكيفية بنائها وأحكامها واستقامتها. فكذلك سالك طريق الآخرة، لا ينظر إلى شئ إلا وتكون له موعظة وعبرة من

الآخرة، فإن نظر إلى ظلمة تذكر ظلمة اللحد، وإن نظر إلى نار تذكر نار جهنم، وإن نظر إلى حية تذكر أفاعي جهنم، وإن سمع صوتا هائلا تذكر نفخة الصور، وإن نظر إلى صورة قبيحة تذكر صورة النكيرين والزبانية، وإن رأى المحاسبة بين قوم تذكر محاسبة الآخرة، وإن سمع كلمة رد أو قبول تذكر ما ينكشف له في آخر أمره بعد الحساب من الرد والقبول، وإن رأى شيئا حسنا تذكر نعيم الجنة... إلى غير ذلك.

تتميم

السر في إزالة الأوساخ

السر في إزالة الأوساخ المذكورة عن البدن ظاهر، فإنها توجب تنوير القلب، وانشراح الصدر، وطرد الشيطان. إذ هي كسافات مانعة عن النورية والتجرد، فتشمئز منها الملائكة، ويرغب إليها الشياطين. ومن تأمل في الأحكام والآداب التي جاء بها رسول الله (ص)، وكانت له بصيرة ناقدة، يعلم أن شيئا منها لا يخلو عن حكمة، حتى أن ما صدر عنه في الآداب والحركات والأفعال والأقوال، من ترتيب خاص، أو تخصيص بعدد معين، أو ابتداء من موضع خاص، أو بواحد معين من الأشياء المتماثلة، يتضمن حكما أو حكمة البتة. مثال ذلك: أنه (ص) كان يكتحل في عينه اليمنى ثلاثا وفي عينه اليسرى اثنين، والسر في هذا الترتيب وهذا التخصيص: أن اليمنى أشرف العينين فبدأ بها، وتفاوته بين العينين لتكون الجملة وترا، فإن للوتر فضلا على الزوج، لأن الله وتر يحب الوتر، فلا ينبغي أن يخلو فعل العبد عن مناسبة لوصف من أوصاف الرب، وإنما لم يقتصر على الثلاث وهو وتر، لأن اليسرى حين إذ لا تخصها إلا واحدة، والغالب أن الواحدة لا تستوعب أصول الأجفان بالكحل، وإنما خصص اليمين بالزيادة لأن التفضل لا بد منه للإيثار، واليمين أفضل، فهو بالزيادة أحق، وإنما اقتصر على الاثنين لليسرى مع كونه زوجا، إذ الزوجية في أحداهما لازمة ضرورية، إذ لو جعل لكل واحد وترا لكان المجموع زوجا إذ الوتر مع الوتر زوج، ورعاية الإيثار في مجموع الفعل وهو في حكم الخصلة الواحدة أحب من رعايته في الآحاد. مثال آخر. روى الجمهور

في تقليم الأظافر: (أن رسول الله (ص كان يبدأ) عند تقليم أظافره الشريفة بمسبحة اليمنى، ويختم بإبهام اليمنى، بأن يبتدأ من مسبحتها إلى خنصرها، ثم يبتدأ من خنصر اليسرى إلى إبهام اليمنى). وفي طريقنا روايتان: إحداهما أن يبدأ بخنصر اليمنى ويختم بخنصر اليسرى. وأخراهما بعكس ذلك، وهي أشهر. فالسر على رواية الجمهور - كما قيل - أن اليد اليمنى أشرف من اليسرى فيبتدأ بها، ثم على اليمنى خمسة أصابع والمسبحة أشرفها فيبتدأ بها، ثم ينبغي بما يبتدأ بما على يمينها لكون اليمنى أشرف، ولذا استحب في الشرع وضع الطهور وغيره على اليمنى. ولا ريب في أنه إذا وضعت الكف على الأرض فيمين مسبحة اليمنى هي الوسطى، ووضع ظهر اليد على الأرض وإن اقتضى كون الإبهام هو اليمنى، إلا أن الاعتبار الأول أولى، إذ اليد إذا تركت بطبعها كانت الكف مائلة إلى جهة الأرض، لأن جهة حركة اليد اليمنى إلى جهة اليسرى، واليسرى إلى جهة اليمنى، واستتمام حركة كل منها في جهة بجعل الكف على الأرض وظهرها عاليا، وإذا كانت الكف مائلة إلى جهة الأرض فاعتبار ما يقتضيه الطبع أولى، فتكون يمين المسبحة هي الوسطى. ثم إذا وضعت الكف على الكف، صارت الأصابع في حكم حلقة دائرة، فيقتضي ترتيب الدور الذهاب من يمين المسبحة إلى أن يعود إلى المسبحة، فتقع البداءة بخنصر اليسرى والختم بإبهامها، ويبقى إبهام اليمنى، وإنما قدرت الكف موضوعة على الكف حتى تصير الأصابع كأشخاص في حلقة ليظهر ترتيبها، وتقدير ذلك أولى من تقدير وضع الكف على ظهر الكف، فإن ذلك لا يقتضيه الطبع.

هذا، وأما السر على الرواية الأولى من طريقنا، فكأنه اعتبار الأصابع العشرة في حكم صنف واحد ثابت على الأرض والابتداء باليمين، فاكتفى بما يرى بالنظر الجليل مع ترك اليد بطبعها. وأما الرواية الثانية، فلعل السر فيها تحصيل التيامن في كل إصبع بعد الأولى مع الترتيب فيها، ووضع اليدين على ما يقتضيه الطبع. هذا، وأما أصابع الرجل، فلم نعثر على خبر يدل على كيفية الابتداء والترتيب فيها، فينبغي اعتبار أحد الطريقين

المرويين عندنا فيها، ولعل اعتبار الأولى لأظهرية سرها أولى، وينبغي أن يكون تقليم أظافرها بعد تقليم أظافر اليدين أن وقعا في وقت واحد، إذ اليد أشرف من الرجل. وقس على ما ذكر سائر ما ورد من الآداب والتخصيصات، فإنه لا يخلو شئ منها على سر حكمي، وإن كانت عقولنا قاصرة عن أدراك أكثرها.

المقصد الثاني

الصلاة - حقيقة الصلاة - حضور القلب - دفع إشكال - شرائط الصلاة - طريق تحصيل المعاني الباطنة - أسرار الصلاة - الوقت - آداب الصلاة - آداب المصلي - الاستقبال - القيام - التكبيرات - النية - تكبيرة الاحرام - دعاء الاستفتاح - الاستعاذة - الركوع - السجود - التشهد - التسليم - إفاضة الأنوار على المصلي على قدر صفائه - ما ينبغي في إمام الجماعة - ما ينبغي في صلاة الجمعة والعيدين - ما ينبغي لمؤمن عند ظهور الآيات.

إعلم أن الصلاة معجون سماوي وتركب إلهي، ركبت من أجزاء كثيرة مختلفة، متفاوتة في الفضل والاهتمام بها. فبعضها بمنزلة الروح، وبعضها بمثابة الأعضاء الرئيسة، وبعضها بمنزلة سائر الأعضاء.

وتوضيح ذلك: إن الإنسان - مثلا - لما كان حقيقة مركبة من أجزاء معينة، فهو لا يكون إنسانا موجودا كاملا إلا بمعنى باطن هو الروح، وأعضاء محسوسة بعضها في جوفه وبعضها في ظاهرة. وهذه الأعضاء متفاوتة المراتب، إذ بعضها مما ينعدم الإنسان بعدمه وتزول الحياة بزواله، كالقلب والدماغ والكبد والمعدة وأمثالها، وبعضها وإن لم ينعدم بعدمه أصل الحياة، إلا أنه ترتفع به تمامية الإنسان ويصير ناقصا، كاليد والرجل والعين وأمثالها، وبعضها يفوت بفواته الحسن، كالحاجبين واللحية والأهداب وأمثالها، وبعضها يفوت بفواته كمال الحسن لا أصله، كاستقواس الحاجبين وتناسب الخلقة، وسواد شعر اللحية، وامتزاج البياض بالحمرة، وأمثال ذلك. وكذلك الصلاة حقيقة مركبة، وصورة صورها الشرع من أمور متفاوتة، وتعبدنا باكتسابها. فروحها: النية، والقربة، وحضور القلب،

والاخلاص. وأعمالها الأركانية: من تكبيرة الاحرام، والركوع، والسجود، والقيام، بمنزلة الأعضاء الرئيسية، فتفوت بفواتها الصلاة على الإطلاق، ولا يمكن تحققها وصحتها بدونها. وسائر الأعمال الواجبة: من الفتحة، والسور، وإذ كان الركوع، والسجدتين، والطمأنينة فيها، وفي رفع الرأس عنها، والتشهد، والتسليم، وغير ذلك من الأعمال الواجبة التي تبطل الصلاة بتركها عمدا لا سهوا، بمنزلة اليدين والرجلين وآلات التناسل وغير ذلك، مما قد تفوت الحياة بزوالها وقد لا تفوت به، والأعمال المسنونة والهيئات المندوبة، والآداب المستحبة: من القنوت، ودعاء الافتتاح، وغير تكبير الاحرام من التكبيرات والتعوذ عن زائد قدر الواجب في التشهد والتسليم من الأذكار، وغير ذلك مما لا تبطل الصلاة بتركها عمدا أو سهوا، ولكن تخرج بها عن الحسن والكمال وزيادة الأجر والثواب، فهي بمنزلة، الحاجبين واستقواسهما واللحية والأهداب وتناسب الخلقة وغير ذلك مما يفوت بعضها الحسن والجمال وبفوات بعض كمالها، ويصير الشخص بسببه مشوه الخلقة مذموما غير مرغوب فيه.

وإذا عرفت ذلك: فاعلم - يا حبيبي - أن صلاتك قربة وتحفة تتقرب بها إلى حضرة ملك الملوك، كوصيفة يهديها طالب القرب والجاه من السلاطين إليهم. وهذه التحفة تعرض على الله ثم ترد إليك في يوم العرض الأكبر، فإليك الخيرة في تحسين صورتها أو تقبيحها، فمن أداها على النحو المأمور به، بأعمالها الواجبة والمندوبة، وشرائطها الظاهرة والباطنة، مع الإخلاص، وحضور القلب، كان كمن أهدى عبدا صحيحا سويا شابا جميلا عاقلا كاملا إلى ملك من الملوك. ومن اقتصر على أعمالها الظاهرة، وغفل من الحضور والتوجه والقربة والاخلاص، كان كمن أهدى عبدا ميتا بلا روح إلى ملك من الملوك. ومن ترك عمدا شيئا من واجباته، كان كمن أهدى عبدا مقتولا إليه. ومن اقتصر على أقل ما يجزي كان كمن أهدى إليه عبد حي أعمى، أو أصم، أو أبكم، أو مقطوع الأطراف، أو هرما، أو قبيح المنظر، أو مجروح الأعضاء، أو أمثال ذلك. فتنبه أيها الغافل، وتأمل في أنك إذا أهديت تحفة إلى ملك من ملوك الدنيا، بل إلى من دونه بمراتب كثيرة،

من الأمراء والحكام، كيف تجتهد وتسعى في تجويدها وتحسينها ليقبلها، فما بالك أيها المغرور تغفل وتتساهل من تحسين هديتك وتحفتك إلى ملك الملوك الذي منه بدؤك وإليه عودك؟! وقد ورد: أن كل صلاة لا يتم الإنسان ركوعها وسجودها فهي الخصم الأول على صاحبها يوم العرض الأكبر، وتقول (ضيعك الله كما ضيعتني!) فصل

حقيقة الصلاة

لا بحث لنا عما يتعلق بظاهرها من الأجزاء والشرائط والأحكام،
إذ بيانها على عهدة الفقه فالنشر إلى المعاني الباطنة التي بها تتم حياتها، وإلى الأسرار والآداب الخفية الباطنة المتعلقة بأجزائها وشرائطها الظاهرة، لتكون ملحوظة للعبد عن فعلها.

فنقول: المعاني الباطنة التي هي روح الصلاة وحقيقتها، سبعة:

الأول - الإخلاص والقربى، وخلوها من شوائب الرياء. وقد تقدم تفصيل القول في ذلك.

الثاني - حضور القلب: وهو أن يفرغ القلب من غير ما هو ملابس له ومتكلم به، حتى يكون العلم مقرونا بما يفعله وما يقوله، من غير جريان الفكر في غيرها. فمهما انصرف الفكر عن غير ما هو فيه، وكان في قلبه ذكر لما هو فيه من غير غفلة عنه، فقد حصل حضور القلب. ثم حضور القلب قد يعبر عنه بالاقبال على الصلاة والتوجه، وقد يعبر عنه بالخشوع بالقلب فإن الخشوع في الصلاة خشوعان: خشوع القلب: وهو أن يتفرغ لجمع الهمة لها، والإعراض عما سواه، بحيث لا يكون في قلبه غير المعبود.
وخشوع بالجوارح: وهو أن يغض بصره، ولا يلتفت، ولا يعبث، ولا يتثائب، ولا يتمطى، ولا يفرقع أصابعه وبالجملة: لا يتحرك لغير الصلاة ولا يفعل شيئا من المكروهات، وربما عبر ذلك بالخضوع.

الثالث - التفهم لمعنى الكلام: وهو أمر وراء حضور القلب. فربما يكون القلب حاضرا مع اللفظ، ولا يكون حاضرا مع معناه فالمراد بالتفهم هو اشتمال القلب على العلم بمعنى اللفظ. وهذا مقام يتفاوت

فيه الناس، إذ ليس يشترك الناس في تفهم معاني القرآن والتسبيحات، فكم من معان لطيفة يفهمها بعض المصلين في أثناء الصلاة ولم يكن قد خطر بقلبه قبل ذلك ولا يفهمها غيره. ومن هذا الوجه كانت الصلاة ناهية عن الفحشاء والمنكر، فإنها تفهم أمورا تمنع تلك الأمور عن الفحشاء والمنكر لا محالة.

الرابع - العظيم: وهو أمر وراء حضور القلب والتفهم. إذ الرجل ربما يخاطب غيره، وهو حاضر القلب فيه، ومتفهم لمعناه، ولا يكون معظما له.

الخامس - الهيبة: وهي زائدة على التعظيم لأنها عبارة عن خوف منشأه التعظيم، لأن من لا يخاف لا يسمى هائبا. ثم كل خوف لا يسمى مهابة، بل الهيبة خوف مصدره الاجلال.

السادس - الرجاء: ولا ريب في كونه زائدا عما ذكر. فكم من رجل يعظم ملكا من الملوك، ويهابه ويخاف سطوته، ولا يرجو بره وإحسانه، والعبد ينبغي أن يكون راجيا بصلاته ثواب الله، كما أنه خائف بتقصيره عقابه

السابع - الحياء: ومستنده استشعار تقصير وتوهم ذنب، وهو زائد على التعظيم والخوف والرجاء، لتصورها من غير حياء، حيث لا يكون توهم وتقصير ارتكاب ذنب.

فصل

حضور القلب

إعلم أن كون الأمور المذكورة روح الصلاة وحقيقتها، والمقصود الأصلي منها، أمر ظاهر. إذ الغرض الأصلي من العبادات والطاعات هي تصفية النفس وتصقيلها، فكل عمل يكون أشد تأثيرا فيهما يكون أفضل. ولا ريب في أن المقتضي لصفاء النفس وتجردها وتصقيلها عن الكدورات من الصلاة ليس إلا الأمور المذكورة، وليس لنفس الحركات الظاهرة كثير مدخلية فيها، وكيف لا يكون حضور القلب والخشوع روح الصلاة ولا يتوقف كمال الصلاة عليه، مع أن المصلي في صلاته ودعائه مناج ربه؟ ولا شك أن الكلام مع الغفلة ليس بمناجاة، وأيضا الكلام إعراب عما في الضمير، ولا يأتي الإعراب عما في الضمير إلا بحضور القلب، فأي سؤال في قوله: (اهدنا السراط

المستقيم) إذا كان القلب غافلا؟ ولا شك أيضا أن المقصود من القراءة والأذكار الثناء والحمد والتضرع والدعاء، والمخاطب هو الله - تعالى -، فإذا كان قلب العبد محجوبا عنه بحجاب الغفلة، ولا يراه ولا يشاهده، بل كان غافلا عن المخاطب، ويحرك لسانه بحكم العادة، فما أبعد هذا المقصود بالصلاة التي شرعت لتصقيل القلب، وتجديد ذكر الله، ورسوخ عقد الإيمان بها. هذا حكم القراءة والذكر. وأما الركوع والسجود، فالمقصود منهما التعظيم قطعا، والتعظيم كيف يجتمع مع الغفلة، وإذا خرج عن كونه تعظيما لم يبق إلا مجرد حركة الظهر والرأس وليس فيه المشقة ما يقصد الامتحان به، كما في أفعال الحج وإعطاء المال في الزكاة، وإمساك النفس عن الشهوات في الصوم. فكيف يجعل مجرد هذه الحركة مع خفتها وسهولتها عماد الدين، والفاصل بين الكفر والإسلام، وتقدم على سائر العبادات، ويجب القتل بسبب تركها على الخصوص، ولكون الحضور والخشوع والخشية عمدة ما يقصد به من الصلاة تظاهرت الآيات والأخبار على الترغيب عليها وفضيلتها ومدح أهلها وعلى ذم الغفلة والتفكر في أمور الدنيا والوساوس الباطلة عند الاشتغال بالصلاة، وقد تظاهرت الأخبار أيضا بأن الأنبياء والأوصياء وأكابر الأولياء كانوا عند اشتغالهم في الصلاة في غاية الإقبال والخشوع والخوف. قال الله - سبحانه -:

(الذين هم في صلاتهم خاشعون) (١٢). وقال: (وأقم الصلاة لذكري) (١٣). والغفلة تضاد الذكر، فمن كان غافلا في صلاته لا يكون مقيما للصلاة لذكره. وقال: (ولا تكن من الغافلين) (١٤). وقال: (فويل للمصلين، الذين هم عن صلاتهم ساهون) (١٥)، ذمهم على الغفلة عنها مع كونهم مصلين، لا لأنهم سهوا عنها وتركوها. وقال: (لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون) ١٦.

----

(١٢) المؤمنون، الآية: ٢.
(١٣) طه، الآية: ١٤
(١٤) الأعراف، الآية: ٢٠٤
(١٥) الماعون، الآية: ٤ - ٥.
(١٦) النساء، الآية: ٤٢.

قيل المراد: سكارى من كثرة الهم، قيل: من حب الدنيا، ولو حمل على ظاهره ففيه تنبيه على سكر الدنيا، إذ بين فيه العلة، وقال: حتى تعلموا ما تقولون. وكم من مصل لم يشرب الخمر وهو لا يعلم ما يقول في صلاته وقال رسول الله (ص) (من صلى ركعتين، لم يحدث فيهما نفسه بشئ من الدنيا، غفر له ما تقدم من ذنبه). وقال (ص): (إذا صليت صلاة فريضة، فصل لوقتها صلاة مودع يخاف ألا يعود فيها). وقال (ص): (لا ينظر الله إلى صلاة لا يحضر الرجل فيها قلبه مع بدنه). وقال (ص): (إنما فرضت الصلاة، وأمر بالحج والطواف، وأشعرت المناسك، لإقامة ذكر الله، فإذا لم يكن في قلبك للمذكور الذي هو المقصود والمبتغى عظمة ولا هيبة، فما قيمة ذكرك،!).

وعن أبي عبد الله (ع) قال: (قال الله - تبارك وتعالى -: إنما أقبل الصلاة ممن تواضع لعظمتي، ويكف نفسه عن الشهوات من أجلي، ويقطع نهاره بذكري، ولا يتعاظم على خلقي ويطعم الجائع، ويكسو العاري، ويرحم المصاب، ويؤوي الغريب، فذلك يشرق نوره مثل الشمس، أجعل له في الظلمات نورا، وفي الجهالة علما، أكلأه بعزتي، وأستحفظه بملائكتي يدعوني فألبيه، ويسألني فأعطيه. فمثل ذلك عندي كمثل جنات الفردوس لا تيبس ثمارها، ولا تتغير عن حالها) (١٧). وفي أخبار موسى: (يا موسى، إذا ذكرتني فاذكرني وأنت تبغض أعضاءك، وكن عند ذكري خاشعا مطمئنا. وإذا ذكرتني فاجعل لسانك من وراء قلبك. وإذا قمت بين يدي فقم قيام العبد الذليل، وناجني بقلب وجل ولسان صادق). وأوحى إليه (ع): - (قل لعصاة أمتك: لا تذكروني، فإني آليت على نفسي أن من ذكرني ذكرته، وإذا ذكروني ذكرتهم باللعنة). وفي بعض الأحاديث القدسية: (ليس كل مصل أتقبل صلاته، إنما أقبل صلاة من تواضع لعظمتي، ولم يتكبر على عبادي، وأطعم الفقير الجائع لوجهي). وقال أمير المؤمنين: (طوبى لمن أخلص لله العبادة والدعاء، ولم يشتغل

---

(١٧) الحديث مروي في (بحار الأنوار): ١٨ / ١٩٦ آداب الصلاة عن (المحاسن)، وفيه اختلاف كثير عما ذكر في نسخ (جامع السعادات) فصححناه على الموضع المذكور من (بحار الأنوار).

قلبه بما تراه عيناه، ولم ينس ذكر الله بما تسمع أذناه، ولم يحزن صدره بما أعطي غيره). وقال (ع): (لا تجتمع الرغبة والرهبة في قلب إلا وجبت له الجنة، فإذا صليت، فأقبل بقلبك على الله - عز وجل -، فإنه ليس من عبد مؤمن يقبل بقلبه على الله - عز وجل - في صلاته ودعائه، إلا أقبل عليه بقلوب المؤمنين، وأيده مع مودتهم إياه بالجنة). وقال الباقر (ع): (إن العبد ليرفع له من صلاته نصفها وثلثها وربعها وخمسها، فما يرفع له إلا ما أقبل عليه بقلبه، وإنما أمروا بالنوافل ليتم لهم ما نقصوا من الفريضة). وروي: (أن إبراهيم الخليل كان يسمع تأويله على حد ميل، وكان يسمع له في صلاته أزيز كأزيز المرجل) (١٨). وكذلك كان يسمع من صدر سيدنا رسول الله (ص) مثل ذلك. وقال بعض أزواجه: (كان النبي (ص) يحدثنا ونحدثه، فإذا حضرت الصلاة، فكأنه لم يعرفنا ولم نعرفه). وكان أمير المؤمنين (ع) إذا أخذ في الوضوء، يتغير وجهه من خيفة الله. وكان (ع) إذا حضر وقت الصلاة يتزلزل ويتلون، فقيل له: مالك يا أمير المؤمنين؟ فيقول: (جاء وقت أمانة عرضها الله على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها، وحملها الإنسان). وروي: (أنه وقع نصل في رجله (ع)، فلم يمكن أحدا من إخراجه. فقالت فاطمة - عليها السلام -: أخرجوه في حال صلاته، فإنه لا يحس حينئذ بما يجري عليه. فأخرج وهو في صلاته، فلم يحس به أصلا). وكانت الصديقة فاطمة - عليها السلام) تنهج (١٩) في الصلاة من خيفة الله. وكان الحسن ابن علي - عليهما السلام - إذا فرغ من وضوءه، تغير لونه، فقيل له في ذلك، فقال: (حق على من أرادا أن يدخل على ذي العرش أن يتغير لونه). وكان الإمام علي بن الحسين - عليهما السلام - إذا توضأ أصفر لونه، فيقال له: ما هذا الذي يعتريك عند الوضوء؟ فيقول: (أني أريد الوقوف بين يدي ملك عظيم). وقال أبو حمزة الثمالي: (رأيته يصلي، فسقط رداؤه عن منكبه، فتركه حتى فرغ من صلاته، فسألته عن ذلك،

---

(١٨) الأزيز: صوت غليان القدر. والمرجل - وزان منبر -: القدر من الحجارة.

(١٩) النهج - بالتحريك -: تتابع النفس واللهاث.

فقال: ويحك! أتدري بين يدي من كنت؟ شغلني والله ذلك عن هذا! أتعلم أنه لا يقبل من صلاة العبد إلا ما أقبل عليه. فقلت له: يا ابن رسول الله، هلكنا إذا. قال: كلا! إن الله يتم ذلك بالنوافل). وروي: أنه (ع) إذا قام إلى الصلاة تغير لونه، وإذا سجد لم يرفع رأسه حتى يرفض عرقا). وروي: (أنه (ع) كان إذا قام إلى الصلاة كأنه ساق شجرة، لا يتحرك منه إلا ما حركت الريح منه). وسئل مولانا الصادق (ع) عن حالة لحقته في الصلاة حتى خر مغشيا عليه، فقال: (ما زلت أكرر آيات القرآن حتى بلغت إلى حال كأنني سمعتها مشافهة ممن أنزلها) (٢٠). قيل: وكان لسان الإمام (ع) في تلك الحال كشجرة طور حين قالت: (أني أنا الله). وسئل بعض الأكابر عن صلاته، فقال: ((إذا جاءت الصلاة، أسبغت الوضوء وأتيت الموضع الذي أريد الصلاة فيه، فأقعد فيه حتى تجتمع جوارحي، ثم أقوم إلى الصلاة فأجعل الكعبة بين حاجبي، والصراط تحت قدمي والجنة عن يميني، والنار عن شمالي، وملك الموت ورائي، وأظنها آخر صلاتي، ثم أقوم بين الرجاء والخوف وأكبر تكبيرا بتحنن، وأقرأ القرآن بترتيل، وأركع ركوعا بتواضع، وأسجد سجودا بتخشع، وأقعد على الورك اليسرى، وأفرش ظهر قدميها، وأنصب القدم اليمنى على الإبهام وأتبعها الإخلاص، ثم لا أدري أقبلت مني أم لا!).

ثم، على ما عرفت من كيفية صلاة الأنبياء والأولياء مع مشاهدة كيفية صلاتك وصلاة الناس، تعلم: أن الناس ينقسمون في صلاتهم: إلى غافل يتم صلاته ولا يحضر قلبه في لحظة. وإلى من يغفل في بعض صلاته ويحضر قلبه في بعض منها، وهذا تختلف حاله بحسب قلة كل من الحضور والغفلة وكثرتهما، وزيادة أحدهما على الآخر، فله مراتب غير متناهية.

وإلى من يتم صلاته ولا يغيب قلبه لحظة، بل يكون حاضر القلب في جميع صلاته وربما كان مستوعب الهم بها، بحيث لا يحس بما يجري بين يديه كما لم يحس مولانا أمير المؤمنين (ع) بإخراج النصل من رجله الشريفة.

---

(٢٠) صححنا الأحاديث الواردة في الصلاة على بحار الأنوار: ١٨ / ١٦٩ - ٢٠٢، باب آداب الصلاة.

وبعضهم حضر الجماعة مدة، ولم يعرف قط من على يمينه ويساره. وكان وجيب الخليل يسمع على ميلين. وكان جماعة تصفر وجوههم، وترتعد فرائضهم عند الصلاة. وكل ذلك غير مستبعد، فإن إضعافه مشاهدة في هم الدنيا وخوف ملوك الدنيا، مع ضعفهم وعجزهم، وخساسة الحظوظ الحاصلة منهم. وحتى يدخل الرجل على ملك أو وزير، ويحدثه بمهم ويخرج، ولو سئل عمن كان على حواليه، وعن ثوب الملك، لكان غير قادر على الإخبار عنه، لاشتغال همه به عن ثوبه وعن الحاضرين حوله:
(ولكل درجات مما عملوا) (٢١).
فحظ كل واحد من صلاته بقدر خوفه وخشوعه وتعظيمه. فإن موضع نظر الله القلوب، دون ظاهر الحركات. ولذا قال بعض الصحابة: (يحشر الناس يوم القيامة على مثال هيئتهم في الصلاة، من الطمأنينة والهدوء، ومن وجود النعم واللذة والبهجة بها) فالمحفوظ حال القلب لا حال الشخص. ولذا قيل (من صفات القلوب تصاغ الصور في دار الآخرة، ولا ينجو: (إلا من أتى الله بقلب سليم)) (٢٢)

تنبيه

دفع إشكال

إن قيل: المستفاد من الظواهر المذكورة، أن صلاة الغافل ليست مقبولة إلا بقدر ما أقبل عليه منها، والفقهاء لم يشترطوا إلا حضور القلب عند النية والتكبير، فكيف التوفيق؟

قلنا: فرق بين القبول والإجزاء، فإن المقبول من العبادة ما يقرب العبد إلى الله ويترتب عليه الثواب في الآخرة، والمجزي منها ما يسقط التكليف عن العبد، وإن لم يترتب عليه ثواب ولم يقربه إلى الله. والناس مختلفون في تحمل التكليف، فإن التكليف إنما هو بقدر الوسع والطاقة، فلا يمكن أن يكلف الجميع بإحضار القلب في جميع الصلاة، إذ لا يقدر على ذلك إلا الأقلون. وإذ لم يمكن اشتراط الإستيعاب الضرورية فلا

---

(٢١) الأنعام، الآية: ١٣٢. الأحقاف، الآية: ١٩

(٢٢) الشعراء، الآية: ٨٩

مرد له إلا أن يشترط ما ينطلق عليه الاسم، ولو في اللحظة الواحدة، وأولى اللحظات به لحظة التكبير والتوجه، فاقتصر على التكليف بذلك. ونحن - مع ذلك - نرجو ألا يكون حال الغافل في جميع صلاته مثل حال التارك بالكلية، فإنه على الجملة أقدم على الفعل ظاهرا، واحضر القلب لحظة، وكيف لا والذي صلى مع الحدث ناسيا صلاته باطلة عند الله، ولكن له أجر ما بحسب فعله وعلى قدر قصوره وعذره؟ والحاصل: أن الإقبال والحضور هو روح الصلاة، وإن أقل ما يبقى به الروح الحضور عند التكبير، فالنقصان منه هلاك، وبقدر الزيادة عليه تنبسط الروح في أجزاء الصلاة، وكم من حي لا حراك فيه قريب من الميت، فصلاة الغافل في جميعها، إلا عند التكبير، حي لا حراك فيه.

فصل

شرائط الصلاة

إعلم أن للمعاني الباطنة المذكورة أسبابا لا تتحقق بدونها.

أما حضور القلب: فسببه الاهتمام.

فإن قلت: كل واحد تابع لهمه، فلا يحضر إلا فيما يهمه، ومهما أهمه أمر حضر فيه قلبه، شاء أو لم يشأ، فهو مجبول عليه مسخر فيه، والقلب إذا لم يحضر في الصلاة لم يكن متعطلا، بل كان حاضرا فيما يهمه من أمور الدنيا. فلا حيلة ولا علاج لإحضار القلب في الصلاة إلا بصرف الهمة إليها، والهمة لا تنصرف إليها ما لم يتيقن أن الآخرة خير وأبقى، وإن الصلاة وسيلة إليها. وإذا أضيف إلى هذا العالم بحقارة الدنيا ومهانتها، حصل من مجموع ذلك حضور القلب في الصلاة. ولكون الباعث والسبب لإحضار القلب في أمر إنما هو الاهتمام والاعتناء بشأنه، ترى قلبك يحضر إذا حضرت بين يدي ملك من ملوك الدنيا، بل بين يدي بعض الأكابر ممن لا يقدر على نفعك وضرك. فإذا كان لا يحضر قلبك عند المناجاة مع ملك الملوك الذي بيده الملك والملكوت، والنفع والضر، فلا تضنن أن له سببا سوى ضعف الإيمان واليقين. فينبغي حينئذ السعي في تقوية اليقين والإيمان.

وأما التفهم: فسببه - بعد حضور القلب - أدمان الفكر، وصرف

الذهن إلى إدراك المعنى. وعلاجه ما هو علاج إحضار القلب، مع الإقبال على الفكر، والتشمر لرفع الخواطر الشاغلة بقطع موادها، أعني النزوع عن الأسباب التي تنجذب الخواطر إليها. وما لم تنقطع تلك المواد لا تنصرف عنها الخواطر. فإن من أحب شيئا أو أبغض شيئا أو خاف من شئ، أكثر ذكره. فذكر المحبوب والمبغوض والمخوف يهجم على القلب بالضرورة. ولذا ترى أن من أحب غير الله أو كان قلبه مشغولا بعداوة أحد أو بالخوف عنه، لا تصفو له صلاة عن الخواطر.

وأما التعظيم: فهو حالة للقلب يتولد من معرفتين: إحداهما: معرفة جلال الله وعظمته، فإن من لا يعتقد عظمته لا تذعن النفس لتعظيمه، وهذه المعرفة حقارة النفس وخستها وذلتها، وكونها عبدا مسخرا مربوبا لا يقدر شيئا من النفع والضر وتتولد من المعرفتين الاستكانة والانكسار والخشوع لله، فيعبر عنه بالتعظيم، وما لم تمتزج معرفة حقارة النفس بمعرفة جلال الرب لا تنتظم حالة التعظيم والخشوع، فإن المستغني عن غيره الآمن على نفسه، يجوز أن يعرف من غيره صفات العظمة والجلال، ونعوت القدرة والكمال، ولا يكون خاشعا معظما له، لأن معرفة حاجة النفس وحقارتها لم تقترن إليه.

وأما الهيبة والخوف: فحالة للنفس تتولد من المعرفة بقدرة الله تعالى وسطوته ونفوذ مشيته فيه، مع قلة المبالاة به، وأنه لو أهلك الأولين والآخرين لم تنقص من ملكه ذرة، مع تذكر ما جرى على الأنبياء والأولياء من المصائب وأنواع البلاء مع القدرة على الدفع. وكلما زاد العلم بالله وبصفاته وأفعاله زادت الخشية والهيبة.

وأما الرجاء: فسببها معرفة لطف الله تعالى وكرمه وعميم أنعامه ولطائف صنعه، ومعرفة صدقه في وعده الجنة بالصلاة. فإذا حصل اليقين بوعده والمعرفة بلطفه، انبعث منها الرجاء.

وأما الحياء: فسببه استشعار التقصير بالعبادة، وعلمه بالعجز عن القيام بعظيم حق الله، ويقوى ذلك بمعرفة عيوب النفس وآفاتها، وقلة إخلاصها وخبث باطنها، وميلها إلى الحظ العاجل في جميع أفعالها، مع

العلم بجميع ما يقتضيه جلال الله وعظمته، والعلم بأنه مطلع على السرائر وخطرات القلب، وإن دقت وخفيت. وهذه المعارف إذا حصلت يقينا، انبعثت منها - بضرورة - حالة تسمى بالحياء.

فصل

طريق تحصيل المعاني الباطنة

إعلم أن العلاج في تحصيل المعاني الباطنة المذكورة، أعني الحضور والتفهم والتعظيم والهيبة والرجاء والحياء، هو تحصيل أسباب هذه المعاني، وقد عرفت أسبابها. وطريق العلاج في تحصيل هذه الأسباب إنما يتم بأمرين:

الأول - معرفة الله، ومعرفة جلاله وعظمته واستناد الكل إليه، ومعرفة كونه عالما بذرات العالم وبسرائر العباد. ويلزم أن تكون هذه المعرفة يقينية، ليترتب عليها الأثر. إذ ما لم يحصل اليقين بأمر، لا يحصل التشمر في طلبه والهرب عنه. وهذه المعرفة هي المعبر عنها بالإيمان. ولا ريب في كونها موجبة لحصول المعاني المذكورة وأسبابها. إذ المؤمن يكون البتة حاضر القلب مع ربه عند مناجاته، وتفهما لما يسأله عنه، معظما له، وخائفا منه، وراجيا منه، ومستحييا من تقصيره.

الثاني - فراغ القلب، وخلوه من مشاغل الدنيا. فإن انفكاك المؤمن العارف، المتيقن بالله وبجلاله وعظمته، وباطلاعه عليه من المعاني المذكورة في صلاته، لا سبب له إلا تفرق الفكر، وتقسم الخاطر، وغيبة القلب عن المناجاة، والغفلة عن الصلاة، ولا تلهي عن الصلاة إلا الخواطر الردية الشاغلة. فالدواء في إحضار القلب هو دفع كل تلك الخواطر، ولا يدفع الشئ إلا بدفع سببه.

وسبب توارد الخواطر، إما أن يكون أمرا خارجا، أو أمرا في ذاته باطنا.

والأول: ما يظهر للبصر، أو يقرع على السمع. فإن ذلك قد يختطف الهم حتى يتبعه، ويتصرف فيه ثم ينجر منه الفكر إلى غيره، ويتسلسل فيكون الإبصار أو الاستماع سببا للافتكار، ثم يصير بعض تلك الأفكار سببا للبعض. ومن قويت رتبته وعلت همته، لم يلهه ما يجري

على حواسه. ولكن الضعيف لا بد وأن يتفرق فيه فكره. فعلاجه: قطع هذه الأسباب، بأن يغض بصره، أو يصلي في بيت مظلم، ولا يترك بين يديه ما يشغل حسه، ويقرب من حائط عند صلاته، حتى لا تتسع مسافة بصره، ويتحرز من الصلاة على الشوارع، وفي المواضع المنقوشة المصبوغة، والعمارات العالية المرتفعة. ولذلك كان المتعبدون يصلون في بيت مظلم صغير، سعته بقدر السجود، ليكون أجمع للهم. والأقوياء كانوا يحضرون المساجد، ويغضون البصر، ولا يجاوزونه موضع السجود، كما ورد الأمر به، ويرون كمال الصلاة في ألا يعرفوا من على يمينهم وشمالهم.

وأما الثاني: أعني الأسباب الباطنة، فهي أشد. فإن من تفرقت همومه وتشعبت خواطره في أودية الدنيا لم ينحصر فكره في فن واحد، بل لا يزال يطير من جانب إلى جانب. وغض البصر لا يغنيه، فإن ما وقع في القلب من قبل كاف للشغل. فهذا علاجه: أن يرد نفسه قهرا إلى فهم ما يقرؤه، ويشغلها به عن غيره، ويعينه على ذلك أن يستعد له قبل التحريم، بأن يجدد على نفسه ذكر الآخرة، وخطر المقام بين يدي الله تعالى، وهول المطلع، ويفرغ قلبه قبل التحريم بالصلاة عما يهمه من أمر الدنيا، فلا يترك لنفسه شغلا يلتفت إليه خاطره، فهذا طريق تسكين الأفكار فإن لم تسكن أفكاره بهذا الدواء المسكن، فلا ينجيه إلا المسهل الذي يقمع مادة الداء من أعماق العروق، وهو أن ينظر في الأمور الشاغلة الصارفة له عن إحضار القلب. ولا ريب في أنها تعود إلى مهماته، وهي إنما صارت مهمة لأجل شهواته، فليعاقب نفسه بالنزوع عن تلك الشهوات وقطع تلك العلائق.

فكل ما يشغله عن صلاته فهو ضد دينه، وجند إبليس عدوه، فإمساكه أضر عليه من إخراجه، فيتخلص عنه بإخراجه. وهذا هو الدواء القامع لمادة العلة، ولا يغني غيره. فإن ما ذكر من التلطف بالتسكين والرد إلى فهم الذكر، إنما ينفع في الشهوات الضعيفة والهم الذي لا يشغل إلا حواشي القلب. وأما الشهوة القوية المرهقة، فلا ينفع معها التسكين، بل لا تزال تجاذبها وتجاذبك، ثم تغلبك وتقضي جميع صلاتك في شغل المجاذبة. ومثاله مثال رجل تحت شجرة أراد أن يصفو له فكره، فكانت أصوات

العصافير تشوش عليه، فلم يزل يطيرها بخشبة هي في يده ويعود إلى فكره، فتعود العصافير، فيعود إلى السفير بالخشبة، فقيل له: إن هذا سير الواني ولا يتقطع، فإن أردت الخلاص فأقطع الشجرة. فكذلك شجرة الشهوة، إذا استعملت وتفرعت أغصانها، إنجذبت إليها الأفكار انجذاب العصافير إلى الأشجار، وانجذاب الذباب إلى الأقذار، والشغل يطول في دفعها. فإن الذباب كلما ذب آب، ولأجله سمي ذبابا، وكذلك الخواطر. وهذه الشهوات كثيرة قلما يخلوا العبد منها، ويجمعها أصل واحد، وهو حب الدنيا، وذلك رأس كل خطيئة، وأساس كل نقصان، ومنبع كل فساد.
ومن انطوى باطنه على حب الدنيا حتى مال إلى شئ منها لا يتزود منها ويستعين بها على الآخرة، فلا يطمعن في أن تصفو له لذة المناجاة في الصلاة. فإن من فرح بالدنيا فلا يفرح بالله وبمناجاته، وهمة الرجل مع قرة عينه، فإن كانت قرة عينه في الدنيا انصرف همه لا محالة إليها. ولكن – مع هذا – لا ينبغي أن تترك المجاهدة، ورد القلب إلى الصلاة، وتقليل الأسباب الشاغلة، فهذا هو الدواء، ولمرارته استبشعته الطباع، وبقيت العلة مزمنة، وصار الداء عضالا. حتى أن الأكابر اجتهدوا أن يصلوا ركعتين لا يحدثون أنفسهم فيهما بأمور الدنيا، فعجزوا عنه. فإذا لا مطمع فيه لأمثالنا، ويا ليت سلم لنا من الصلاة ثلثها أو ربعها من الوساوس، لنكون ممن خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا.
وعلى الجملة: فهمة الدنيا وهمت الآخرة في القلب مثل الماء الذي يصب في قدح فيه خل، فبقدر ما يدخل فيه الماء يخرج منه الخل لا محالة، ولا يجتمعان. ثم جميع ما ذكر إنما هو في الخواطر المتعلقة بالأمور المهمة من الدنيا، حتى إذا خرجت هذه الأمور من القلب، خرجت منه هذه الخواطر أيضا. وقد تكون الخواطر من مجرد الوساوس الباطنة والخيالات الفاسدة، من دون تعلقها بشغل وعمل دنيوي يكون لها، ومن دون اختيار للعبد في خطورها وعدم خطورها، والأمر فيها أصعب، وإن كان لقلع حب الدنيا وشهواتها عن القلب مدخلية عظيمة في زوالها أيضا، إذ مادة هذه الوساوس أيضا، إما حب المال وحب الجاه، أو حب غيرهما من الأمور الشهوية

الدنيوية. وقد تقدم تفصيل القول فيها وفي طريق علاجها في بحث الوساوس.

فصل

أسرار الصلاة

في تحصيل كل واحد من شروط الصلاة وأفعالها وأركانها أسرار وتنبيهات، فينبغي للمؤمن المريد للآخرة ألا يغفل عنها، فها هي نذكرها:

أما الأذان: فإذا سمعت نداء المؤذن، فأحطر في قلبك هول النداء يوم القيامة، وتشمر بباطنك وظاهرك للإجابة والمسارعة، فإن المسارعين إلى هذا النداء هم الذين ينادون باللطف يوم العرض الأكبر، فأعرض قلبك على هذا النداء، فإن وجدته مملوءا بالفرح والاستبشار، مشحونا بالرغبة إلى الابتداء، فاعلم أنه يأتيك النداء بالبشرى والفوز يوم القضاء، ولذلك قال سيد الأنبياء: (أرحنا يا بلال!) أي أرحنا بها وبالنداء إليها، إذا كانت قرة عينه فيها. واعتبر بفصول الأذان وكلماته كيف افتتحت بالله واختتمت بالله، واعتبر بذلك أن الله جل جلاله هو الأول والآخر والظاهر والباطن، ووطن قلبك بتعظيمه عند سماع التكبير، واستحقر الدنيا وما فيها لئلا تكون كاذبا في تكبيرك، وأنف عن خاطرك كل معبود سواه بسماع التهليل. وأحضر النبي (ص)، وتأدب بين يديه، وأشهد له بالرسالة مخلصا، وصل عليه وآله وحرك نفسك، واسع بقلبك وقالبك عند الدعاء إلى الصلاة، وما يوجب الفلاح، وما هو خير الأعمال وأفضلها. وجدد عهدك بعد ذلك بتكبير الله وتعظيمه، واختمه بذلك كما افتتحت به، واجعل مبدءك منه، وعودك إليه، وقوامك به، واعتمادك على حوله وقوته. فإنه لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

فصل

الوقت

وإذا دخل الوقت، استحضر أنه ميقات جعله الله لك، لتقوم فيه بخدمته، وتتأمل للمثول في حضرته، والفوز بطاعته، وليظهر على قلبك السرور، وعلى وجهك البهجة عند دخوله، لكونه سببا لقربك ووسيلة إلى فوزك. فاستعد له بالطهارة والنظافة، ولبس الثياب الصالحة للمناجاة،

كما تتأهب عند القدوم على ملك من ملوك الدنيا، وتلقاه بالسكينة والوقار والخوف والرجاء، واستحضر عظمة الله وجلاله، وعدم تناهي قدرته وكماله ونقصان قدرك ومرتبتك، وعدم قابليتك للقيام بخدمته، وقصورك عن أداء وظائف طاعته.

فصل

آداب الصلاة

إذا أتيت بالطهارة في مكانك، وهو ظرفك الأبعد، ثم في ثيابك، وهو غلافك الأقرب، ثم في بشرتك، وهي قشرك الأدنى، فلا تفعل عن لبك وذاتك، وهو قلبك، فطهره بالتوبة والندم على ما فرط، وتصميم العزم على الترك في المستقبل، فطهر بها باطنك، فإنه موضع نظر ربك.

ثم إذا سترت مقابح بدنك عن أبصار الخلق باللباس، فأخطر بالك فضائح سرك التي لا يطلع عليها إلا ربك، وطالب نفسك بسترها، وتحقق أنه لا يستر عن عين الله ساتر، وإنما يكفرها الخوف والندم والحياء، فتستفيد بإظهارها في قلبك انبعاث جنود الخوف والندم والحياء من مكامنها، فتذل به نفسك، ويستكين تحت الخجلة قلبك، وتقوم بين يدي الله تعالى قيام العبد المجرم المسيء الآبق، الذي ندم فرجع إلى مولاه، ناكسا رأسه من الخوف والحياء. قال الصادق (ع): (أزين اللباس للمؤمن لباس التقوى، وأنعمه الإيمان، قال الله تعالى:

(ولباس التقوى ذلك خير) (٢٣)

وأما اللباس الظاهر، فنعمة من الله تعالى تستر بها عورات بني آدم، وهي كرامة أكرم الله بها ذرية آدم ما لم يكرم بها غيره، وهي للمؤمنين آلة لأداء ما افترض الله عليهم. وخير لباسك ما لا يشغلك عن الله عز وجل، بل يقربك من ذكره وشكره وطاعته، ولا يحملك على العجب والرياء والتزين والتفاخر والخيلاء، فإنها من آفات الدين، ومورثة للقسوة في القلب.

فإذا لبست ثوبك، فأذكر ستر الله عليك ذنوبك برحمته، والبس باطنك بالصدق كما البست ظاهرك بثوبك، وليكن باطنك من الصدق في ستر

----

(٢٣) الأعراف، الآية: ٢٥.

الهيبة، وظاهرك في ستر الطاعة. واعتبر بفضل الله، حيث خلق أسباب اللباس ليستر بها العورات الظاهرة، وفتح أبواب التوبة والإنابة والإغاثة ليستر بها عورات الباطن من الذنوب وأخلاق السوء. ولا تفضح أحدا حيث ستر الله عليك ما أعظم منه. واشتغل بعيب نفسك واصفح عما لا يعنيك حاله وأمره. واحذر أن يفنى عمرك بعمل غيرك، ويتجر برأس مالك غيرك وتهلك نفسك، فإن نسيان الذنوب من أعظم عقوبة الله في العاجل، وأوفر أسباب العقوبة في الآجل. وما دام العبد منشغلا بطاعة الله تعالى، ومعرفة عيوب نفسه، وترك ما يشين في دين الله عز وجل، فهو بمعزل عن الآفات، خائض في بحر رحمة الله عز وجل، يفوز بجواهر الفوائد من الحكمة والبيان. وما دام ناسيا لذنوبه، جاهلا بعيوبه، راجعا إلى حوله وقوته، لا يفلح إذا أبدا) (٢٤).

فصل

آداب المصلي

إذا أتيت مصلاك، فاستحضر فيه أنك كأن بين يدي ملك الملوك،
تريد مناجاته، والتضرع إليه، والتماس رضاه، ونظره إليك بعين الرحمة.
فاختر مكانا يصلح، كالمساجد الشريفة، والمشاهد المطهرة، مع الإمكان.
فإنه تعالى جعل تلك المواضع محلا لإجابته، وموضع تزول فيوضاته ورحمته،
على مثال حضرة الملوك، الذين يجعلونها وسيلة لنيل المقاصد والمطالب.
فأدخلها بالسكينة والوقار، ومراقبا للخشوع والانكسار. قال الصادق (ع): (إذا بلغت باب المسجد، فاعلم أنك قد قصدت باب ملك عظيم، لا يطأ بساطه إلا المطهرون، ولا يؤذن لمجالسته إلا الصديقون، فهب القدوم إلى بساط هيبة الملك، فإنك على خطر عظيم إن غفلت، فاعلم أنه قادر على ما يشاء من العدل والفضل معك وبك. فإن عطف عليك برحمته وفضله، قبل منك يسير الطاعة، وأجزل لك عليها ثوابا كثيرا. وإن طالبك باستحقاقه الصدق والاخلاص عدلا بك، حجبك ورد طاعتك وإن كثرت. وهو فعال لما يريد. واعترف بعجزك وتقصيرك وانكسارك وفقرك بين يديه، فإنك قد

---

(٢٤) صححنا الحديث على مصباح الشريعة: الباب ٧ ١٣٧ - ١٣٨

توجهت للعبادة له، والمؤانسة به. وأعرض أسرارك عليه، ولتعلم أنه لا تخفى عليه أسرار الخلائق أجمعين وعلانيتهم. وكن كأفقر عباده بين يديه.
واخل قلبك عن كل شاغل يحجبك عن ربك، فإنه لا يقبل إلا الأطهر والأخلص.
وأنظر من أي ديوان يخرج اسمك، فإن ذقت حلاوة مناجاته ولذيذ مخاطباته، وشربت بكأس رحمته وكراماته من حسن إقباله عليك وأجابته، فقد صلحت لخدمته فادخل فلك الإذن والأمان، وإلا فقف وقوف من قد انقطع عنه الحيل، وقصر عنه الأمل، وقضى عليه الأجل. فإن علم الله عز وجل من قلبك صدق الالتجاء إليه نظر إليك بعين الرأفة والرحمة والعطف، ووفقك لما تحب وترضى، فإنه كريم يحب الكرامة لعباده المضطرين إليه، المقيمين على بابه لطلب مرضاته. قال الله تعالى:
(أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء) (٢٥) (٢٦) فصل الاستقبال
وأما الاستقبال، فهو صرف لظاهر وجهك عن سائر الجهات إلى جهة بيت الله. وهذا إشارة إلى أنه ينبغي أن يصرف وجه القلب عن سائر الأشياء إلى الله، فإن الأعمال الظاهرة تحريكات للبواطن على ما يناسبها، فضبط الجوارح وتسكينها بالاثبات في جهة واحدة، لأجل ألا تبقى على القلب، لأنها إذا توجهت إلى جهات متعددة يتبعها القلب بالتوجه إلى أشياء متعددة، فأمر الله بصرفها إلى شطر بيته، ليتذكر القلب صاحبه، ويتوجه إليه، ويثبت على ذلك كما تثبت الأعضاء على جهة واحدة. قال رسول الله (ص): (إن الله تعالى مقبل على المصلي ما لم يلتفت)، وهذا الالتفات يشمل التفات القلب أيضا، فكما يجب حراسة الرأس والعين عن الالتفات إلى الجهات، فكذلك يجب حراسة السر عن الالتفات إلى غير الله وغير الصلاة، فإن التفت إلى غير الله وغير الصلاة، فذكره بأطلاع الله عليه، وقبح غفلة المناجي عمن يناجيه وعما يقول له حين المناجاة، لا سيما إذا كان

---

(٢٥) النحل، الآية: ٦٢
(٢٦) صححنا الحديث على (مصباح الشريعة): الباب ١٢ / ١٤٠ - ١٤١.

من يناجيه ملك الملوك. والزم قلبك الخشوع، فإن الخلاص عن الالتفات ظاهرا وباطنا ثمرة الخشوع، ومهما خشع الباطن خشع الظاهر، ولذا قال رسول الله (ص) وقد رأى مصليا يعبث بلحيته: (أما هذا، لو خشع قلبه لخشعت جوارحه، فإن الرعية بحكم الراعي). وفي الدعاء: (اللهم أصلح الراعي والرعية)، وهو القلب والجوارح.

وبالجملة: ينبغي لكل مؤمن صرف وجهه إلى بيت الله للصلاة، أن يصرف وجه قلبه إلى صاحب البيت، وكما لا يتوجه الوجه إلى جهة البيت إلا بالصرف عن غيرها، فكذلك لا ينصرف وجه القلب إلى الله إلا بالتفرغ عما سوى الله، وقد قال رسول الله (ص): (إذا قام العبد إلى صلاته، وكان هواه وقلبه إلى الله، انصرف كيوم ولدته أمه). وقال (ص): (أما يخاف الذي يحول وجهه في الصلاة أن يحول الله وجهه وجه حمار؟!) قيل: هذا نهي عن الالتفات عن الله، وملاحظة عظمته في حال الصلاة، فإن الملتفت يمينا وشمالا غافل عن الله وعن مطالعة أنوار كبريائه، ومن كان كذلك فيوشك أن تدوم تلك الغفلة عليه، فيتحول وجه قلبه كوجه قلب الحمار في قلة عقله للأمور العلوية وعدم فهمه للمعارف. وقال الصادق (ع) (إذا استقبلت القبلة، فآيس من الدنيا وما فيها، والخلق وما هم فيه، واستفرغ قلبك من كل شاغل يشغلك عن الله – تعالى –، وعاين بسرك عظمة الله – عز وجل –، واذكر وقوفك بين يديه، قال الله – تعالى –: (هنالك تبلو كل نفس ما أسلفت وردوا إلى الله مولاهم الحق) (٢٧). وقف على قدم الخوف والرجاء) (٢٨).

فصل

القيام

وأما القيام، فهو مثول بالشخص والقلب بين يدي الله – سبحانه – فليكن رأسك الذي هو أرفع أعضائك مطوقا متطأطأ متنكسا، تنبيها للقلب على لزوم التواضع والتذلل والانكسار، والتبري عن التكبير والترؤس.

---

(٢٧) يونس، الآية: ٣٠.

(٢٨) صححنا الحديث على (مصباح الشريعة) الباب ١٣ / ١٤١.

وينبغي أن تتذكر هاهنا خطر المقام بين يدي الله في هول المطلع عند التعرض للسؤال، وتذكر في الحال أنك قائم بين يدي الله وهو مطلع عليك، فليكن قيامك بين يديه على ما يليق بعظمته وجلاله، وأن كنت تعجز عن معرفة كنه جلاله، فلا تجعل مالك الملك والملكوت أنزل من بعض ملوك عصرك، فقم بين يديه قيامك بين يدي ملك زمانك، بل قدر في دوام قيامك في صلاتك أنك ملحوظ بعين كالئة من رجل صالح من أهلك، أو ممن ترغب أن يعرفك بالصلاح، فإنه تهد عند ذلك أطرافك، وتخشع جوارحك ويسكن جميع أجزائك، خيفة أن ينسبك ذلك العاجز المسكين إلى قلة الخشوع. وبالجملة الخضوع والخشوع والاستحياء والانفعال، يقتضيها الطبع بين يدي من يعظم من أبناء الدنيا، فكيف لا يقتضيها بين يدي ملك الملوك عند من يعرفه؟ فمن يكون بين يدي غير الله خاشعا، ولا يكون بين يدي الله كذلك، فذلك لقصور معرفته عن جلال الله وعن اطلاعه على سره وضميره، وعدم تدبره في قوله - تعالى -:

(الذي يراك حين تقوم، وتقلبك في الساجدين) (٢٩).

فتبا لمن يدعي معرفة الله والعلم بعظمته وجلاله وحبه والخشية منه، ومع ذلك يستحي من أحد عبيده المساكين الذي لا يقدر على نفع ولا ضر، ولا يستحي من الله، ويخشى الناس، ولا يخشاه!

فصل

التكبيرات

وأما التوجه بالتكبيرات، فينبغي أن تستحضر عندك عظمة الله وجلاله وصغر نفسك وذلتها في جنب عظمته، وقصورك عن القيام بوظائف خدمته.

وإذا قلت: (اللهم أنك أنت الملك الحق) فتذكر عظيم ملكه، وعموم قدرته واستيلاءه على جميع العوالم، ثم ارجع على نفسك بالذل والانكسار.

وإذا قلت: (لبيك وسعديك! والخير في يديك، والشر ليس إليك)، مثل نفسك بين يديه، وتيقن أنه أقرب منك من نفسك، يسمع نداءك، ويجيب دعاءك، وإن خير الدنيا والآخرة بيده لا بيد غيره، وإنه خير محض

---

(٢٩) الشعراء، الآية: ٢١٨ - ٢١٩.

منزه عن الشر. وإذا قلت: (عبدك وابن عبديك، منك وبك ولك وإليك) فقد اعترفت له بالعبودية، وبأنه ربك وخالقك ومالكك، وموجدك ومخترعك وأنت أثره وفعله ومنه وجودك، وبه قوامك، وله ملكك، وإليه معادك فأنت منه، فلا يتركك ويرحمك، فألق نفسك الضعيفة العاجزة بين يديه، وكل أمورك في الدنيا والآخرة إليه، ولا تعتمد في مقاصدك إلا عليه فأحضر في ذهنك في هذه الفقرات وغيرها من الكلمات التي ينطق بها لسانك أمثال هذه الحقائق، وترق منها إلى ما يفتح عليك من الأسرار والدقائق، واحفظ نفسك عن الوقوع في أودية الوساوس والهوى، فتلق الفيض من العالم الأعلى.

فصل

النية

وأما النية، فحقيقتها القصد إلى الفعل، امتثالا لأمر الله، وطلبا لتقربه ورجاء لثوابه، وخوفا من عقابه. فينبغي أن تجتهد في خلوصها ألا يشوبها غرض دنيوي فتفسد، وحقيقة الإخلاص وما يتعلق بها قد تقدمت مفصلة في محلها. وينبغي أن تتذكر هاهنا عظيم لطفه ومنته عليك، حيث أذنك في المناجاة مع سوء أدبك وكثرة جناياتك، وعظم في نفسك قدر مناجاته. وانظر من تناجي، وكيف تناجي، وبماذا تناجي، وعند هذا ينبغي أن يعرق جبينك من الخجلة، وترتعد فرائصك من الهيبة، ويصفر وجهك من الخوف والخشية.

فصل

تكبيرة الاحرام

وإذا كبرت تكبيرة الاحرام، تذكر أن معناها: أنه - تعالى - أكبر من أن يوصف أو أكبر من كل شئ، أو أكبر من أن يدرك بالحواس، أو يقاس بالناس. فانتقل منه إلى غاية عظمته وجلاله، واستناد ما سواه إليه، بالإيجاد والاختراع والإخراج من كتم العدم. وينبغي أن تكون على يقين بذلك، حتى لا يكذب لسانك قلبك، فإن كان في قلبك شئ هو أكبر من الله - تعالى - عندك، فالله يشهد أنك كاذب، وإن كان الكلام صدقا، كما

شهد على المنافقين في قولهم: أن النبي رسول الله. وإن كان هواك أغلب عليك من أمر الله - تعالى - وأنت أطوع له منك لله ولأمره فقد اتخذته إلهك وكبرته، فيوشك، أن يكون قولك (الله أكبر) كلاما باللسان المجرد وقد تخلف القلب عن مساعدته، وما أعظم الخطر في ذلك، لولا التوبة والاستغفار وحسن الظن بكرمه - تعالى - وعفوه. قال الصادق (ع): فإذا كبرت فاستصغر ما بين السماوات العلا والثرى دون كبريائه، فإن الله - تعالى - إذا اطلع على قلب العبد وهو يكبر، وفي قلبه عارض عن حقيقة تكبيره، قال: يا كذاب أتخدعني؟! وعزتي وجلالي! لأحرمنك حلاوة ذكري، ولأحجبنك عن قربي والمسرة بمناجاتي!) (٣٠) فاعتبر أنت قلبك حين صلاتك، فإن كنت تجد حلاوتها وفي نفسك سرورها وبهجتها وقلبك مسرور بمناجاته، وملتذ بمخاطباته، فاعلم أنه - تعالى - قد صدقك في تكبيرك، وإن سلبت لذة المناجاة، وحرمت حلاوة العبادة، فاعلم أنه تعالى كذبك في تكبيرك، وطردك عن بابه، وأبعدك عن جنابه، فابك على نفسك بكاء الثكلى، وبادر إلى العلاج قبل أن تدركك الحسرة العظمى.

فصل

دعاء الاستفتاح

وأما دعاء الاستفتاح، فأول كلماته: (وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض)، ومعلوم أن المراد بالوجه هنا وجه القلب دون الوجه الظاهر، لأن الله سبحانه منزه عن الأمكنة والجهات حتى توجه إليه الوجه الظاهر. فأنت تدعي في هذا الكلام أن قلبك متوجه إلى فاطر السماوات والأرض، فإياك أن يكون أول مفاتحتك للمناجاة بالكذب والاختلاق، إذ لو كان قلبك متوجها إلى أمانيه، وهمه في البيت والسوق أو واقعا في أودية الوساوس، أو كان غافلا، لم يكن مقبلا على الله متوجها إليه، وكنت كاذبا في أول مخاطبتك مع ربك. فأجتهد أن ينصرف قلبك عما سواه، وتقبل عليه في هذا الوقت، وإن عجزت عنه على الدوام، لئلا تكون كاذبا في أول كلامك. وإذا قلت: (حنيفا مسلما)، فأخطر

---

(٣٠) صححنا الحديث على (مصباح الشريعة): الباب ١٣ / ١٤١.

ببالك أن المسلم هو الذي سلم المسلمون من يده ولسانه، فإن لم تكن موصوفا بهذا الوصف، كنت كاذبا فأجتهد أن تعزم عليه في الاستقبال، وأن تندم على ما سبق من الأحوال. وإذا قلت: (وما أنا من المشركين، فأخطر ببالك الشرك الخفي، وكونه داخلا في الشرك، لإطلاق الشرك على القليل والكثير. فلو قصدت بجزء من عبادتك غير الله، من مدح الناس وطلب المنزلة في قلوبهم، كنت مشركا كاذبا في هذا الكلام. فأنف هذا الشرك عن نفسك، واستشعر الخجلة في قلبك، بأن وصفت نفسك بوصف ليست متصفة به في الواقع. وإذا قلت: (محياي ومماتي في الله رب العالمين)، فاعلم أن هذا حال عبد مفقود لنفسه، موجود لسيده، فإن عن ذاته باق بربه، لا يرى لذاته من حيث هي قدرة وقوة، بل يعلم حياته وبقاءه من الله – تعالى –، ولا تكون حركاته وسكناته إلا لله تعالى. فالقائل بهذا الكلام، إذا رأى لنفسه من حيث هي قدرة وأثرا، أو صدر عنه فعل: من الرضا، أو الغضب، أو القيام، أو القعود، أو الرغبة في الحياة، أو الرهبة من الموت لأمور الدنيا، كان كاذبا.

فصل

الاستعاذة

فإذا قلت: (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم) ينبغي أن تعلم أن الشيطان أعدى عدوك، مترصد لصرف قلبك عن الله، حسدا لك على مناجاتك مع الله وسجودك له مع أنه لعن وطرد عن مقام القرب بترك السجدة. وينبغي ألا تكون استعاذتك بالله منه بمجرد القول، لتكون مثل من قصده سبع أو عدو ليفترسه أو يقتله، فقال: أعوذ منك بهذا الحصن الحصين، وهو ثابت على مكانه، فإن ذلك لا يفيده ولا ينفعه ما لم يتحرك ويدخل الحصن فكذلك مجرد الاستعاذة لا ينفعه ما لم يترك ما يحب الشيطان، وما لم يأت بما يحبه الله. فمن اتبع الشهوات التي هي محاب الشيطان ومكاره الرحمن لا يغنيه مجرد القول، فليقترن قوله بالعزم على التعوذ بحصن الله عن شر الشيطان، وحصنه (لا إله إلا الله)، إذ قال: (لا إله إلا الله حصني، ومن دخل حصني أمن من عذابي). والدخول في حصن (لا إله إلا الله) ليس أيضا

بمجرد التكلم به، بل الإذعان القلبي واليقين القطعي بأن كل معبود سواه باطل، وكل شئ منه وله وبه وإليه، ولا مؤثر في الوجود إلا هو. فالمتحصن للتوحيد من لا معبود له سوى الله، وأما من اتخذ إلهه هواه، فهو في ميدان الشيطان لا في حصن الله. ومن مكائد اللعين أن يشغلك في الصلاة بفكر الآخرة وتدبير فعل الخيرات، لتمنع من الحضور وفهم ما تقرأ، فاعلم أن كل ما يشغلك عن الإقبال إلى الله وعن فهم معاني القرآن والأذكار، فهو وساوس، إذ حركة اللسان غير مقصودة، بل المقصود المعاني. وإذا قلت: (بسم الله الرحمن الرحيم)، فانو به التبرك لابتدائك بقراءة كلام الله، والمراد بالاسم هنا المسمى، فمعناه: إن كل الأشياء والأمور بالله، فيترتب عليه انحصار (الحمد لله)، إذ المراد بالحمد الشكر، والشكر إنما يكون على النعم، فإذا كانت النعم بأسرها من الله فيكون منحصرا به، فمن يرى نعمة من غير الله أو يقصد غيره سبحانه بشكر لا من حيث أنه مسخر من الله، ففي تسميته وتحميده نقصان بقدر التفاته إلى غير الله سبحانه.

وإذا قلت: (الرحمن الرحيم)، فأحضر في قلبك أنواع لطفه، وضروب إحسانه، لتتضح لك رحمته، فينبعث بها رجاؤك. وإذا قلت: (مالك يوم الدين)، فاستشعر من قلبك التعظيم والخوف، أما العظمة فلأنه لا ملك إلا هو، وأما الخوف فلهول يوم الجزاء والحساب الذي هو مالكه. ثم جدد الإخلاص بقولك: (إياك نعبد). وجدد العجز والافتقار والتبري من الحول والقوة بقولك: (وإياك نستعين)، وتحقق أنه ما تيسرت طاعتك إلا بإعانته وأن له المنة، إذ وفقك لطاعته، واستخدمك لعبادته، وجعلك أهلا لمناجاته ولو حرمك التوفيق لكنت من المطرودين مع الشيطان الرجيم، واستحضر أن الإعانة لا تكون إلا منه، ولا يقدر غيره أن يعين أحدا، فأخرج عن قلبك الوسائل والأسباب إلا من حيث أنها مسخرة منه تعالى. وإذا قلت: (إهدنا السراط المستقيم)، فاعلم أنه طلب لأهم حاجاتك، وهي الهداية إلى النهج الحق الذي يسوقك إلى جوار الله، ويفضي بك إلى مرضاته ويوصلك إلى مجاورة من أنعم الله عليهم نعمة الهداية من الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين، دون الذين غضب الله عليهم من الكفار والزائفين

من اليهود والنصارى والصابئين. وإذا تلوت (الفاتحة) كذلك، فيشبه أن تكون ممن قال الله فيهم بما أخبر عنه النبي (ص): (قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، نصفها لي، ونصفها لعبدي. يقول العبد: الحمد لله رب العالمين، فيقول الله عز وجل -: حمدني عبدي وأثنى علي.
وهو معنى قوله: سمع الله لمن حمده...) إلى آخر الحديث. فإن لم يكن لك من صلاتك حظ سوى التذاذك بذكر الله في جلاله وعظمته، فناهيك به غنيمة، فكيف ما ترجوه من ثوابه وفضله. وكذلك ينبغي أن تفهم وتخرج الحقائق مما تقرأه من السورة، فلا تفعل عن أمره ونهيه، ووعده ووعيده، ومواعظه وأخبار أنبيائه، وذكر مننه وإحسانه، فكل واحد حق: فحق الأمر والنهي العزم، وحق الوعد الرجاء، وحق الوعيد الخوف، وحق الموعظة الاتعاظ، وحق أخبار الأنبياء الاعتبار، وحق ذكر المنة الشكر، وتكون هذه المعاني بحسب درجات الفهم، ويكون الفهم على حسب العلم وصفاء القلب، ودرجات ذلك لا تنحصر. والصلاة مفتاح القلوب، فيها تنكشف أسرار الكلمات. فهذا حق القراءة، وهو أيضا حق الأذكار والتسبيحات. واعلم أن الناس في القراءة ثلاثة: بعضهم يتحرك لسانه وقلبه غافل. وبعضهم يتحرك لسانه وقلبه يتبع اللسان، فيسمع ويفهم منه كأنه يسمعه من غيره، وهو درجة أصحاب اليمين. وبعضهم يسبق قلبه إلى المعاني أولا، ثم يخدم اللسان قلبه ويترجمه، وفرق بين أن يكون اللسان ترجمان القلب أو يكون معلم القلب، والمقربون ألسنتهم ترجمان تتبع القلب. ثم ينبغي أن تراعي الهيئة في القراءة، فترتل، ولا تسرد ولا تعجل، فإن ذلك أيسر للتأمل، وتفرق بين نعمائه في آية الرحمة والعذاب والوعد والوعيد، والتمجيد والتعظيم، كان بعضهم إذا مر بمثل قوله:
(ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله) (٣١).
يغض صوته، كالمستحي عن أن يذكره بكل شئ وروي: (أنه يقال يوم القيامة لصاحب القرآن: اقرأ وأرق، فكلما قرأ آية صعد درجة).

---

(٣١) المؤمنون، الآية: ٩٢.

فصل

الركوع

وأما الركوع، فينبغي أن تجدد عنه ذكر كبرياء الله، وترفع بذلك معظما له منبها على غاية عظمته وارتفاعه، وكونه أرفع من أن تصل إليه أيدي العقول والأوهام، ومستجيرا بعفوه من عقابه، وتستأنف بهويك للركوع ذلا وتواضعا وتجهد في ترقيق قلبك وتجديد خشوعك، وتستشعر ذلك وعزه، وضعفك وقوته، وعجزك وقدرته، واتضاعك وعلوه، وتستعين على تقرير ذلك في قلبك بلسانك، فتسبحه وتشهد له بالعظمة، وإنه أعظم من كل عظيم، وتكرر ذلك في قلبك لتترسخ عظمته وجلاله، ثم ترفع عن ركوعك راجيا أنه راحم ذلك، وتؤكد الرجاء في نفسك بقولك: (سمع الله لمن حمد): أي أجاب الله لمن شكره، وتتبع ذلك بالشكر المتقاضي للمزيد، فتقول: (الحمد لله رب العالمين)، ثم تزيد في التذلل والخشوع وتعظيم ربك وإجلاله، فتقول: (أهل الكبرياء والعظمة والجود والجبروت). روي (الصدوق) - رضوان الله عليه - عن أمير المؤمنين (ع): (أنه سئل عن معنى مد العنق في الركوع، فقال (ع): تأويله: آمنت بك ولو ضربت عنقي). وقال الصادق (ع): (لا يركع عبد لله ركوعا على الحقيقة، إلا زينه الله بنور بهائه، وأظله في ظل كبريائه وكساه كسوة أصفيائه. والركوع أول، والسجود ثان. فمن أتى بمعنى الأول صلح للثاني. وفي الركوع أدب، وفي السجود قرب، ومن لا يحسن الأدب لا يصلح للقرب. فاركع ركوع خاشع لله عز وجل بقلبه، متذلل وجل تحت سلطانه، خافض له بجوارحه خفض خائف حزن على ما يفوته من فائدة الراكعين) (١). وحكي: (أن ربيع بن خيثم، كان يسهر بالليل إلى الفجر في ركعة واحدة، فإذا هو أصبح، فزفر وقال: آه! سبق المخلصون وقطع بنا). واستوف ركوعك باستواء ظهرك، وانحط عن همتك في

---

(٣٢) صححنا الحديث على الباب ١٥ من (مصباح الشريعة). وعلى (٠ بحار الأنوار): ١٨ / ٣٥٦، باب الركوع وآدابه من كتاب الصلاة. وعلى المستدرك): ١ / ٣٢٥، باب نوادر ما يتعلق بالركوع من كتاب الصلاة أيضا

القيام بخدمته إلا بتأييده وعونه، وفر بقلبك من وساوس الشيطان وخداعه ومكائده، فإن الله يرفع عباده بقدر تواضعهم له، ويهديهم إلى أصول التواضع والخشوع بقدر اطلاع عظمته على سرائرهم.

فصل

السجود

وإذا هويت إلى السجود، جدد على قلبك غاية الذل والعجز والانكسار إذ السجود أعلى درجات الاستكانة، فمكن أعز أعضائك وهو الوجه، لأذل الأشياء، وهو التراب، ولا تجعل بينهما حاجزا، بل اسجد على الأرض لأنه أجلب للخضوع، وأدل على الذل. فإذا وضعت نفسك موضع الذل وألقيتها على التراب، فاعلم أنك وضعتها موضعها، ورددت الفرع إلى أصله، فإنك من التراب خلقت، وإليه رددت. فعند هذا جدد على قلبك عظمة الله، وقل: (سبحان ربي الأعلى وبحمده) وأكده بالتكرار إذ المرة الواحدة ضعيفة الآثار، فإن رق قلبك، وطهر لبك، فليصدق رجائك في رحمة ربك، فإن رحمته تتسارع إلى موضع الذل والضعف، لا إلى محل التكبر والبطر. فارفع رأسك مكبرا ومستغفرا من ذنوبك، وسائلا حاجتك، ثم أكد التواضع بالتكرار، وعد إلى السجود ثانية كذلك. وسئل مولانا أمير المؤمنين (ع) عن معنى السجدة الأولى، قال: (تأويلها: اللهم إنك منها خلقتنا): يعني من الأرض، وتأويل رفع رأسك: (ومنها أخرجتنا)، والسجدة الثانية: (وإليها تعيدنا، ورفع رأسك: (ومنها تخرجنا تارة أخرى). وقال مولانا الصادق (ع): (ما خسر والله - تعالى - قط من أتى بحقيقة السجود، ولو كان في العمر مرة واحدة، وما أفلح من خلا بربه في مثل ذلك الحال شبيها بمخادع نفسه، غافل لاه عما أعد الله تعالى للساجدين من أنس العاجل وراحة الآجل، ولا بعد عن الله تعالى أبدا من أحسن تقربه في السجود، ولا قرب إليه أبدا من أساء أدبه، وضيع حرمته بتعليق قلبه بسواه في حال سجوده فاسجد سجود متواضع لله ذليل، علم أنه خلق من تراب يطأه الخلق، وإنه ركب من نطفة يستقذرها كل أحد، وكون ولم يكن، وقد جعل الله

معنى السجود سبب التقرب إليه بالقلب والسر والروح، فمن قرب منه بعد من غيره، ألا ترى في الظاهر أنه لا يستوي حال السجود إلا بالتواري عن جميع الأشياء، والاحتجاب عن كل ما تراه العيون؟ كذلك أراد الله تعالى أمر الباطن. فمن كان قلبه متعلقا في صلاته بشئ دون الله تعالى، فهو قريب من ذلك الشئ، بعيد عن حقيقة ما أراد الله منه في صلاته.
قال الله تعالى: ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه) وقال رسول الله (ص): (قال الله عز وجل: ما أطلع على قلب عبد فأعلم فيه حب الإخلاص لطاعتي لوجهي وابتغاء مرضاتي، إلا توليت تقويمه وسياسته، ومن اشتغل في صلاته بغيري فهو من المستهزئين بنفسه، واسمه مكتوب في ديوان الخاسرين
) (٣٣).

فصل

التشهد

إذا جلست للتشهد - بعد هذه الأفعال الدقيقة والأسرار العميقة، المشتملة على الأخطار الجسيمة - فاستشعر الخوف التام والرهبة والوجل والحياء، أن يكون جميع ما سلف منك غير واقع على وجهه، ولا محصلا لوظائفه وشرائطه، ولا مكتوبا في ديوان القبول. فاجعل يدك صفرا من فوائدها، وارجع إلى مبدأ الأمر، وأصل الدين، أعني كلمة التوحيد وحصن الله الذي من دخله كان آمنا، فاستمسك به إن لم تكن لك وسيلة غيره، فاشهد لربك بالوحدانية، واحضر رسوله الكريم ونبيه العظيم ببالك واشهد له بالعبودية والرسالة وصل عليه وآله، مجددا عهد الله بإعادة كلمتي الشهادة، متعرضا بهما لتأسيس مراتب العبادة، فإنهما أول الرسائل وأساس الفواضل، ومتوسلا إلى رسول الله بالصلاة عليه، مترقبا بذلك عشرا من صلاته (ص) عليك - كما ورد في الخبر -، ولو وصل إليك منها واحدة أفلحت أبدا. قال الصادق (ع): (التشهد ثناء على الله. فكن عبدا له في السر، خاضعا له في الفعل، كما إنك عبد له في القول والدعوى.

---

(٣٣) صححنا الحديث على: الباب ١٦ من (مصباح الشريعة). وعلى (بحار الأنوار) ١٨ / ٣٦٣، باب السجود وآدابه.

وصل صدق لسانك بصفاء صدق سرك، فإنه خلقك عبدا، وأمرك أن تعبده بقلبك ولسانك وجوارحك، وإن تحقق عبوديتك له وربوبيته لك وتعلم أن نواصي الخلق بيده، فليس لهم نفس ولا لحظة إلا بقدرته ومشيته وهم عاجزون عن إتيان أقل شئ في مملكته إلا بإذنه وإرادته. قال الله عز وجل:

(وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحانه الله وتعالى عما يشركون) (٣٤).

فكن لله عبدا شاكرا بالقول والدعوة، وصل صدق لسانك بصفاء سرك، فإنه خلقك فعز وجل أن تكون إرادة ومشية لأحد إلا بسابق إرادته ومشيته، فاستعمل العبودية في الرضا بحكمته، وبالعبادة في أداء أوامره وقد أمرك بالصلاة على حبيبه محمد (ص)، فأوصل صلاته بصلاته، وطاعته بطاعته، وشهادته بشهادته، وانظر ألا تفوتك بركات معرفة حرمته فتحرم عن فائدة صلاته، وأمره بالاستغفار لك، والشفاعة فيك، إن أتيت بالواجب في الأمر والنهي والسنن والآداب، والتعلم الجليل مرتبته عند الله عز وجل) (٣٥).

فصل

التسليم

وإذا فرغت عن التشهد، فاحضر بحضرة سيد المرسلين، والملائكة المقربين، وبقية أنبياء الله وأئمته - عليهم السلام - والحفظة لك من الملائكة المحصين لأعمالك، وأحضرهم جميعا في بالك. فسلم أولا على نبيك الذي هو أفضل الكل، وواسطة هدايتك وإيمانك، بقولك: ((السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته). ثم توجه إلى الجميع، وسلم عليهم بقولك: (السلام عليكم ورحمة الله وبركاته). ولا تطلق لسانك بصيغة الخطاب من غير حضور المخاطب في ذهنك، فتكون من العابثين واللاعبين، وكيف تسمع الخطاب لمن لا يقصد، لولا فضل الله في اجتزائه بذلك عن أصل الواجب وإن كان بعيدا عن درجات القبول، منحطا عن أوج القرب والوصول. وإن

---

(٣٤) القصص، الآية: ٦٨.

(٣٥) صححنا الحديث على (مصباح الشريعة): الباب ١٧. وعلى (بحار الأنوار): ١٨ / ٤٠٣، باب التشهد وأحكامه.

كنت إماما لقوم، فاقصدهم بالسلام من تقدم من المقصودين، وليقصدوا هم الرد عليك أيضا، وإذا فعلتم ذلك فقد أديتم وظيفة السلام، واستحققتم من الله مزيد الاكرام. قال الصادق (ع): (معنى التسليم في دبر كل صلاة: الأمان، أي من أتى أمر الله وسنة نبيه (ص) خاضعا خاشعا منه، فله الأمان من بلاء الدنيا والبراءة من عذاب الآخرة. والسلام اسم من أسماء الله تعالى أودعه خلقه، ليستعملوا معناه في المعاملات والأمانات والانصافات وتصديق مصاحبتهم فيما بينهم، وصحة معاشرتهم. فإن أردت أن تضع السلام موضعه، وتؤدي معناه، فاتق الله ليسلم منك دينك وقلبك وعقلك ألا تدنسها بظلمة المعاصي، ولتسلم منك حفظتك ألا تبرمهم وتملهم وتوحشهم منك بسوء معاملتك معهم، ثم مع صديقك، ثم مع عدوك فإن من لم يسلم منه هو الأقرب إليه فالعبد أولى، ومن لا يضع السلام مواضعه هذه فلا سلام ولا إسلام ولا تسليم، وكان كاذبا في سلامه وأن أفشاه في الخلق) (٣٦).

فصل

إفاضة الأنوار على المصلي على قدر صفاته

إعلم أن تخليص الصلاة عن الآفات، وإخلاصها لوجه الله، وأدائها بالشروط الباطنة المذكورة، من الحضور والخشوع، والتعظيم، والهيبة، والحياء: سبب لحصول أنوار في القلب، تكون تلك الأنوار مفاتيح للعلوم الباطنة، وإنما يفيض منه على كل مصل على قدرة صفائه من كدورات الدنيا ويختلف ذلك بالقلة والكثرة، والقوة والضعف، والجلاء والخفاء، ويختلف أيضا بما ينكشف من العلوم فينكشف لبعضهم من صفات الله وجلاله، ولبعضهم من عجائب أفعاله، ولبعضهم من دقائق علوم المعاملة، ولبعضهم غير ذلك، وأولى بالظهور والإضافة لكل شخص ما يهمه ويكون في طلبه وإلى ما ذكرناه من ترتب الإفاضات العلوية على الصلاة الخالصة لوجه الله المؤداة بالشروط المذكورة، أشار النبي (ص) بقوله: (إن العبد إذا قام في الصلاة، رفع الله الحجاب بينه وبين عبده، وواجهه بوجهه وقامت الملائكة

---

(٣٦) صححنا الحديث على (مصباح الشريعة): الباب ١٨ / ١٤٤.

من لدن منكبيه إلى الهواء، يصلون بصلاته ويؤمنون على دعائه، وإن المصلي لينشر عليه البر من أعنان السماء إلى مفرق رأسه، ويناديه مناد: لو علم المصلي من يناجي ما التفت. وإن أبواب السماء تفتح للمصلين، وإن الله يباهي ملائكته بصدق المصلي). فإن رفع الحجاب وفتح أبواب السماء كناية عن إفاضة العلوم الباطنة عليه. وورد في التوراة: (يا ابن آدم، لا تعجز أن تقوم بين يدي مصليا باكيا، فأنا الله الذي اقتربت من قلبك، وبالغيب رأيت نوري) وورد: (أن العبد إذا صلى ركعتين، عجبت منه عشرة صفوف من الملائكة، كل صف منهم عشرة آلاف، وباهى الله به مئة ألف).

وذلك لأن العبد جمع في الصلاة بين القيام والقعود، والركوع والسجود، والذكر باللسان، وغير ذلك. وليس لملك من الملائكة هذا القسم من العبادة الجامعة بين الكل، بل هذه الأفعال موزعة عليهم، فبعضهم قائمون لا يركعون إلى يوم القيامة، وبعضهم ساجدون لا يرفعون إلى يوم القيامة، وهكذا الراكعون والقاعدون، فإن ما أعطي الملائكة من القرب والرتبة لازم لهم، مستمر على حالة واحدة، لا تزيد ولا تنقص، وليس لهم مرتبة الترقي من درجة إلى أخرى، وباب المزيد مسدود عليهم، ولذلك قالوا: (وما منا إلا له مقام معلوم)، بخلاف الإنسان، فإن له الترقي في الدرجات، والتقلب في أطوار الكمالات، ومفتاح مزيد الدرجات هي الصلاة، قال الله سبحانه:

(قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون) فمدحهم بعد الإيمان بصلاة مخصوصة، وهي المقرونة بالخشوع، ثم ختم أوصاف المفلحين بالصلاة أيضا، فقال في آخرها:

(والذين هم على صلاتهم يحافظون)، ثم قال في ثمرة تلك الصفات:

(أولئك هم الوارثون، الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون) (٣٧).

فوصفهم في بالفلاح أولا، وبوارثة الفردوس آخرا. فالمصلون هم ورثة الفردوس وورثة الفردوس هم المشاهدون لنور الله بقربه ودنوه بالقلب.

وكل عاقل يعلم أن مجرد حركة اللسان والجوارح مع غفلة القلب، لا تنتهي درجته إلى هذا الحد.

----

(٣٧) المؤمنون، الآية: ٩ / ١١.

فصل

ما ينبغي في إمام الجماعة

ينبغي لإمام الجماعة: أن يختص من بين القوم بمزيد صفاء القلب.

وإقباله إلى الله، والخشوع والتعظيم، وغير ذلك من الشرائط الباطنة، لأنه القدرة والجاذب لنفوس الجماعة إلى الله، فما أقبح به أن يكون قلبه غافلا عن الله، أو واقعا في أودية الوساوس الباطلة في الصلاة، ويكون بعض من اقتدى به من القوم خاشعا حاضر القلب معظما لله سبحانه، وما أشنع به أن يكون التفات قلبه إلى من ورائه من الناس الذين لا يقدرون على شئ من النفع والضر أكثر من التفات قلبه إلى مالك الملك المحيط بالكل، الذي حدث بمجرد إرادته العوالم العلوية والسفلية والملك والملكوت، أو لا يستحي من علام الغيوب أن ينصب نفسه قدوة لأمة سيد الرسل (ص)، ويحمل محل رسول الله (ص) وأوصيائه الراشدين – عليهم السلام – وينوب عنهم، ويكون تغير قلبه وتأثر نفسه عن ضعفاء العوام الذين اقتدوا به أشد من أفعاله وتأثره من عظمة الله وجلاله؟! أو لا يخجل عند الله من تفاوت حاله بكثرة المأمومين وقلتهم؟ فينبغي لكل إمام قوم أن يمتحن نفسه، فإن لم تكن له هذه الصفات الخبيثة فليؤم، وإلا فليترك ولا يهلك نفسه، ويعرف ذلك بأن يكون فرحه بإمامة نفسه كفرحه بإمامة غيره من أمثاله وأقرانه بل إن كان قصده وفرحه بمجرد إقامة السنة، وإحياء رسوم الملة، فينبغي أن يكون فرحه بإمامة غيره ممن هو مرضي والاهتمام به أكثر من إمامة نفسه لحصول المقصود مع السلامة عن الغوائل المحتملة، ينبغي – أيضا – ألا يكون باعثه ومحركه إلى المسجد لإمامة القوم إلا القربة ورجاء الثواب، فلو كان في بعض زوايا قلبه باعث خفي من الشهرة والمنزلة في القلوب، أو الوصول إلى ما ينتظم به معاشه، فله الويل والثبور، ويكون ممن ظل وأظل وهلك وأهلك!

فصل

ما ينبغي في صلاة الجمعة والعيدين

ينبغي للحاضر إلى صلاة الجمعة والعيدين: أن يستحضر أن هذه الأيام أيام شريفة عظيمة، وأعياد مباركة كريمة، قد خص الله بها هذه الأمة،

وجعلها أوقاتا شريفة، لعباده ليقربهم من جواره، ويبعدهم من عذابه وناره وحثهم فيها على الإقبال بصالح الأعمال، وتلافي ما فرط منهم في بقية الأيام والشهور من الإهمال. فلا جرم وجب الاهتمام بصلاتها زيادة على سائر الصلوات من التهيؤ والاستعداد للقاء الله، والوقوف بين يديه، والمثول في حضرته، والفوز بمخاطبته. فليجتهد بعد الاتيان بالوظائف الظاهرة، من التنظيف والتطييب، والتعمم وحلق الرأس، وقص الشارب والأظفار وغير ذلك من السنن في تخليص النية، وإحضار القلب، وإكثار الخشوع والابتهال إلى الله تعالى في صلاته وينبغي أن يحضر قلبه في العيدين من قسمة الجوائز وتفرقة الرحمة، وإضافة المواهب فيها على من قبل صومه وقربانه وقام بوظائفهما، فليكبر في صلاتهما وقبلها وبعدها في قبول أعماله والعفو عن تقصيراته، وليستشعر الخجلة والحياء من خسران الرد، وخذلان الطرد، فتخسر صفقته، وتظهر بعد ذلك حسرته، فيفوز الفائزون، ويسبق السابقون، وينجو المخلصون، وهو يكون من الخائبين الخاسرين.

فصل

ما ينبغي للمؤمن عند ظهور الآيات

إذا ظهرت الآيات، من الكسوف والخسوف والزلازل وغيرها، ينبغي لكل مؤمن من أن يستحضر عندها أهوال الآخرة وزلازلها، وتكور الشمس والقمر وظلمة القيامة، ووجل الخلائق، وخوفهم من الأخذ والنكال والعقوبة والاستيصال، فيكثر في صلاتها من الدعاء والابتهال بمزيد الخضوع والخشوع والهيبة والخوف في النجاة من تلك الشدائد ورد النور بعد الظلمة والمسامحة على الهفوة، وينبغي أن يكون منكسر النفس، مطرق الرأس، مستحيا من التقصير، مستشعرا بقلبه عظمة الله وجلاله. وبالجملة: حصول الخوف والخشية، والمبادرة إلى التضرع والابتهال، وأداء الصلاة بالاقبال والخشوع عند ظهور الآيات، من شعار أهل الإيمان. قال سيد الساجدين عليه السلام: (لا يفرغ للآيتين ولا يرهب، إلا من كان من شيعتنا، فإن كان ذلك منهما، فافزعوا إلى الله وراجعوه). وقال الرضا (ع) (إنما جعلت للكسوف صلاة لأنه من آيات الله تعالى، ولا يدري ألرحمة ظهرت

أم لعذاب فأحب النبي (ص) أن يفزع أمته إلى خالقه وراحمه عند ذلك ليصرف عنهم شرها، ويقيهم مكروها، كما صرف عن قوم يونس (ع) حين تضرعوا إلى الله تعالى). المقصد الثالث
الذكر – فضيلة الأذكار – الدعاء
إعلم أنه ينبغي لكل مؤمن أن يكثر من الذكر والدعاء، لا سيما عقيب الصلاة المفروضة. وقد ورد في فضائلها من الآيات والأخبار ما يمكن إحصاؤه ولاشتهارها لا حاجة إلى ذكرها هنا.
فصل
الذكر
أما الذكر فالنافع منه هو الذكر على الدوام، أو في أكثر الأوقات، مع حضور القلب، وفراغ البال، والوجه الكلي إلى الخالق المتعال، حتى يتمكن المذكور في القلب، ويتجلى عظمته الباهرة عليه، وينشرح الصدر بشروق نوره عليه، وهو غاية ثمرة العبادات، وللذكر أول وآخر، فأوله يوجب الأنس والحب، وآخره يوجبه الأنس والحب، والمطلوب منه ذلك الحب والأنس. فإن العبد في بداءة الأمر يكون متكلفا بصرف قلبه ولسانه عن الوساس والفضول إلى ذكر الله، فإن وفق للمداومة أنس به وانغرس في قلبه حب المذكور، ومن أحب شيئا أكثر ذكره، ومن أكثر ذكر شئ، وإن كان تكلفا، أحبه. ومن هنا قال بعضهم: (كاءدت القرآن عشرين سنة ثم تنعمت به عشرين سنة) ولا تصدر النعم من الأنس والحب، ولا يصدر الأنس والحب إلا من المداومة على المكاءدة والتكلف مدة طويلة، حتى يصير التكلف طبعا. وكيف يستبعد هذا وقد يتكلف الإنسان تناول طعام يستبشعه أولا، ويكائد أكله، ويواضب عليه، فيصير موافقا لطبعه حتى لا يصبر عنه؟ فالنفس تصير معتادة متحملة لما تكفلت: (هي النفس ما عودتها تتعود) ثم إذا حصل الأنس بذكر الله انقطع عن غير الله، وما سوى الله يفارقه عند الموت، ولا يبقى إلا ذكر الله، فإن كان قد أنس به تتمتع به وتلذذ بانقطاع العوائق الصارفة عنه، إذ ضرورات الحاجات في الحياة تصد عنه

ذكر الله ولا يبقى بعد الموت عائق، فكأنه خلى بينه وبين محبوبه، فعظمت غبطته، وتخلص من السجن الذي كان ممنوعا فيه عما به أنسه، وهذا الأنس يتلذذ به العبد بعد موته إلى أن ينزل في جوار الله، ويترقى من الذكر إلى اللقاء، قال الصادق (ع): (من كان ذاكرا لله على الحقيقة فهو مطيع، ومن كان غافلا عنه فهو عاص، والطاعة علامة الهداية، والمعصية علامة الضلالة، وأصلها من الذكر والغفلة، فأجعل قلبك قبلة للسانك، ولا تحركه إلا بإشارة القلب، وموافقة العقل، ورضا الإيمان، فإن الله تعالى عالم بسرك وجهرك، وكن كالنازع روحه، أو كالواقف في العرض الأكبر، غير شاغل نفسك عما عناك مما كلفك به ربك في أمره ونهيه ووعده ووعيده، ولا تشغلها بدون ما كلفك به ربك. واغسل قلبك بماء الحزن، وأجعل ذكر الله تعالى من أجل ذكره تعالى إياك، فإنه ذكرك وهو غني عنك، فذكره لك أجل وأشهى وأثنى وأتم من ذكرك له وأسبق، ومعرفتك بذكره لك تورثك الخشوع والاستحياء والانكسار، ويتولد من ذلك رؤية كرمه وفضله السابق، وتصغر عن ذلك طاعتك وإن كثرت في جنب منته، وتخلص لوجهه، ورؤيتك ذكرك له، يورثك الرياء والعجب والسفه والغلظة في خلقه، واستكثار الطاعة ونسيان فضله وكرمه، ولا تزداد بذلك من الله تعالى إلا بعدا، ولا تستجلب به على مضي الأيام إلا وحشة. والذكر ذكران: ذكر خالص بموافقة القلب، وذكر صارف لك ينفي ذكر غيره، كما قال رسول الله (ص): (أنا لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك). فرسول الله (ص) لم يجعل لذكره الله عز وجل مقدارا عند علمه بحقيقة سابقة ذكر الله عز وجل من قبل ذكره، ومن دونه أولى، فمن أراد أن يذكر الله تعالى، فليعلم أنه ما لم يذكر الله العبد بالتوفيق لذكره، لا يقدر العبد على ذكره) (٣٨).

---

(٣٨) الحديث مذكور في (مصباح الشريعة): الباب ٥ / ١٣٦. وفي المستدرك: ٤٠١، كتاب الصلاة، أبواب الذكر. وفي الموضعين اختلاف يسير فصححناه على (مصباح الشريعة)، الموضع المذكور.

تتميم

فضيلة الأذكار

الأذكار كثيرة، كالتهليل، والتسبيح، والتحميد، والتكبير، والحوقلة والتسبيحات الأربع، وأسماء الله الحسنى، وغير ذلك، وقد وردت في فضيلة كل منها أخبار كثيرة، والمواظبة على كل منها توجب صفاء النفس وانشراح الصدر، وكلما كانت أدل على غاية العظمة والجلال والعزة والكمال، فهي أفضل. ولذا صرحوا بأن أفضل الأذكار التهليل، لدلالته على توحده في الألوهية، واستناد الكل إليه. وربما كان بعض أسماء الله تعالى في مرتبته أدل، والعارف السالك إلى الله يعلم: أنه قد ينبعث في القلب من عظمة الله وجلاله وشدة كبريائه وكماله ما لا يمكن التعبير عنه بأسم.

فصل

الدعاء

وأما الدعاء، فهو مخ العبادة، ولذا ورد في فضله ما ورد من الآيات والأخبار، ولا حاجة إلى ذكرها لاشتهارها. والأدعية المأثورة كثيرة مذكورة في كتب الدعوات، ولا يتصور مطلب من مطالب الدنيا والآخرة إلا وقد وردت به أدعية، فمن أراد شيئا منها فيأخذ من مواضعها.

ومما ينبغي لكل داع، أن يراعي شرائط وآدابا في الدعاء، حتى يستجاب له، ويصل إلى فائدته، وتحصل لنفسه نورانية، وهي أن يترصد لدعائه الأوقات الشريفة، والأحوال الشريفة، والأماكن المتبركة المشرفة، وأن يدعو متطهرا، مستقبل القلبة، رافعا يديه بحيث يرى باطن إبطيه، وأن يخفض صوته بين الجهر والاخفات، ولا يتكلف السجع في الدعاء ويكون في غاية التضرع والخشوع والرهبة، وأن يجزم ويتيقن إجابة دعائه، ويصدق رجاءه فيه، وأن يلح في الدعاء، ويكرره ثلاثا، ويفتح الدعاء بذكر الله وتمجيده، ولا يبتدئ بالسؤال، وأن يتوب، ويرد مظالم العباد، ويقبل على الله بكنه الهمة، وهو السبب القريب للإجابة، وأن يكون مطعمه وملبسه من الحلال، وهو أيضا من عمدة الشرائط، وأن يسمي حاجته،

ويعم في الدعاء، ويبكي عنده، وهو أيضا سيد الآداب وأن يتقدم في الدعاء قبل الحاجة إليه، وألا يعتمد في حوائجه على غير الله تعالى، قال الصادق (ع): (إحفظ أدب الدعاء، وانظر من تدعو، وكيف تدعو، ولماذا تدعو، وحقق عظمة الله وكبرياءه، وعاين بقلبك علمه بما في ضميرك، واطلاعه على سرك وما تكن فيه من الحق والباطل، وأعرف طرق نجاتك وهلاكك، كيلا تدعو الله بشئ عسى فيه هلاكك وأنت تظن أن فيه نجاتك قال الله تعالى:
(ويدعو الإنسان بالشر دعاءه بالخير وكان الإنسان عجولا) (٣٩).
وتفكر ماذا تسأل، ولماذا تسأل. والدعاء استجابة الكل منك للحق، وتذويب المهجة في مشاهدة الرب، وترك الاختيار جميعا، وتسليم الأمور كلها - ظاهرها وباطنها - إلى الله تعالى، فإن لم تأت بشرط الدعاء فلا تنتظر الإجابة، فإنه يعلم السر وأخفى، فلعلك تدعوه بشئ قد علم من سرك خلاف ذلك. واعلم أن لو لم يكن الله أمرنا بالدعاء، لكنا إذا أخلصنا الدعاء، تفضل علينا بالإجابة، فكيف وقد ضمن ذلك لمن أتى بشرائط الدعاء وسئل رسول الله (ص) عن اسم الله الأعظم فقال: (كل اسم من أسماء الله أعظم). ففرغ قلبك من كل ما سواه، وادعه بأي اسم شئت، فليس في الحقيقة لله اسم دون، بل هو الله الواحد القهار. وقال النبي (ص): (إن الله لا يستجيب الدعاء من قلب لاه). فإذا أتيت بما ذكرت لك من شرائط الدعاء، وأخلصت سرك لوجهه، فأبشر بإحدى ثلاث: إما أن يعجل لك بما سألت، وإما أن يدخر لك بما هو أفضل منه، وإما أن يصرف عنك من البلاء ما لو أرسله عليك لهلكت) (٤٠). وسئل من الصادق (ع):
ما لنا ندعوا ولا يستجيب لنا؟ فقال: (لأنكم تدعون من لا تعرفونه، وتسألون من لا تفهمونه، فالاضطرار عين الدين، وكثرة الدعاء مع العمى عن الله من علامة الخذلان، لأن من لم يعرف ذلة نفسه وقلبه وسره تحت

----

(٣٩) الإسراء الآية: ١١.
(٤٠) الحديث المذكور في (مصباح الشريعة) الباب ١٩ / ١٤٥ - ١٤٦ وفية اختلاف كثير عما هنا، فصححناه على المصباح، الموضع المذكور.

قدرة الله، حكم على الله بالسؤال، وظن أن سؤاله دعاء، والحكم على الله من الجرأة على الله تعالى).

المقصد الرابع

تلاوة القرآن

إعلم أنه لا حد لثواب تلاوة القرآن، والأخبار الواردة في عظم أجره ووفور ثوابه لا تحصى كثرة، وكيف لا يعظم أجره وهو كلام الله، حامله روح الأمين إلى سيد المرسلين، فتأمل أن الكلام الصادر من الله بلا واسطة إذا كان من حيث اللفظ معجزة لغاية فصاحته، ومن حيث المعنى متضمنا لأصول حقائق المعارف والمواعظ والأحكام، ومخبرا عن دقائق صنع الله، وعن مغيبات الأحوال والقصص الواقعة في سوالف القرون والأعوام، كيف يكون تأثيره للقلوب وتصفيته للنفوس؟ وبالجملة: العقل والنقل والتجربة ، شواهد متظاهرة على عظم ثواب تلاوة القرآن، والأخبار الواردة فيه مشهورة، فلا حاجة إلى ذكرها، فلنشر إلى بعض ما يتعلق بالتلاوة من الآداب الظاهرة والباطنة.

أما الآداب الظاهرة، فالوضوء، والوقوف على هيئة الأدب، والطمأنينة إما قائما أو جالسا، مستقبل القلبة، مطرقا رأسه، غير متربع ولا متكأ. والترتيب والبكاء، والجهر المتوسط لو أمن من الرياء. وإلا فالسر أفضل، وتحسين القراءة وتنزيهها، ومراعاة حق الآيات، فإذا مر بآية السجود سجد، وإذا مر بآية العذاب استعاذ منه بالله، وإذا مر بآية الرحمة ونعيم الجنة سئل الله تعالى أن يرزقه، وإذا مر بآية تسبيح أو تكبير سبح وكبر، وإذا مر بآية دعاء أو استغفار دعا واستغفر، وافتتاح القراءة بقوله: (أعوذ بالله السميع العليم من من الشيطان الرجيم)، وأن يقول عند الفراغ من كل سورة: (صدق الله العلي العظيم وبلغ رسوله الكريم، اللهم أنفعنا به وبارك لنا فيه، والحمد لله رب العالمين).

وأما الآداب والأعمال الباطنة:

فمنها – فهم عظمة الكلام وعلوه، وفضل الله تعالى ولطفه بخلقه، في

نزوله عن عرش جلاله إلى درجة أفهام خلقه: فلينظر كيف لطف بخلقه في إيصال معاني كلامه الذي هو صفة قائمة بذاته إلى أفهام خلقه، وكيف تجلت لهم تلك الصفة في طي حروف وأصوات هي صفات البشر، إذ يعجز البشر عن الوصول إلى فهم صفات الله إلا بوسيلة صفات نفسه، ولولا استتار كنه جمال كلامه بكسوة الحروف، لما ثبت لسماع كلامه عرش ولا ثرى، ولا شئ بينهما، من عظمة سلطانه وسبحات نوره، ولولا تثبيت الله موسى (ع) لما أطاق سماع كلامه، كما لم يطق الجبل مبادي تجلية حيث صار دكا، ولا يمكن تفهيم عظمة الكلام إلا بأمثلة على حد فهم الخلق، ولهذا عبر عنه بعض العارفين، فقال: (إن كل حرف من كلام الله في اللوح أعظم من جبل قاف، وإن الملائكة لو اجتمعت على الحرف الواحد أن ينقلوه ما أطاقوه، حتى يأتي إسرافيل، وهو ملك اللوح، فيرفعه. فنقله بأذن الله ورحمته، لا بقوته وطاقته). وإيصال معاني الكلام مع علو درجته إلى فهم الإنسان مع قصور رتبته، تشابه من درجة تصويت الإنسان البهائم والطيور. فإن الإنسان لما أراد تفهيم بعض الدواب والطيور ما يريد من إقبالها وإدبارها وتقديمها وتأخيرها، وكان تمييزها قاصرا عن فهم كلامه الصادر عن عقله مع حسنه وترتيبه وبديع نظمه، فينزل إلى درجة تمييز البهائم، ويوصل مقاصده إليها بأصوات لائقة بها، من النفير والصفير والأصوات القريبة من أصواتها، يطيقون حملها. وكذلك الناس، لما كانوا عاجزين عن حمل كلام الله بكنه وكمال صفاته، فتنزل من عرش العظمة والجلال إلى درجة إفهامه، فتجلى في مظاهر الأصوات والحروف، وقد يشرف الصوت لأجل الحكمة المحبوة فيه. فكما أن بدن البشر يكرم ويعزز لمكان الروح، فكذلك أصوات الكلام تشرف للحكمة التي فيها. والكلام عالي المنزلة، رفيع الدرجة، قاهر السلطان، نافذ الحكم في الحق والباطل، وهو القاضي العادل، يأمر وينهى، ولا طاقة للباطل أن يقوم قدام كلام الحكمة، فلا يستطيع الظل أن يقوم قدام شعاع الشمس، ولا طاقة للناس أن ينفذوا غور الحكمة، كما لا طاقة لهم أن ينفذوا بأبصارهم ضوء عين الشمس، ولكنهم ينالون منها ما تقدم به أبصارهم ويستدلون به على

حوائجهم. فالكلام كالملك المحجوب الغائب وجهه، المشاهد أمره، فهو مفتاح الخزائن النفيسة، وشراب الحياة الذي من شرب منه لم يمت، ودواء الأسقام الذي من سقي منه لم يسقم.

ومنها - تعظيم المتكلم: فينبغي للقارئ عند الابتداء بالتلاوة، أن يحضر في قلبه عظمة المتكلم، ويعلم أنه ليس من كلام البشر، بل هو كلام خالق الشمس والقمر، وفي تلاوة كلامه غاية الخطر، إذ كما لا ينبغي أن تمس جلده وورقه وحروفه البشرة المستقذرة بخبث أو حدث، فكذلك لا ينبغي أن تقرؤه الألسنة المستخبثة بقبائح الكلمات، وألا تحوم حول معناه القلوب المكدرة برذائل الأخلاق والصفات، فكما أنه لا يصلح لمس ظاهر خطه كل يد، بل هو محروس عن ظاهر بشرة اللامس، إلا إذا كان متطهرا، فكذلك لا يصلح لتلاوة حروفه كل لسان، ولا لنيل معانيه كل قلب، بل باطن معناه لعلوه وجلاله محجوب عن باطن القلوب، إلا إذا كانت منقطعة عن كل رجس، مستنيرة بنور التعظيم والتوقير. وبالجملة: ينبغي ألا يترك عند التلاوة تعظيم المتكلم له، ليتحقق تعظيم الكلام أيضا، إذ تعظيم الكلام بتعظيم المتكلم، ولو لم تحضره عظمة المتكلم لغفلة قلبه، فليرجع إلى التفكر في صفاته وأفعاله، ويستحضر أن المتكلم هو الذي أوجد وأظهر بمجرد أرادته كل ما يشاهده ويسمعه، من العرش والكرسي والسماوات والأرضين، وما فيها وما تحتها وما فوقها، وأنه الخالق والرازق للجميع، والكل في قبضة قدرته مسخر أسير، ومردد بين فضله ورحمته، وبين نقمته وسطوته، وجميع ذلك لا نسبة له إلى عوالم المجردات. فالتفكر في أمثال ذلك يوجب استشعار القلب لعظمة المتكلم والكلام. ولمثل هذا التعظيم كان بعضهم إذا نشر المصحف للتلاوة غشي عليه، ويقول: (هو كلام ربي، هو كلام ربي!).

ومنها - الخضوع والرقة: قال الصادق (ع): (من قرأ القرآن، ولم يخضع ولم يرق قلبه، ولا ينشئ حزنا ووجلا في سره، فقد استهان بعظيم شأن الله تعالى، وخسر خسرانا مبينا، فقارئ القرآن محتاج إلى ثلاثة أشياء: قلب خاشع، وبدن فارغ، وموضع خال. فإذا خشع لله قلبه فر

منه الشيطان الرجيم، قال الله تعالى:
(فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم) (٤١).
فإذا تفرغ نفسه من الأسباب، تجرد قلبه للقراءة فلا يعرضه عارض فيحرمه بركة نور القرآن وفوائده. فإذا اتخذ مجلسا خاليا، واعتزل عن الخلق بعد أن أتى بالخصلتين: خضوع القلب وفراغ البدن، استأنس روحه وسره بالله عز وجل، ووجود حلاوة مخاطبات الله عز وجل عباده الصالحين، وعليم لطفه بهم ومقام اختصاصه لهم، بفنون كراماته، وبدائع إشاراته، فإن شرب كأسا من هذا المشرب حين إذ، لا يختار على ذلك الحال حالا، ولا على ذلك الوقت وقتا، بل يؤثره على كل طاعة وعبادة، لأن فيه المناجاة مع الرب بل واسطة. فانظر كيف تقرأ كتاب ربك ومنشور ولايتك، وكيف تجيب أوامره ونواهيه، وكيف تمثل حدوده:
(وإنه لكتاب عزيز، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) (٤٢).
فرتله ترتيلا، وقف عند وعده ووعيده، وتفكر في أمثاله ومواعظه، واحذر أن تقع من إقامتك حروفه في إضاعة حدوده) (٤٣).
ومنها - حضور القلب، وترك حديث النفس: وهو يترتب على التعظيم، فإن من يعظم شيئا، كلاما كان أو غيره، يستبشر ويستأنس به، ولا يغفل عنه. ولا ريب في أن القرآن يشتمل على ما يستأنس به القلب، وتفوح به النفس، أن كان التالي أهلا له.
ومنها - التدبر: وهو زائد على حضور القلب، إذ التالي ربما لم يتفكر في غير القرآن، ولكنه اقتصر على سماعه من نفسه، ومن دون تدبر فيه. والمقصود من تلاوة القرآن التدبر فيه في الباطن، قال الله سبحانه:
(أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها) (٤٤).

----

(٤١) النحل، الآية: ٩٨.
(٤٢) فصلت، الآية: ٤١ - ٤٢.
(٤٣) صححنا الحديث على (مصباح الشريعة): الباب ١٤ / ١٤٢.
(٤٤) محمد - صلى الله عليه وآله -، الآية: ٢٤.

وقال أمير المؤمنين (ع): (لا خير في عبادة لا فقه فيها، ولا في قراءة لا تدبر فيها). وإذا لم يتمكن من التدبر إلا بالترديد،، فليردد.
ولذلك كان الأكابر كثيرا ما يكررون بعض الآيات مرات كثيرة للتدبر فيها، وربما يقفون عند آية مدة مديدة، وقال بعضهم: (لي في كل جمعة ختمة، وفي كل شهر ختمة، وفي كل سنة ختمة، ولي ختمة منذ ثلاثين ما فرغت منها بعد!)، وذلك بحسب درجات تدبره وتفتيشه.
ومنها - التفهم: وهو أن يستوضح من كل آية ما يليق بها، إذ القرآن يشتمل على ذكر صفاته تعالى، وذكر أفعاله، وذكر الجنة والنار، وأحوال النشأة الآخرة، وذكر أحوال أنبيائه، وأحوال المكذبين، وأنهم كيف أهلكوا، وذكر أحكامه وأوامره ونواهيه وغير ذلك. فإن مر بآيات صفاته تعالى، كقوله:
(ليس كمثله شئ وهو السميع البصير) (٤٥). وكقوله تعالى: (الملك القدوس السلام...) إلى آخر الآية (٤٦) وغير ذلك.
فليتأمل في معاني هذه الأسماء والصفات، لتنكشف له أسرارها المكنونة تحتها، ولا تنكشف هذه الأسرار إلا للمؤيدين في فهم كتاب الله.
قال أمير المؤمنين (ع): (ما أسر إلي رسول الله (ص) شيئا كتمه عن الناس، إلا أن يؤتي الله عز وجل عبدا فهما في كتابه). وإن مر بآيات الأفعال، أي الآيات الحاكية عن خلقه السماوات والأرض، وما فيهما من الملائكة والكواكب والجبال والحيوان والنبات، وما بينهما من السحب والغيوم والرياح والأمطار وغير ذلك، فليفهم التالي منها عظمة الله وجلاله.
إذ الفعل يدل على الفاعل، فعظمته تدل على عظمته. وينبغي أن يشهد في الفعل الفاعل دون الفعل، إذ من عرف الحق رآه في كل شئ، إذ كل شئ منه وبه وإليه وله، فهو الكل في وحده، ومن لا يراه في كل ما يراه فكأنه ما عرفه، ومن عرفه عرف أن كل شئ ما خلا الله باطل، وأن كل شئ هالك إلا وجهه، وإن اعتبر من حيث هو، إذ مع قطع النظر عن الواجب

---

(٤٥) الشورى، الآية: ١١.
(٤٦) الحشر، الآية: ٢٣.

وإيجاده، لا ذات ولا وجود، بل محض العدم وعدم المحض. فذات كل شئ ووجوده وثباته وبقاؤه بالله العلي العظيم. فإذا قرأ التالي آية تدل على شئ من عجائب صنعه وغرائب فعله، فليتأمل في تلك العجائب، ثم يترقى منها إلى أعجب العجائب، وهي الصفة التي صدرت منها هذه الأعاجيب.
وإذا سمع وصف الجنة والنار وسائر أحوال الآخرة، فليتذكر أن ما في هذا العالم من النعم والنقم لا نسبة له إلى ما في عالم الآخرة، فلينتقل من ذلك إلى عظمة الله تعالى، وينقطع إليه باطنا، ليخلصه من عقوبات تلك النشأة، ويوصله إلى نعيمها ولذاتها. وإذا سمع أحوال الأنبياء عليهم السلام، من تكذيبهم وضربهم وقتلهم، فليفهم منه صفة الاستغناء لله تعالى من الرسل والمرسل إليهم، وأنه لو أهلك جميعهم لا يؤثر في ملكه وإذا سمع نصرتهم في الأمر، فليفهم قدرة الله وإرادته لنصرته لنصرة الحق. وأما أحوال المكذبين وما جرى عليهم من العقوبات وضروب النكال، فليستشعر الخوف من سطوته ونقمته، ويعتبر في نفسه، ويعلم أنه غفل وأساء الأدب، واغتر بما أمهل، فربما تدركه النقمة. وكذلك إذا سمع الوعد والوعيد والأمر والتهديد، فلا يمكن استقصاء ما يفهم من القرآن، لأنه لا نهاية له، إذ
(لا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين)
(قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي) (٤٧).
ولكل عبد منه بقدر استعداده ومقدار فهمه وصفاء نفسه.
ومنها - التخلي عن موانع الفهم: وهي التقليد والتعصب لمذهب،
فإن ذلك بمنزلة حجاب لمرآة النفس يمنعها عن انعكاس غير معتقدها فيها، والجمود على تفسير ظاهر، ظانا أن غيره تفسير بالرأي لا يجوز ارتكابه، وصرف الهمة والفهم إلى تحقيق الحروف وما يتعلق بها من الأمور المتداولة بين القراء، فإن قصر التأمل على ذلك مانع من انكشاف المعاني، والاصرار على الذنوب الظاهرة والباطنة، ومتابعة الشهوات المظلمة للقلب الموجبة للحرمان عن انكشاف الأسرار والحقائق فيه، وإشراق المعارف الحقة عليه.

---

(٤٧) الكهف، الآية: ١١٠.

قال رسول الله (ص): - (إذا عظمت أمتي الدينار والدرهم تنزع منها هيبة الإسلام، وإذا تركوا الأمر بالمعروف، حرموا بركة الوحي). وقد شرط الله تعالى الإنابة في الفهم والتذكر، قال الله تعالى:
(تبصرة وذكرى لكل عبد منيب) (٤٨). وقال تعالى: (وما يتذكر إلا من ينيب) (٤٩). وقال تعالى: (إنما يتذكر أولو الألباب) (٥٠).
ومنها - التخصيص: وهو أن يقدر أنه المقصود بكل خطاب في القرآن من الأمر والنهي والوعد والوعيد، حتى أنه لو سمع قصص الأولين يجزم بأن المقصود الاعتبار دون مجرد الحكاية والتشمر. فما من قصة في القرآن إلا وسياقها الفائدة في حق النبي وأمته، ولذلك قال سبحانه:
(ما نثبت به فؤادك) (٥١).
فإن القرآن جميعه هدى وشفاء ورحمة، ونور وموعظة وبصائر للعالمين فكل أحد إذا قرأه ينبغي أن تكون قراءة العبد كتاب مولاه الذي كتب إليه ليتأمله ويعمل بمقتضاه. قال بعض الأكابر: (هذا القرآن رسائل أتتنا من قبل ربنا عز وجل بعهوده، فنتدبرها في الصلوات، ونقف في الخلوات، وننفذها في الطاعات بالسنن المتبعات).
ومنها - التأثر: وهو أن يتأثر قلبه بآثار مختلفة بحسب اختلاف الآيات، فيكون له بحسب كل فهم حال: من الخوف، والحزن والوجل، والوجد، والفرح، والارتياح، والرجاء، والقبض، والانبساط فإذا سمع الوعيد فليضطرب قلبه، ويتضائل من الخوف كأنه يموت، وإن سمع وسعه الرحمة ووعد المغفرة، فليفرح ويستبشر كأنه يطير من الابتهاج، وإذا سمع وصف الجنة، فلينبعث باطنه شوقا إليها وإذا سمع وصف النار، فلترتعد فرائصه خوفا منها، وإذا سمع صفات الله وأسماءه ونعوت جلاله، فليتطأطأ خضوعا لجلاله واستشعارا لعظمته وكبريائه، وإذا سمع ذكر الكفار ما يستحيل على الله من اتخاذ الولد وأمثاله، فليغض صوته وينكسر في باطنه حياء من

---

(٤٨) ق، الآية: ٨.
(٤٩) المؤمن، الآية: ١٣.
(٥٠) الرعد الآية: ٢١. الزمر، الآية: ٩.
(٥١) هود، الآية: ١٢٠.

قبح مقالتهم.. وقس على ذلك غيره من الآيات المختلفة. ومهما تمت المعرفة كانت الخشية أغلب الأحوال على القلب، إذ التضيق غالب على آيات القرآن إذ لا ترى ذكر المغفرة والرحمة إلا مقرونا بشروط يقصر الأكثرون عن نيلها، ولذلك كان في الخائفين من يصير مغشيا عليه عند استماع آيات الوعيد، ومنهم من مات بمجرد استماعها. وبالجملة: المقصود الأصلي من القرآن، استجلاب هذه الأحوال إلى القلب والعمل به وإلا فالمؤنة بتحريك اللسان بحروفه خفيفة. وحق تلاوة القرآن أن يشترك فيها اللسان والعقل والقلب فحظ اللسان تصحيح الحروف بالترتيل، وحظ العقل إدراك المعاني، وحظ القلب الاتعاض والتأثر بالحالات المذكورة. فاللسان واعظ القلب، والعقل مترجم، والقلب متعظ.

ومنها – الترقي: وهو أن يترقى إلى أن يسمع الكلام من الله تعالى لا من نفسه. فدرجات القراءة ثلاث: الأولى: وهي أدناها، أن يقدر العبد أنه يقرؤه على الله تعالى واقفا بين يديه، وهو ناظر إليه ومستمع منه، فتكون حاله – على هذا التقدير – التملق والسؤال والتضرع والابتهال. الثانية: أن يشهد بقلبه، كأن ربه يخاطبه باللطافة، ويناجيه بإحسانه وإنعامه فمقامه الهيبة والحياء والتعظيم والاصغاء. الثالثة: أن يرى في الكلام المتكلم، وفي الكلمات الصفات، فلا ينظر إلى نفسه وإلى تلاوته، ولا إلى تعلق الإنعام به من حيث أنه منعم عليه، بل يكون مقصود الهم على التكلم موقوف الفكر عليه. كأنه مستغرق بمشاهدة المتكلم من غيره. وهذه درجة المقربين والصديقين، وما قبله من درجات أصحاب اليمين وما خرج من ذلك فهو درجات الغافلين. وقد أخبر عن الدرجة العليا سيد الشهداء – أرواحنا فداه – حيث قال (ع): (الذي تجلى لعباده في كتابه بل في كل شئ، وأراهم نفسه في خاطبه، بل في كل نور). وأشار إليها الإمام أبو عبد الله الصادق عليه السلام حيث قال: (والله لقد تجلى الله عز وجل بخلقه في كلامه! ولكن لا يبصرون). وروي: (أنه لحقته حالة في الصلاة، حتى خر مغشيا عليه، فلما سرى عنه، قيل له في ذلك، فقال (ع): ما زلت أردد الآية على قلبي، حتى سمعتها من المتكلم بها، فلم يثبت جسمي لمعاينة قدرته). وفي مثل

هذه الدرجة تشتد البهجة، وتعظم الحلاوة واللذة. ولذلك قال بعض الحكماء (كنت أقرأ القرآن، فلا أجد له حلاوة، حتى تلوته كأني أسمعه عن رسول الله (ص) يتلوه على أصحابه، ثم رفعت إلى مقام فوقه، فكنت اتلوه كأني أسمعه من جبرئيل يلقيه على رسول الله (ص) فعندها وجدت لذة ونعيما لا أصبر عنه) وقال حذيفة: (لو طهرت القلوب، لم تشبع من قراءة القرآن) وذلك لأنها بالطهارة تترقى إلى مشاهدة المتكلم في الكلام، بل التوحيد الخالص للعبد، ألا يرى في كل شئ إلا الله، إذ لو رأى غيره، لا من حيث أنه منه وله وبه وإليه، كان مشركا بالشرك الخفي.

ومنها – التبري: وهو أن يتبرى من حوله وقوته، ولا يلتفت إلى نفسه بعين الرضا والتزكية. فإذا قرأ آيات الوعد ومدح الأخيار، فلا يشهد نفسه ولا يدخلها في زمرتهم، بل يشهد أهل الصدق واليقين، ويتشوق إلى أن يلحقه الله بهم. وإذا قرأ آيات المقت والوعيد، وذم العصاة والمقصرين شهد نفسه هناك، وقدر أنه المخاطب خوفا وإشفاقا. وإلى هذا أشار مولانا أمير المؤمنين (ع)، حيث قال في وصف المتقين: (وإذا مروا بآية فيها تخويف أصغوا إليها مسامع قلوبهم، وظنوا أن زفير جهنم في آذانهم) فإذا رأى القارئ نفسه بصورة التقصير في القراءة كانت رؤيته سبب قربه. فإن من شهد البعد في القرب، لطف له بالخوف، حتى يسوقه إلى درجة أخرى في القرب وراءها، ومن شهد القرب في البعد مكر به بالأمن الذي يفيضه إلى درجة أخرى في البعد أسفل مما هو فيه. ومهما كان مشاهدا نفسه بعين الرضا، صار محجوبا بنفسه. فإذا جاوز حد الالتفات إلى نفسه، ولم يشاهد إلا الله تعالى في قراءته، وكشف له سر الملكوت بحسب أحواله، فحيث يتلو آيات الرحمة والرجاء، ويغلب على حاله الاستبشار، وتنكشف له صورة الجنة، فيشاهدها كأنه يراها عيانا، وأن غلب عليه الخوف، كوشف بالنار، حتى يرى أنواع عذابها، وذلك لأن كلام الله عز وجل يشتمل على السهل اللطيف، والشديد العسوف، والمرجو والمخوف، وذلك بحسب أوصافه، إذ منها الرحمة واللطف.

ومنه – القهر والبطش والانتقام: فبحسب مشاهدة الكلمات والصفات

ينقلب القلب في اختلاف الحالات، وبحسب كل حالة منها يستعد للمكاشفة بأمر يناسب تلك الحالة، ويمتنع أن يكون حال المستمع واحدا والمسموع مختلفا، إذ فيه كلام راض وكلام غضبان، وكلام منعم، وكلام منتقم، وكلام جبار متكبر لا يبالي، وكلام منان متعطف لا يهمل.

المقصد الخامس

الصوم

إعلم أن الصوم أجره عظيم، وثوابه جسيم، وما يدل على فضله من الآيات والأخبار أكثر من أن تحصى، وهي معروفة مشهورة فلا حاجة إلى ذكرها، فلنشر إلى ما يتعلق به من الأمور الباطنة:

فصل

ما ينبغي للصائم

ينبغي للصائم أن يغض بصره عن كل ما يحرم النظر إليه، أو يكرهه، أو يشغل القلب ويلهيه عن ذكر الله تعالى، ويحفظ اللسان عن جميع آفاته المتقدمة، ويكف السمع عن كل ما يحرم أو يكره استماعه، ويكف بطنه عن الحرام والشبهات، ويكف سائر جوارحه عن المكاره. وقد ورد في اشتراط جميع ذلك في الصوم في ترتب كمال الثواب عليه أخبار كثيرة. وينبغي أيضا ألا يستكثر من الحلال وقت الافطار بحيث يمتلئ، إذ ما من وعاء أبغض إلى الله عز وجل من بطن ملئ من حلال، كيف والسر في شرع الصوم قهر عدو الله وكسر الشهوة والهوى، لتتقوى النفس على التقوى، وترتقي من حضيض وحظوظ النفس البهيمية إلى ذروة التشبيه بالملائكة الروحانية، وكيف يحصل ذلك إذا تدارك الصائم عند الافطار ما فاته ضحوة نهاره، لا سيما إذا زيد عليه في ألوان الطعام، كما استمرت العادات في هذه الأعصار، وربما يؤكل من الأطعمة في شهر رمضان ما لا يؤكل في عدة شهور. ولا ريب في أن المعدة إذا خليت من ضحوة النهار إلى العشاء، حتى هاجت شهوتها وقويت رغبتها، ثم أطعمت من اللذات، وأشبعت من ألوان المطاعم، وجمع ما كان يأكل ضحوة إلى ما يأكل ليلا، وأكل جميع في الليل مرة أو مرتين أو أكثر زادت لذتها، وتضاعفت قوتها، وابعث من الشهوات ما عساها كانت راكدة

لو تركت على عادتها، فلا يحصل ما هو المقصود من الصوم، أعني تضعيف القوى الشهوية التي هي وسائل الشيطان، فلا بد من التقليل، وهو أن يأكل في مجموع الليلة أكلته التي كان يأكلها كل ليلة لو لم يصم، من دون ضم مما يأكل في النهار إليه، حتى ينتفع بصومه. والحاصل: إن روح الصوم وسره والغرض الأصلي منه: التخلق بخلق من أخلاق الله تعالى، أعني الصمدية والاقتداء بالملائكة في الكف عن الشهوات بقدر الإمكان وهذا إنما يحصل بتقليل الأكل عما يأكله في غير وقت الصوم، فلا جدوى لمجرد تأخير أكله وجمع أكلتين عند العشاء، ثم لو جعل سر الصوم ما يظهر من بعض الظواهر من إدراك الأغنياء ألم الجوع والانتقال منه إلى شدة حال الفقراء، فيبعثهم ذلك على مواساتهم بالأموال والأقوات، فهو أيضا لا يتم بدون التقليل في الأكل.

فصل

ما ينبغي للصائم عند الافطار

ينبغي لكل صائم أن يكون قلبه بعد الافطار مضطربا، معلقا بين الخوف والرجاء، إذ ليس يدري أيقبل صومه فهو من المقربين أو يرد عليه فهو من الممقوتين، وليكن الحال كذلك في آخر كل عبادة يفرغ منها. روي: (أن الإمام أبا محمد الحسن المجتبى (ع) مر بقوم يوم العيد، وهم يضحكون، فقال (ع) إن الله تعالى جعل شهر رمضان مضمارا لخلقه، يستبقون فيه لطاعته، فسبق أقوام ففازوا، وتخلف أقوام فخابوا، فالعجب كل العجب للضاحك اللاعب في اليوم الذي فاز فيه المسارعون وخاب فيه المبطلون، أما والله لو كشف الغطاء لاشتغل المحسن بإحسانه، والمسئ عن إساءته!)، أي كان سرور المقبول يشغله عن اللعب، وحسرة المردود تسد عليه باب الضحك

فصل

درجات الصوم

للصوم ثلاث درجات:

الأولى - صوم العموم: وهو كف البطن والفرج عن قضاء الشهوة، وهذا لا يفيد أزيد من سقوط القضاء والاستخلاص من العذاب.

الثانية – صوم الخصوص: وهو الكف المذكور، مع كف البصر والسمع واللسان واليد والرجل وسائر الجوارح عن المعاصي، وعلى هذا الصوم تترتب المثوبات الموعودة من صاحب الشرع.

الثالثة – صوم خصوص الخصوص –: وهو الكفان المذكوران، مع صوم القلب عن الهمم الدنية، والأخلاق الردية، والأفكار الدنيوية، وكفه عما سواه بالكلية، ويحصل الفطر في هذا الصوم بالفكر في ما سوى الله واليوم الآخر، وحاصل هذا الصوم إقبال بكنه الهمة على الله، وانصراف عن غير الله وتلبس بمعنى قوله تعالى: (قل الله ثم ذرهم)، وهذا درجة الأنبياء والصديقين والمقربين، ويترتب عليه الوصول إلى المشاهدة واللقاء، والفوز بما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب أحد. وإلى هذا الصوم أشار مولانا الصادق (ع) حيث قال: (قال النبي (ص): الصوم جنة. أي ستر من آفات الدنيا وحجاب من عذاب الآخرة، فإذا صمت فانو بصومك كف النفس عن الشهوات، وقطع الهمة عن خطرات الشياطين، وأنزل نفسك منزلة المرضى، ولا تشتهي طعاما ولا شرابا، وتوقع في كل لحظة شفاءك من مرض الذنوب، وطهر باطنك من كل كدر وغفلة وظلمة يقطعك عن معنى الإخلاص لوجه الله قال رسول الله (ص): قال الله تعالى: الصوم لي وأنا أجزي به. والصوم يميت مراد النفس وشهوة الطبع، وفيه صفاء القلب، وطهارة الجوارح، وعمارة الظاهر والباطن، والشكر على النعم والاحسان إلى الفقراء، وزيادة التضرع والخشوع والبكاء، وحبل الالتجاء إلى الله، وسبب انكسار الهمة. تخفيف الحساب، وتضعيف الحسنات، وفيه من الفوائد ما لا يحصى ولا يعد، وكفى بما ذكرناه لمن عقله ووفق لاستعماله) (٥٢)

تتمم

من صام شهر رمضان إخلاصا لله وتقربا إليه، وطهر باطنه من ذمائم الأخلاق، وكف ظاهره عن المعاصي والآثام، وأجتنب، عن الحرام، ولم يأكل إلا الحلال، ولم يفرط في الأكل، وواظب على جملة من النوافل

----

(٥٢) صححنا الحديث على مصباح الشريعة: الباب ٢٠. وعلى المستدرك: ١ / ٥٨٩ – ٥٩٠، كتاب الصوم.

والأدعية وسائر الآداب المسنونة فيه، استحق للمغفرة والخلاص عن عذاب الآخرة، بمقتضى الأخبار المتواترة. ثم إن كل من العوام، حصل له من صفاء النفس ما يوجب استجابة دعوته، وإن كان من أهل المعرفة، فعسى الشيطان لا يحوم على قلبه، فينكشف له شئ من الملكوت، وسيما في ليلة القدر، إذ هي الليلة التي تنكشف فيها الأسرار، وتفيض القلوب الطاهرة الأنوار، والمناط والعمدة في نيل ذلك تقليل الأكل بحيث يحسن ألم الجوع، إذ من جعل بين قلبه وبين صدره مخلاة من الطعام، فهو محجوب عن عوالم الأنوار، ويستحيل أن ينكشف له شئ من الأسرار.

المقصد السادس

الحج

إعلم أن الحج أعظم أركان الدين، وعمدة ما يقرب العبد إلى رب العالمين، وهو أهم التكاليف الإلهية وأثقلها، وأصعب العبادات البدنية وأفضلها، وأعظم بعبادة ينعدم بفقدها الدين، ويساوي تاركها اليهود والنصارى في الخسران المبين. والأخبار التي وردت في فضيلته وفي ذم تاركه كثيرة مذكورة في كتب الأخبار، والأحكام والشرائط الظاهرة له على عهدة الفقهاء، فلنشر إلى الأسرار الخفية، والأعمال الدقيقة والآداب الباطنة، التي يبحث عنها أرباب القلوب:

فصل

الغرض من إيجاد الإنسان

إعلم أن الغرض الأصلي من إيجاد الإنسان معرفة الله والوصول إلى حبه والأنس به، والوصول إليه بالحب والأنس يتوقف على صفاء النفس وتجردها. فكلما صارت النفس أصفى وأشد تجردا، كان أنسها وحبها بالله أشد وأكثر. وصفاء النفس وتجردها موقوف على التنزه عن الشهوات والكف عن اللذات، والانقطاع عن الحطام الدنيوية، وتحريك الجوارح وإيقاعها لأجله في الأعمال الشاقة، والتجرد لذكره وتوجيه القلب إليه. ولذلك شرعت العبادات المشتملة على هذه الأمور إذ بعضها إنفاق المال وبذله، الموجب للانقطاع عن الحطام الدنيوية، كالزكاة والخمس والصدقات

وبعضها الكف عن الشهوات واللذات، كالصوم، وبعضها التجرد لذكر الله وتوجيه القلب إليه، وارتكاب تحريك الأعضاء وتعبها، كالصلاة، والحج من بينها مشتمل على جميع هذه الأمور مع الزيادة، إذ فيه هجران أوطان، وإتعاب أبدان، وإنفاق أموال، وانقطاع آمال، وتحمل مشاق. وتجديد ميثاق، وحضور مشاعر، وشهود شعائر، ويتحقق في أعماله التجرد لذكر الله، والإقبال عليه بضروب الطاعات والعبادات، مع كون أعماله أمورا لا تأنس بها النفوس، ولا تهتدي إلى معانيها العقول، كرمي الجمار بالأحجار، والتردد بين الصفا والمروة على سبيل التكرار، إذ بمثل هذه الأعمال يظهر كمال الرق والعبودية، فإن سائر العبادات أعمال وأفعال يظهر وجهها للعقل، فللنفس إليها ميل، وللطبع بها أنس.

وأما بعض أعمال الحج، كرمي الجمار وترددات السعي، فلاحظ للنفس ولا أنس للطبع فيها ولا اهتداء للعقل إلى معانيها، فلا يكون الإقدام عليها إلا لمجرد الأمر وقصد الامتثال له من حيث أنه أمر واجب الاتباع، ففيها عزل العقل عن تصرفه، وصرف النفس والطبع عن محل أنسه، فإن كل ما أدرك العقل معناه مال الطبع إليه ميلا ما، فيكون ذلك الميل معينا للامتثال، فلا يظهر به كمال الرق والانقياد ولذلك قال النبي (ص) في الحج على الخصوص: (لبيك بحجة حقا وتعبدا ورقا!)، ولم يقل ذلك في غيره من العبادات. فمثل هذه العبادات - أي ما لم يهتد العقل إلى معناه ووجه - أبلغ أنواع العبادات في تزكية النفوس وصرفها عن مقتضي الطبع والبغي إلى الاسترقاق، فتتعجب بعض الناس من هذه الأفعال العجيبة مصدره الجهل بأسرار التعبدات، وهذا هو السر في وضع الحج، مع دلالة كل عمل من أعماله على بعض أحوال الآخرة، أو في بعض أسرار أخر - كما يأتي - ما فيه من اجتماع أهل العالم في موضع تكرر فيه نزول الوحي، وهبوط جبرئيل وغيره من الملائكة المقربين على رسوله المكرم، ومن قبله على خليله المعظم - عليهما أفضل الصلاة - بل لا يزال مرجعا ومنزلا لجميع الأنبياء، من آدم إلى خاتم، ومهبطا للوحي، ومحلا لنزول طوائف الملائكة. وقد تولد فيه سيد الرسل (ص) وتوطأت أكثر

مواضعه قدمه الشريفة وأقدام سائر الأنبياء، ولذلك سمي ب (البيت العتيق) وقد شرفه الله تعالى بالإضافة إلى نفسه، ونصبه مقصدا لعباده، وجعل ما حواليه حرما لبيته، وتفخيما لأمره وجعل عرفات كالميدان على فناء حرمه، وأكد حرمة الموضع بتحريم صيده، وقطع شجره، ووضعه على مثال حضرة الملوك، فقصده الزوار من كل فج عميق، ومن كل أوب سحيق، شعثاء غبراء، متواضعين لرب البيت، ومستكنين له، خضوعا لجلاله، واستكانة لعزته وعظمته، مع الاعتراف بتنزهه عن أن يحومه بيت أو يكتنفه بلد.

ولا ريب في أن الاجتماع في مثل هذا الموضع، مع ما فيه من حصول الموالفة والمصاحبة، ومجاورة الأبدال والأوتاد والأخيار المجتمعين من أقطار البلاد، وتظاهر الهمم، وتعاون النفوس على التضرع والابتهال والدعاء الموجب لسرعة الإجابة بذكر النبي (ص) وإجلاله ونزول الوحي عليه، وغاية سعيه واهتمامه في إعلاء كلمة الله ونشر أحكام دينه، فتحصل الرقة للقلب، والصفاء للنفس. ثم لكون الحج أعظم التكليفات لهذه الأمة، جعل بمنزلة الرهبانية في الملل السالفة، فإن الأمم الماضية إذا أرادوا العمل لأصعب التكاليف وأشقها على النفس، انفردوا عن الخلق، وانحازوا إلى قلل الجبال، وآثروا التوحش عن الخلق بطلب الأنس بالله، والتجرد له في جميع الحركات والسكنات، فتركوا اللذات الحاضرة، وألزموا أنفسهم الرياضات الشاقة، طمعا في الآخرة وقد أثنى الله عليهم في كتابه، وقال : (ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون) (٥٣) وقال تعالى (ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله) (٥٤).

ولما اندرس ذلك، وأقبل الخلق على أتباع الشهوات، وهجروا التجرد لعبادة الله تعالى، وفروا عنها، بعث الله تعالى من سرة البطحاء محمد (ص)، لإحياء طريق الآخرة، وتجديد سنة المرسلين في سلوكها، فمسألة أهل الملل من الرهبانية والسياحة في دينه فقال (ص): (أبدلنا بالرهبانية الجهاد،

---

(٥٣) المائدة: الآية ٨٥.

(٥٤) الحديد، الآية: ٢٧.

والتكبير على كل شرف – يعني الحج –، وأبدلنا بالسياحة الصوم).
فأنعم الله على هذه الأمة، بأن جعل الحج رهبانية لهم، فهو بإزاء أعظم التكاليف والطاعات في الملل السابقة.

فصل

ما ينبغي في الحاج

ينبغي للحاج، عند توجهه إلى الحج، مراعاة أمور:

الأول – أن يجرد نيته لله، بحيث لا يشوبها شئ من الأغراض الدنيوية، ولا يكون باعثه على التوجه إلى الحج إلا امتثال أمر الله ونيل ثوابه، والاستخلاص من عذابه، فليحذر كل الحذر أن يكون له باعث آخر، مكنون في بعض زوايا قلبه، كالرياء والحذر عن ذم الناس وتفسيقهم لولا يحج، أو الخوف من الفقر وتلف أموالهم لو ترك الحج، لما اشتهر من أن (تارك الحج يبتلى بالفقر والإدبار)، أو قصد التجارة أو شغل آخر، فإن كل ذلك يخرج العمل من الإخلاص، ويحجبه عن الفائدة وترتب الثواب الموعود، وما أجهل من تحمل الأعمال الشاقة التي يمكن أن تحصل بها سعادة الأبد، لأجل خيالات فاسدة لا يترتب عليها سوى الخسران فائدة فيجتهد كل الجهد أن يجعل عزمه خالصا لوجه الله، بعيدا عن شوائب الرياء والسمعة ويتيقن أنه لا يقبل من قصده وعمله إلا الخالص، وأن من أفحش الفواحش أن يقصد بيت الملك وحرمه والمقصود غيره، فليصحح في نفسه العزم، وتصحيحه بإخلاصه باجتناب كل ما فيه رياء وسمعة.

الثاني – أن يتوب إلى الله تعالى توبة خالصة، ويرد المظالم، ويقطع علاقة قلبه عن الالتفات إلى ما وراءه، ليكون متوجها إلى الله بوجه قلبه، ويقدر أنه لا يعود، وليكتب وصيته لأهله وأولاده، ويتهيأ لسفر الآخرة، فإن ذلك بين يديه على قرب، وما تقدمه من هذا السفر تهيئة لأسباب ذلك السفر، فهو المستقر وإليه المصير. فلا ينبغي أن يغفل عن ذلك عند الاستعداد لهذا، فليتذكر عند قطعه العلائق لسفر الحج قطع العلائق لسفر الآخرة.

الثالث – أن يعظم في نفسه قدر البيت وقدر رب البيت، ويعلم أنه ترك الأهل والأوطان، وفارق الأحبة والبلدان، للعزم على أمر رفيع شأنه،

خطير أمره: أعني زيارة بيت الله الذي جعل مثابة للناس، فسفره هذا لا يضاهي أسفار الدنيا. فليحضر في قلبه ماذا يريد، وأين يتوجه، وزيارة من يقصد، وإنه متوجه إلى زيارة ملك الملوك في زمرة الزائرين إليه، الذين نودوا فأجابوا، وشوقوا فاشتاقوا، ودعوا فقطعوا العلائق. وفارقوا الخلائق، وأقبلوا على بيت الله الرفيع قدره والعظيم شأنه، تسليا بلقاء البيت عن لقاء صاحبه، إلى أن يرزقوا منتهى مناهم، ويسعدوا بالنظر إلى مولاهم، فليحضر في قلبه عظم السفر، وعظمة البيت، وجلالة رب البيت، ويخرج معظما لها، ناويا إن لم يصل وأدركته المنية في الطريق لقي الله وافدا إليه بمقتضى وعده.

الرابع – أن يخلي نفسه عن كل ما يشغل القلب، ويفرق الهم في الطريق، أو المقصود، من معاملة أو مثلها، حتى يكون الهم مجردا لله، والقلب مطمئنا منصرفا إلى ذكر الله وتعظيم شعائره، متذكرا عند كل حركة وسكون أمرا أخرويا يناسبه.

الخامس – أن يكون زاده حلالا، ويوسع فيه ويطيبه، ولا يغتم ببذله وإنفاقه، بل كان طيب النفس به، إذ أنفاق المال في طريق الحج نفقة في سبيل الله، والدرهم منه بسبعمائة درهم، قال رسول الله (ص): (من شرف الرجل أن يطيب زاده إذا خرج في سفر). وكان السجاد (ع) إذا سافر إلى الحج، يتزود من أطيب الزاد، من اللوز والسكر والسويق المحمض والمحلى. وقال الصادق (ع): (إذا سافرتم، فاتخذوا سفرة وتنوقوا فيها). وفي رواية: (إنه يكره ذلك في زيارة الحسين (ع).

نعم ينبغي أن يكون الإنفاق على الاقتصاد من دون تقتير ولا إسراف، والمراد بالإسراف التنعم بأطائب الأطعمة، والترفة بصرف أنواعها على ما هو عادة المترفين، وأما كثرة البذل على المستحقين، فلا إسراف فيه، إذ لا خير في السرف، ولا سرف في الخير. وينبغي – أيضا – أن يكون له طيب النفس فيما أصابه من خسران ومصيبة في مال وبدن، لأن ذلك من دلائل قبول حجه، فإن ذهاب المال في طريق الحج يعد الدرهم منه سبعمائة في سبيل الله، فالمصيبة في طريق الحج بمثابة الشدائد في طريق الجهاد، فله بكل

أذى أحتمله وخسران أصابه ثواب، فلا يضيع منه شئ عند الله.
السادس - أن يستحسن خلقه، ويطيب كلامه، ويكثر تواضعه، ويجتنب سوء الخلق والغلظة في الكلام، والرفث والفسوق والجدال، والرفث اسم جامع لكل فحش ولغو وخنى، والفسوق اسم جامع لكل خروج عن طاعة الله، والجدال هو المبالغة في الخصومة والمماراة بما يورث الضغائن، ويفرق الهم ويناقض حسن الخلق. قال رسول الله (ص): (الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة) فقيل: يا رسول الله، ما بر الحج؟ قال: (طيب الكلام وإطعام الطعام). فلا ينبغي أن يكون كثير الاعتراض على رفيقه وجماله، وعلى غيرهما من أصحابه، بل يلين جانبه، ويخفض جناحه للسائرين إلى بيت الله، ويلزم حسن الخلق، وليس حسن الخلق مجرد كف الأذى، بل احتمال الأذى، وقيل: سمي السفر سفرا، لأنه يسفر عن أخلاق الرجال.
السابع - أن يكون أشعث أغبر، غير متزين ولا مائل إلى أسباب التفاخر والتكاثر، فيكتب في المتكبرين ويخرج عن حزب الضعفاء والمساكين، ويمشي أن قدر خصوصا بين المشاعر. وفي الخبر: (ما عبد الله بشئ أفضل من المشي). وينبغي ألا يكون الباعث للمشي تقليل النفقة، بل التعب والرياضة في سبيل الله، ولو كان القصد تقليل النفقة مع اليسار، فالركوب أفضل. وكذا الركوب أفضل لمن ضعف بالمشي، وساء خلقه، وقصر في العمل، ففي الخبر: (تركبون أحب إلي، فإن ذلك أقوى على الدعاء والعبادة). وكان الحسين بن علي عليهما السلام يمشي وتساق معه المحامل والرحال. وإذا حضرت الراحلة ليركبها، فليشكر الله تعالى بقلبه على تسخيره له الدواب، للتحمل عنه الأذى، وتخف عنه المشقة. وينبغي أن يرفق بها، فلا يحملها ما لا تطيق.

فصل

الميقات

إذا خرج عن وطنه، ودخل إلى البادية، متوجها إلى الميقات، وشاهد العقبات، فليتذكر فيها ما بين الخروج من الدنيا بالموت إلى الميقات يوم القيامة، وما بينهما من الأهوال والمطالبات، وليتذكر من هول قطاع الطريق

هو منكر ونكير، ومن سباع البوادي وحياتها وعقاربها حيات القبر وأفاعيها وعقاربها وديدانها، ومن انفراده عن أهله وأقاربه وحشة القبر ووحدته وكربته، وليكن في هذه المخاوف في أعماله وأقواله متزودا لمخاوف القبر.

فصل

ما ينبغي في الميقات

إذا دخل الميقات، ولبس ثوبي الاحرام، فليتذكر عند لبسها لبس الكفن ولفه فيه، وأنه سيلقى الله ملفوفا في ثياب الكفن لا محالة، فكما لا يلقى بيت الله إلا بهيئة وزي يخالف عادته، فكذلك لا يلقى الله بعد الموت إلا في زي يخالف زي الدنيا وهذا الثوب قريب من ذلك الثوب، إذ ليس مخيطا، كما أن الكفن أيضا ليس مخيطا. وإذا أحرم وتلبى، فليعلم أن الاحرام والتلبية إجابة نداء الله، فليرج أن يكون مقبولا، وليخش أن يكون مردودا، فيقال: لا لبيك ولا سعديك! فليكن بين الخوف والرجاء مترددا، وعن حوله وقوته متبرأ، وعلى فضل الله وكرمه متكلا. فإن وقت التلبية هو بداية الأمر، وهو محل الخطر. وقد روي: (أن علي بن الحسين - عليهما السلام - لما أحرم، واستوت به راحلته، أصفر لونه وانتقص، ووقعت عليه الرعدة، ولم يستطع أن يلبي. فقيل له: لم لا تلبي؟ فقال: أخشى أن يقول ربي: لا لبيك ولا سعديك! فلما لبى غشي عليه وسقط من راحلته، فلم يزل يعتريه ذلك حتى قضى حجه) فليتذكر الملبي عند رفع الأصوات في الميقات خائفا راجيا، أنه إجابة لنداء الله تعالى: إذ قال تعالى:

(وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا) (٥٥).

ويتذكر من هذا النداء نداء الخلق بنفخ الصور، وحشرهم من القبور وازدحامهم في عرصات القيامة لنداء الله، فمنقسمين إلى مقربين ومبعدين، ومقبولين ومرددين في أول الأمر بين الخوف والرجاء، مثل تردد الحاج في الميقات، حيث لا يدرون أيتيسر لهم إتمام الحج وقبوله أم لا.

---

(٥٥) الحج، الآية: ٢٧.

فصل

ما ينبغي عند دخول مكة

ينبغي أن يتذكر عند دخوله مكة: إنه قد انتهى إلى حرم من دخله كان آمنا، وليرج عنده أن يأمن بدخوله من عقاب الله، وليضطرب قلبه من ألا يكون أهلا للقرب والقبول فيكون بدخول الحرم خائبا مستحقا لمقت، وليكن رجاؤه في جميع الأوقات غالبا، إذ شرف البيت عظيم، ورب البيت كريم، والرحمة واسعة، والفيوضات نازلة، وحق الزائر منظور، واللائذ المستجير غير مردود. وإذا وقع البصر على البيت، فليحضر في قلبه عظمته، ويقدر كأنه مشاهد لرب البيت لشدة تعظيمه، وليرج أن يرزقه لقاءه كما رزقه لقاء بيته، وليشكر الله على تبليغه إياه إلى بيته، وإلحاقه إياه بزمرة الوافدين إليه، ويتذكر عند ذلك إيصال الخلائق إلى جهة الجنة آمنين لدخولها كافة، ثم انقسامهم إلى مأذونين في الدخول ومصروفين عنها، انقسام الحاج إلى مقبولين ومردودين.

فصل

ما ينبغي عند الطواف

. وينبغي عند الطواف أن يمتلئ قلبه من التعظيم والمحبة والخوف والرجاء ويعلم أنه في الطواف متشبه بالملائكة المقربين الطائفين حول العرش، وليعلم أن المقصود طواف قلبه بذكر رب البيت، دون مجرد طواف جسمه بالبيت فليبتدأ الذكر به ويختم به، كما يبتدأ الطواف من البيت ويختم بالبيت فروح الطواف وحقيقته هو طواف القلب بحضرة الربوبية، والبيت مثال ظاهر في عالم الشهادة لتلك الحضرة التي لا تشاهد بالبصر، وهو عالم الغيب وعالم الملك والشهادة، مدرجة إلى عالم الغيب والملكوت لمن فتح له الباب وما ورد من البيت المعمور في السماوات بإزاء الكعبة، وأن طواف الملائكة بها كطواف الإنس بهذا البيت، ربما كان إشارة إلى ما ذكرناه من المماثلة، ولما قصرت رتبة الأكثرين عن مثل ذلك الطواف، أمروا بالتشبه بهم بقدر الإمكان، ووعدوا بأن من تشبه بقوم فهو منهم.

فصل ما ينبغي عند استلام الحجر

ينبغي أن يتذكر عند استلام الحجر الأسود، أنه بمنزلة يمين الله في أرضه، وفيه مواثيق العباد. قال رسول الله (ص): (استلموا الركن، فإنه يمين الله في خلقه، يصافح بها خلقه مصافحة العبد أو الدخيل، ويشهد لمن استلمه بالموافاة) ومراده (ص) بالركن: الحجر الأسود لأنه موضوع فيه، وإنما شبه باليمين لأنه واسطة بين الله وبين عباده في النيل والوصول والتحبب والرضا، كاليمين حين التصافح. وقال الصادق (ع) (إن الله تبارك وتعالى لما أخذ مواثيق العباد، أمر الحجر فالتقمها، فلذلك يقال: أمانتي أديتها، وميثاقي عاهدته، لتشهد لي بالموافاة). وقال (ع) (الركن اليماني باب من أبواب الجنة لم يغلقه الله منذ فتحه). وقال (ع) (الركن اليماني بابنا الذي يدخل منه الجنة، وفيه نهر من الجنة تلقى فيه أعمال العباد)، قيل: إنما شبه بباب الجنة لأن استلامه وسيلة إلى وصولها وبالنهر، لأنه تغسل به الذنوب ثم لتكن النية في الاستلام والالتصاق بالمستجار، بل المماسة لكل جزء من البيت، طلب القرب حبا وشوقا للبيت ولرب البيت، وتمسكا وتبركا بالمماسة ورجاء للتحصن عن النار في كل جزء لا في البيت، ولتكن نيته في التعلق بأستار البيت الالحاح في طلب المغفرة وسؤال الأمان، كالمقصر المتعلق بثياب من قصر في حقه، المتضرع إليه في عفوه عنه المظهر له أنه لا ملجأ منه إلا إليه، ولا مفزع إلا عفوه وكرمه، وإنه لا يفارق ذيله حتى يعفو عنه، ويعطيه الأمان في المستقبل.

فصل

السعي

السعي بين الصفا والمروة في فناء البيت يضاهي تردد العبد بفناء دار الملك جائيا وذاهبا مرة بعد أخرى، إظهار للخلوص في الخدمة، ورجاء للملاحظة بعين الرحمة، كالذي دخل على الملك وخرج، وهو لا يدري ما الذي يقضي به الملك في حقه من قبول أو رد، فلا يزال يتردد على فناء الدار مرة بعد

أخرى، ويرجو أن يرحمه في الثانية إن لم يرحمه في الأولى، وليتذكر عند تردده التردد بين الكفتين، ناظرا إلى الرجحان والنقصان، مرددا بين العذاب والغفران.

فصل

ما ينبغي عند الوقوف بعرفات

وأما الوقوف بعرفات، فليتذكر بما يرى من ازدحام الخلق، وارتفاع الأصوات، واختلاف اللغات، واتباع الفرق أئمتهم في التردد على المشاعر عرصات يوم القيامة وأهوالها، وانتشار الخلائق فيها حيارى، واجتماع الأمم مع الأنبياء والأئمة، واقتفاء كل أمة نبيهم، وطمعهم في شفاعته لهم وتحيرهم في ذلك الصعيد الواحد بين الرد والقبول. وإذا تذكر ذلك، فليتضرع إلى الله تعالى ويبتهل إليه، ليقبل حجه ويحشره في زمرة الفائزين المرحومين وينبغي أن يحقق رجاءه إذ اليوم شرف والموقف عظيم والنفوس من أقطار الأرض فيه مجتمعة، والقلوب إلى الله سبحانه منقطعة والهمم على الدعاء والسؤال متظاهرة، وبواطن العباد على التضرع والابتهال متعاونة، وأيديهم إلى حضرة الربوبية مرتفعة، وأبصارهم إلى باب فيضه شاخصة، وأعناقهم إلى عظيم لطفه وبره ممتدة، ولا يمكن أن يخلو الموقف عن الأخبار والصالحين وأرباب القلوب والمتقين، بل الظاهر حضور طبقات الأبدال وأوتاد الأرض فيه، فلا تستبعدن أن تصل الرحمة من ذي الجلال بواسطة القلوب العزيزة والنفوس القادسة الشريفة، إلى كافة الخليقة ولا تظنن أنه يخيب آمال الجميع، ويضيع سعيهم ولا يرحم غربتهم وانقطاعهم عن الأهل والأوطان فإن بحر الرحمة أوسع من أن يظن به في مثل هذه الحالة، ولذا ورد: أنه من أعظم الذنوب أن يحضر عرفات ويظن أن الله لم يغفر له.

فصل

المشعر

وإذا فاض من عرفات ودخل المشعر، فليتذكر عند دخوله فيه: إن الله سبحانه قد أذن له في الدخول حرمه بعد أن كان خارجا عنه، إذ المشعر من

جملة الحرم، وعرفات خارجة عنه، فليتفاءل من دخول الحرم بعد خروجه عنه، بأن الله سبحانه قربه إليه وكساه خلع القبول، وأجاره وآمنه من العذاب والعبد وجعله من أهل الجنة والقرب.

فصل

ما ينبغي عند الرمي والذبح

وإذ ورد منى، وتوجه إلى رمي الجمار، فليقصد به الانقياد والامتثال، إظهارا للرق والعبودية، وتشبيها بالخليل الجليل (ع)، حيث عرض له إبليس اللعين في هذا الموضع ليفسد حجه، فأمره الله تعالى أن يرميه بالحجارة طردا له وقطعا لأصله. وينبغي أن يقصد أنه يرمي الحصا إلى وجه الشيطان، ويقصم به ظهره، ويرغم به أنفه، إذ امتثال أمر الله تعالى تعظيما له يقصم ظهر اللعين ويرغم به أنفه. وإذا ذبح الهدي، فليستحضر أن الذبح إشارة إلى أنه بسبب الحج قد غلب وعلى الشيطان والنفس الأمارة وقتلهما، وبذلك استحق الرحمة والغفران، ولذا ورد أنه: يعتق بكل جزء من الهدي جزء منه النار. فليجتهد في التوبة والرجوع عما كان عليه قبل ذلك من الأعمال القبيحة، حتى يصير حاله أحسن من سابقه، ليصدق عليه إذلاله الشيطان والنفس الأمارة في الجملة، ولا يكون في عمله من الكاذبين. ولذلك ورد: أن علامة قبول الحج: أن يصير حاله بعد الحج: أحسن مما كان عليه قبله. وفي الخبر: أن علامة قبول الحج ترك ما كان عليه من المعاصي، وأن يستبدل بإخوانه البطالين إخوانا صالحين، وبمجالس اللهو والغفلة مجالس الذكر واليقظة.

تتميم

أسرار الحج

قد ورد عن مولانا الصادق (ع) خبر يتضمن عمدة أسرار الحج ودقائقه فلنذكره تيمنا بكلماته الشريفة:

قال (ع): (إذا أردت الحج، فجرد قلبك لله عز وجل، من قبل عزمك، من كل شغل شاغل وحجب كل حاجب، وفوض أمورك كلها إلى

خالقك، وتوكل عليه في جميع ما يظهر من حركاتك وسكناتك، وسلم لقضائه وحكمه وقدره، وودع الدنيا والراحة والخلق، وأخرج من حقوق يلزمك من جهة المخلوقين، ولا تعتمد على زادك وراحلتك وأصحابك وقوتك وشبابك ومالك، مخافة أن يصير ذلك عدوا ووبالا، فإن من ادعى رضا الله، واعتمد على شئ ما سواه، صيره عليه عدوا ووبالا، ليعلم أنه ليس له قوة ولا حيلة ولا لأحد إلا بعصمة الله تعالى وتوفيقه، واستعد استعداد من لا يرجو الرجوع، وأحسن الصحبة، وراع أوقات فرائض الله تعالى وسنن نبيه (ص)، وما يجب عليك من الأدب، والاحتمال، والصبر، والشكر، والشفقة، والسخاوة، وإيثار الزاد على دوام الأوقات، ثم أغسل بماء التوبة الخالصة ذنوبك، والبس كسوة الصدق والصفاء والخضوع والخشوع، وأحرم من كل شئ يمنعك عن ذكر الله عز وجل ويحجبك عن طاعته، ولب بمعنى إجابة صافية خالصة زاكية لله عز وجل في دعوتك له، متمسكا بالعروة الوثقى، وطف بقلبك مع الملائكة حول العرش كطوافك مع المسلمين بنفسك حول البيت. وهرول هرولة فرا من هواك، وتبرأ من جميع حولك وقوتك، واخرج من غفلتك وزلاتك بخروجك إلى منى، ولا تتمن ما لا يحل لك ولا تستحقه، واعترف بالخطأ بالعرفات، وجدد عهدك عند الله تعالى بوحدانيته، وتقرب إليه، واتقه بمزدلفة، واصعد بروحك إلى الملأ الأعلى بصعودك على الجبل، واذبح حنجرة الهوى والطمع عند الذبيحة، وارم الشهوات والخساسة والدناءة والأفعال الذميمة عند رمي الجمرات، وأحلق العيوب الظاهرة والباطنة بحلق شعرك، وأدخل في أمان الله وكنفه وستره وكلاءته من متابعة مرادك بدخول الحرم، وزر البيت متحققا لتعظيم صاحبه ومعرفته وجلاله، واستلم الحجر رضى بقسمته وخضوعا لعظمته، وودع ما سواه بطواف الوداع، وصف روحك وسرك للقاء الله تعالى يوم تلقاه بوقوفك على الصفا، وكن ذا مرة من الله بفناء أوصافك عند المروة، واستقم على شروط حجتك، ووفاء عهدك الذي عاهدت ربك، وأوجبت له إلى يوم القيامة، وأعلم بأن الله لم يفترض الحج، ولم يخصه من جميع الطاعات بالإضافة إلى نفسه بقوله تعالى:

(ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا) (٥٦).
ولا شرع نبيه (ص) سنة في خلال المناسك على ترتيب ما شرعه، إلا للاستعداد والإشارة إلى الموت والقبر والبعث والقيامة، وفضل بيان السبق من دخول الجنة أهلها ودخول النار أهلها، بمشاهدة مناسك الحج من أولها إلى آخرها، لأولي الألباب وأولي النهى) (٥٧).

خاتمة

زيارة المشاهد

في الإشارة إلى بعض الأمور الباطنة المتعلقة بزيارة المشاهد.

إعلم أن النفوس القوية القدسية، لا سيما نفوس الأنبياء والأئمة – عليهم السلام –، إذا نفضوا أبدانهم الشريفة، وتجردوا عنها، وصعدوا إلى عالم التجرد، وكانوا في غاية الإحاطة والاستيلاء على هذا العالم، فأمور هذا العالم عندهم ظاهرة منكشفة، ولهم القوة والتمكن على التأثير والتصرف في مواد هذا العالم، فكل من يحضر مقابرهم لزيارتهم يطلعون عليه، لا سيما ومقابرهم مشاهد أرواحهم المقدسة العلية، ومحال حضور أشباحهم البرزخية النورية، فإنهم هناك يشهدون.

(بل أحياء عند ربهم يرزقون) (٥٨).

وبما آتاهم الله من فضله فرحون. فلهم تمام العلم والاطلاع بزائري قبورهم، وحاضري مراقدهم، وما يصدر عنهم من السؤال والتوسل والاستشفاع والتضرع، فتهب عليهم نسمات ألطافهم، وتفيض عليهم من رشحات أنوارهم، ويشفعون إلى الله في قضاء حوائجهم، وإنجاح مقاصدهم، وغفران ذنوبهم، وكشف كروبهم. فهذا هو السر في تأكد استحباب زيارة النبي والأئمة – عليهم السلام – مع ما فيه من صلتهم وبرهم وإجابتهم، وإدخال السرور عليهم، وتجديد عهد ولايتهم. وإحياء أمرهم، وإعلاء كلمتهم، وتبكيت أعدائهم. وكل واحد من هذه الأمور مما لا يخفى عظيم أجره وجزيل ثوابه. وكيف لا تكون زيارتهم أقرب القربات، وأشرف الطاعات

---

(٥٧) صححنا الحديث على مصباح الشريعة): الباب ٢١.

(٥٨) آل عمران، الآية: ١٦٩.

مع أن زيادة المؤمن - من جهة كونه مؤمنا فحسب - عظيم الأجر جزيل الثواب، وقد ورد به الحث والتوكيد والترغيب الشديد من الشريعة الطاهرة، ولذلك كثر تردد الأحياء إلى قبور أمواتهم للزيارة، وتعارف ذلك بينهم، حتى صارت لهم سنة طبيعية، وأيضا قد ثبت وتقرر جلالة قدر المؤمن عند الله، وثواب صلته وبره وإدخال السرور عليه. وإذا كان الحال في المؤمن من حيث أنه مؤمن فما ظنك بمن عصمه الله من الخطأ، وطهره من الرجس، وبعثه الله إلى الخلائق أجمعين، وجعله حجة على العالمين، وارتضاه إماما للمؤمنين، وقدوة للمسلمين، ولأجله خلق السماوات والأرضين، وجعله صراطه وسبيله، وعينه ودليله، وبابه الذي يؤتى منه ونوره الذي يستضاء به، وأمينه على بلاده، وحبله المتصل بينه وبين عباده، من رسل وأنبياء وأئمة وأولياء.

ثم، الأخبار الواردة في فضيلة زيارة النبي والأئمة - عليهم السلام - مما لا تحصى كثرة. قال رسول الله (ص): (من زار قبري بعد موتي. كان كمن هاجر إلي في حياتي، فإن لم تستطيعوا فابعثوا إلي بالسلام، فإنه يبلغني) وقال (ص) لأمير المؤمنين (ع): (يا أبا الحسن، إن الله تعالى جعل قبرك وقبر ولدك بقاعا من بقاع الجنة، وعرصة من عرصاتها، وإن الله جعل قلوب نجباء من خلقه وصفوة من عباده، تحن إليكم، وتحتمل المذلة والأذى فيكم، فيعمرون قبوركم، ويكثرون زيارتها، تقربا منهم إلى الله، ومودة منهم لرسوله، أولئك يا علي المخصوصون بشفاعتي، والواردون حوضي، وهم زواري وجيراني غدا في الجنة. يا علي، من عمر قبورهم وتعاهدها، فكأنما أعان سليمان بن داود على بناء بيت المقدس، ومن زار قبوركم عدل ذلك سبعين حجة بعد حجة الإسلام، وخرج من ذنوبه حتى يرجع من زيارتكم كيوم ولدته أمه. فأبشر، وبشر، أولياءك ومحبيك من النعيم وقرة العين، بما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ولكن حثالة من الناس يعيرون زوار قبوركم، كما تعير الزانية بزناها، أولئك شرار أمتي، لا تنالهم شفاعتي، ولا يردون

حوضي) (٥٩). وقال الصادق (ع): (لو أن أحدكم حج دهره، ثم لم يزر الحسين بن علي – عليهما السلام –، لكان تاركا حقا من حقوق رسول الله (ص). لأن حق الحسين (ع) فريضة من الله واجبة على كل مسلم). وقال الرضا (ع): (إن لكل إمام عهدا في عنق أوليائه وشيعته، وإن من تمام الوفاء بالعهد وحسن الأداء زيارة قبورهم، فمن زارهم رغبة في زيارتهم، وتصديقا بما رغبوا فيه، كان أئمته شفعاءه يوم القيامة).

والأخبار في فضل زيارة النبي والأئمة المعصومين، لا سيما زيارة سيد الشهداء وأبي الحسن الرضا – عليهم أفضل التحية والثناء –، وفضل زيارتهما على الحج والعمرة والجهاد، أكثر من أن تحصى وهي مذكورة في كتب المزار لأصحابنا فلا حاجة إلى إيرادها هنا.

فصل

ما ينبغي للزائر عند دخول المدينة المنورة

وإذا عرفت فضل زيارتهم وسرها، وعظم قدرهم وجلالة شأنهم، فينبغي أن تكثر التواضع والتخضع والانكسار عن الدخول في بلادهم، ومراقدهم المنورة، ومشاهدهم المكرمة، وتستحضر في قلبك عظمتهم وجلالهم، وتعرف عظيم حقهم، وغاية جدهم وسعيهم في إرشاد الناس وإعلاء كلمة الله.

فإذا قربت المدينة المنورة، ووقع بصرك على حيطانها، تذكر أنها البلدة التي اختارها الله لنبيه (ص) وجعل إليها هجرته، وأنها البلدة التي فيها شرع فرائض ربه وسننه، وجاهد عدوه، وأظهر بها دينه، ولم يزل قاطنا بها إلى أن توفاه الله، وجعل تربته فيها.

ثم مثل في نفسك أقدام رسول الله (ص) عند تردداتك فيها، وتذكر أنه ما من موضع قدم تطأه إلا وهو موضع قدمه العزيز، فلا تضع قدمك عليه إلا على سكينة ووجل، وكن متذكرا لمشيه وتخطيه في سككها، وتصور سكينته ووقاره، وخشوعه وتواضعه لعظمة ربه، وما استودع الله في قلبه من عظيم معرفته ورفعة ذكره، حتى قرنه بذكر نفسه، وأنزل عليه كلامه العزيز، وأهبط عليه روح الأمين وسائر ملائكته المقربين، وأحبط

---

(٥٩) صححنا الحديث على مستدرك الوسائل: ٢ / ١٩٥ – ١٩٦، كتاب الحج، ١٠، أبواب المزار وما يناسبه.

عمل من هتك حرمته، ولو برفع صوته فوق صوته. ثم تذكر ما من الله به على الذين أدركوا صحبته، وسعدوا بمشاهدته واستماع كلامه، وأعظم تأسفك على ما فاتك من صحبته، وتضرع إلى الله ألا تفوتك صحبته في الآخرة، ولتعظم رجائك في ذلك، بعد أن رزقك الله الإيمان، وأشخصك من أرضك لأجل زيارته، محبة له، وتشوقا إليه.

ثم إذا دخلت مسجده، فتذكر أن أول موضع أقيمت فيه فرائض الله تلك العرصة، وأنها تضمنت أفضل خلق الله حيا وميتا، فارج الله غاية الرجاء أن يرحمك بدخولك إياه خاشعا معظما، وما أجدر ذلك المكان بأن يستدعي الخشوع من قلب كل مؤمن.

ثم إذا أتيته للزيارة، فينبغي أن تقف بين يديه خاضعا خاشعا خائفا، وتزوره ميتا كما تزوره حيا، ولا تقرب من قبره إلا كما تقرب من شخصه الكريم لو كان حيا، إذ لا فرق بين ميته وحيه، ولو وجدت التفرقة في قلبك لما كنت مؤمنا، ولتعلم أنه عالم بحضورك وقيامك وزيارتك، وإنه يبلغه سلامك وصلواتك. فمثل صورته الكريمة في خيالك، جالسا على سرير العظمة بحذائك، وأحضر عظيم رتبته في قلبك، وقد ورد أن الله تعالى وكل بقبره ملكا يبلغه سلام من سلم عليه من أمته. وهذا في حق من لم يحضر قبره، فكيف بمن فارق الأهل والوطن، وقطع البوادي شوقا إلى لقائه، واكتفى وقنع بمشاهدته مشهده المنور، إذ فاتته مشاهدة طلعته البهية، وغرته الكريمة. وقد قال (ص)،: (من صلى علي مرة، صليت عليه عشرا). فهذا جزاؤه عليه في الصلاة عليه بلسانه، فكيف بالحضور لزيارته ببدنه؟

وإذا فرغت من زيارته،، فأت المنبر وامسحه بيدك، وخذ برمانتيه، وامسح بهما وجهك وعينيك، وتضرع إلى الله، وابتهل إليه، واسأل حاجتك. وتوهم صعود النبي (ص) المنبر، ومثل في قلبك طلعته البهية، قائما على المنبر، وقد أحدق به المسلمون من المهاجرين والأنصار، وهو يحمد الله بأفصح الكلمات واللغات، ويحث الناس على طاعة الله. واسأل الله ألا يفرق في القيامة بينه وبينك، ويجعلك في جواره، ويعطيك منزلا

في قرب داره.
فصل
ما ينبغي للزائر عند دخول النجف وكربلاء
وإذا دخلت أرض النجف لزيارة أمير المؤمنين وسيد الوصيين (ع)، تذكر أنها وادي السلام، ومجمع أرواح المؤمنين، وقد شرفها الله وجعلها أشرف البقاع، وجنة المؤمنين. فما من مؤمن خالص إلا وبعد الموت يأتي روحه إليها، ويتنعم فيها مع سائر المؤمنين، إلى أن يدخلوا دار كرامته العظمى في القيامة الكبرى. وقد أكد شرافتها وعظم قدرتها، بأن جعلها مدفن وصي رسوله، بعد أن كانت مدفن آدم أبي البشر، ونوح شيخ المرسلين – عليهما السلام –. فأسأل الله أن يأتي بروحك إليها، ويدخلك في زمرة المؤمنين، ويجعلها محل دفنك، لتنالك شفاعة مولاك (ع)، ولا يحشرك مع الكفار والعصاة في وادي برهوت.
وإذا أتيت لزيارته، تذكر عظيم مرتبته عند الله وعند رسوله، وراع الآداب التي ذكرناها في زيارة رسول الله (ص).
وإذا أردت أرض كربلاء، لزيارة سيد الشهداء (ع)، فتذكر أن هذه الأرض هي التي قتل فيها سبط الرسول وأولاده وأقاربه وأجناده، وأسرت فيها أهاليه وأهل بيته، فجدد الحزن على قلبك، وأدخلها أشعث أغبر، منكسر الحال، محزون القلب، كئيبا حزينا باكيا، وأحضر في قلبك حرمة هذه الأرض وشرافتها، فإنها الأرض التي في تربتها شفاء، ولا يرد فيها الدعاء، وقد يجعلها الله يوم القيامة أرفع بقاع الجنة، فتردد فيها على سكينة ووجل.
ثم إذا دخلت الحائر للزيارة، ووقع بصرك على ضريحه المنور، ثم على
ضريح أصحابه المستشهدين معه، المجتمعين في موضع واحد في جواره، فمثل في قلبك أشخاصهم، وتذكر وقائعهم وما جرى عليهم من البلايا والمحن واحضر في نفسك أبا عبد الله الحسين (ع) واقفا في عرصة كربلاء، ويأتي أصحابه واحدا واحدا يستأذن منهم للجهاد، قائلا: السلام عليك يا أبا عبد الله وهو يأذن له، ويلقي نفسه في الميدان على الجم الغفير، فيقتل في سبيله،

وإذا أيس من حياته، ينادي بأعلى صوته: أدركني يا أبا عبد الله! هو (ع) يسرع إليه كالصقر المنقض، ويأخذ جثته من الميدان،، ويلحقه بسائر إخوانه الشهداء. فمثل في نفسك أمثال ذلك، وجدد عليهم الحزن والبكاء، وتمن كونك معهم في تلك العرصة، وقل: يا ليتني كنت معهم فأفوز فوزا عظيما!

ثم راع الآداب الباطنة لزيارته (ع) وقس على ذلك زيارة كل واحد من الأئمة – عليهم السلام –، فإنه ينبغي لك أن تستحضر، عند حضورك كل واحد منهم، وجلال شأنه، وعظمة قدرته، وعظيم حقه، وتتذكر ما يناسب حاله، وما جرى عليه، ثم تستشعر في قلبك ما يترتب عليه، من التعظيم، والاجلال، والخوف *، والحزن، والفرح، وأمثال ذلك.

هذا آخر كتاب (جامع السعادات)، والحمد لله على إتمامه، وأسأل الله أن يجعلنا من العاملين به، وينفع به جميع عباده السالكين إليه. وقد وقع الفراغ من جمعه وتأليفه، في سلخ شهر ذي القعدة الحرام سنة ستة وتسعين ومائة بعد الألف من الهجرة النبوية، على مهاجرها ألف ألف سلام وتحية.

هذا آخر ما كتبه المصنف (قدس سره)